سلسلة كتب

السيد الشريف الشيخ عبد القادر الجيلاني

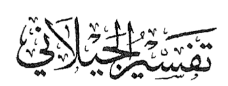
تفسير الجيلاني

السيد الشريف الشيخ محي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلاني
الحسني الحسيني
« قدس سره »

بحث وتحقيق
السيد الشريف الدكتور محمد فاضل جيلاني الحسني
الحسيني التيلاني الجمزرقي

الجزء الخامس

مركز الجيلاني للبحوث العلمية
اسطنبول


تفسير الجيلاني

المركز الرئيسي استنبول
مركز الجيلاني للبحوث العلمية والطبع والنشر
ت: ٠٠٩٠٢١٢٥١١٧٣٤٠
جوال: ٠٠٩٠٥٣٣٤٨٦٦٦١٠
E-mail: algeylani@msn.com

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

يطلب من:

سوريا
هاتف : ٨٨٣٥١٥٥
جوال:٠٩٩٩٨٩٩٧٤٦
دمشق ـ سوريا
enfo@windowslive.com

الإمارات العربية المتحدة
دار الفقيه
أبو ظبي ـ الأمارات
هاتف : ٢٦٦٧٨٩٢٠ ٩٧١+
فاكس : ٢٦٦٧٨٩٢١ ٩٧١+
E mail: alfaqih@emirates.net.ae

لبنان
شركة التمام
بيروت ـ لبنان
هاتف :٧٠٧٠٣٩ ٩٦١+

مصر
دار الركن والمقام
مصر ـ القاهرة
هاتف : ٠٨١٤٤١٧٠ ٢٠١+
E mail: alrokn-walmaqam.com

سلسلة كتب

السيّد الشّريف الشّيخ

محي الدّين أبي محمّد عبد القادر الجيلاني الحسني الحُسيني

« قدّس سرّه »



تفسير الجيلاني

لمولانا ذي النور الرباني والهيكل الصمداني فذلكة طروس الدفتر النوراني

إمام العارفين .. تاج الدين .. القطب الكامل

السيّد عبد القادر الجيلاني (قدّس سرّه)

بحث وتحقيق

السّيّد الشّريف الدّكتور مُحمّد فاضل جيلاني الحسني

التّيلاني الجمزرقي

الجزء الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الصافات

لا يخفى على أرباب الصفوة من المنجذبين نحو الحق، المنكشفين بانبساط وحدته الذاتية حسب شؤونه وتطوراته المنتشئة من أسمائه وصفاته الذاتية على صفائح المظاهر والمجالي الغير المحصورة، والعكوس والظلال الغير المتناهية: أن الوحدة الحقيقة الحقية لما أرادت أن تتجلى بالتجلي الحبي لإظهار الكمالات المندمجة في ذاتها، المقتضية للظهور والجلاء، تنزلت من مرتبة الأزلية الأحدية والعمى، فظهرت المراتب والكثرات.

فأول كثرة ظهرت منها هي الأسماء الحسنى والصفات العليا غير المنحصرة، الموسومة عند أرباب الأذواق بالملائكة المهيمين الوالهين بمطالعة وجهه الكريم، الصافين حول عرشه العظيم.

ثم ظهرت من تلك الأسماء والصفات كثرة الآثار والأظلال المنعكسة.

ثم تترتب على تلك العكوس والأظلال من اللوازم والعوارض الفانية للحصر.

وبعدما بلغت الكثرة نهايتها، تكونت الطبائع والهيولى، والجواهر والأعراض، وحدثت الفتن والأمراض، واختلفت المذاهب والأغراض، وتشعبت الطرق والأحزاب، وتكثرت الملل والنحل، وتزاحمت الأفكار

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١﴾ ....

والآراء، وتعارضت الأماني والأهواء.

فحينئذ اقتضت الحكمة الإلهية وضع الحدود والقوانين، وتحميل التكاليف الشاقة على العباد، وتشريع الطاعات عليهم، وإرسال الرسل والأنبياء المؤيدين من عنده سبحانه بالكتب المنزلة الفارقة بين الحق والباطل، من السبل والأحكام المبينة للأمم براهينَ التوحيد، وحجج اليقين، ليتميز المحقُّ من المبطل، والموحدُ من الملحد، والمؤمن العارف من الكافر الجاهل.

ولهذا المطلب العلي والمقصد السني الذي هو التوحيد، أقسم سبحانه بأعظم مخلوقاته وأقربها إلى الذات، وهم الملائكة الصافون حول الذات الأحدية، المهيمون عند سرادقات العز والجلال، المستغرقون بمطالعة الجمال، فقال تبارك وتعالى مفتتحاً بعد ما تيمن باسمه العلي الأعلى:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الذي تجلى على ملائكته الحافين بذاته، الصافين حول عرشه العظيم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عليهم بعموم فيضه وشمول رحمته ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لهم يأمرهم بعكوف بابه وبقربهم عند خبابه.

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ أي وحق الأسماء والصفات الإلهية الصافين حول الذات الأحدية، المنتظرين لشؤونه وتجلياته، إذ هو سبحانه في كل آنٍ في شأن، ولا يشغله شأنٌ عن شأنٍ ﴿صَفّٗا ١﴾ لا يتحولون منه أصلاً، بل هائمون دائمون والِهون مستغرقون، منتظرون بماذا يأمرهم ربهم من التدابير المخزونة في حضرة علمه ولوح قضائه، ومتى تعلقت إرادته بمقدورٍ من مقدوراته ومراداته

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ....

المأمورة إياهم وحينئذ زاجرات.

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ المدبراتِ على الفور، لما يأمرهم الحق من التدبيرات المتعلقة بنظام الكائنات غيباً وشهادةً ﴿زَجۡرٗا ۝٢﴾ أي تدبيراً تاماً كاملاً، حسب المأمور والمقدور بلا فتور وقصور.

وبعدما صدر أمره سبحانه، وجرى قضاؤه بقوله ﴿كُن﴾ فهم حينئذ التابعون لامتثال المأمور المقضي، بلا فترة وتسويف.

﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾ التابعات لإنفاذ قضائه سبحانه القارئات المبلِّغات ﴿ذِكۡرًا ۝٣﴾ منه ووحياً من لدنه سبحانه لمن أمرهم الحق بتبليغه إياهم، وهم الأنبياء والرسل المؤيدون بالوحي والإلهام، المصطفون من بين البرايا بالخلافة والنيابة عن الله، المتحملون لأعباء النبوة والرسالة، يعني: وبحق هؤلاء الملائكة الذين هم من سَدنة حضرة اللاهوت، وخَدَمَةِ عتبة جناب الرحموت، المنتظرون لما صدر عنه سبحانه من الأمور المتعلقة بالملك والملكوت.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ﴾ الذي أظهركم وأبدعكم من كتم العدم، ولم تكونوا أيها العكوس المستهلكة في شمس الذات شيئاً مذكوراً، لا حساً ولا عقلاً ولا وهماً ﴿لَوَٰحِدٞ ۝٤﴾ أحدٌ صمدٌ فردٌ وترٌ، ليس له شريكٌ في الوجود، ولا نظيرٌ في الظهور والشهود، فهو وحده بوحدة ذاته وكمال أسمائه وصفاته:

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ العلى ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ السفلى ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ من الكوائن

وَرَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ....

والفواسد الممتزجة منهما إلى ما لا يتناهى، ولا مربي للمذكورات سواه، ولا مُظهِر للكائنات إلا هو ﴿وَ﴾ هو سبحانه ﴿رَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ ﴿٥﴾﴾ أي الاستعدادات القابلة لشروق شمس ذاته المتأثرة من أشعة أسمائه وصفاته.

وبعدما ثبت استقلالنا وتوحيدنا في تصرفات ملكنا وملكوتنا ولاهوتنا وجبروتنا.

﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا وكمال قدرتنا ﴿زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي القربى لكم أيها المكلفون، حيث ترون ما فيها ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾ أي بزينةٍ هي الكواكب، أو البدل على كلا القراءتين بتنوينٍ وبلا تنوينٍ، تزييناً تبتهجون بها، حين تنظرون إليها وتتأثرون سعداً ونحساً، إقبالاً وإدباراً .

﴿وَ﴾ جعلناها ﴿حِفْظًا﴾ أي بعدما زينا السماء بها صيرناها صائنةً حفظاً لها ﴿مِّن﴾ وصول ﴿كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾﴾ خارج عن إطاعة الله، مائلٍ عن توحيده إياها.

كي ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ أي مردة الشياطين ولا يصغون ﴿إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي إلى الأذكار والاستغفار وسائر الأسرار الجارية على ألسن الملائكة، إذ هم أي الشياطين والجن أشبه المخلوقات إلى الملائكة.

وإنما منعهم سبحانه عن الإصغاء إليهم ؛ لأنهم من كمال عداوتهم مع بني آدم يعكسون عليهم ما يسمعون، فيضلونهم به عن الصراط المستقيم، أو

وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ....

يدَّعون الألوهية والربوبية لأنفسهم، ويحتجون بما يسمعون من الملائكة ترويجاً وتغريراً، ويلبِّسون الأمر على ضعفة الأنام، فيحرِّفونهم عن جادة التوحيد والإسلام ﴿وَ﴾ لذلك ﴿يُقْذَفُونَ﴾ ويُطردون أولئك الماردون ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾﴾ من جوانب السموات وآفاقها.

﴿دُحُورًا﴾ طرداً بليغاً وزجراً شديداً ﴿وَ﴾ مع ذلك الطرد والزجر ﴿لَهُمْ﴾ أي للشياطين ﴿عَذَابٌ﴾ في النشأة الأخرى ﴿وَاصِبٌ ﴿٩﴾﴾ مؤبَّدٌ دائمٌ، لا ينفك عنهم في حين من الأحيان.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ أي يُطرد الماردون، ولا يسمعون إلا من اختطف واختلس من الملائكة الخطفة على سبيل المسارقة ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ أي تَبِعَه ولَحِقه على الفور حين اختطافه واختلاسه ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ أي كوكبٌ مضيءٌ كجذوة النار، يثقب الجني فيقتله، أو يحرقه، أو يخبله.

والقول بأن الشهب من الأمور الكائنة في الجو من الكواكب قولٌ تخميني ابتدعه الفلاسفة من تلقاء نفوسهم، لا يعضده عقلٌ، ولا يوافقه نقلٌ.

وأما قولهم في ضبط الحركات الفلكية والأجرام العلوية وتقويم الكواكب والبروج وتقدير الأشكال والصور إلى غير ذلك من الأمور المؤدية إلى الحس، ربما يؤدي إلى اليقين، أما في طبائع المكونات وحقائق الموجودات، وكيفية تراكيب الماهيات وغير ذلك من الأمور الحقيقية التي لا مجال للحس

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾ ....

فيها ولا للعقل، ما هو إلا تخمينٌ زائلٌ، وزورٌ باطلٌ، إذ لا يعرفُ كنهَ الأشياء إلا خالقها ومظهرها، لا يسع لأحدٍ أن يتفوه عنها وعن كيفيتها وكمياتها وكمية التئامها على ما هي عليها والتركيبات الحقيقية.

وهم أي مردة الشياطين بمجرد تلك الخطفة المختلسة يُضلون كثيراً من الناس إلى حيث يستعبدونهم، ويأمرونهم بالإطاعة والانقياد إلى أنفسهم والعبادة إياهم، باتخاذهم أولياء آلهةً من دوننا جهلاً وعناداً.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أي المشركين المتخذين الشياطين أولياء آلهةً من دوننا، واستخبرهم يا أكمل الرسل على سبب التبكيت والتعبير تنصيصاً على غيهم، وتصريحاً بكفرهم واستحقاقهم العذاب المؤبد والنكال المخلد ﴿أَهُمْ﴾ أي آلهتهم وشياطينهم ﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي إيجاداً وتأثيراً ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ وأظهرنا بمقتضى قدرتنا الكاملة من المخلوقات المذكورة التي هي الملائكة الصافّات والسماوات المطبقات والكواكب المتفاوتة في التأثيرات فيها، والأرض وما عليها من المركبات والمواليد وبينهما من الممتزجات، وغير ذلك من الاستعدادات القابلة لشروق شمس الذات، سيما ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم﴾ وقدرنا وجود هؤلاء المتخذين لغيرنا أربابا أولاً ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾ لاصقٍ منتنٍ مهينٍ لازم النتن والهوان، ثم ربيناهم بأنواع التربية إلى أن سويناهم رجالاً عقلاءَ ؛ ليعترفوا بتوحيدنا وبألوهيتنا وربوبيتنا، ويواظبوا على شكر نعمتنا، فعكسوا الأمر، واتخذوا أولياء من دوننا، واعتقدوهم آلهة سوانا، وبالجملة

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ ....

انقلبوا خاسرين.

أو المعنى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ [٣٧-الصافات:١١] وسلهم أي المشركين ﴿أَهُمْ ﴾ [٣٧-الصافات:١١] في أنفسهم ﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾ [٣٧-الصافات:١١] وأعظم مخلوقاً ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾[٣٧-الصافات:١١] من المخلوقات المذكورة سابقاً، مع أنهم لم يتخذوا إلهاً سوانا، ولم يعبدوا غيرنا، وهؤلاء الحمقى كيف اتخذوا من دوننا أولياء، ويسمونهم آلهة شفعاء، مع أنهم أضعف بالنسة إليهم، مخلوقون من أدون الأشياء وأرذلها ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم ﴾ [٣٧-الصافات:١١] وقدرنا وجودهم ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ [٣٧-الصافات:١١] مسترذل منتن تستكرهه الطبائع.

ومهما سمعت يا أكمل الرسل قولهم وإنكارهم للتوحيد وإشراكهم بالله أدون الأشياء مع ضعف خلقهم، وتأملتَ حالهم استبعدت منهم هذا:

﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ أنتَ أو ﴿عَجِبْتُ﴾ أنا على القراءتين منهم أمثال هذا، مع أنهم مجبولون على فطرة الدراية والشعور، مرهون لهم العقل المفاض المشير لهم إلى التوحيد وتصديق البعث والحشر وجميع الأمور الأخروية ﴿وَ﴾ هم ﴿يَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ بك متى سمعوا منك الأخبار والآيات الواردة في أمر البعث والحشر.

بل﴿وَ﴾ هم من شدة قسوتهم وعمههم في سكرتهم ﴿ إِذَا ذُكِّرُوا﴾ ووعظوا بالإنذارات والتخويفات الشديدة المتعلقة للآخرة ﴿ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي لا يتأثرون ولا يتعظون .

وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ....

﴿وَ﴾ لا يقتصرون على عدم القبول والتذكر بل ﴿ إِذَا رَأَوْا﴾ أي علموا وسمعوا ﴿ءَايَةً﴾ معجزةً نازلةٍ في شأن البعث والنشور ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ بها، ويستهزئون بك يا أكمل الرسل عناداً واستكباراً.

﴿ وَقَالُوٓا﴾ من شدة بغضهم وضغينتهم معك يا أكمل الرسل ومع كتابك ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي ما هذا الذي جاء مفترياً إلى ربه ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ أي سحريةُ ما جاء به ظاهرٌ، وهو في نفسه ساحرٌ ماهرٌ، لكن مضمون كلامه زورٌ باطلٌ.

﴿أَ﴾ نُبعَثُ ونَحْيَى ﴿ءِذَا مِتْنَا﴾ وانفصل عنا روحنا، سيما ﴿ وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ باليةً رميمةً ﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾﴾ بعدما صرنا كذلك.

﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ الأقدمون يبعثون ويحشرون، هيهات هيهات لما توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴿ قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعد ما بالغوا في إنكار البعث واستحالة نشأة النشور: ﴿ نَعَمْ﴾ تُبعثون أيها الضالون المنكرون، وإلى ربكم تحشرون، وعن أعمالكم تُسألون، وعليها تُحاسبون، وإلى جهنم تساقون ﴿ وَأَنتُمْ﴾ حينئذ ﴿ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ صاغرون ذليلون مهانون.

وكيف تنكرون قدرتنا على البعث وقيام الساعة ؟!

فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ ....

﴿ فَإِنَّمَا هِىَ ﴾ أي الساعة والبعث بعدما تعلقت مشيئتنا ﴿زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي صيحةٌ واحدةٌ منشرةٌ لهم عن قبورهم، زاجرةٌ لهم نحو المحشر زجر الراعي الصائح للغنم.

وبعدما سمع الأموات الصيحة، أي النفخة الثانية في الصور ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ قيامٌ ﴿يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ حيارى سكارى تائهين والهين.

﴿ وَقَالُوا۟﴾ بعدما قاموا كذلك، متحسرين متمنين الهلاك والويل: ﴿ يَٰوَيْلَنَا﴾ وهلاكنا أدركنا ﴿هَٰذَا﴾ اليوم ﴿ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾ والجزاء الذي وَعدنا الله به على ألسنة رسله وكتبه في النشأة الأولى، فنحن قد كنا ننكره ونكذبه ونستهزئ بمن جاء به وأخبر عنه عناداً ومكابرةً، فالآن نُبتلى به، يا حسرتنا على ما فرطنا في ترك الإيمان به وتصديق مُخبِره.

وبعدما قالوا ما قالوا، قيل لهم من قبل الحق على سبيل التقريع والتعيير إظهاراً لكمال القدرة:

﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ والقضاء بالعدل ﴿ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ أيها الضالون المنكرون، المصرون على التعنت والعناد.

ثم أمر سبحانه للملائكة المترصدين لأمره القائمين لحكمه:

﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟﴾ وسوقوا ﴿ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالخروج عن مقتضى الحدود الإلهية واجمعوهم للحشر ﴿ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي أشباههم وأمثالهم وقرناءهم الذين اقتدوا

مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ ....

واقتفوا أثرهم معهم ﴿وَ﴾ أحضروا لهم أيضاً معهم ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ظلماً وعدواناً أي معبوداتهم الباطلة تتميماً لإلزامهم ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾ أي قدموهم ودلوهم جميعا ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾.

وبالجملة سوقوهم بأجمعهم عابداً ومعبوداً إلى نيران الطرد وجحيم الخذلان.

﴿وَقِفُوهُمْ﴾ واحبسوهم في الموقف ساعة ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ عن أعمالهم التي جاؤوا بها في نشأتهم الأولى محاسَبون عليها.

وبعدما سئلوا وحوسبوا جوزوا بمقتضاها، ثم سوقوا إلى النار.

والسر في السؤال والله أعلم: تسجيل العذاب عليهم ؛ لئلا يُنسب سبحانه إلى الظلم والعدوان ظاهراً، ولئلا يجادلوا معه سبحانه، إذ كان الإنسان أكثر شيءٍ جدلاً.

ثم قيل لهم من قبل الحق توبيخاً وتقريعاً:

﴿مَا لَكُمْ﴾ أي ما شأنكم وأي شي عرض عليكم أيها الضالون المضلون ﴿لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي لا ينصر بعضكم بعضاً، أي معبوداتكم لا تنصر بتخليص عابديهم مع أنكم اتخذتموهم أولياء، واعتقدتموهم آلهة شفعاء، فَلِمَ لا ينصرونكم ولا ينقذونكم من عذابنا، وَلِمَ لا تمكرون ولا تحيلون بأنواع الحيل والخداع، وَلِمَ لا تعتذرون بالأعذار الكاذبة ؛ لإنقاذكم من عذابنا كما

بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ

تزعمون في النشأة الأولى، وهم حينئذٍ من شدة الهول هائمون حائرون.

﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ منقادون خاضعون، ومن خوف اشتداد العذاب عليهم خائفون خاشعون.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ حين يُساقون نحو النار ﴿يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي يتخاصمون ويتلاومون.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي الضعفاء السفلة منهم لرؤسائهم: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها الضالون المضلون كنتم من شدة شغفكم وحرصكم على تضليلنا، ومنعنا عن تصديق الرسل وقبول دعوتهم ﴿كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾ أي عن أقوى جوانبنا، أوعن أقوى الطرق الموصلة إلى مطلوبكم منا، وهو المال وحطام الدنيا، فتعطوننا منها، وتحرِّفوننا عن سبل السلامة وطرق الاستقامة.

﴿قَالُواْ﴾ أي الرؤساء في جواب الضعفاء: ما قولكم هذا إلا افتراءٌ منكم إيانا ومراء، كيف نؤثر نحن في قلوبكم بحيلنا ومكرنا، أو بعطائنا المال إليكم والإحسان عليكم لو كنتم مؤمنين، والإيمان من أفعال القلوب، ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ﴾ في أنفسكم ﴿مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾ مصدقين، فتميلون على ما كنا عليه طبعاً وهوىً، فتفترون اليوم علينا مراءً.

﴿وَ﴾ إن ادعيتم إكراهنا إياكم حينئذٍ، فقد كذبتم إذ ﴿مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ وغلبةٍ إلى حد تخافون عن قهرنا وإهلاكنا، لو لم تكفروا

بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾

﴿بَلْ كُنتُمْ﴾ في أنفسكم كما كنّا ﴿قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾ طغيتم وبغيتم على الله، كما طغينا وبغينا، وبالجملة إنا وإياكم لفي ضلال مبين.

﴿فَحَقَّ﴾ أي لزم وثبت وجرى ﴿عَلَيْنَا﴾ وعليكم ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ وحكمه المبرم المثبت في لوح قضائه وحضرة علمه بأنا وأنتم من الأشقياء المردودين، المستحقين لأنواع العذاب والنكال ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ بأجمعنا اليوم ما كَتَبَ لنا ربُّنا من العذاب، وبالجملة سلمنا أنا أضللناكم عن الهدى بمكرنا وخداعنا.

﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ عن التوحيد والإيمان ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ أيضاً ﴿غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أمثالكم، فلحق بنا ما لحق بكم، إلى متى تعييروننا وتخاصموننا؟!.

وبعد ما تطاول وتمادى جدالهم وتخاصمهم، قيل لهم من قبل الحق:

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ بأجمعهم ضالاً ومضلاً، تابعاً ومتبوعاً ﴿يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ﴾ المؤبَّد المخلَّد ﴿مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ كما كانوا مشتركين في أسبابه وموجباته في النشأة الأولى.

﴿إِنَّا﴾ من كمال قهرنا وجلالنا ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الفعل الهائل الذي هو سوقهم جميعا إلى النار ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾ المتخذين لنا شركاء من دوننا، الخارجين عن ربقة عبوديتنا بالالتفات والتوجه إلى غيرنا.

وكيف لا نفعل به مع المجرمين المشركين كذلك ؟!

إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ ....

﴿إِنَّهُمْ﴾ من غاية عتوهم وعنادهم ﴿كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ تذكيراً وتنبيهاً ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ في الوجود يعتد به ويرجع إليه في الخطوب ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد الفرد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤا أحد، هم حينئذٍ ﴿يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ويعرضون عن كلمة التوحيد ومقتضاها، ويمتنعون عنها وعن معناها.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ حينئذٍ من غاية تعنتهم وإصراراهم على الشرك على سبيل الإنكار والاستبعاد: ﴿أَئِنَّا﴾ مع كمال عقلنا ورشدنا ﴿لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا﴾ الذين كنا نحن وآباؤنا وأسلافنا لها عابدين عاكفين ﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾ يتكلم بكلام المجانين، وقد جاء بأباطيلَ من تلقاء نفسه، مشتملةً على أساطير الأولين، يعنون الرسول ﷺ.

ثم لما تمادوا في طعنه وطغيانه ﷺ، وبالغوا في قدح القرآن وإنكاره، رد الله عليهم على أبلغ وجهٍ، وأوضح بيانٍ، فقال سبحانه إضراباً عن قولهم:

﴿بَلْ جَآءَ﴾ محمد ﷺ ملتبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ داعياً على الحق إلى الحق ﴿وَ﴾ علامةُ حقيته وصدقه أنه ﴿صَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ المنزلين من عندنا على الحق اليقين.

﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها الضالون المكذبون به ﷺ وبكتابنا المنزل[1] عليه من عندنا

(١) في المخطوط (المنزلة).

لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ ....

﴿لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ المعد لكم ولأمثالكم في قعر الجحيم.

﴿وَ﴾ اعلموا أنكم ﴿مَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي مثلما عملتم وبمقتضاه، بلا زيادةٍ عليه ونقصانٍ، عدلاً منا وقهراً على من انحرف عن جادة توحيدنا.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ الموفقين على الإيمان والأعمال الصالحة، خالصاً لوجه الله الكريم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله المرضيون لديه سبحانه ﴿لَهُمْ﴾ من فضل الله إياهم ولطفه معهم ﴿رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ معدٌ معينٌ عنده سبحانه صورياً ومعنوياً، عينياً وعلمياً، كشفياً وشهودياً، على مقتضى ما عملوا من صالحات الأعمال والأخلاق والحالات.

بل لهم تفضلاً عليهم ومزيداً لتكريمهم:

﴿فَوَٰكِهُ﴾ كثيرة يتلذذون بها حسب ما يشتهون ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿هُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ عند ربهم متنعمون.

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾﴾ المشتملة على الرزق الصوري والمعنوي، متكئين ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ رفيعة حسب رفعة درجاتهم في الإيقان والعرفان والكشف والعيان ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ متواجهين مع قرنائهم.

يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ﴿٤٥﴾ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٤٩﴾

﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ تشريفاً لهم وتجديداً لذوقهم وحضورهم ﴿بِكَأۡسٖ﴾ مملوءٍ ﴿مِّن﴾ ماء ﴿مَّعِينِۭ ﴿٤٥﴾﴾ هو خمر الجنة، سمي به لأنه عان ونبع من بحر اللاهوت وترشح من عين الحياة المنتشئة من حضرة الرحموت.

﴿بَيۡضَآءَ﴾ لا لون لها يدركها النظر ويخبر عن كيفيتها الخبر ﴿لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي لذيذة للعارفين المتعطشين بزلال التوحيد وبرد اليقين، لا يدرك كيفيتها إلا من يذوقها ومن يذوقها لا يظمأ منها أبداً، ولا تخرج نشوتها عنه أمدًا، بل يطلب دائماً مزيداً.

إذ ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ﴾ أي غائلة خمار وصداع يترتب عليها، كما يترتب على خمور الدنيا ﴿وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ يسكرون إلى حيث يذهب عقولهم، ويفسد أمزجتهم ويختل خواطرهم، وينسون مطالبهم، ويضلون عن مقاصدهم كما في خمر الدنيا، بل يزيد منها شوقهم وذوقهم ويتكامل طلبهم.

﴿وَعِندَهُمۡ﴾ من الأرواح المزدوجة معهم المقبولة عندهم ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ عليهم، ولا يلتفتن إلى غيرهم ﴿عِينٞ ﴿٤٨﴾﴾ أي حسان العين والحواجب والأجفان والآماق.

﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ في صفاء البدن وبياضه ﴿بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٤٩﴾﴾ مصونٌ محفوظٌ عن الغبار، مخلوطٌ بأدنى صفرة كلون الفضة، وهو أحسن ألوان جسد الإنسان.

وبعد ما يشربون من المعين وشملهم كيفيتها أخذوا يتحدثون

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ ....

﴿فَأَقْبَلَ﴾ والتفت ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾ ويتقاولون مما جرى عليهم في نشأة الدنيا، وما ادخروا فيها للنشأة الأخرى من المعارف والحقائق والأعمال والأحوال والمواجيد والأخلاق والعبر والأمثال.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ على سبيل التذكر والتحاكي عن إنكار المنكرين ليوم البعث والنشور: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ في دار الدنيا، منكرٌ لهذه النشأة، وأنا معتقدٌ لها، منتظرٌ لقيامها.

﴿يَقُولُ﴾ يوماً على سبيل النصح والإنكار والاستبعاد: ﴿أَءِنَّكَ﴾ أيها المجبول على الدراية والشعور ﴿لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ المعتقدين الموقنين؟!!

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ ﴿أَ﴾ تعتقد أنت وتصدق ﴿ءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي مجزيون بأعمالنا التي كنا نعمل، مسؤولون عنها، محاسبون عليها؟!

كلا وحاشا ما هي إلا حياتنا الدنيا، وما نحن بمبعوثين.

ثم ﴿قَالَ﴾ لقرنائه في الجنة مستفهماً عن حال قرينه المنكِر للبعث: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ يعني هل أنتم تريدون وتطلبون أيها المسرورن في الجنة أن تطلعوا على ذلك القرين في النار، قالوا له: أنت أحق باطلاع حاله، إذ هو مصاحبك وقرينك.

فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ ....

﴿فَاطَّلَعَ﴾ بعدما نظر من الكوى المفتوحة في الجنة نحو النار ﴿فَرَءَاهُ﴾ أي قرينه المنكر ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾، أي وسطه معذباً بأنواع العذاب.

﴿قَالَ﴾ له بعد ما رأه في النار مقسماً على سبيل التأكيد والمبالغة:

﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾ يعني، والله إنك أيها الجاهل المفرط، قد قاربتَ من إهلاكي بإغرائك وإغوائك ونصحك إلي وتذكيرك على ما يدل على إنكار البعث واستدلالك على استحالته.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ وتوفيقه إياي بالعصمة والثبات على عزيمة الإيمان والتوحيد ﴿لَكُنتُ﴾ مثلك ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ معك في وسط الجحيم، يعني أنا أيضاً من جملة أهل النار مثلك.

ثم أخذ يباهي على قرينه بالنعيم المقيم واللذة المستمرة، بلا طريان موتٍ وعذابٍ، فقال مستفهماً:

﴿أَ﴾ تعلم أنا في الجنة مخلدون منعمون ﴿فَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أي مائتين متحولين عنها. بل لا موت لنا ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ التي متنا عن الدنيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾ أيضاً أمثالكم.

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ ....

﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ الخلود والتنعم والسرور بلا طريان ضدٍ عليه ﴿ لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ والكرم الجسيم من الله العليم الحكيم إيانا.

ثم قيل من قبل الحق ترغيباً للمؤمنين على الطاعات، وحثاً لهم إلى الإتيان بالأعمال الصالحات، وتطييباً لقلوبهم بترتب أمثال هذه الحسنات على أعمالهم وأخلاقهم ومواجيدهم وحالاتهم.

وبالجملة ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا ﴾ الفوز العظيم والنول الكريم ﴿ فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ في النشأة الأولى، لا للحظوظ الفانية، واللذات الزائلة الدنياوية المقتضية لأنواع الآلام والحسرات.

ثم قال سبحانه:

﴿ أَذَٰلِكَ ﴾ المذكور من الرزق المعلوم واللذة المستمرة والنشر الدائم بلا صداع ولا خمار، والحياة الأبدية والمسرة السرمدية[1] ﴿ خَيْرٌ نُّزُلًا ﴾ لأهل الجنة ﴿ أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ ﴾ لأهل النار، وهي ثمرة شجرةٍ مرة كريهة الرائحة والطعم، يستكرهه طباع أهل النار، إلا أنهم يتناولون منها للضرورة.

ثم لما عبر سبحانه عن نزل أهل الجحيم بالزقوم، فسمعها كفار أهل مكة، قالوا: كيف يكون في النار شجرةٌ، ومن شأنها إحراق ما يجاورها ؟!!

فاستهزؤوا برسول الله ﷺ وقال ابن الزبعرى لصناديد قريش: إن محمداً

(١) في المخطوط (والسرور السرومية).

إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾

يخوفنا بالزقوم، والزقومُ بلسان بربر: الزبد والتمر، فأدخلهم أبو جهل في بيته، فقال يا جارية زقمينا، فأتتهم بالزبد والتمر، فقال: تزمقوا، فهذا ما يوعدكم به محمد ﷺ.

رد الله سبحانه قولهم واستهزاءهم بقوله:

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا﴾ أي الشجرة المذكورة ﴿فِتْنَةً﴾ وابتلاءً ﴿لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾ وسبباً لازدياد العذاب وتشديد النكال عليهم، إذ هم يتقاولون فيه، ويحملونها إلى لغةٍ أخرى، ويتخذون لها محملا جيداً، ويستهزئون بسببها بالنبي ﷺ، فيستحقون أسوأ العذاب والعقاب، ويطعمون منها حين دخولهم في النار.

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ﴾ وتنبت ﴿فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ أي منبتها في قعرها وأغصانها في دركاتها.

﴿طَلْعُهَا﴾ أي ثمرتها التي تطلع منها أو تحصل ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ في القبح والهجنة، هذا من قبيل التشبيه المحسوس بالمتخيل، كتشبيه الطيور الحسنة بالملائكة، يعني يستكره من رؤيتها الطباع استكراهها من رؤوس المردة من الجن المصورة على أقبح الصور وأهولها.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي أولئك المنكِرون المستهزئون، وجميع من في النار من الكافرين ﴿لَءَاكِلُونَ مِنْهَا﴾ إذ لا مأكولَ لهم فيها سواها ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي يملؤون بطونهم منها لشدة الجوع، أو يجبرون لأكلها زجراً عليهم وتشديداً لعذابهم، إذ هي أحرُّ من النار وأبردُ من الزمهرير.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ ....

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ﴾ بعد ما ملؤوا بطونهم منها مع كمال حرارتها واشتداد العطش عليهم، ﴿عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ أي لخلطاً ومزاجاً من ماءٍ حارٍ في غاية الحرارة بعد أن يخرجهم الخزنة من الجحيم، ويوردهم إليها ورودَ البهائم في الماء، ويشربون منها فيقطع أمعاءهم.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ بعدما أصدرهم، فأخرجهم الخزنة من الماء ﴿لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ البتة، إذ لا مرجع لهم سواها.

وإنما ابتلوا من العذاب المؤبد والعقاب المخلد :

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا﴾ أي صادفوا ووجدوا ﴿آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾﴾ منحرفين عن سبيل السلامة وجادة الإستقامة التي هي التوحيد والإسلام.

﴿فَهُمْ﴾ أي هؤلاء الأخلاف بعد ما وجدوا أسلافهم كذلك ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ويسرعون على الفور، ويعملون مثل عملهم تقليداً لهم بلا تدبر وتأمل.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل قومك يا أكمل الرسل ﴿أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ من الأمم السالفة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم﴾ أي في الأولين الماضين ﴿مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ مثل ما أرسلناك إليهم بالإنذارات البليغة، فلم يفدهم إنذار أولئك المرسلين كما لم

فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ....

يفد إنذارك إلى هؤلاء المسرفين،فأخذناهم بغتة واستأصلناهم مرة.

﴿فَانظُرْ﴾ أيه المعتبر الخبير ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ بعد ما لم ينذروا بالإنذارات البليغة الواصلة إليهم من قبل الرسل، ولم يتنبهوا منها إلى الطريق المستبين، انقلبوا ضالين خاسرين صاغرين.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ الذين تنبهوا منها إلى الصراط المستقيم، بل تفطنوا إلى الحق اليقين، فانصرفوا عن العذاب الأليم إلى النعيم المقيم، لذلك انقلبوا بنعمة من الله وفضل عظيم.

ثم أخذ سبحانه في تعداد أهل الضلال الجاحدين على الرسل المنذرين، بعد ما أجمل فقال:

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ﴾ حين أردنا إهلاك قومه بالطوفان نداء مؤمل ضريع لاستخلاصه واستخلاص من آمن معه من قومه، فأجبناه ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾ نحن لأوليائنا المخلصين.

﴿وَ﴾ لهذا ﴿نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي من آمن معه ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ أي من الغم الذي لحقه دائماً من أذى قومه وضربهم عليه، ومن أنواع زجرهم وشتمهم، أو من كرب الطوفان.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ﴾ أي من تناسل منه ومن أبنائه ﴿هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ إلى

وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ....

قيام الساعة.

روي أنه مات من بعد ما نزل من السفينة من كان معه من المؤمنين، ولم يبق إلا هو وبنوه وأزواجهم، فتناسلوا إلى انقراض الدنيا، كما قال سبحانه:

﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾ أي أبقينا عليه ذكراً جميلاً، وثناء جزيلاً ﴿فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ أي في الأمم المتخلفة منهم، يذكرونه بالخير، ويقولون تكريماً له وترحيباً:

﴿سَلَٰمٌ﴾ أي تسليمٌ وتكريمٌ من الله ومن خواص عباده ﴿عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ أي في النشأة الأولى والأخرى.

﴿إِنَّا﴾ بمقتضى لطفنا وجودنا لخُلّص عبادنا ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما جزينا نوحاً على إحسانه وإخلاصه ﴿نَجۡزِي﴾ جميع ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ من عبادنا، لو أنابوا إلينا، وتوجهوا نحونا على وجه الإخلاص.

وكيف لا نبقي له ذكراً جميلاً ولا نجزيه جزاء جزيلاً؟!

﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ الموقنين بتوحيدنا، المتوكلين علينا، المفوضين أمورهم إلينا، المخلصين فيما جاؤوا به من الأعمال والأفعال.

﴿ثُمَّ﴾ إنا بمقتضى لطفنا، فعلنا معه ما فعلنا من الإنعام والإحسان ونجيناه من كرب الطوفان، ﴿أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ أي كفار قومه بها، واستأصلناهم إلى حيث لم يبق منهم أحدٌ على وجه الأرض، سوى أصحاب السفينة وأشياعه المؤمنين معه، ومن تشعب وتناسل منهم.

۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ ....

﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ أي من جملة من شايعه في التوحيد والإيمان، بل من أجلة من تابعه على أصول الدين ومعالم اليقين ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ المتصف بكمال العلم والحلم والمعرفة واليقين وإن طال الزمان بينهما.

قيل كان بين نوح وإبراهيم عليهما السلام الفان وستمائة وأربعون سنة.

اذكر يا أكمل الرسل وقت :

﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ سالم عن جميع الميول الباطلة والآراء الفاسدة.

﴿ إِذْ قَالَ﴾ جدك إبراهيم الخليل صلوت الرحمن عليه وسلامه ﴿ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ حين انكشف بالتوحيد الإلهي، وتمكن في مرتبة الشهود العيني والحقي، مستفهماً على سبيل الإنكار والتوبيخ غيرةً على الله وإظهاراً لمقتضى الخلة ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾ أي لأي شيءٍ تعبدون هذه الأصنام الباطلة العاطلة عن لوازم الألوهية والربوبية، أيها الجاهلون بتوحيد الله وبكمال أوصافه وأسمائه.

﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ أي أتريدون أيها المعاندون أن تثبتوا آلهة متعددة سوى الله الواحد الأحد الصمد القيوم المطلق المستحق للألوهية والربوبية استحقاقاً ذاتياً ووصفياً، على سبيل الإفك والمراء والكذب والإفتراء ؟!!

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

﴿فَمَا ظَنُّكُم﴾ أيها الجاهلون المكابرون ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أتظنون أن له شريكاً في الوجود، أو له نظيراً في الشهود وسواه موجود؟!!

والله ما ظنكم هذا إلا خيالٌ باطلٌ وزيغ زائلٌ.

وبعدما سمعوا منه ما سمعوا، انصرفوا عنه وأنكروا عليه وعلى ربه، فأراد عليه السلام أن يكايدهم في أصنامهم، ويخادع في كسرها، وقد قرُب حينئذٍ يوم عيدهم.

وكان من عادتهم الإتيان بالقرابين والهدايا عند أصنامهم ومعابدهم، فيتقربون بها، ويتخذون منها أنواعا من الأطعمة، فيطبخونها عنده في ليلة العيد، ثم يخرجون صبح العيد إلى الصحراء، فيتعيدون فيها بأجمعهم، ثم ينصرفون منها، فينزلون في معابدهم وعند أصنامهم، ويمهِّدون موائد كثيرة من الأطعمة المهيأة، فيأكلون منها، ويتبركون بها وكان عادتهم كذلك.

ثم لما اجتمعوا على المعبد عند الأصنام، قالوا له: أخرج أنت أيضاً معنا غداً يا إبراهيم إلى الصحراء، نعيد فيها ونرجع.

﴿فَنَظَرَ﴾ إبراهيم عليه السلام حينئذٍ ﴿نَظْرَةً فِى﴾ دفتر ﴿ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾ وهم كانوا يعملون بالأحكام النجومية، معتقدون لها، وهو عليه السلام مشهور بضبطها.

﴿فَقَالَ إِنِّى﴾ اليوم ﴿سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ الآن، أو سأسقم عن قريبٍ بالطاعون، وهم قد يفرون من المطعون فرارهم من الأسد.

فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ ....

﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ وانصرفوا من عنده، بعدما سمعوا منه القول الموحش ﴿مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ رهباً ورعباً، فخرجوا من الغداة إلى الصحراء، ولم يخرج عليه السلام معهم.

ثم لما بقي الأصنام خالياً عن الخدّام، وقد طبخ عندها أنواعٌ من الطعام.

﴿ فَرَاغَ ﴾ أي مال وانصرف عليه السلام ﴿إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ ﴾ أولاً على سبيل التهكم والاستهزاء: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾ أيها المعبودون من هذه الأطعمة المطبوخة المهيأة، ثم قال:

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ أي ما عرض ولحق لكم، لا تتكلمون معي أيتها الآلهة المستحقون للعبادة والرجوع في المهمات؟؟!!.

وبعدما استهزأ مع هؤلاء الأصنام الصمّ البكم الجامدين بما استهزأ:

﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ أي ضربهم ﴿ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ أي بكمال القوة والغلظة، فكسّرها تكسيراً، وفتت أجزاءها تفتيتاً.

ثم لما أُخبروا بانكسار أصنامهم وانفتاتها حين كانوا في الصحراء في معيدهم، ظنوا بأجمعهم بل جزموا أنه ما فعل هذا بآلهتهم إلا إبراهيم.

﴿ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ عازمين جازمين على انتقامه ومقته ﴿ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ أي يسرعون ويعدون ويتحيرون ويتبخترون.

ثم لما وصلوا إليه حُصروا عن التكلم معه من غاية غيظهم ونهاية زفرتهم،

قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ....

لسبقهم عليه السلام بالتكلم.

حيث ﴿قَالَ﴾ مقرعاً عليهم: ﴿أَتَعۡبُدُونَ﴾ أيها الجاهلون الضالون ﴿مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ وتصنعون بأيدكم، وتعتقدونه إلهاً خالقاً موجداً، مظهراً لكم من كتم العدم، وتعبدونه ظلماً وزوراً، فمن أين يتأتى لهؤلاء الجمادات العاطلة لوازم الخلق والإيجاد والإظهار، أفلا تعقلون.

بل ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد المستقل بالألوهية والربوبية ﴿خَلَقَكُمۡ﴾ بالإرادة والاختيار ﴿وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي جميع أعمالكم وأفعالكم التي صدرت عنكم، ومن جملتها صنعكم ونحتكم للأصنام والأوثان.

ومن هذا ظهر أن جميع أفعال العباد مثل ذواتهم مستندةٌ إلى الله أولاً وبالذات، إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ثم لما سمعوا منه عليه السلام ما سمعوا، انصرفوا عن مقاولته ومكالمته، وهمّوا العزم إلى قتله.

﴿قَالُواْ﴾ أي بعضهم حين كانوا متشاورين في كيفية قتله، بعد ما أقر رأيهم عليه: ﴿ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ أي في النار المسعرة، حتى تنتقموا عن آلهتكم، فبنوا حائطاً من الحجر سمكه ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون، وملؤوه من الحطب، وأوقدوا فيه ناراً، فنفخوا فيها بالمنافخ حتى تسعرت، ثم طرحوه بالمنجنيق فيها، وبالجملة:

فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ ....

﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ﴾ وقصدوا له ﴿كَيْدًا﴾ لينتقموا عنه مستعلين عليه ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ المقهورين الخاسرين الخائبين عما فعلوا معه عنايةً منا إياه وفضلاً وامتناناً عليه، حيث جعلناها له برداً وسلاماً، وروحاً وريحاناً، فانقلبوا بعد ما رأوا حاله في النار على هذا الوجه صاغرين محزونين، فجعلناهم الأسفلين.

وبعد ما خرج الخليل صلوات الرحمن عليه وسلامه منها، اختار الجلاء والخروج من بينهم بوحي الله إياه وإلهامه.

﴿وَ﴾ لهذا ﴿قَالَ﴾ حين خروجه: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ وإلى كنف حفظه وجواره وسعة رحمته ﴿سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ بلطفه إلى منزلٍ يمكنني التوجه فيه إليه، ويطمئن فيه قلبي، فذهب إلى الشام بإلهام الله إياه، وتوطَّن في الأرض المقدسة.

وبعدما توطن فيها، ناجى مع الله، فطلب منه سبحانه الولدَ المحيي لاسمه، فقال:

﴿رَبِّ﴾ يا من رباني على أنواع النعم والكرامات ﴿هَبْ لِى﴾ ولداً صالحاً مرضياً لك، مقبولاً عندك، معدودا ﴿مِنَ﴾ عبادك ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ الموفَّقين من عندك على الصلاح والفوز بالفلاح.

وبعدما تضرع نحونا راجياً من رحمتنا:

فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ....

﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ ﴾ هو إسماعيل عليه السلام ﴿ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ ذو حلمٍ كاملٍ وتصبرٍ تامٍ على متاعب العبودية وشدائد الاختبارات الإلهية.

ثم لما ولد له إسماعيل عليه السلام، ورباه إلى أن ترقى من الطفولية، وظهر منه الرشد الفطري والفطنة الجبلية، إلى أن بلغ سبع سنين أو ثلاث عشرة، هي أول الحلم وعنفوان الشباب، وبالجملة

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ للحوائج والمهمات المتعلقة لأمور المعاش، وصار يذهب ويجيء مع أبيه إلى الاحتطاب وسائر الأشغال، وكان أبوه ينتصر به في الأمور ويستظهر، وكان مشفقاً له، رحيماً عليه بحيث لا يفارقه أصلاً من كمال عطفه وتحننه.

ثم لما بلغ عليه السلام في عطف ولده وارتباط قلبه به مع أنه متمكنٌ في مقام الخلة مع ربه، غار عليه سبحانه فأختبر خلته، حتى رأى في المنام بإلقاء الله في متخيلته: أن الله يأمره بذبح ولده إظهاراً لكمال خلته، واصطبار ولده على البلاء، وإظهار حلمه عند المصيبة.

فانتبه عن منامه هولاً من الواقعة الهائلة، فخيلها من أضغاث الأحلام، فاستغفر ربه وتعوذ من الشيطان، ثم نام فرأى أيضاً كذلك، ثم استيقظ كذلك خائفاً مرعوباً، ثم استغفر ونام، فرأى ثالثاً مثل ما رأى، فتفطن بنور النبوة أنه من الاختبارات الإلهية.

فأخذ بامتثال المأمور خائفاً من غيرة الله وكمال حميته وجلاله، كيف

قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ....

يطيق أحدٌ أن يتخذ سواه محبوباً، سيما من اختار الله لخلته واصطفاه لمحبتة.

فأمر ابنه بأن يأخذ الحبل والسكين ؛ ليذهب إلى شعب الجبل للاحتطاب كما هو عادتاهما، فذهبا، وقد اشتعل في صدره نار المحبة والخلة الإلهية، فشرع يُظهر رؤياه لابنه ليختبره كيف هو ؟

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ ﴾ ناداه وصغره تحنناً وعطفاً: ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ ﴾ بأمر الله إياي، تقرباً مني إليه سبحانه، وهدياً نحوه ﴿ فَٱنظُرْ ﴾ يا بني وتأمل ﴿مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾ أي أيّ أمر تفكر وتفتي في هذه الواقعة الهائلة: أتصبر على بلاء الله أم لا ؟ وبعد ما سمع ابنه ما سمع من الرؤيا ﴿قَالَ﴾ معتصماً بحبل التوفيق، راضياً بما جرى عليه مِنْ قضاء الله مسلماً نحوه، مستقبلاً منادياً لأبيه لينبئ عن كمال إطاعته له وانقياده لحكم ربه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ ﴾ من قِبل الحق فاذبحني في سبيل الله تقرباً منك نحوه، وطلباً لمرضاته، ولا تلتفت إلى لوازم الأبوة والبنوة، وكن أنت صابراً لبلاء الله بذبح ولدك بيدك بإذنه وفي سبيله ﴿سَتَجِدُنِيٓ ﴾ أيضاً ﴿ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وتعلق إرادته بأن أصبر على بلائه الذي هو قتل أبي إياي بيده ﴿ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ المتمكنين على تحمل الشدائد والمصيبات الآتية من قبل الحق.

وبعدما تشاورا وتقاولا، فوّضا الأمر إليه سبحانه، وانقادا لحكمه، ورضيا

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾

بقضائه طوعاً ورغبةً.

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ أي سلما واستسلما أي كل منهما أمره إلى ربه، ووصلا الموقف والمنحر، توجه الخليل نحو الحق ناوياً التقرب إليه سبحانه ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ أي صرع ابنه على شقه الأيمن امتثالاً لأمر ربه مثل صرع البهائم حال الذبح، بعد ما شد بالحبل يده ورجله، فأخذ الشفرة فأمرَّها على حلقه، فلم تمض ولم تعمل، فأخذ حجراً المحدّ، فأحدّها، ثم أمرّها، ولم تمض أيضاً، وهكذا فعل مراراً، لم تعمل شيئاً، فتحير في أمره.

قال له ابنه حينئذٍ: يا أبت أكبني على وجهي، فاذبحني من القفا ؛ لئلا يمنعك من ذبحي رؤيتك وجهي، ففعل كذلك، فلم تمض .

﴿وَ﴾ بعد ما جرّبناهما ووجدناهما على كمال التصبر والرضا بما جرى عليهما من القضاء ﴿ نَادَيْنَاهُ﴾ من مقام عظيم جودنا إياه ولطفنا ﴿ أَن﴾ أي بأن قلنا له منادياً: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ المختص بخلتنا، الراضي بمصيبتنا، قد صدَّقت الرؤيا، وامتثلت بالمأمور، ورضيت بذبح ولدك لرضانا، واختبرناك به، فوجدناك متمكناً على مرتبة الخلة والتوحيد، فقد أتيت مخلصاً ما طلبنا منك، كان لك من الفضل والعطاء منا جزاءً لفعلك ما لم يكن لأحدٍ من بني نوعك ؛ لإخلاصك في أمرك وصحة عزيمتك وخلوص طويتك في نيتك.

ثم قال سبحانه على سبيل العظة والتذكير لعباده بمقتضى عظيم جودنا:

﴿ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما جزينا إبراهيم ونجيناه من الكرب

نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾

العظيم ﴿ نَجْزِي ﴾ جميع ﴿ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ المخلصين في حسناتهم ونياتهم، في جميع أعمالهم وحالاتهم، ثم قال سبحانه:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ المأمور لإبراهيم الأواه الحليم من ذبح ولده في طريق الخلة مع ربه ﴿ لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾ الظاهرُ صعوبته وشدته على عموم المكلفين، وبعدما عزم عليه بالعزيمة الخالصة الصحيحة، وأقدم على امتثاله عن محض الاعتقاد وصميم الفؤاد إلى حيث لو لم نمنع مضاء شفرته، مع أنه بالغ في إمرارها بقوةٍ تامةٍ، وأحدّها مراراً لذبحه البتة، فمنعناها بعد ما ظهر إخلاصه لدينا.

﴿وَ﴾ بعد ما منعنا مضاء شفرته ﴿فَدَيْنَاهُ﴾ أي الذبح الذي هو ابنه ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ ﴾ أي بما يذبح فيه فيتم تقربه إلينا وينال من لدنا ما نعد له من الثواب والجزاء ﴿عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ أي عظيم القدر، إذ ما يفديه الحق لنبيه أعظم مما يفديه العباد.

قيل لما سمع إبراهيم نداء الهاتف، التفت، فإذا هو جبريل عليه السلام، ومعه كبش أملح أقرن، فقال له: هذا فداء ابنك بعثه الله إليك، فاذبحه دونه، وهذا قد رعى في الجنة أربعين خريفا لتلك المصلحة، فأخذ إبراهيم الكبش، فأتى به المنحر من مِنى، فذبحه عنده، وفاز بمبتغاه من الله ما فاز عاجلاً وآجلاً، مما لا مجال للعبارة والإشارة إليه سبيلاً.

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ ....

﴿وَ﴾ من جملة ما جزينا إبراهيم عاجلاً: إنّ من كمال خلتنا معه ﴿تَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ وأبقينا له في الآخرين أي في الأمم الذين يلون ويأتون بعده إلى قيام الساعة ثناءً حسناً وذكراً جميلاً، حيث يقولون دائما ﴿فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾:

﴿سَلَٰمٌ﴾ وترحيبٌ منا وبركاتٌ من الله، ورحمةٌ نازلةٌ دائماً مستمرةٌ ﴿عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾.

ثم قال سبحانه حثاً للمؤمنين:

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما جزينا إبراهيم بأحسن الجزاء في الدنيا والآخرة ﴿نَجْزِى﴾ عموم ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ إن أحسنوا وأخلصوا في نياتهم وحسناتهم وكيف لا نجزي خليلنا؟:

﴿إِنَّهُۥ مِنْ﴾ خُلّص ﴿عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ الموحِّدين الموقنين بذاتنا وصفاتنا وأفعالنا وأسمائنا، واستقلالنا في ملكنا وملكوتنا، وبعد ما ابتليناه أولاً بذبح الولد وفديناه عن ولده عنايةً منا إياه، وإلى ولده.

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ﴾ بولدٍ آخر مسمىً ﴿بِإِسْحَٰقَ﴾ وجعلنه ﴿نَبِيًّا﴾ من الأنبياء معدوداً ﴿مِّنَ﴾ زمرة ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ لمرتبة الكشف واليقين.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿بَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي كثّرنا الخير والبركة على إبراهيم ﴿وَ﴾ كذا ﴿عَلَىٰٓ﴾ ابنه ﴿إِسْحَٰقَ ۚ وَ﴾ كثرنا نسلهما إلى أن جعلنا ﴿مِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ في الأعمال والأخلاق والأحوال ذو نفعٍ كثير على عباد الله وفقراء سبيله ﴿

وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ ....

﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾[1] أي تاركٌ لحظوظ نفسه من الدنيا ﴿مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ ظاهرٌ في الترك، مبالغٌ فيه إلى حيث يمنع عنها ضروريتها أيضاً، منجذبا نحو عالم اللاهوت، منخلعاً عن لوازم الناسوت، مائلاً نحو الحق بجميع قواه وجوارحه، طالباً الفناء فيه والبقاء ببقائه، ومنهم النبي ﷺ، والوصيّ كرم الله وجهه، وابناه[2] وأولادهما بطناً بعد بطنٍ، سلام الله عليهم أجمعين، حيث لا يلتفتون إلى حطام الدنيا ومزخرفاتها، إلا مقدار سدّ جوعة ولبس خرقة خشنٍ.

﴿وَ﴾ من ذريتهما المكرَّمين المؤيدين من عندنا: موسى وهارون ﴿لَقَدْ مَنَنَّا﴾ أيضاً ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾﴾ أخيه منةً عظيمة.

﴿وَ﴾ ذلك أنا ﴿نَجَّيْنَاهُمَاوَقَوْمَهُمَا﴾ أي مَن آمن لهما من بني إسرائيل ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾ الذي هو غلبة فرعون، وغرق أليم.

﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ أي هما وقومهما على فرعون وملئه ﴿فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾ عليهم، بعد ما صاروا مغلوبين منهم.

﴿وَ﴾ بعد ما صيرناهم غالبين[3] ﴿آتَيْنَاهُمَا﴾ أي موسى وهارون ﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾ وهو التوراة الذي هو أبين الكتب وأوضحها في ضبط الأحكام

---

(١) يقول البيضاوي: (وظالم لنفسه) بالكفر والمعاصي (مبين) ظاهر ظلمه وفي ذلك تنبيه على أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال،...

(٢) في المخطوط (وابنيه وابنيه).

(٣) في المخطوط (وبعدما صيرناهم مغلوبين غالبين).

وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ

الإلهية المتعلقة بنظام الظاهر.

﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ﴾ أيضاً ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ ﴾ الموصلَ إلى الحق اليقين في مراتب التوحيد.

﴿ وَ ﴾ من كمال تكريمنا إياهما ﴿ تَرَكْنَا عَلَيْهِمَا ﴾ أي أبقينا ذكرهما بالخير ﴿ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ اللاحقين لهما من الأمم، حيث يقولون في حقهما عند ذكرهما:

﴿ سَلَٰمٌ ﴾ من الله وتحيةٌ منا ﴿ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ وذلك من جملة امتناننا عليهما وتكريمنا إياهما.

﴿ إِنَّا ﴾ من كمال جودنا ولطفنا ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾ المحسنين في حسناتهم وجميع حالاتهم.

وكيف لا نجزيهما خير الجزاء وأحسنه؟.

﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ الموقنين بتوحيدنا، المصدقين لاستقلالنا واختيارنا في ملكنا وملكوتنا.

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ ﴾ بن ياسين من أولاد هارون أخي موسى ﴿ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ من عندنا المؤيَّدين بوحينا وإلهامنا.

اذكر يا أكمل الرسل:

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾ حين انحرفوا عن سبل السلامة وطرق الاستقامة بالظلم

أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ ....

على عباد الله والخروج عن حدوده ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ وتحذرون عن بطش الله أيها المفسدون المفرطون في الإشراك بالله والدعوة إلى غير الله.

﴿ أَتَدْعُونَ ﴾ أيها الجاهلون ﴿ بَعْلًا ﴾ أي صنماً مسمىً به في المهمات والملمات ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ أي تتركون الدعوة والرجوع إلى الحق الحقيق بالإطاعة والانقياد، المستحق للعبودية والرجوع إليه في الخطوب.

﴿ ٱللَّهَ ﴾ بالرفع على الاستئناف، والنصب على البدل، وكذلك ﴿رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ برفع البائين ونصبهما على الخبر والبدل على القراءتين، أي مربيكم ومظهركم في كتم العدم وأسلافكم أيضاً، فتعدلون عن عبادته، وتعبدون ما لا ينفعكم ولا يضركم ظلماً وزوراً.

وبعد ما سمعوا منه دعوته إلى التوحيد ورفضِ عبادة آلهتهم وقدحه إياها ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ تكذيباً ولم يلتفتوا إلى قوله ودعوته، بل طردوه، وعزموا أن يقتلوه ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ بشؤم تكذيبهم رسول الله وإبائهم عن دعوته إلى التوحيد، واتخاذهم الأصنام والأوثان آلهةً دون الله شركاء معه في استحقاق العبادة والرجوع إليه في الوقائع ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ في العذاب الأليم مؤبدون في نار الجحيم أبد الآباد.

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ منهم، المبادرين إلى الإيمان بعد ما سمعوا

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾..................

دعوة الرسل بلا ميلٍ منهم إلى الإنكار والتكذيب.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي على إلياس أيضاً ذكراً جميلاً ﴿فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾ حيث يقولون حين ثنائهم عليه وتكريمهم إياه:

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ وهو لغةٌ في إلياس كجبريل في جبرائيل، وسينين في سيناء.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾﴾ المستحفظين على أحكامنا ومقتضيات أوامرنا ونواهينا.

وكيف لا نجزيه أحسن الجزاء؟.

﴿إِنَّهُۥ مِنْ﴾ جملة ﴿عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ المتمكنين في مقر التوحيد واليقين، الفائزين بمقام الكشف والشهود.

﴿وَإِنَّ لُوطًا﴾ أيضاً ﴿لَّمِنَ﴾ جملة ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ الفائزين بمرتبة الحق اليقين.

أذكر يا أكمل الرسل للمعتبرين المؤمنين وقت:

﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ﴾ أي لوطاً ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾ أي أولاده وأهل بيته ﴿أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ وهي امرأته بقيت ﴿فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ الهالكين بالعذاب المنزل عليهم بشؤم فعلتهم الشنيعة، المتناهية في القباحة والشناعة.

وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ ....

﴿ثُمَّ﴾ بعد ما نجيناه وأهله ﴿دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ من قومه وأهلكناهم أجمعين.

﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ أي على أطلالهم ومنازلهم المنقلبة بشؤم فعلتهم وقت ترحالكم إلى الشام، وهي على متن الدرب ﴿مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ إن كنتم سائرين في أسفاركم في الليالي.

﴿وَبِالَّيْلِ﴾ إن كنتم سائرين في أيامكم، يعني إن سرتم ليلاً تصبحون عند ها، وإن سرتم نهاراً تمسون دونها، وبالجملة هي على طريقكم أيها المجبولون على العبرة والعظة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ وتتفكرون في ما جرى عليهم بشؤم تكذيبهم وإنكارهم على رسل الله ؛ ليعتبروا منهم ومن أطلالهم ورسومهم المندرسة المنكوسة، ولا تفعلوا مثل أفعالهم.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ﴾ ابن متى أيضاً ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ من عندنا، المتحملين لأعباء رسالتنا.

أذكر يا أكمل الرسل وقت:

﴿إِذْ أَبَقَ﴾ وهرب من نزول العذاب الموعود على قومه حين دعاهم إلى الإيمان والتوبة، فلم يجيبوا له ولم يقبلوا منه دعوته، فدعا عليهم، وبعد ما قرب حلول العذاب عليهم، خرج من بينهم هارباً، حتى لا يلحقه ما يلحقهم، فلما وصل البحرَ ركب ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ المملوء من

﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ ....

الناس والأحمال والأثقال، فاحتبست السفينة على أهلها، فاضطربوا، فقال البحارون: إن في السفينة عبداً آبقاً، فبادروا إلى القرعة على ما هو عادتهم في أمثاله، وبعد خروج القرعة باسم واحدٍ من أهلها، طرحوه في الماء فأخذت في الجري والذهاب.

﴿فَسَاهَمَ﴾ أي قارع حينئذٍ أهلها، فخرج القرعة باسم يونس ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ المغلوبين المغرقين بمقتضى القرعة.

وبعد ما خرجت القرعة باسمه، تفطن أنه من الاختبارات الإلهية، فقال: أنا العبد الآبق، فرمى نفسه في الماء خوفاً من غضب الله وكمال غيرته وحميته، وتوطيناً على مقتضى قضاء الله، مفوضاً أمره إليه سبحانه.

وبعد ما وصل إلى جوف الماء ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ بإلهام الله إياه على الفور وابتلعه ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ نفسه، نادمٌ على فعله الذي فعله بلا نزول وحيٍ من ربه.

لذلك أُخذ . حينئذٍ سبح له سبحانه عما لا يليق بشأنه، وبالجملة :

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ المنكشفين بوحدة الحق، وتنزهه عن سمات الكثرة مطلقاً .

﴿لَلَبِثَ﴾ واستقر ﴿فِى بَطْنِهِۦٓ﴾ أي بطن الحوت ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ وصار له بطنه كالقبر لسائر الأموات.

﴿ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾

وبالجملة لا ينجو منه أبداً، ولما كان من أهل التسبيح والتقديس المنكشفين بوحدتنا واستقلالنا في شؤننا وتطوراتنا.

﴿ فَنَبَذْنَٰهُ ﴾ أي طرحنا يونس ﴿ بِٱلْعَرَآءِ ﴾ أي الساحل الخالي عن شيء يغطيه ويظله من شجرٍ وغيرها عنايةً منا إياه ونجاةً له.

وذلك بأن ألهمنا الحوت أولاً حين سقوطه في البحر بالتقامه، فالتقمه بلا لحوق ضررٍ له من الماء، ثم ألهمناه أن يخرج رأسه من الماء حتى يتنفس في بطنه، إلى أن بلغ الساحل، قيل كان في بطنه يوماً أو بعض يوم، وقيل: ثلاثة أيام، أو سبعة وعشرين، أو أربعين، فلما بلغ الساحل، أخرجه من بطنه، ولفظه الموج إلى الساحل العاري عن الظل، والشمسُ في غاية الحرارة.

﴿وَهُوَ﴾ حينئذٍ ﴿سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ ضعيفٌ صار بدنه كبدن الطفل حين ولد.

﴿وَ﴾ بعدما لم يكن له متعهد وليس هناك مظلةٌ ولا شيء يحفظه من الذباب ﴿ أَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ ﴾ في الحال من كمال رحمتنا وعطفنا معه ﴿ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ وهي شجرةٌ تنبسط على وجه الأرض، ولها أوراق عظام بلا ساقٍ تقوم عليه، قيل: هي الدباء، فغطيناه بأوراقها، وربيناه بظلها[1]، إذ ظلها من أكرم الأظلال وأحسنها هواء وألهمنا أيضاً إلى وعلةٍ وهي المعز الوحشي، حتى جاءت عنده صباحاً ومساءً، وهو يشرب لبنها، إلى أن قوى وقوم مزاجه على الوجه الذي كان.

---

(١) في المخطوط (بأوراقه وربيناه بظله).

وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ ....

﴿وَ﴾ بعد ما ربيناه كذلك، ﴿أَرْسَلْنَٰهُ﴾ مرة أخرى ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ أي الناظرون في بادئ النظر، يعني حكم الناظر عليهم على التخمين والظن، فيقول: إنهم مائة ألف أو أكثر، وهؤلاء هم الذين قد هرب منهم أولاً، وهم أصحاب نينوى، هي قريةٌ من قرى الموصل ﴿فَـَٔامَنُوا۟﴾ له، وقبِلوا منه دعوته، بعد ما أُرسل إليهم ثانياً.

﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ مؤمنين مصدقين موحِّدين ﴿إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ أي إلى انقضاء آجالهم.

ثم لما أثبت مشركوا مكة خذلهم الله ، للهِ المنزه عن الأنداد والأشباه، ولداً، بل أوضع الأولاد وأدناها، وهي الأنثى ونسبوا الملائكة الذين هم من أشرف المخلوقات، المنزهون عن لوازم الأجسام مطلقاً إلى الأنوثة، التي هي بمراحل عنها، حيث قالوا: إن الملائكة بنات الله، ولم يكن له ابن، وتمادوا على هذا إلى حيث اتخذوها مذهباً، وبالغوا في ترويجه، رد الله عليهم على أبلغ وجه وآكده، حيث أمر حبيبه ﷺ بالاستفتاء والاستفسار عن قولهم هذا، ونسبتهم هذه، فقال:

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ وسلهم أي كفار مكة يا أكمل الرسل، واستخبرهم على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَلِرَبِّكَ﴾ أي أيثبتون لربك الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد ﴿ٱلْبَنَاتُ﴾ أي أوضع الأولاد وأردأها

وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ

﴿وَلَهُمُ﴾ أي لأنفسهم ﴿ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ تعالى سبحانه عما يقولون.

﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي أتظنون وتعتقدون أنا خلقنا الملائكة الذين هم من سدنة سدتنا السنية، وخدمة عتبتنا العلية ﴿إِنَٰثًا وَهُمْ﴾ حين خلقنا إياهم ﴿شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ حاضرون، يشهدون أنوثتهم ويبصرونها، مع أنها لا مجال للعقل إلى الاطلاع بأنوثتهم، ولم ينقل منا أحدٌ من الرسل والأنبياء، مع أنه لا سبيل للحواس الأُخر إلى دركها سوى البصر، ومن أين يتأتى لهم الحضور حينئذٍ.

ثم قال سبحانه على وجه التنبيه والاستبعاد:

﴿أَلَآ﴾ أي تنبهوا أيها المؤمنون الموقنون بوحدة الله ووجوب وجوده وتقدسه عن لوازم الإمكان مطلقاً ﴿إِنَّهُم﴾ أي أولئك الضالون المغمورون في الجهل والطغيان ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾﴾:

﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ الواحد الأحد المستغني لذاته عن الأهل والولد، قولاً باطلاً ظلماً وزوراً ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ في ما يقولون، مقصورون على الكذب المحض بلا مستندٍ عقليٍ أو نقليٍ.

﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ﴾ أي أتعتقدون أيها الجاهلون بقدر الله ووحدة ذاته المستغنية عنه مطلق المظاهر والمحال، فكيف عن لوازم الحدوث والإمكان الذي هو أمَارات الاستكمال والنقصان، إنه سبحانه مع كمال تعاليه وتقدسه،

عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ....

أصطفى واختار لنفسه البنات المسترذلة الدنية ﴿عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ الذين هم أشرف بالنسبة إليهن، وأكمل خَلقاً وخُلقاً، وكمالاً وعلماً، ورشداً ويقيناً؟!.

﴿مَا لَكُمْ﴾ وما شأنكم ولحق بكم أيها المفسدون المفرطون ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ على الله ما لا يرتضيه العقل، ولا يقتضيه النقل؟!.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ ولا تتذكرون أن ذاته سبحانه منزهٌ عن أشرف الأولاد فكيف عن أردئها؟!.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ﴾ حجةٌ وبرهانٌ نقليٌ ﴿مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ واضحٌ في الدلالة على مدعاكم هذا؟!.

﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ النازل عليكم من قِبل الحق المثبت لدعواكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾؟.

﴿وَ﴾ من إفراطهم في حق الله، وجهلهم بكمال ذاته وصفاته وأسمائه ﴿جَعَلُوا۟﴾ وأثبتوا ﴿بَيْنَهُۥ﴾ سبحانه ﴿وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ الذين هم مخلوقون من النار ﴿نَسَبًا﴾، أي نسبةً بالمصاهرة، ويزعمون[1] -العياذ بالله- أنه سبحانه تزوج منهم امرأةً، فحصلت منها الملائكة ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ أي أولئك المفترين على الله بأمثال هذه المفتريات البعيدة عن جنابه مراءً ﴿لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ في العذاب المخلد، والنكال المؤبد بقولهم هذا،

(١) في المخطوط (وتزعمون).

سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ....

ونسبتهم هذه .

﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ وتقدس ذاته ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ به هؤلاء المعاندون الجاهلون.

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ منهم وهم الذين ينكشفون بقدر الله ووحدة ذاته واستقلاله في وجوب الوجود ولوازم الألوهية والربوبية، بلا شائبة شركةٍ وتوهمِ مظاهرةٍ ولوث إمكانٍ وشين نقصانٍ.

وبعد ما ثبت تنزهه سبحانه من مضمون ما تنسبون بذاته أيها المفترون المفرطون .

﴿فَإِنَّكُمْ﴾ أيها المعزولون عن مقتضى العقل الفطري والرشد الجبلي ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿مَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾ من دون الله من الأصنام والأوثان.

﴿مَآ أَنتُمْ﴾ وآلهتكم ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على الله ﴿ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ أي مفسدين معرضين، صارفين عموم الناس عن عبادته وإطاعته سبحانه بإغوائكم وإغرائكم ضَعَفَةَ الأنام، وتغريركم إياهم بعبادة الأصنام.

﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ﴾ أي الذين حق عليهم القول وجرى عليه حكمه سبحانه، ومضى قضاؤه بأنهم من أصحاب النار وأهل الجحيم، لا بد لهم أن يصْلوها ويدخلوها بلا ترددٍ وتخلفٍ.

يعني ما يفيد إضلالكم وإغراؤكم إلا لهؤلاء المحكومين بالنار في أزل

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُواْ﴾ ....

الآزال دون المجبولين على فطرة الإسلام والتوحيد.

ثم لما اتخذ بعض المشركين الملائكةَ آلهةً، واعتقدوهم بنات الله، وعبدوا لهم كعبادته سبحانه، رد الله عليهم حاكياً عن اعتراف الملائكة بالعبودية، فقال سبحانه من قِبل الملائكة:

﴿وَ﴾ كيف يليق بنا أن نرضى بما افترى المشركون علينا من استحقاق العبادة والشركة في الألوهية إذ ﴿مَا مِنَّآ﴾ أحدٌ ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ﴾ في العبودية والتوجه نحو الحق ﴿مَّعۡلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ معينٌ مقدرٌ من عنده سبحانه، لا يسع له أن يتجاوز عنه بلا إذنٍ منه سبحانه، بل يلازم كلٌ منا مقامَه المقدَّر له من ربه، متوجهاً إليه سبحانه، منتظراً لأمره وحُكمه بلا غفلةٍ وفترةٍ.

﴿وَإِنَّا﴾ معشر الملائكة ﴿لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ على الاستقامة حول عرش الرحمان كصفوف الناس في المساجد، لا يسع لأحدٍ منا أن يتعدى من مكانه مستقبلاً أو مستدبراً.

﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ المنزِّهون المقدِّسون لله الواحد الأحد الصمد عن توهّم الكثرة والشركة مطلقاً، الراسخون المتمكنون في مرتبة التنزيه والتقديس، فكيف يتأتى منا أن نرضى بمفتريات أهل الزيغ والضلال بنا؟!! عصمنا الله وعموم عباده عن زيغ الزائغين وضلالهم.

﴿وَإِن كَانُواْ﴾ أي قد كان أولئك الضالون المنهمكون في بحر الغفلة والضلال

﴿لَيَقُولُونَ ١٦٧ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ١٦٩ فَكَفَرُوا بِهِ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ١٧٠ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ١٧١﴾ ....

يعني كفار قريش خذلهم الله ﴿لَيَقُولُونَ ١٦٧﴾ على سبيل التمني والتحسر تشنيعاً وتعييراً على من مضى من الأمم السالفة:

﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا﴾ ونزَل علينا ﴿ذِكْرًا﴾ كتاباً ﴿مِّنَ الْأَوَّلِينَ ١٦٨﴾ أي من جنس كتبهم كتاباً سماوياً منزلاً من الله مثل كتبهم.

﴿لَكُنَّا﴾ حينئذٍ ﴿عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ١٦٩﴾ أخلصنا العبادة له، ولا نتجاوز عن مقتضى ما جاءنا من عنده في كتابه، ولا نتعدى عن حكمه وحدوده وأحكامه، ولا نهمل عن عظته وتذكيراته، ونعتبر من قصصه وأمثاله، وبالجملة نتعامل معه أحسن المعاملة لا كمعاملة سائر أصحاب الكتب.

ثم لما نزل عليهم ما هو أفضل الكتب تربيةً وأكملها رشداً وأشملها حكماً، وأتمها وأبلغها حَكمةً وبرهانا، وأوضحها بياناً وتبياناً، فكفروا به، وأنكروا نزوله، وأعرضوا عنه وعن أحكامه، واستهزؤوا بمن أُنزل إليه وكذَّبوا رسالته.

﴿فَكَفَرُوا بِهِ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ١٧٠﴾ آجلاً وعاجلاً جزاء ما يفعلون ويستهزئون ويذوقون وبال ما ينكرون ويعرضون، ألا أنهم هم المفسدون لأنفسهم ولكن لا يشعرون، فسيعلمون أي منقلب ينقلبون.

﴿وَ﴾ كيف لا يعلمون ولا يذوقون العذاب أولئك المسرفون ﴿لَقَدْ سَبَقَتْ﴾ أي حقت وثبتت منا ﴿كَلِمَتُنَا﴾ المشتملة على الوعد والنصر ﴿لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ١٧١﴾ وهي قوله سبحانه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [٥٨-المجادلة:٢١]،

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ ....

وقوله أيضاً:

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي الرسل والأنبياء ﴿لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ المقصورون على النصر والغلبة على الأعداء، القاهرون القادرون على من غلبهم وظلمهم واستهزأ معهم عناداً ومكابرةً.

وكيف لا يغلبون أولئك الأولياء على الأعداء، إنهم من جندنا وحزبنا ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ القاهرون على جنود الأعداء وأحزابهم المسلطون عليهم.

وبعد ما سمعت يا أكمل الرسل مضمون وعْدِنا على عموم الأولياء من الرسل والأنبياء.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي كفار قريش، وأعرض عن محاربتهم ومخاصمتهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾﴾ أي إلى حين حلول العذاب الموعود المعهود من لدنّا.

﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ العذابَ إذا نزل عليهم عاجلاً وهو عذاب يوم بدر ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ أجله في يوم الجزاء بأضعاف ما لحقهم عاجلاً وآلافه.

﴿أَ﴾ ينكرون قدرتنا على العذاب الآجل مع نزول العذاب العاجل عليهم يوم بدر ﴿فَبِعَذَابِنَا﴾ الآجل في يوم الجزاء ﴿يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ ويقولون: متى هذا ؟ بعد ما سمعوا فسوف يبصرون آجله زيادةً في يوم الجزاء بأضعاف ما لحقهم، ، أما يستحيون من الله، فيستعجلون عذابه، ولم يتفطنوا مما جرى

فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ....

عليهم عاجلاً ولا يخافون من نزوله وحلوله بغتةً.

﴿ فَإِذَا نَزَلَ ﴾ العذاب الموعود لهم آجلاً ﴿ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ أي بفناء دارهم، وهذا كنايةٌ عن قربه وإلمامه بغتةً ﴿ فَسَآءَ ﴾ وبئس حينئذٍ ﴿صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ إذ أصبحوا مفاجَئين على أنواع العذاب والنكال، فلم يستعجلون بها أولئك الجاهلون الهالكون في تيه الضلال والطغيان؟.

﴿وَ﴾ بعد ما تمادوا في الغفلة والطغيان وبالغوا في العتو والعصيان ﴿ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾﴾ أي حين إلمام العذاب الموعود.

﴿ وَأَبْصِرْ ﴾ إياهم بعدما ألمّ ونزل ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ أي أي شيءٍ يترتب على إنكارهم وتكذيبهم يوم الجزاء، أولئك الضالون.

وإنما كرره سبحانه ما كرره تأكيداً ومبالغةً في التهديد والتوعيد، تسليةً لحبيبه ﷺ، فقال:

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ ﴾ يا أكمل الرسل وتنزهت ذاتُه عن معتقدات أهل التشبيه مطلقاً، وما نسبوا إليه سبحانه من أمَارات الإمكان وعلامات النقصان، وكيف ينسبون إلى ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾ والقدرة والغلبة والكبرياء والاستقلال التام والاستيلاء العام، المنزهة ذاته عن الإحاطة، وصفاتُه عن العد والإحصاء، تعالى شأنه عن التحديد والتوصيف ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ به أولئك المسرفون المفرطون، من اثبات الولد له والإيلاد والاستيلاد.

وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

﴿وَسَلَٰمٌ﴾ من الله وبركاته ﴿عَلَى﴾ عباده ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ من عنده لتبيين توحيده وتقديسه وتعاليه عن إحاطة مطلق المدارك والعقول.

﴿وَٱلۡحَمۡدُ﴾ من ألسنة جميع من يتأتى منه الحمد والثناء حالاً ومقالاً ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المنزَّه عن اتخاذ الأهل والولد ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ الذين ظهروا من شؤونه وتطوراته حسب أسمائه وصفاته، ورباهم أيضاً على حسبها إظهاراً لكمال قدرته وعموم إحاطته.

وعن المرتضى الأكبر المتحقق بمقام التسليم والرضا كرم الله وجهه أنه قال: «من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه من مجلسه: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [٣٧-:الصافات:١٨٠].

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتحقق بجلال الحق وكمال كبريائه واستغنائه عن عموم مظاهره ومصنوعاته واستيلائه على جميع ما ظهر وبطن من الأمور الكائنة المنعكسة من بروق تجلياته حسب أسمائه وصفاته المندرجة في شمس ذاته: أن تلاحظ شؤن الحق على هياكل الموجودات، وتطالع ظهورها على صحائف الكائنات التي هي بالحقيقة كالمرايا لظهور آثار الأسماء والصفات الإلهية، وتتفكر في خلق السفليات والعلويات، وتتأمل في كيفية ارتباطاتها ورجوعها إلى الوحدة الحقيقية الحقية، وكيفية سريان الوحدة الذاتية عليها بلا حلولٍ واتحادٍ، واتصالٍ وانفصالٍ، وحصولٍ وامتثال، وكذا عن كيفية انبساط أظلال الوجود الإلهي على ذرائر الأكوان، وامتداداتها على مرايا الإعدام على سبيل التجدد والتقضي بلا طريان ضدٍ وحلول فترةٍ وانقطاعٍ أصلاً.

ومن تأمل ظهور الحق على الآفاق والأنفس على الوجه الذي تلا، فقد تحقق بعزة الله، وانكشف له وحدته المحتوية على عموم الكثرات بلا توهم كثرةٍ في ذاته المستغني عن التعدد مطلقاً، فحينئذٍ ارتفع عن بصر شهوده غير الحق وشؤنه، ولا يرى في فضاء وجوده سوى اللهَ موجوداً ومشهوداً، فتمكن حينئذٍ في مقام التوحيد، وأخذ في التنزيه والتقديس والتسليم والتكبير والتحميد، قائلا بلسان استعداده: سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين المنبِّهين على مرتبة التوحيد، والحمد لله رب العالمين، آمين.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة ص

لا يخفى على من تحقق بوحدة الحق وإحاطته وشموله على عموم ما لاح عليه بُروق شؤونه، ولوامع تجلياته الغير المحصورة: أن الحقيقة الحقية المنزهة عن لوث التعينات وشوب الإضافات مطلقاً، لما أراد أن يتجلى لذاته بذاته، ويطالع أسماءه الحسنى وصفاته العليا التي اتصف بها ذاته على التفصيل حتى ينقلب حضورُه شهوداً، وعلمُه عيناً، تنزل من مرتبة الأحدية المستهلكة دونها الكثرات مطلقاً المتلاشية عنده الإشارات والإضافات رأساً، فالتفت نحو العدم، بعدما أفاض عليه خلعة الاستعداد والقبول، فانعكس فيه من شؤن الحق وأشعة أنوار شمس ذاته، ما لا يتناهى أبد الآباد من الصور والآثار الغير المتكررة، فيتراءى أي هذا النظام المشاهد المحسوس من تلك الآثار والأظلال المنعكسة من شمس الذات، فانبسط عليها بالاستقلال والاستيلاء التام، بلا مشاركةٍ ومظاهرةٍ، فيوجد الكل به وله وفيه، ويرجع الكل إليه رجوع الأضواء إلى الشمس والأمواج إلى الماء.

فمن خرج عن ربقة عبوديته بعدما سمع كيفية ظهوره، فقد لحق

بالأخسرين أعمالاً، ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ۝١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ۝١٠٦﴾ [١٨- الكهف:١٠٦،١٠٥،١٠٤].

وما ذلك إلا بسبب جهلهم وضلالهم[1] وخروجهم عن مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة بينهم بالوضع الإلهي المنبه به على الأنبياء العظام والرسل الكرام إلا من استكبارهم وتغررهم الحاصل لهم بتغرير شيطان أماراتهم عليهم، وتضليله إياهم وتلبيسه.

لذلك أقسم سبحانه بكتابه المجيد المنزل من عنده، المشتمل على فوائد الكتب السالفة المنزلة من لدنه بأنّ كفرهم وإنكارهم بتوحيد الله وتصديق رسله وكتبه، إنما نشأ من استكبارهم في أنفسهم، واستعلائهم على عباد الله عدواناً وظلماً، ابتلاءً من الله إياهم وافتتاناً لهم على مقتضى أسمائه المقتضية للإذلال والإضلال، إظهاراً للقدرة الكاملة والحكمة الباعثة على وضع التكاليف المستلزِمة للثواب والعقاب والإحسان والخذلان والإنعام والانتقام.

فقال مخاطبا لحبيبه الذي اختاره لرسالته إلى كافة البرايا بالدعوة العامة والتشريع التام الكامل المكمل، المتممِ لمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم المتعلقة لسلوك طريق التوحيد، بعد ما تيمن باسمه العظيم الجامع لجميع الأسماء والصفات:

---

(١) في المخطوط (إلى جهلهم وظلالهم).

صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴿٢﴾ ....

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الذي تجلى لحبيبه ﷺ بمقتضى عموم أسمائه وصفاته، فأرسله إلى عموم البرايا وكافة الأمم، وختم ببعثته أمر التشريع والتكميل ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عليهم بجعله وإرساله رحمةً للعالمين ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ عليه ﷺ بخلقه وإيجاده على الخُلق العظيم.

﴿صٓۚ﴾ أيها الصفي الصافي مشربه عن الأمور المنافية لتوحيد الحق وإيجاده وصرافة وحدته الذاتية، والصدوق الصادق في ادعاء الرسالة والنبوة بمقتضى الوحي الإلهي وإلهامه، والصبور الصابر على متاعب الدعوة والتبليغ وحمل أعباء الرسالة.

﴿وَ﴾ حق﴿ ٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴿١﴾﴾ والبيان وأنواع الدلائل والبرهان المنزَّل من عندنا عليك يا أكمل الرسل؛ لتبيين أحكام دين الإسلام وتحقيق شعائر الإيمان والتنبيه على مرتبة التوحيد والعرفان المنتهي إلى الكشف والعيان، ما الكفار المنكرون بك وبكتابك ودينك مطلعون بعيب ونقصان في دينك وكتابك يتشبثون به.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وأعرضوا عنا وعنك وعن كتابك لا سندَ لهم أصلاً لا عقلاً ولا نقلاً، بل هم ﴿فِي عِزَّةٖ﴾ كبر وخيلاء عند نفوسهم ﴿وَشِقَاقٖ ﴿٢﴾﴾ خلافٍ لنا ولك بعيدٍ عن توحيدنا وتصديقك.

وبعد ما سمعت حالهم لا تبال بهم وبخلافهم ومرائهم وكبرهم وخيلائهم، اذكر:

كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ....

﴿كَمْ﴾ أي كثير ﴿أَهْلَكْنَا﴾ أمثالهم ﴿مِن قَبْلِهِم مِّن﴾ أهل ﴿قَرْنٍ﴾ مغمورين في الكبر والخيلاء، منهمكين في الخلاف والشقاق أمثالهم ﴿فَنَادَوا﴾ واستغاثوا متضرعين إلينا، راجين منا عفونا إياهم حين أخذناهم بظلمهم بغتة ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾ أي ليس حينئذ وقت تأخير ونجاةٍ لهم وخلاصٍ، فلم نجبهم لذلك، لمضي وقت الاختبار والاعتبار، بل أهلكناهم واستأصلناهم، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار.

﴿وَ﴾ من شدة شقاقهم وخلافهم ﴿عَجِبُوٓا﴾ وتعجبوا أي أهل مكة ﴿أَن جَآءَهُم﴾ وأُرسل عليهم ﴿مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي من جنسهم وبني نوعهم، يعني محمداً ﷺ ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ من كمال تعجبهم وشدة إنكارهم واستبعادهم، وضعَ الظاهر موضع الضمير تنصيصاً بأنه ما حملهم على هذا القول إلا كفرهم وإنكارهم: ﴿هَٰذَا﴾ أي محمد ﷺ فيما أظهره في صورة المعجزة الخارقة للعادة ﴿سَٰحِرٌ﴾ يسميه معجزةً تغريراً وتلبيساً، وفيما نسبه إلى الوحي والإنزال ﴿كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾ مبالغٌ في الكذب مستغرقٌ فيه.

ثم لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فشق ذلك على قريش، وفرح المؤمنون، فازدحم صناديدهم عند أبي طالب، وقالوا له: أنت شيخنا وسيدنا، وقد علمتَ ما فعل هؤلاء، فأتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك.

فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ، فأحضره معهم، فقال: يا ابن أخي، هؤلاء

أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ

قومك يسألونك السؤل، فلا تمل كل الميل على قومك.

فقال ﷺ: وماذا يسألون ؟

قالوا له: ارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك، وعلى هذا نعاهد معك عند عمك.

فقال ﷺ: أتعطونني كلمة واحدة، وتملكون بها العرب وتدين بها العجم.

فقال أبو جهل: لنعطينكها وعشر أمثالها.

فقال رسول الله ﷺ: قولوا لا إله إلا الله!

فنفروا من ذلك، وقاموا قائلين على سبيل الإنكار والاستبعاد:

﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ ﴾ فمن أنى يسع الإله الواحد للخلق الكثير؟ ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ الذي يطلب هذا المدعي ﴿ لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥ ﴾ أي عجيبٌ بديعٌ ابتدعه من تلقاء نفسه.

﴿ وَ ﴾ بعد ما تنفروا من قوله وتعجبوا من طلبه ﴿ ٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ ﴾ أي أشرافهم قائلين: ﴿ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ ﴾ أي اثبتوا ﴿ عَلَىٰٓ ﴾ عبادة ﴿ ءَالِهَتِكُمۡۖ ﴾ ولا تصالحوا معه ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ الذي حدث بيننا وابتدع فينا ﴿ لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦ ﴾ بنا من شؤم الزمان وريبه.

وما لنا إلا الصبر والثبات إلى أن تتجلى الغياهب وترتفع النوائب، مع أنا ﴿ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا ﴾ أي بالتوحيد الذي يقوله هذا الداعي ﴿ فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ التي هي النصرانية، إذ النصارى يقولون بالأقانيم الثلاثة، ولم ينقل منهم

إِنَّ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ....

توحيد الإله، ولا من الذين مضوا قبلهم من أرباب الملل السالفة، وبالجملة ﴿ إِنَّ هَٰذَآ﴾ أي ما هذا التوحيد الذي ظهر به ﴿ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾ أي كذبٌ اخترعه من تلقاء نفسه، ونسبه إلى الوحي افتراءً ومراءً، قاصداً به التغرير والتلبيس على ضعفة الأنام.

﴿أَ﴾ تعتقدون[1] أيها العقلاء المتدربون أنه ﴿ءُنزِلَ عَلَيۡهِ﴾ أي على يتيم أبي طالب ﴿ ٱلذِّكۡرُ﴾ أي الوحي والقرآن ﴿ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ مع أنه مثلنا ومن بني نوعنا، بل أدون منا، ونحن أشرف منه، وأكبر سناً، وأكثر أموالاً وأولاداً، وأكرم جاهاً وثروةً، وأعلى سيادةً ورئاسةً، إنما يقولون هذا على سبيل الإنكار والاستبعاد لا أنهم معتقدون على الوحي والإنزال ﴿ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ﴾ وريب عظيم ﴿ مِّن ذِكۡرِيۚ ﴾ ووحيي إليه، بل إلى جميع المرسلين ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾﴾ أي إنما قالوا هذا، وشكّوا في الوحي وارتابوا؛ لأنهم لم يذوقوا عذابي، ولو أنهم ذاقوه لما قالوا، فمن أين يقولون هذا ويحكمون إن الوحي لو نزل لنزل على رؤسائنا وسادتنا، أهم يعلمون الغيب؟!

﴿أَمۡ عِندَهُمۡ﴾ أي عند أولئك البعداء المنهمكين في بحر الغفلة والضلال ﴿خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ومقاليد نعمه ومفاتيح كرمه ؛ ليكون لهم الخيرة في أمره سبحانه، فيعطونها على من يشاء، ويمنعونها عن من

(١) في المخطوط (تعقدون).

ﭐلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ

يشاء، فكيف يحكمون على[1] ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ الغالب على أمره في تصرفات ملكه وملكوته بالاستقلال والاختبار ﴿ٱلۡوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ على من شاء وأراد بلا مشاورةٍ ومظاهرةٍ.

﴿أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ﴾ أي يدّعون أن لهم التصرف في العلويات والسفليات والممتزجات، وان ادعوا ذلك لأنفسهم ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ﴾ وليصعدوا ﴿فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾ التي هي معارج الوصول إلى منشأ الوحي والإلهام، ومنبع النزول والإنزال، فليأتوا بالوحي إلى من أرادوا واختاروا.

وبالجملة من أين يتأتى لأولئك الكفرة العجزة المقهورين الصاغرين الخيرةُ في أمره سبحانه وحكمه بمقتضى قضائه، حتى يتفوهوا عنه وعن أفعاله وأحكامه، إذ لا يسع لأحدٍ من أقوياء عباده أن يَسأل عن فعله، مع أن أولئك الحمقى:

﴿جُندٞ مَّا﴾ أي شرذمةٌ قليلةٌ في غاية القلة ﴿هُنَالِكَ﴾ أي وَضعوا ونَصبوا أنفسهم بمعاداتك في أبعد الأمكنة وأعلى المرتبة مع أنهم ﴿مَهۡزُومٞ﴾ مغلوبٌ ﴿مِّنَ﴾ جميع ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿١١﴾﴾ الذين تحزبوا على رسل الله وأنبيائه مع كمال شدتهم وقوتهم ووفور شوكتهم وصولتهم، فانهزموا واستؤصلوا إلى حيث لم يبق منهم أحد على وجه الأرض.

إذ ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ مع كمال قوتهم وقدرتهم نوحاً، فأغرقناهم

---

(١) في المخطوط (إلى).

وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ ....

أجمعين بالطوفان ﴿وَعَادٌ﴾ مع نهاية عتوهم وعنادهم هوداً، وأهلكناهم بالريح العاصفة ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾﴾ أي صاحب الدولة الثابتة التي ادعى بسببها الألوهية لنفسه موسى، فأغرقناه وجنودَه في اليم.

﴿وَثَمُودُ﴾ المتناهي في القوة والشدة صالحاً، فأهلكناهم بالصيحة ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ المتبالغ في الجحود والإنكار على الله وحدوده لوطاً، فقلبنا عليهم ديارهم، وأمطرنا عليهم الحجارةَ فأهلكناهم بها ﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ﴾ شعيباً، فاستأصلناهم كذلك ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ البعداء المنحرفون عن صوب السداد والصواب هم ﴿ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾ الذين كذَّبوا الرسل، وتحزبوا عليهم، وقاتلوا معهم مع كونهم أشداء أقوياء، فانهزموا عنهم بنصرنا إياهم، فغُلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين، وبالجملة:

﴿إِن كُلٌّ﴾ أي ما كلٌ من الأمم السالفة المذكورة ﴿إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ المذكورين ﴿فَحَقَّ﴾ أي لذلك لزم ولحق عليهم ﴿عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ أي أنواع عذابي ونكالي عاجلاً وآجلاً.

﴿وَمَا يَنظُرُ﴾ وينتظر ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المعاندون معك، المنكرون لدينك، المكذِّبون لرسالتك وكتابك ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ ينفخها إسرافيل في الصور بإذنٍ منا فيسمع هؤلاء الضالون، فيموتون على الفور بلا توقفٍ إذ ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾ قرارٍ ووقوفٍ مقدارَ خروج النفس ورجوعه.

وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ

وهذا كناية عن سرعة نفوذ قضاء الله، حين حلول عذابه عليهم إلى حيث لا يسع فيه تمييز التقدم والتأخر أصلاً، بل ينزل بغتة.

﴿وَ﴾ بعد ما سمع كفار مكة أوصاف أهوال يوم الجزاء، وافتراق الناس فيها فرقاً وأحزاباً، بعضهم أصحاب يمين، وبعضهم أصحاب شمال، فيُعطى لكل فردٍ كتاباً كُتب فيه أعمالهم الصالحة والفاسدة، فيُحاسب كلٌ على أعماله، فيُجازى على وفقها ﴿قَالُوٓاْ﴾ مستهزئين متهكمين يعني أهل مكة، بعد ما سمعوا أهوال يوم الجزاء وأفزاعها: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي صحيفة أعمالنا وقسطنا من العذاب المترتب عليها ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ ونحن نرضى بها وبالعذاب المترتب عليها بلا حساب.

وبعد ما قالوا كذلك واستهزؤوا مع الرسول، وضحكوا من قوله، ونسبوه إلى الخبط والجنون، أمر سبحانه حبيبه بالتصبر على مقاساة ما جاؤوا به مما لا يليق بشأنه، فقال:

﴿ٱصْبِرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ لك وفي شأنك أولئك الجاهلون عناداً أو مكابرةً ولا تلتفت(١) إلى هذياناتهم، ولا تحزن من أباطيلهم المستهجنة، فعليك يا أكمل الرسل أن توطن نفسك على الصبر المأمور، ولا تتجاوز عن مقتضاه، ولا تُتعب نفسك بالقلق والاضطراب والمجادلة معهم والمخاصمة إياهم إلى أن نكف عنك شرورهم، ولا تلتفت إلى هواجس نفسك، حتى لا تقع في محل الخطاب والعتاب ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ وما جرى

(١) في المخطوط (ولا يلتفت).

ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٩﴾ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ ....

عليه من العتاب الإلهي من عدم حفظه نفسه عن مقتضياتها ومشتهياتها حتى ابتلاه الله سبحانه بما ابتلى مع أنه ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾ أي صاحب القدرة والقوة في الحفظ وحفظ النفس عن محارم الله ومنهياته، وكيف لا يكون كذلك ﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ رجّاعٌ إلى الله وإلى مرضاته سبحانه في جميع حالاته.

ومن كمال رجوعه إلينا وحفظه لمرضاتنا ﴿ إِنَّا﴾ من مقام لطفنا وجودنا ﴿سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ﴾ له وجعلناها تحت حكمه إلى حيث سارت ﴿مَعَهُۥ﴾ حيث شاء ﴿ يُسَبِّحۡنَ﴾ بمشايعته وموافقته حين يسبح ﴿ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ أي بالليل والنهار، يعني ما دام يميل ويتوجه إلى ربه، مالت الجبال معه ازدياداً لثوابه، وتكثيراً لفضائله.

﴿وَ﴾ كذا سخَّرنا له ﴿ ٱلطَّيۡرَ ﴾ أي جنس الطيور يستمعن قوله

﴿ مَحۡشُورَةٗۖ ﴾ على فنائه مسخرة لحكمه ـ على قراءة النصب ـ ﴿وَالطَّيْرُ﴾ محشورة عنده محكومة لأمره يسبحن بمشايعته بالغدو والآصال كتسبيح الجبال على قراءة الرفع وبالجملة ﴿كُلّٞ﴾ أي كل واحد من داوود والجبال والطيور ﴿ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٩﴾﴾ أي رجّاعٌ إلى الله، مسبحٌ له سبحانه، مقدسٌ عما لا يليق بجنابه على الدوام والاستمرار.

﴿وَ﴾ من كمال جودنا ولطفنا معه ﴿شَدَدۡنَا﴾ له ﴿مُلۡكَهُۥ﴾ الظاهر أي قوينا استيلاءه وتسليطه على الأنام وألقينا هيبته على قلوبهم إلى حيث لم

وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ ....

يخرجوا عن الحدود الموضوعة في شرعه خوفاً من اطلاعه.

وسبب هيبته أن تحاكم عنده رجلان، فادعى أحدهما على الآخر بأنه غصب منه بقرةً عدواناً وظلماً، فأنكر الآخر، ولم يكن للمدّعي بينة، فأريناه في منامه: أن يقتل المدعى عليه، ويحكم بالبقرة على للمدعي.

فلما استيقظ كذّب نفسه، واستغفر، فنام، فأريناه مثل ذلك، واستيقظ فاستغفر ثانياً، فنام فرأى ثالثاً مثل ذلك.

فتيقن أنه من الله، فهمّ أن يقتله تنفيذاً لما أُلهِم إليه.

فقال المدعى عليه: أتقتلني بلا بينة.

فقال عليه السلام: نعم واللهِ لأنفذن حكم الله تعالى فيك، فلما تفطن الرجل منه الجزم في عزمه، اضطر إلى الاعتراف، حيث قال : لا تعجل يا نبي الله حتى أخبرك، والله ما أُخذت بهذا الذنب ظلماً وزوراً، ولكني قتلت والدَ هذا المدعي اغتيالاً وخداعاً.

فقتله عليه السلام، وعظُمت هيبته في قلوب الناس، حتى انزجروا عن مطلق المحرمات والمنهيات خوفاً من اطلاعه.

وقالوا: لا نعمل شيئاً إلا علِمه، فيقضي علينا بمقتضى علمه.

هذا تأييدنا وتقويتنا إياه بحسب الظاهر والسلطنة الصورية.

﴿وَ﴾ أما بحسب الباطن والحقيقة ﴿آتَيْنَاهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ المتقنة التي يتصرف بها في حقائق الأمور، ويطلع على سرائرها بنور النبوة والولاية الموروثة

وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ....

له من أسلافه الكرام، الموهوبة إياه من الحكيم العلام تأييداً له وتقوية لشأنه ﴿وَ﴾ آتيناه أيضاً ﴿فَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ أي قطع الخصومات على التفصيل الذي وقع بين المتخاصِمين بلا حيفٍ وميلٍ إلى جانب على ما هو مقتضى العدل الإلهي بالخطاب المفصول الموضح الواضح المقتصد بلا اقتصارٍ مخلٍ وإطنابٍ مملٍ، وبالجملة بلا إغلاق يشتبه مضمونه على المتخاصمين.

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾ وحصل عندك يا أكمل الرسل ﴿ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ أي خبر الملكين المكلفين المصورين بصورة الخصمين اللذين جاءا للحكومة عند أخيك داوود عليه السلام حين اعتزل في محرابه للعبادة على ما هو عادته في تقسيم أيامه ثلاثة أقسام، يومٌ لعيش النساء، ويومٌ لقطع الخصومات بين الأنام، ويومٌ للتوجه نحو الحق والمناجاة معه سبحانه في محرابه.

وكان في محرابه والبابُ مغلقٌ عليه، والحراسُ على الباب فجاءا أي الملكان في صورة رجلَين متخاصمَين على الباب، فمنعهما البواب، فأخذا يستعليان المحراب.

اذكر نبأهما وقت ﴿ إِذْ تَسَوَّرُوا۟﴾ أي صعدوا على حائط ﴿ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ واستعلوا على سوره بقصد الدخول عليه، اذكر وقت:.

﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ من غير الباب بأن شق لهما الجدار فدخلا عليه ﴿فَفَزِعَ﴾ داوود ﴿مِنْهُمْ﴾ واستوحش من دخولهم لا من الطريق المعهود،

قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ....

وبعدما تفرسوا منه الرعب والفزع ﴿ قَالُواْ ﴾ له تسليةً وتسكيناً: ﴿ لَا تَخَفۡۖ ﴾ منا ولا تحزن من إلمامنا إياك، إذ نحن ﴿خَصۡمَانِ ﴾ تحاكمنا إليك حتى تقضيَ بيننا وقد ﴿ بَغَىٰ ﴾ أي ظلم واستولى ﴿ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾ أي أحدنا على الأخر ﴿فَٱحۡكُم ﴾ أيها الحاكم العدل العالم ﴿ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ ﴾ أي بالعدل السوي ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ أي لا تُجر ولا تتجاوز عن مقتضى القسط الإلهي

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ ٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ ﴾ أي أعدل الطرق وأقوم السبل في سلوك طريق الحق، ثم أخذوا في تقرير المسألة، فقال أحدهما:

﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي ﴾ في الدين ورفيقي في سلوك طريق التوحيد واليقين

﴿ لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ﴾ وهي الأنثى من الضأن، كنى بها العرب عن المرأة ﴿وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ فقط، ﴿ فَقَالَ ﴾ لي عدواناً وظلماً: ﴿ أَكۡفِلۡنِيهَا ﴾ أي اجعلني كافلاً لها، مالكاً إياها، حتى صارت نعاجي مائة، ولم تبق لك نعجة ﴿وَ﴾ لم يقتصر على مجرد القول، بل ﴿ عَزَّنِي﴾ وغلب علي ﴿ فِي﴾ مضمون

﴿ ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ المذكور، بحججٍ لا أقدر على دفع، ولا أسع المقاومة معه.

وبعد ما سمع كلامَ المدعي وتأمل في تقريره، قال للمدعى عليه: هل تصدقه فيما ادعاه عليك، قال: بلى.

ثم التفت عليه السلام نحو المدعي، متعجباً مستبعداً عما جرى عليه من

قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ..

الظلم والعدوان حيث.

﴿قَالَ﴾: تالله ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ هذا الظالم ظلماً صريحاً ﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ ليأخذها منك ويضيفها ﴿إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ ليكثرها بها ويخلطها عليه حرصاً منه إلى تكميل مشتهاة نفسه الأمّارة ﴿وَ﴾ لا تستبدع هذا الأمر، ولا تستبعد منه هذا بل ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ الذين خلطوا أموالهم وتشاركوا فيها ﴿لَيَبْغِى﴾ أي يظلم ويتعدى ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ظلماً وزوراً ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من الخلطاء بالله، واستقاموا على صراطه الموضوع من عنده على العدالة والاستقامة ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المرضية عنده سبحانه، سيما في الأمور المتعلقة لحقوق عباده، ولكن ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي هم قليلٌ في الدنيا في غاية القلة والندرة، وما مزيدة لكمال القلة والإبهام [كذا، وفي نسخة أخرى: وما مزيدة زيدَ لتأكيد القلة والإبهام].

ثم التفت عليه السلام إلى المدعَى عليه، فقال له بعد ما سمع منه اعترافه: إن رمت هذا، ضربنا منك هذا، إشارة إلى طرف أنفه، فقال المدعى عليه: أنت أيها الحاكم أحق بذلك الضرب، فنظر عليه السلام ولم ير أحداً ﴿وَ﴾ حينئذٍ ﴿ظَنَّ﴾ بل تيقن ﴿دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ وابتليناه بالذنب ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ عما جرى عليه من افتتان الله إياه ﴿وَخَرَّ﴾ ساجداً من خشية الله، بعدما

رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾

كان ﴿رَاكِعًا﴾ مكسور الظهر، منكوس الرأس عن ارتكاب الذنب ﴿وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ إلينا على وجه الندم والخجل مستحيياً عنا، مستوحشاً عن سخطنا وغضبنا إياه.

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ الذنب بعدما أخلص في الإنابة والرجوع إلينا، بل جميع ذنوبه التي صدرت عنه ﴿وَ﴾ كيف لا نغفر ﴿إِنَّ لَهُۥ﴾ أي لداوود عليه السلام ﴿عِندَنَا﴾ وفي ساحة قربتنا وعزتنا ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ لقربة ومنزلة رفيعة ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ أي خيرَ مرجعٍ ومنقلبٍ من مقامات القرب ودرجات الوصول. وأُسر في ابتلاء. الله إياه أنه لما رأى في كتب التواريخ أوصاف أسلافه إبراهيم وإسحاق ويعقوب أضمر في نفسه أن يؤتى له مثل ما أتى إياهم من الخير والحسنى فأوحى إليه أنهم قد ابتلوا فصبروا فأعطي لهم ما أعطي فقال داود عليه السلام يا رب لو ابتليت لصبرت أيضاً مثلهم فأوحي أنك تبتلى في شهر كذا في يوم كذا فاستحفظ الأوقات فلما جاء الموعد دخل محرابه وأغلق الباب على نفسه فجاءه الشيطان في صورة حمامة من ذهب في غاية الحسن والبهاء ووقعت بين رجليه فأراد أخذها ليُريَ بني إسرائيل عجائب صنع الله وبدائع قدرته فطارت وجلست في كوة هناك فأراد أخذها فذهبت فنظر من الكوة فإذا هو[1] بامرأة حسناء من أجمل النساء تغتسل فتعجب منها فالتفتت وأبصرت ظله فنفضت شعرها فغطى جميع بدنها فازداد داود عجباً فوق العجب وبالجملة قد ابتلي عليه السلام بمحبة تلك المرأة وكان عمره

(١) في المخطوط (فإذا هي).

يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ ....

حينئذ سبعين سنة فسأل عنها فقيل هي امرأة أوريا بن جنان فأوجس في نفسه قتله ليتزوج امرأته وكان أوريا حينئذ مع ابن أخت داود في جيش فأرسل إلى ابن أخته أن يقدم أوريا قدام التابوت وكان من عادته من يقدمه قدام التابوت لا يحل له الرجوع حتى يفتح أو يقتل فقدمه ففتح فأمره أن يقدمه إلى أخرى ،فقدمه ففتح أيضاً ،ثم أمر أن يقدمه ثالثاً ،فقدمه إلى جيش عظيم فقتل .وبعد ما انقضت عدة امرأته تزوجها داود عليه السلام ،وهي أم سليمان عليه السلام. فعاتبه سبحانه بما عاتبه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب. والعهدة على الراوي، وأنكر بعضهم هذه القصة ؛لأن الأنبياء معصومون عن أمثاله وعن علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه من تحدث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة وهي حد الفرية على الأنبياء، والعلم عند الله.

ثم لما عاتب سبحانه داود عليه السلام بما عاتب، وقبل توبته بعدما استغفر وأناب، أراد سبحانه من كمال خلوصه في توبته ورجوعه نحو الحق عن صميم طويته أن يشرّفه بخلعة الخلافة، فقال منادياً له، إظهاراً لكمال اللطف والكرم معه:

﴿يَـٰدَاوُۥدُ﴾ المتأثرُ عن عتبنا، التائبُ إلينا، المنيبُ نحونا عن محض الندم والإخلاص ﴿إِنَّا﴾ بعد ما طهّرناك عن لوث بشريتك، وغفرنا لك ما طرأ عليك من لوازم هويتك ولواحق ناسوتك ﴿جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي هي محل الكون والفساد، وأنواع الفتن والعناد، فلك أن تستخلف عليها نيابةً عنا ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ المستحكمين لك، المترددين إليك في

بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ....

الوقائع والخطوب ملتبساً ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ السويِّ بلا ميل إلى كلا طرفي الإفراط والتفريط على الوجه الذي وصل إليك في كتابنا صريحاً أو استنبطت منه ضمناً ﴿ وَ﴾ عليك أن ﴿ لَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ في حكوماتك وقطعك للخصومات بين الأنام، يعني عليك أن ترجع في جميع الأحكام إلى كتابنا، ولا تميلَ في حال من الأحوال إلى ما تهواه نفسك ويقتضيه رأيك ويشتهيه قلبك، إن كان مخالفاً لما في الكتاب، وإن اتبعتَ إليه بعد ما نهيناك ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ أتباعك إياه ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ الموصِل إلى توحيده، المبني على القسط والاعتدال ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي استوى على عروش عموم ما لمع عليه بروق تجلياته بالقسط والاستقامة ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ يوم يرجعون إلى الله، ويُحشرون إلى عرصات العرض ﴿ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ أي بسبب نسيانهم فطرتهم الأصلية وعهدهم الذي عهدوا مع الله فيها، وإنكارهم على تنقية الحق أعمالهم في يوم البعث والجزاء وضلالهم عن الإيمان به وبجميع ما فيه من الأمور الأخروية.

﴿وَ﴾ كيف لا نبعث الأموات ولا نحاسب أعمالهم التي أتوا بها في دار الاختبار، إذ ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ وجميع ما فيها ومن فيها ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ وجميع من عليها وما عليها ﴿وَ﴾ كذا ﴿مَا بَيْنَهُمَا﴾ من الممتزجات الكائنة فوق الأرض وتحت السماء

بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ ....

﴿ بَٰطِلًاۚ ﴾ عبثاً بلا طائلٍ ومصلحةٍ تقتضيها الحكمة الباعثة على إظهارها، مع أنا ما كنا من العابثين اللاعبين، وما يليق بشأننا أن يُنسب أفعالنا إلى البطلان والخلوّ عن الحكمة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي القول ببطلان أفعالنا وخلائها عن الفائدة وعرائها[1] عن الحكمة والمصلحة ﴿ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ ﴾ بالحق العليم الحكيم، وأعرضوا عن الإيمان وأنكروا توحيده، فاستحقوا بذلك الظن أسوأ العذاب وأشد النكال ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ عظيمٌ وعذابٌ أليمٌ ﴿ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ إذ هم في أوحش أمكنة جهنم وأهولِها وأعمقِها.

﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي بل ظنوا وزعموا من شدة جهلهم وسخافة فطنتهم: أنا نسوي في الرتبة بين أرباب الهداية والإيمان وأصحاب الضلال والطغيان ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ بل زعموا واعتقدوا مساواة أهل المغفرة والتقوى مع أصحاب الغفلة والهوى، المنهمكين في أودية الضلالات بمتابعة اللذات والشهوات.

ثم قال سبحانه مخاطباً لحبيبه ﷺ على سبيل العظة والتذكير:

هذا ﴿ كِتَٰبٌ ﴾ جامعٌ لفوائد الكتب السالفة، مشتملٌ على زوائد خلت عنها تلك الكتب ﴿ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ ﴾ أيها الجامع لجميع مراتب الوجود من مقام عظيم جودنا معك ومع من تبعك من المؤمنين ﴿ مُبَٰرَكٌ ﴾ كثير الخير والبركة على من

(١) في المخطوط (وغرائها).

﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ ....

امتثل بأوامره واجتنب عن نواهيه وانكشف بما فيه من الرموز والإشارات المنبهة إلى التوحيد وإسقاط الإضافات، والتخلق بصفات الحق وأخلاقه، والاتصاف بمقتضيات أسمائه الحسنى، وإنما أنزلناه ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ أي ليتدبر المتدبرون المتفكرون في أساليب ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ الكريمة واتساق تراكيبه البديعة وإفاضاتها المعاني العجيبة المنتشئة المترشحة من بحر الذات حسب شؤون الأسماء والصفات الظاهرة آثارها على وفق التجليات الحِبِّية ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ ويتعظ بعدما تأمل وتدبر ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ المستكشفون عن حقائق الموجودات، ولباب الكائنات والفاسدات المعرضين عن قشورها.

﴿وَ﴾ بعدما كرَّمناه بتشريف خلعة الخلافة ﴿وَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ﴾ ولداً خلفاً عنه، وارثاً لملكه وخلافته، محيياً اسمه ومراسم دينه ومعالم ملته، يعني ﴿سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ﴾ سليمان ؛ لأنه مقبولٌ عندنا، مقربٌ في حضرتنا، مكرمٌ لدينا، وكيف لا يكون كذلك ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ رجَّاعٌ إلينا، ملتجئٌ نحونا في عموم الأوقات وشمول الحالات على وجه الخلوص والتفويض التام.

اذكر يا أكمل الرسل كمال رجوعه وإخلاصه فيه وقت :

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ﴾ وهو مشمِّر إلى الغزو ومهيءٌ لأسبابه، متمكنٌ على كرسيه لضبط العسكر وآلات القتال بالعشي ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ من الخيل، وهي التي تدور سريعاً كالرحى على طرف حافرٍ من حوافره، إن أراد الركاب تدويره، وهي من أكمل أوصاف الخيل وأحمدها عند أصحاب القتال ؛ لأن

ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ....

المبارِز كثيراً ما يحتاج إلى تدوير فرسه يوم الوغى ﴿ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾ سريعة الجري والعدو.

وذلك أنه جلس على كرسيه يوماً بعد ما فرغ من ورده في الظهيرة ؛ لإعداد أسباب الغزو والقتال الذي قصد أن يخرج إليه يومئذ، فأمر بعرض الخيول عليه، فأشغله الالتفات والتوجه نحو الخيول عن وردِ عصره، فتذكر، والشمسُ قد غربت، فاغتم غماً شديداً، وتحزَّن تحزناً بليغاً إلى حيث لم يطرأ عليه مثله.

﴿فَقَالَ﴾ من شدة أسفه وضجرته متأوهاً لائماً على نفسه: ﴿ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ ﴾ الخيل ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي كحبِّ الخير والتوجه المقرب إلى الله، لذلك ألهاني ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ ﴾ الشمس ﴿بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾ وفات عني وِردي الذي كان قبل الغروب.

وبعدما وقع ما وقع من الغفلة، تسارع إلى التدارك والتلافي، فأخذ يقطع عرق الباعث إلى الإلهاء والإغفال، فقال للشرطة:

﴿ رُدُّوهَا ﴾ أي الصافنات ﴿ عَلَىَّ ﴾ وكرُّوها إليّ، فأعادوها معرضين ثانياً ﴿ فَطَفِقَ ﴾ سليمانُ وأخذ السيف الصارم بيده، يمسح ويمضي ﴿مَسْحًۢا ﴾ وإمضاءً ملاصقاً ﴿ بِٱلسُّوقِ ﴾ وهي جمع ساق ﴿وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ يعني أخذ يقطع قوائمها ورؤوسها، ليزول حبها عن قلبه، ويتصدق بها طلبا لمرضات ربه، وجبراً لما انكسر من ورده.

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ....

وعن المرتضى المجتبى كرم الله وجهه: أن الضمير في ردوها راجعٌ إلى الشمس، يعني أمر سليمان الموكلين على الشمس بإذن الله ووحيه إياه، أن يردوا الشمس بعدما غربت ؛ ليأتي سليمان بورده، فأتى بما أتى، وذلك من كمال كرم الله معه .

﴿وَ﴾ مع كونه مقبولاً عندنا ممدوحاً لدينا ﴿لَقَدْ فَتَنَّا﴾ وابتلينا ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾ بفتنة عظيمة وأخذنا منه ملكه بجريمة صدرت من أهل بيته بأدنى ملابسة له ورضاً من جانبه ؛وذلك أنه عليه السلام غزا صيدون[1] من الجزائر، فقتل ملكها فأصاب ابنته اسمها جرادة وهى من أجمل النساء وأحسنها شكلا، فأعجب سليمان بحسنها وخصها لنفسه وهي أحب عليه من سائر نسائه، وكانت من شدة حزنها وكآبتها على أبيها لا يرقى دمعها ،ولا يزال همها ،فأمر عليه السلام الشياطين فمثل لها صورة أبيها ،فكانت تغدو إليها و تروح مع ولائدها يسجدون لها ، على ما هي عادتها في حياته وملكه .

ومضى عليها أربعون يوماً، فاستشعر بها آصف بن برخيا فأخبره، فكسر الصورة وضرب المرأة والولائد، فخرج عليه السلام إلى الصحراء باكياً متألماً مستحيياً من ربه، وكان من عادته عليه السلام إذا دخل الخلاء أعطى خاتمه الذي فيه ملكه إلى أمة له اسمها أمينة ،فأعطاها يوماً فتمثل بصورة سليمان شيطان اسمه صخر،فجاء فطلب الخاتم من أمينة فأخذه فتختم به وجلس على كرسيه واجتمع الخلق عليه وقضى ما قضى ونفذ حكمه في كل شيء إلا

(١) حكاية إسرائيلية مصطنعة: أنظر التفسير الكبير للرازي فقد أجاد فيه وأفاد .

وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ....

في نسائه، وغير سليمان عن هيئته وسلطنته فأتى أمينة بطلب الخاتم فطردته وأنكرت عليه ،فعرف أن الفتنة قد أدركته فأخذ يدرو حول البيوت يتكفف حتى مضى أربعون يوماً عدد ما عبد في بيته الصورة .

و بعد انقضاء المدة المذكورة، طار الشيطان من كرسيه وقذف الخاتم في البحر، فأبتلعته سمكة فوقعت في يد سليمان من قضاء الله ومزيد كرمه وعطائه عليه ،فبقر بطنها فوجد الخاتم فتختم به ،فعاد ملكه عليه وخر ساجداً وأناب إلى الله متضرعاً كما أخبر سبحانه، وبعد ما فتناه بفتنة عظيمة وهى عبادة غيرنا في بيته برضاء منه ،وأخذناه عليها وأخرجناه من ملكه بفقد الخاتم عنه.

﴿أَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ﴾ وأجلسنا بدله عليها ﴿جَسَدًا﴾ تمثالاً وصورةً لا حقيقة لها ﴿ثُمَّ﴾ بعدما ابتليناه[1] بما ابتليناه قد ﴿أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ إلينا مخلصاً متضرعاً، فقبلنا توبته عنايةً منا إياه. حيث ﴿قَالَ﴾ في مناجاته معنا وعرض حاجاته إلينا: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بمقتضى لطفك وجودك، وأعطيتني[2] من مواهبك ما لم تعط أحداً من خلقك ﴿ٱغْفِرْ لِى﴾ ذنبي، واعف زلتي بسعة رحمتك وجودك

﴿وَ﴾ بعدما غفرتني ومحوت عني معصيتي ﴿هَبْ لِى مُلْكًا﴾ كما وهبتني قبل هذا، وخصصتني به بمقتضى جودك وإحسانك علي، إذ ﴿لَّا يَنۢبَغِى﴾ ويليقُ بشأنك وبمزيد لطفك وإحسانك أن تعطيه ﴿لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾، إذ لا رادَّ لفضلك، ولا مانع لعطائك ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ المحسن ﴿ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾

---

(١) في المخطوط (بعد انتقمنا بإخراج الملك عن يده وتخريجنا إياه من مملكته) .

(٢) في المخطوط (وإعطائي) .

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ ....

المقصور المنحصر على إعطاء المواهب والكرامات، بلا عوضٍ ولا غرضٍ، إذ لا معطي سواك ولا مفضلَ غيرك.

وبعدما توجه إلينا وتضرع نحونا على وجه الإنابة والخضوع والتذلل والخشوع، آتينا ملكه وأجرينا حكمه كما كان .

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ بعد ما انتقمنا عنه وجعلناها مقهورةً له، محكومةً بحكمه حيث ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ﴾ منقادةً بحكمه ﴿رُخَآءً﴾ لينةً هينةً، بلا تضعضعٍ وتزعزعٍ يتعب[1] منه الراكب ﴿حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ أي يجري بأمره أي صوبٍ أراد، وجانبٍ قصد.

﴿وَ﴾ أيضاً سخرنا له ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ وجعلناهم منقادين لحكمه ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ منهم يبني له أبنيةً عجيبةً وقصوراً مشيدةً منيعةً، وحصوناً محكمةً، لا يسع للإنس أن يعمل مثلها ﴿وَ﴾ كل ﴿غَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ منهم يغوصون لأجله في لجج البحار، ويستخرجون لخزائنه من اللآلئ النفيسة ما لا يُعد ولا يُحصى.

﴿وَءَاخَرِينَ﴾ من الشياطين وهم المردة الممتنعون عن الإطاعة والانقياد جعلناهم ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مشدودين محبوسين ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ أي القيود والأغلال المضيقة بمقتضى أمره وحكمه.

ثم قال سبحانه امتناناً عليه وتنبيهاً على تعظيمه وتكريمه:

(١) في المخطوط (تتعب) .

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ....﴾

﴿هَٰذَا﴾ المذكور من الحكومة والخلافة والتسخيرات السالفة ﴿عَطَآؤُنَا﴾ عليك يا من اصطفيناك لوراثة النبوة والخلافة ﴿فَٱمْنُنْ﴾ منه لمن شئتَ، واجعل حق المستحقين محفوظاً به ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ لنفسك، ولا تعطِ أحداً، يعني لك الخيار في المنع والإعطاء ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ عليك، وسؤالٍ عن فعلك، إذ أمره مفوضٌ إليك.

﴿وَ﴾ كيف لا يفوض أمرَ ما أعطيناه إياه إلينا ﴿إِنَّ لَهُۥ﴾ أي لسليمان عليه السلام ﴿عِندَنَا﴾ وفي ساحة عزِّ حضورنا ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ درجة قريبة من درجات الوصال ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ أي خير مرجعٍ ومنقلبٍ من مراتب التمكن في التوحيد، والتقرب في مقر القبول.

﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ هو ابن عيص بن اسحق وامرأته ليا بنت يعقوب، أضافه سبحانه إلى نفسه لكمال رضاه منه ولطفه معه حيث صبر على ما مضى عليه من بلائه وجرى عليه من قضائه، كما شكر على آلائه ونعمائه، ولم ينقص من إخلاصه حالتي السراء والضراء ، اذكر يا أكمل الرسل كمال تصبر أخيك أيوب وإخلاصه في توجهه إلينا للمتذكرين المعتبرين من أمتك كي يتذكروا من قصته ويتخلقوا بشيءٍ من تصبره وتمكنِه في مقر التفويض والتسليم ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ الذي رباه بين الخوف والرجاء وأنواع العناء والعطاء ؛ لكمال اصطباره ووقاره بما جرى عليه من

أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾

مقتضيات ربه قائلاً حين اضطراره إلى الالتجاء نحو ربه والتضرع إليه: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾ أي نفخ فيّ وأحاط نفخه جميع أجزاء بدني بحيث لم يبق فيّ عضو لم يلحقه ضررٌ من شؤم نفخه، وعذابٌ شديدٌ مؤلمٌ مزعجٌ، فاضطرني هجوم الأعداء والعناء ونزول أنواع المحن والبلاء إلى بث الشكوى نحوك يا مولاي، فأنا عبدك وعلى عهدك ما استطعت، وما توفيقي إلا بك وثقتي إلا عليك، فارحمني بسعة رحمتك، إذ لا راحم سواك ولا مغيث غيرك.

وبعد ما استغاث إلينا مخلصاً مضطراً راجياً من الإجابة والقبول، أدركته العناية، وشملته الرحمة والكرامة من لدنا، حيث قلنا له ملهمين إياه، مستقبلين إجابته:

﴿ٱرْكُضْ﴾ واضرب ﴿ بِرِجْلِكَ ﴾ على الأرض، فركض امتثالاً للأمر الوجوبي فنبعت عينٌ جارية، ثم قلنا له تعليماً وتنبيهاً: ﴿هَٰذَا ﴾ الماء ﴿مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ ﴾ يبرد ويبرأ[1] ظاهر جسدك من الحرارات العارضة لبدنك من شؤم نفس عدوك الذي خُلق من عنصر النار ﴿وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ شافٍ لباطنك من الذي أعرض عليك من انحراف مزاجك بسبب خروج أخلاطك عن الاعتدال الفطري بشؤم نفخه.

وبعد ما سمع أيوب ما سمع اغتسل منه فشرب وبرأ من المرض ظاهراً وباطناً

(١) في المخطوط (تبرد وتبدأ).

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ....

﴿وَ﴾ بعد ما حصل له الصحة والنظافة منا إياه، سقط نحونا ساجداً حامداً شاكراً، مناجياً معنا، مخلصاً متضرعاً ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ تتميماً لكمال لطفنا وعنايتنا معه ﴿أَهْلَهُۥ﴾ أي جميع من مات من أولاده بسقوط السقف عليهم ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أي وهبنا له إحساناً عليه وامتناناً منا إياه مثل أهله مع أهله، وإنما فعلنا معه ذلك، بعد ما ابتليناه واختبرناه ليكون ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ إياه ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ الذين يتذكرون بقصته، ويتخلقون بأخلاقه ؛ ليفوزوا بما فاز.

وبعد ما صححناه من الأسقام ووهبنا له أهله وماله، وزدنا عليه مِثله تفضلاً منا إياه، أمرناه ثانياً تعليماً له بأن يتدارك قَسَمه وحلفه الذي حلف في مرضه، حين ذهبت امرأته ليا أو رحمة بنت إفرائيم بن يوسف لحاجةٍ، فأبطأت، فحلف إن برئتُ عن مرضي لأضربنك مائة جلدة.

﴿وَ﴾ قلنا له تعليماً: ﴿خُذْ بِيَدِكَ﴾ لحلفك ﴿ضِغْثًا﴾ حزمةً مشتملةً على مائة من أغصانٍ صغارٍ، فاضرب به أي بالضغث امرأتك مرةً، بحيث وصل أثرُ جميع ما في الحزمة من الأغصان إليها ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ حينئذٍ في حلفك، فحللنا يمينك بها، عنايةً منا لك ولامرأتك، فصارت رخصةً باقيةً في حدود الشرائع إلى الآن.

وكيف لا نزيل شكواه، ولا نحسن إليه، ولا نجزيه أحسن الجزاء ؟

إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ....

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ﴾ عبداً ﴿صَابِرًاۚ﴾ لجميع ما هجم عليه من أنواع البلاء المتعلقة بماله وأولاده وبدنه ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ﴾ عبدنا أيوب الصبور المسلِّم المفوض بلا جزعٍ وتزعزعٍ فكيف يجزع ويتزعزع ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ رجّاعٌ إلينا، متشمرٌ[1] نحونا في عموم أوقاته وحالاته، طالباً للفناء[2] فينا والبقاء ببقائنا.

رُوي أن أيوب عليه السلام كان متمولاً منعماً عظيماً وكان له جميع أنواع متاع الدنيا ،ومع ذلك شاكراً راضياً منفقاً في سبيل الله لفقراء الله طلباً لمرضاته وبعد ما بالغ في شكر نعم الله وأداء حقوق كرمه ؛حسد عليه إبليس فقال مناجياً إلى الله :نظرت في عبدك أيوب فوجدته عبداً أنعمت عليه فشكر لك ولو ابتليته بالفاقة لم يكن كذلك ،فقال سبحانه :سلطتك يا ملعون على ماله فقال إبليس لعفاريت :أيكم أشد وأقوى على إتلاف ماله ؟ فقام أحدهم وتحول إعصاراً من نار فأحرق إبله وجميع من كان معها من الراعي ،وصاح أحد منهم على أغنامه ورعاتها فهلكوا بالمرة وآخر جاء بريح عاصفة على حرثه فنسفت ولم يبق منهما شيء .فتمثل إبليس بصورة راع وآخر من أعوانه بصورة حارث وأتياه وهو يصلي وقالا :أقبلت نار فغشيت إبلك فأحرقتها ومن معها ،وصاح على غنمك شيطان فهلكت بالمرة ،وهبت على حرثك ريح فنسفت وصار كأن لم يكن ،فقال أيوب: الحمد لله إنها مال الله أعارنيها وهو أولى بها وقد كنت قِدماً قد وطنت نفسي ومالي على القضاء وبعد ما آيس إبليس من هذا الطريق

(١) في المخطوط (مشمر) .

(٢) في المخطوط (الغناء) .

....

قال: إلهي إنك متعته بأولاد فشكر لك ،لأجلها فهل أنت مسلطي علي أولاده إذ هي من أعظم المصيبات لا يصبر عليها أحد من الناس ؟ قال :نعم فأتاهم اللعين وهم مجتمعون في قصر عند معلم أديب فلم يزل يزلزلها ويحركها حتى أسقطها عليهم فأهلكهم بالمرة ،فتمثل اللعين بصورة معلمهم فاتاه وهو صريخ جزوع فقال : لو رأيت بنيك كيف عذبوا ونكسوا إلى حيث سال دمهم ودماغهم وشقت بطونهم وتناثرت أمعاؤهم ،فقال أيوب عليه السلام: متأوها: ليت أمي لم تلدني ،ثم أفاق واستغفر عن ضجرته سريعاً ،ورجع خاسئاً وقنط اللعين من هذا أيضا ،وقال إلهي إنما صبر أيوب عليه السلام على إهلاك أمواله وأولاده ولازم توجهه نحوك لأنك متعته بصحة البدن وسلامة الجسد ،وهل أنت مسلطي على جسده ؟قال سبحانه: سلطتك على غير لسانه وقلبه ،فأتاه فوجده ساجداً فنفخ في منخره نفخةً أشتعل منها جسده فخرج من قرنه إلى قدمه ثآليل مثل أليات الغنم فوقعت فيه حكة فلم يزل يحكه حتى قرح جسده وأنتن لحمه فأخرجه أهل القرية منها ورفضوه من كان من أرحامه سوى امرأته رحمه فتمثل لها إبليس في صورة رجل ،فقال : لها أين بعلك ؟هو ذلك يحك قروحه وتردد الديدان في جسده ،فلما سمعتها خيلت أنها كلمة جزع صدرت منه فذكر لها تغريراً ما كان فيه من النعيم ثم أتى بسخلة فقال لها : ادفعيها إلى أيوب عليه السلام ليذبح لي حتى يبرأ من السقم فجاءت مع السخلة تصرخ يا أيوب إلى متى يعذبك ربك أين الأموال و الأولاد والوجه الحسن؟ اذبح هذه واسترح فقال أيوب أتاك عدو الله فنفخ فيك ،أرأيت ما تبكين عليه من المال

﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٥﴾..............

والولد والصحة من أعطانيه؟ قالت :الله قال: فكم متعنا به؟ قالت: ثمانين سنة قال: فمنذ كم ابتلينا قالت :سبع سنين[١] وأشهراً قال: ويلك ما أنصفت لنصبرن في هذا البلاء ثمانين سنة كما لنا في الرخاء ،أما تستحين[٢] من الله ؟أمرتني أن أذبح لعدو الله ،لا أذوق شيئا مما تأتيني به بعد اليوم ،اعزلي عني ودعي معي ربي ،فلما ذهبت امرأته ورأى أيوب ليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق اضطر إلى بث الشكوى مع المولى فسقط ساجدا وقال مناجياً صارخاً ضارعاً: إني مسني الشيطان بنُصبٍ وعذاب ،وسمع حينئذ من الهاتف :ارفع رأسك فقد استجبت لك ،فرفع رأسه و أوحي إليه من قبل ربه اركض برجلك هذا مغتسلٌ باردٌ وشرابٌ الآية .

﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عِبَٰدَنَآ﴾ الذين هم أجدادك[٣] وأسلافك ﴿إِبۡرَٰهِيمَ وَ﴾ ابنه ﴿إِسۡحَٰقَ وَ﴾ سبطه ﴿يَعۡقُوبَ﴾ واذكر من شمائلهم الجملية وخصائلهم الحميدة ؛ ليتعظ من سماعها ذوو الاعتبار من المؤمنين، ويقتدون بمآثرهم ؛ لأنهم كانوا ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٥﴾ أي ذوي القوة في الطاعة والبصيرة في مراسم الدين ومعالم اليقين، ولهم التمكن في مقر التوحيد، والوصولُ إلى درجات التجريد والتفريد.

ولا بد للذين يلونهم أن يقتدوا بهم، ويسترشدوا من أخلاقهم وآثارهم،

(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة...ابن كثير .

(٢) في المخطوط (تستحي) .

(٣) في المخطوط (جدك) .

﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٧ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٨﴾ ....

ويتصفوا بأوصافهم، كي يفوزوا بمعارفهم، وينكشفوا بمكاشفاتهم ومشاهداتهم؛ لأنهم قدوة أصحاب التوحيد، وزبدة أرباب الشهود، وكيف لا.

﴿إِنَّآ﴾ من مقام عظيم جودنا معهم ﴿أَخۡلَصۡنَٰهُم﴾ وجعلناهم مخصوصين ﴿بِخَالِصَةٖ﴾ أي بخصلةٍ خالصةٍ صافيةٍ عن كدر التعلقات الناسوتية، خاليةٍ عن شوب مقتضيات القوى الشهوية البشرية العائقة عن التحقق بمرتبة اللاهوتية ألا وهي ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦﴾ الدار الآخرة التي هي مقام التمكن في التوحيد والانكشاف بسرائر الوحدة الذاتية وسريانها في ملابس الأسماء والصفات المقتضية للتعدد والتكثر.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ﴾ المنتخبين لحمل أعباء الرسالة ﴿ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٧﴾ المنتخبين الصالحين للاتصاف بسرائر التوحيد واليقين، أي أولئك الأنبياء العظام الساعين لطلب الخير في طريق الدين ومرتبة اليقين.

﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ يا أكمل الرسل جدك ﴿إِسۡمَٰعِيلَ﴾ ابن إبراهيم الخليل، وتذكر تصبُّره ورجوعه ورسوخه في مقام التفويض والتسليم، راضياً بما جرى عليه من مقتضيات ربه، مع أنه لم يبلغ الحلم ﴿وَٱلۡيَسَعَ﴾ هو ابن أخطوب، استخلفه إلياس النبي على بني إسرائيل، ثم استنبئ ﴿وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ﴾ هو ابن عم اليسع المذكور، أو بشر بن أيوب، قيل إنما لقب به ؛ لأنه فرَّ إليه مائة من بني إسرائيل، فآواهم وكفلهم ﴿وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٨﴾ أي كل واحدٍ من الأنبياء المذكورين معدودٌ من

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾ ....

الأخيار الأبرار، مثبتٌ في حضرة علمنا ولوح قضائنا من زمرتهم.

﴿هَٰذَا﴾ الذي يتلى عليكم من الأمر بتذكير أولئك الثقات الكرام ﴿ذِكْرٌ﴾ جميلٌ وإثباتٌ شريفٌ وكمالٌ لهم، إنما ذكرناهم وأمرناك بذكرهم تنبيهاً على جلال قدرهم وعظم شأنهم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ المجتنبين عن محظوراتنا، المتصفين بمأموراتنا، الطالبين لمرضاتنا، الهاربين من سخطنا وانتقاماتنا ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾﴾ عندنا، وخير منقلبٍ ومتابٍ في كنف جوارنا وساحة عز قبولنا.

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ عطف بيان لحسن مآب، وهي عبارة عن درجات القرب إلى الوحدة الذاتية، وتجددات التجليات الشهودية على أرباب الكشف والعيان، ولكمال تحفظهم عن مقتضيات القوى ومشتهيات الهوى وخلوصهم في التوجه نحو المولى، صارت الجنات ودرجات القرب والوصول ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾﴾ أي مفتوحة الطرق، واضحةُ السبل بالنسبة إليهم، يدخلون فيها من كل بابٍ بلا منعٍ وحجابٍ.

وبعد دخولهم فيها وتحققهم عندها صاروا ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ متمكنين على أرائك القبول وسرر الإخلاص، ولهم فيها ما تشتهي قلوبهم من المعارف المتجددة بتجدد التجليات الحِبِّية المنبعثة من حضرة الرحموت، إذ ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ من أنواع ما يتفكهون ويتلذذون علماً وعيناً وحقاً ﴿وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾ يشربون من رحيق الحق ولا يروون.

﴿۞ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ٥٢ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٥٣ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ٥٤ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ ....

﴿۞ وَ﴾ يصور ﴿عِندَهُمۡ﴾ أعمالهم المقبولة وأحوالهم المرضية ومقاماتهم العلية في سلوك طريق التوحيد أزواجٌ أبكارٌ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ عليهم، لا ينظرن إلى غيره ﴿أَتۡرَابٌ ٥٢﴾ أحداثٌ كلهن مستويات في السن، ليس فيهن صغرٌ ولا كبرٌ، بل كلهن على كمال اللطافة والعدالة، إذ كل ما فيها على كمال الاعتدال.

وبعد ما تمكنوا فيها وترفهوا بنعيمها، قيل لهم من قبل الحق امتناناً عليهم وتشويقاً: ﴿هَٰذَا﴾ الذي بين يديكم من النعيم المقيم واللذة الدائمة ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ بألسنة الكتب والرسل ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٥٣﴾ أي لأجله أو فيه، إذ لا وصول إليها إلا بعد الحساب.

ثم قال سبحانه إظهارا لكمال قدرته على الإنعام والانتقام:

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المذكور ﴿لَرِزۡقُنَا﴾ المعد لخواص عبادنا، المنجذبين إلينا بانخلاعهم عن لوازم هوياتهم الباطلة، وعن مقتضيات تعيناتهم العاطلة من المأكل والمشرب والمناكح الفانية، فنستبدل لهم بدلها ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ٥٤﴾ أي رزقاً معنوياً لا انقطاع له أصلاً.

خذ ﴿هَٰذَاۚ﴾ أيها المتشمر نحو الحق والراغب إلى ما عنده من موائد الإنعام والإفضال، وكما فضلنا على المطيعين بأنواع التعظيم والتنعيم، وكرَّمناهم بأنواع الكرامة والتكريم، انتقمنا عن العاصين الجاحدين، ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾

لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾
وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ ....

الذين طغوا علينا بخروجهم عن مقتضيات حدودنا الموضوعة فيهم، المنبهة إلى مبدئهم ومعادهم ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾ وأسوأ منقلب ومثاب، على عكس المطيعين المتقين. يعني:

﴿جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان وجحيم الطرد والحرمان ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ويدخلون فيها بأنواع حسراتهم والزفرات بين أصناف العقارب والحيات، وأنواع الحشرات المصوَّرة لهم من سيئات أعمالهم التي أتوا بها في دار الاختبار ونشأة الاعتبار، وبالجملة ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾ والفراش مهد أصحاب الجحيم وفراشهم.

﴿هَٰذَا﴾ منقلبهم ومآبهم، ثم بعد ما دخلوا في النار، قيل لهم من قبل الحق لخزنة جهنم: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ أي كل واحد منهم نزلاً لهم شراباً هو ﴿حَمِيمٌ﴾ وهو الماء الحار الذي يشوي وجوههم ويخرق أمعاءهم، يسخنه نيران شهواتهم التي أتوا بها على خلاف ما أمر الله وحكم عليه ﴿وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ الماء البارد الزمهريري الذي ينجمد في فيهم، وفي أجوافهم، ببرده كمال بلادتهم وجهلهم بالله الحكيم العليم، وبما وضع سبحانه من الحدود والأحكام الصادرة عن محض الحكمة المتقنة المتعلقة لإصلاح أحوالهم.

﴿وَءَاخَرُ﴾ أيضاً ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ أو من جنس الشراب المذوق ومثله، أو ﴿وَأُخَرُ﴾ من أنواعه على القراءتين ﴿أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ أصنافٌ وأنواعٌ، بعضها أسوأ من بعض، ليكون عذاباً فوق عذاب.

هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا

ثم لما اقتحم القادة من أصحاب النار، وأدخلوا أنفسهم عليها خوفاً من الموكلين الذين يسوقوهم نحوها بمقامعٍ من حديد، وازدحم عقيبهم أتباعهم على الفور، فضيقوا على القادة مكانهم، وصرخوا على الخزنة من تضييقهم، قال الخزنة لهم بعد ما سمعوا صيحتهم وصراخهم: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ بعدكم، معقبين عليكم مضيقين عليكم، فالتفتوا أثرهم أهؤلاء أتباعنا ﴿مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ﴾ ولا يوسع عليهم ﴿إِنَّهُمْ﴾ أيضاً ﴿صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾﴾ أي داخلوها أمثالنا[1].

ثم لما سمع الأتباع قول قادتهم هذا:

﴿قَالُوا﴾ على سبيل المعارضة والمخاصمة: ﴿ بَلْ أَنتُمْ﴾ أيها الضالون المضلون حقاً أن يقال لكم: ﴿لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ﴾ إذ ﴿أَنتُمْ﴾ بشؤم إضلالكم وإغرائكم ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾ أي الكفر الذي هو سبب دخول النار، وابتدأتموه أولاً، ثم أغريتمونا بتغريركم وتضليلكم، حتى كفرنا بسعيكم، وابتلينا بها أمثالكم ﴿لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾ أي بئس مقرنا ومقركم جهنم الطرد والحرمان.

وبعد ما بالغ الأتباع في تعيير القادة وتشنيعهم، تضرعوا نحونا داعين على رؤسائهم حيث

﴿قَالُوا رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على فطرة التوحيد، وأشركناك بشؤم هؤلاء المشركين المضلين، نرجو من عدلك ﴿مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ ودلنا عليه بتغريره

---

(١) في المخطوط (مثلنا).

فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ....

﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي ضعف عذابنا ﴿فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾ إذ نحن ضالون، وهم ضالون مضلون.

﴿وَقَالُوا۟﴾ أي الرؤساء القادة بعد ما توغلوا في ألوان العذاب على سبيل التحسر والتقريع على أنفسهم: ﴿مَا لَنَا﴾ أي أيّ شيء عرض لنا، ولحِق بأبصارنا ﴿لَا نَرَىٰ رِجَالًا﴾ فقراءَ أراذل بيننا، أحاطتهم أنواع الفاقة والعناء كذلك ﴿كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾ الأراذل الساقطين عن درجة الاعتبار، وبالغنا في طردهم. حيث ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [جرى التفسير على قراءة نافع وغيره:﴿اتَّخَذْنَاهُمْ﴾] واستهزأنا معهم تهكماً وتقريعا، لا نرى اليوم منهم أصلاً في النار، أهم ما يدخلون النار كما هو دعواهم[1] ﴿أَمْ﴾ هم أيضاً داخلون، لكن ﴿زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾ أي مالت عن رؤيتهم أبصارنا، واحتجبوا منا، يعنون بهؤلاء الرجال فقراء المسلمين الذين استرذلوهم واستهزؤوا معهم.

ثم قال سبحانه على سبيل المبالغة والتأكيد: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي حكينا عن أهل النار ﴿لَحَقٌّ﴾ مطابقٌ للواقع، لا بد أن يتكلموا به حين دخولهم فيها، وهو ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ في النار على الوجه الذي ذُكر.

---

(١) في المخطوط (دعوتهم).

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٦٦ قُلۡ هُوَ ....

ثم لما بالغ سبحانه في حقية ما حكى عن أهل النار، أمر حبيبه ﷺ بأن بلّغْ للأنام التوحيدَ المبعِد لهم عن النار والعذابِ المؤبدِ فيها، فقال:

﴿قُلۡ﴾ يا أكمل الرسل للمشركين المستحقين لعذاب النار إنقاذاً لهم عنها إن قَبِلوا منك قولك: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ﴾ لكم بإذن الله ووحيه عن أمثال ما ذُكر من العذاب في النشأة الأخرى ﴿وَ﴾ اعلموا أنه ﴿مَا مِنۡ إِلَٰهٍ﴾ يُعبد بالحق، ويُرجع إليه في الخطوب، ويُلتجأ نحوه في النوائب والمصائب ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ﴾ الأحد الصمد الحي القيوم الذي لا شريك له في الوجود ولا شيء غيره في الشهود ﴿ٱلۡقَهَّارُ ٦٥﴾ للأغيار مطلقاً إذ كل شيءٍ هالكٌ إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون رجوع الأظلال إلى الشمس، والأمواج إلى البحر، وهو بتوحيده واستقلاله.

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ أي مُظهِر كل ما في العلو والسفل وما في حشوهما، والمُحاط بهما، إذ الكل منه بدأ وإليه يعود، وكيف لا، هو ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره في خلقه وحكمه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، إذ هو ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ ٦٦﴾ الستَّار المحّاء لهويات الأغيار، وهياكل الأظلال الغير القار.

﴿قُلۡ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعد ما بينتَ لهم توحيد الحق واستقلالَه في تصرفاته وتدابيره: ﴿هُوَ﴾ أي الذي بلغتُ لكم بوحي الله من إحاطة الحق

نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ ....

وشموله لجميع ما لمع عليه بروق تجلياته ﴿نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ وخبرٌ خطيرٌ، يخبركم به الحق، وينبهكم عليه من كمال إعطافه وإشفاقه ؛ لينقذكم به عن عذابه المترتب على كفركم وشرككم.

﴿أَنتُمْ﴾ من كمال توغلكم في الجهل والضلال ﴿عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ مع أنه أنفع لكم وأصلح بحالكم، وهو سبحانه أعلم بشأنكم منكم ؛ وبمقتضى علمه بحالكم، أنزل كتابه عليكم ليرشدكم إلى جهة معرفته ووجهة توحيده، ومالي إلا تبليغ ما أُوحي إلي كسائر الرسل، إذ:

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ أي الملائكة السماويين ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ وقت خلافة آدم ونبوته ونيابته، فألهمني الله بوحيه ما جرى عليهم من الحجج والمعارض، وإفحامهم بعد جدالهم واصطفاء الله إياه، وأمرِهم بسجوده تكريماً وتعظيماً، وبالجملة:

﴿إِن يُوحَىٰٓ﴾ أي ما يوحى ﴿إِلَيَّ﴾ من عند ربي ﴿إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ أي إنما أنا منذرٌ لكم عن أن يفتنكم الشيطان وجنوده المرتكزة في هياكلكم، فيضلوكم عن سبل السلامة وطرق الاستقامة الموصِلة إلى وحدة ذات الحق وكمال أسمائه وصفاته.

اذكر يا أكمل الرسل:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ الذي رباك على مقتضى الجمعية المنتهية إلى الوحدة الذاتية

لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ....

التي جئتَ لإظهارها وإيضاح منهجها ﴿ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ المهيمين بمطالعة وجهه الكريم على سبيل المشورة معه ؛ ليظهر كرامة آدم وجلالة قدره ﴿ إِنِّي ﴾ بمقتضى بدائع صنعتي وغرائب قدرتي ﴿خَٰلِقُۢ﴾ أي مظهرٌ موجدٌ ﴿بَشَرًا﴾ أي جسداً متخَذاً ﴿مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ ليكون مرآةً يتراءى فيها عموم أوصافي وأسمائي.

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ ﴾ وعدلت قالبه على الوجه الذي جرى في حضرة علمي ولوح قضائي ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ﴾ بعد تعديله ﴿مِن رُّوحِي﴾ أي أُفيض عليه من حياتي ومن مقتضيات أسمائي وصفاتي ؛ ليستحق بخلافتي ونيابتي ويظهر فيه ومنه آثار أسمائي وصفاتي ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ﴾ وخروا عنده ؛ لتعظيمه وتكريمه ﴿سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ متذللين له، واضعين جباهكم على تراب المذلة دونه.

ثم لما سمع الملائكة منه سبحانه ما سمعوا ﴿ فَسَجَدَ ﴾ له ﴿ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ امتثالاً للأمر الوجوبي ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ المعدود من عدادهم، المنخرط في سلوكهم ﴿ ٱسْتَكْبَرَ﴾ عن سجوده وتعظيمه ﴿ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ بترك الانقياد للأمر الإلهي.

ثم لما امتنع إبليس عن إطاعته وتعظيمه مع ورود الأمر الوجوبي من قبل الحق.

﴿ قَالَ﴾ معاتباً عليه منادياً له سائلاً عن سبب امتناعه: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ﴾ المستكبر المتخلِف عن أمرنا ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ أي أي شيءٍ منعك عن

لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ ....

سجود التكريم ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ وصوَّرته بقدرتي، وبمقتضى صورتي، وبكمال حولي وقوتي؛ ليكون مرآتي ويليق بخلتي وخلافتي ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ عن طاعة حكمنا وامتثال أمرنا ﴿أَمْ كُنتَ﴾ احتسبت نفسك ﴿مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ المتفوقين عليه، بحيث لا تجوّز لنفسك أن تتذللَ عنده وتنقادَ له.

وبعد ما سمع اللعين منه سبحانه الخطابَ المشتمل على أنواع العتاب ﴿قَالَ﴾ اللعين بعد ما اختار الشق الثاني من الترديد: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ صورةً ومادةً، إذ ﴿خَلَقْتَنِي﴾ بكمال قدرتك ﴿مِن نَّارٍ﴾ هي أعلى العناصر وأرفعها قدراً وإمكاناً ﴿وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ هي أسفل العناصر وأرذلها قدراً وأدناها مكاناً، والأمر بسجود الأفضل الأعلى للأرذل الأدنى غيرُ موافقٍ ومطابقٍ لحكمتك المتقنة.

ثم لما خرج إبليس عن ربقة الإطاعة التعبدية، وأتى بالحجة الإقناعية الجدلية ﴿قَالَ﴾ سبحانه مغاضباً عليه من كمال غيرته وقهره: أنّى يطيق أحدٌ من مظاهره ومصنوعاته، أن يخالف أمره ويحتج عليه؟ ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي من مرتبة الملكية وأعلى مرتبة العبودية ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ مرجومٌ مطرودٌ عن سعة رحمتنا، وشرف عز حضرتنا.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ أي طردي وتبعيدي عن ساحة عز قربتي، مستمرة عليك ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾، وبعد ذلك عذابُك مؤبدٌ أبدَ الآبدين.

قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ ....

ثم لما قنط إبليس عن رَوح الله وسعة رحمته ﴿قَالَ﴾ بعد ما آيس مناجياً: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني على فطرة الإطاعة، فعصيتُ أمرك بشؤم عُجبي ونخوتي ﴿فَأَنظِرْنِيٓ﴾ وأمهل علي، بعد ما بعدتني عن كنف قربك وجوارك، وطردتني عن محل كرامتك وجودك ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾﴾ ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾ وهو النفخة الأولى.

وبعدما أنظره سبحانه وأنجح مسؤوله.

﴿قَالَ﴾ إبليس مقسماً مبالغاً في التهديد لبني آدم: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ وجلالك ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ أي لأضلنّ بني آدم عن جادة التوحيد ﴿أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾، إذ لا يسع لهم أن يسدُّوا مداخلي فيهم، وطرق مخادعتي إياهم.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ وهم الموقنون المخلصون، الذين أخلصوا في عموم أعمالهم وأحوالهم معك، واعتصموا بحبل توفيقك، راجين رحمتك ورضوانك، هاربين من سخطك بلا ميلٍ لهم إلى ما يلهيهم عن ربهم.

﴿قَالَ﴾ سبحانه في جوابه إظهاراً لكمال الاستغناء والقدرة: ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ ما قلتُ لك في هذه النشأة يا ملعون، من الطرد والتبعيد، وإنظارك في ما بينهم

وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ....

للاختبار والاعتبار ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾ أي أقول الحق أيضاً في ما يترتب على إغوائك وإغرائك إياهم، واتباعهم لك، وما يترتب على متابعتهم في النشأة الأخرى، وهو هذا: والله

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ المشتملة على الأودية السبعة المملوء من نار الخذلان والحرمان، المعدة لأصحاب الشقاوة الأزلية من المنحرفين عن جادة العدالة الإلهية، الضالين عن صراطه السوي ﴿مِنكَ﴾ أي من جنسك الذي هم من الجن ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي من جنس الإنس ﴿أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ تابعاً ومتبوعاً، ضالاً ومضلاً.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعد ما بلغت ما يوحى إليك من الحق الصريح على وجهه بلا خلطٍ وخبطٍ وزيادةٍ ونقصانٍ كلاماً ناشئاً عن محض الحكمة والعدالة: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ أيها المكلفون ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على تبليغي إياكم ما أُمرت بتبليغه ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ أي جُعلٍ ومالٍ على عادة أصحاب التلبيس من المتشيخين، الذين هم من أعونة إبليس وأنصاره ﴿وَمَآ أَنَا۠﴾ أيضاً ﴿مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ المتصفين بخصائل ليس فيهم على سبيل التبليس والتدليس. بل

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هذا القرآن المنزل علي ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي عظةٌ وتذكيرٌ ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ من الثقلَين المكلفَين بالهداية والإيمان والتوحيد والعرفان.

وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

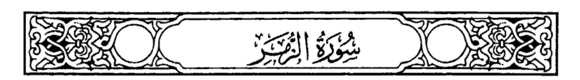
﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ أيها المتذكرون بتذكيراته، والمعرضون عنها ﴿نَبَأَهُۥ﴾ أي صدق إخباره ومواعيده ووعيداته، وما يترتب عليها وعلى قصصه وأحكامه، وما ينكشف من حكمه ورموزه وإشاراته ﴿بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ أي بعد انخلاعكم عن لوازم ناسوتكم، واتصافكم بخلع اللاهوت في النشأة الأخرى، حين تُبلى السرائر، وتُكشف الضمائر وترتفع الحجب والأستار، فاعتبروا الآن يا أولي الأبصار، وذوي الاعتبار ما فيه من السرائر والأسرار.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتأمل في مرموزات القرآن، والمتدبرُ في درك إشاراته الخفية تحت أستار ألفاظه وأحكامه المتعلقة لتهذيب الظاهر والباطن، وتصفية السر عن التوجه نحو الغير مطلقاً: أن تعرف أولاً ما في نفسك من أعونة الشيطان وجنوده الأمّارة بالسوء المزعجة لك إلى قبول مأموراتها المقتضية للبعد عن جادة العدالة التوحيدية الإلهية، التي هي صراط الله الأقوم، وتجاهد معها مهما أمكنك وأعانك الحق ووفقك لتسخيرها إلى أن صارت مغلوبةً لك مقهورةً تحت قهرك، حسب ما يسر الله ووفّقك على غلبته.

ثم بعد ذلك نبع من صدرك ينابيع الحكمة المترشحة من بحر الوحدة الذاتية، وجرى على لسانك ما أراد الله جريه وشاء، بعد ما أفناك عنك، وأبقاك ببقائه، وصار سبحانه قلبك وسمعك وبصرك وجميع قواك، وحينئذ اجتمع الفرق، وارتبق الفتق، واتحد الظهور والبطون، وانطوى الأزل والأبد، واتصل الأول والأخر والظاهر والباطن.

وبالجملة هو بكل شيءٍ عليمٌ، ليس كمثله شيء ولا معه حي، وهو الحي القيوم السميع العليم.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الزمر

لا يخفى على الموحدين المحمديين المندرجين من سفل الإمكان وحضيض التقييد إلى أوج الوجوب وذروة الإطلاق التي هي الوحدة الذاتية المنطوية دونها الكثرات مطلقاً: أن الوصول إلى هذا المطلب الأعلى والمقصد الأسنى إنما هو بتوفيق الحق على متابعة كتبه وإطاعة رسله المرسلين من عنده سبحانه؛ لتبيين ما في كتبه من الحِكم والأحكام والمعارف والحقائق المرموزة فيها.

ولا شك أن أفضل الكتب وأكمل الرسل هو القرآن ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام، فمن تمثل بمقتضيات كتاب الله، وتمسّك بسننٍ صدرت من معدن الرسالة وأحاديثٍ شاعت واستفاضت من مشكاة النبوة والولاية، فقد أفاض عليه الحق من سجال لطفه وفضله، وفاز بما جُبل لأجله.

لذلك أخبر سبحانه حبيبه ﷺ، وأوصاه بامتثال ما في كتابه المنزَّل عليه، وتبليغه إلى من وُفق بمتابعته وجُبل من زمرته وهُدي بإرشاده وهدايته، فقال بعد ما تيمن باسمه الأعظم المشتمل على كل أسمائه الحسنى:

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا ....

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي أنزل كتابه معرباً عما فصَّله في حضرة علمه ولوح قضائه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ لعموم عباده بإنزال الكتاب إليهم ؛ ليهديهم إلى درجات جنانه ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، يوصلهم إلى وحدة ذاته، بعد ما أفناهم عن مقتضيات تعيناتهم المقتضية للكثرة.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المبيّن لطريق التوحيد، المنبّه على وحدة الحق وكمالات أسمائه الحسنى وأوصافه العظمى ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ المدبّرِ لجميع ما جرى في ملكه وملكوته، إذ لا منزل في الوجود سواه سبحانه ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالبِ في أمره بالاستقلال والاختيارِ ﴿ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ المتقِن في فعله حسب علمه المحيط وقدرته الشاملة وإرادته الكاملة.

وبعدما بين سبحانه أمر التنزيل عموماً، أشار إلى التنزيل المخصوص المتمِّم المكمِّل لأمر التنزيل والإنزال مطلقاً، فقال مشيراً إلى عظم قدر المنزَل إليه، وجلالة شأنه، ورفع رتبته ومكانه:

﴿إِنَّآ﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل تعظيماً لشأنك وتأييداً لأمرك ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الجامعَ لجميع ما في الكتب السالفة، مع زوائدَ خلت عنها كلها ملتبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ المطابقِ للواقع بلا شوب شكٍّ وريبٍ في نزوله منا ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ ﴿٢﴾﴾ الذي اصطفاك لرسالته وخصصك بكتابه، هذا حال كونك شاكراً لنعمه، معترفاً بكرمه ﴿مُخْلِصًا﴾ في عبوديتك وعبادتك إياه،

﴿لَهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ..........................﴾

مجتنباً عن مداخل الشرك ورعونات الرياء مطلقاً، إذ ﴿لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي لا مستحق للإطاعة الخالصة والانقياد الصافي سواه، ولا يُعبد بالحق إلا إياه.

وبعد ما أمر سبحانه بالعبادة والإخلاص في الإطاعة والانقياد، نبّه على عموم عباده بالإخلاص في الطاعات، والخلوص في نيات العبادات، فقال:

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾ أي تنبهوا أيها المجبولون على فطرة التوحيد: أن الدين الذي كلفكم الحق عليه، وأوجبه عليكم، هو الدين الخالص عن أمارات الشرك ومقتضيات الهوى، الصافي عن شوب العجب والسمعة، وشين الرياء، وبعد ما وضح أن الدين الخالص لله، ولا مستحق له سواه ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي والمشركون الذين ادعوا الولاية لغير الله، واستحقاق الإطاعة والانقياد لسواه، قالوا في تعليل اتخاذهم حين سُئلوا عنه ونجوا عليه: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ أي هؤلاء الغرانيق العلى التي هي الأصنام والأوثان، وجميع ما يُعبد من دونه سبحانه ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ أي تقريباً كاملاً ؛ لأنهم كَمَلةٌ مقبولون عنده، مكرمون لديه سبحانه، فنتوسل بهم ؛ لنصل إلى قرب الحق وجواره.

لا تبالوا أيها الموحدون المتمسكون بحبل التوفيق الإلهي بقولهم هذا، ولا تلتفتوا إلى أباطيلهم الزائغة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لما في ضمائرهم من الشرك والعناد على سبيل الرشاد

يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴿٣﴾ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٤﴾ ....

والسداد ﴿ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ وبينكم بمقتضى علمه وخبرته ﴿ فِي مَا هُمۡ فِيهِ ﴾ من الشرك ﴿ يَخۡتَلِفُونَۗ ﴾ معكم أيها الموحدون، بأن يُدخلهم في النار بأنواع المذلة والهوان، ويوصلكم إلى الجنة بالمغفرة والرضوان.

وكيف لا يُدخل سبحانه المشركين النيران بأنواع الخزي والهوان؟

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الحكيمَ المتقِنَ في أفعاله ﴿ لَا يَهۡدِي ﴾ أي لا يوفّق على الهداية والرشاد ﴿ مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ﴾ في حق الله ومقتضى ألوهيته وربوبيته واستقلاله في ملكه وملكوته ﴿كَفَّارٞ ﴿٣﴾﴾ بنِعَمِه الموهوبة له من فضله وكرمه، حيث أثبت له سبحانه شريكاً وولداً، مع أنه :

﴿ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد المستقل في الألوهية والوجود، المنزّهُ عن الأهل والولد ﴿ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا ﴾ ويختار صاحبةً ﴿ لَّٱصۡطَفَىٰ ﴾ واختار ﴿مِمَّا يَخۡلُقُ﴾ أي من بين سائر مخلوقاته في جميع شؤونه وحالاته ﴿ مَا يَشَآءُۚ﴾ أولى وأنسب له، وأليق بشأنه من مريم وعيسى، فكيف من الأصنام والأوثان ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ أي تعالى شأنه وتنزه ذاته الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد عن إيجاد الصاحبة والولد، بل ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ﴾ من جميع الوجوه، المستقلُ بالألوهية والوجود ﴿ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ لعرق السوى والأغيار مطلقاً، قطعاً لعرق الشركة عن أصله.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي ....

وبمقتضى توحيده سبحانه وقهره، وإظهار كمالاته المندمجة في وحدة ذاته باعتبار شؤونه وتطوراته اللازمة للحي الأزلي الأبدي.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ أي قدر وأعدّ الأسماء الذاتية الفعالة، المنعكسة من شؤونه الذاتية والأوصاف القابلة المنفعلة من تلك الأسماء المظهرة لآثارها ملتبساً ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ المطابق للواقع، ولا ينبغي أن يرتاب فيه أحدٌ بعد ما انكشف بسرائر الوجود والتوحيد حسب الجود الإلهي، وبمقتضى هذا الازدواج المعنوي الجاري بين الأوصاف والأسماء الإلهية ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ أي يغشي ويغيّب سبحانه على وجه التلفيف والتخليط أضواءَ الأسماء والصفات بظلام الهيولى والتعينات في النشأة الأولى، فكذلك يغطي ويغيّب في النشأة الأخرى حجبَ الطبائع وأظلال الهويات بأشعة أنوار الذات المنتشئة منها، بمقتضى الشؤون والتطورات المثبتة للأسماء والصفات الإلهية ﴿وَ﴾ بعد ما كمل سبحانه أمر الظهور والإظهار، وانبسط على عروش ما ظهر وبطن بالاستيلاء والاستقلال ﴿سَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ﴾ أي جذبَ وقبضَ نحوه سبحانه بمقتضى الجاذبة المعنوية الحبِّية الكاملة الوجود المطلق الفائض على هياكل الموجودات المنعكسة من الأسماء والصفات الإلهية ﴿وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ أي الهويات القابلة لانعكاس شمس الذات المستخلفة عنها، إظهاراً لكمال قدرته ومتانة حكمته، لذلك ﴿كُلّٞ﴾ من كل أهل العناية ﴿يَجۡرِي﴾ يكون ويدوم في مكانه ومكانته

لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ....

من التعينات موقوفٌ ﴿ لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى حلول أجلٍ معينٍ مقدّرٍ من عند ربه بمقتضى جذبه وعنايته، فإذا حلّ الأجل، انقطع الجري والسير وارتفع السلوك ﴿أَلَا﴾ أي تنبهوا أيها الأظلال الهالكة في شمس الذات ﴿هُوَ﴾ أي الموصوف بهذه الصفات الكاملة ﴿ الْعَزِيزُ﴾ المنيع ساحة عز ذاته، عن أن يحوم حول سرادقات عزه وجلاله بإدراك العقول المتحيرة والأوهام المدهوشة، لكنه ﴿ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾﴾ الستّار لغيوم تعيناتكم بإشراق شمس الذات، وانقهار جميع ما لمع عليه نور الوجود على مقتضى جلاله وتفرده في نعوت كماله.

﴿ خَلَقَكُم﴾ أي أظهركم وأوجدكم بالتجليات الجمالية ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهي طبيعة العدم القابلة لانعكاس أشعة نور الوجود ﴿ ثُمَّ جَعَلَ﴾ وأظهرَ ﴿ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ إبقاءً للتناسل وتتميماً للازدواجات الغير المتناهية حسب الأسماء والصفات المتقابلة، الغير المتناهية الإلهية، إظهاراً لكمال القدرة.

﴿وَ﴾ بعد ما أتم سبحانه أمر إيجادكم وإثباتكم ﴿ أَنزَلَ لَكُم﴾ أي قسّم وقضى لأجلكم تتميماً لأمور معاشكم عنايةً منه وتكريماً ﴿ مِّنَ الْأَنْعَامِ﴾ المناسبة لتغذيتكم وتقوية أمزجتكم ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ ذكراً وأنثىً على مقتضى جِبتلّكم لتدوم[1] بدوامكم، وهي الأصناف الثمانية المذكورة في

(١) في المخطوط (ليدوم).

يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ ....

سورة الأنعام، هذا في ظهوركم وبروزكم في عالم الشهادة، وفي عالم الغيب والبطون ﴿ يَخْلُقُكُمْ ﴾ ويقدّر موادكم ﴿ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ أي تقديراً بعد تقدير أعجب وأغرب من سابقه، بأن قدركم أولاً نطفةً ثم علقة ثم مضغة، ثم سواك إنساناً، ونفخ فيكم روحاً من روحه، وبالجملة أظهركم بعد ما أخفاكم مدةً ﴿ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ﴾ هي أصلاب آبائكم وحجب تعيناتكم وبطون أمهاتكم ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ الذي فعل بكم هذه الأفعال الجميلة المتقَنة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ المستقلُّ بالألوهية والتصرفِ في ملكه وملكوته ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ الذي رباكم وأحسن تربيتكم لا مربي لكم سواه، إذ ﴿ لَهُ ٱلْمُلْكُ ﴾ والملكوت خاصةً لا يشاركَ في ملكه ولا ينازعَ في سلطانه وشأنه فظهر أنه ﴿ لَآ إِلَٰهَ ﴾ يُعبد له ويُرجع إليه في الخطوب ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ الواحد الأحد الصمد الحقيق بالحقية، المستحق بالألوهية والربوبية ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾ وتعدِلون أيها المشركون المنحرفون عن جادة توحيده.

مع أنكم أيها الأظلال المنهمكون في بحر الحيرة والضلال

﴿ إِن تَكْفُرُوا ﴾ بالله وتُنكروا ظهوره واستيلاءه على ما ظهر وبطن بالاستقلال ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ ﴾ المتعززُ برداء العظمة والكبرياء ﴿غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴾ وعن إيمانكم وإطاعتكم ﴿وَ﴾ غاية ما فيه أنه عزّ شأنه ﴿ لَا يَرْضَىٰ ﴾ ولا يحب

لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

﴿ لِعِبَادِهِ ﴾ الذين ظهروا منه سبحانه بمقتضى أوصافه وأسمائه ﴿ ٱلْكُفْرَ ﴾ والجحود بذاته سبحانه، عطفاً لهم وترحماً عليهم ؛ لأنهم جُبلوا على فطرة الإيمان والعرفان، وإلا فهو سبحانه أعز وأعلى من أن يفتقر إلى إيمان أحدٍ وإطاعته، أو يتضرر بكفره وإنكاره ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ أي وكذا غنيٌّ عنكم وعن شكركم نعمَه الفائضة عليكم، إذ لا يُعلل فعلُه سبحانه بالأغراض والأعواض، لكن يرضى عنكم لو شكرتم نعمه، ويزيد عليكم بأضعافها لإتيانكم بالمأمور وامتثالكم أمره، مع أن نفع شكركم عائد إليكم.

﴿وَ﴾ بالجملة لا بد لكل واحدٍ من المكلفين أن يمتثلوا بما أُمروا من عنده سبحانه، حتى يصلوا إلى ما وُعدوا من المثوبات والكرامات، ويجتنبوا عما نُهوا أيضاً عنه ليَخلصوا من المهالك والدركات، إذ ﴿لَا تَزِرُ﴾ تحملُ نفسٌ ﴿ وَازِرَةٌ ﴾ مرتكبةٌ بحمل أثقال الأوزار والآثام ﴿ وِزْرَ ﴾ نفسٍ ﴿ أُخْرَىٰ ﴾ كما لا تتصف بحسناتها ﴿ ثُمَّ ﴾ بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ﴾ كافةً كما كان منشؤكم ﴿ فَيُنَبِّئُكُم ﴾ ويخبركم سبحانه بعد رجوعكم إليه ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي بجميع ما جرى عليكم من سيئاتكم وحسناتكم، بلا فوت شيءٍ منها، ويجازيكم على مقتضاها، وكيف لا يخبركم ويحاسبكم بأعمالكم ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ بذاته ﴿ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ أي بجميع الأمور الكائنة المكنونة في صدور عباده، أي بما خفيَ في ضمائرهم ونياتهم،

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾ ....

فكيف بما صدر عن جوارحهم وآلاتهم.

وبعد ما نبه سبحانه إلى أحوال عباده، شرع يعدُّ مساوئهم وأخلاقهم الذميمة الناشئة من بشريتهم وبهيميتهم فقال:

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ أي لحِقه وأحاطَ به ﴿ ضُرٌّ ﴾ مؤلمٌ مزعجٌ ﴿ دَعَا رَبَّهُۥ ﴾ متضرعاً نحوه ﴿ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ إذ لا مرجع له سواه، مُلِحّاً لكشفه وإزالته ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ ﴾ سبحانه وأزال عنه كربه وضره، وأعطاه وأفاض عليه متعهداً له، متفقداً حاله ﴿ نِعْمَةً ﴾ موهوبةً له ﴿ مِّنْهُ ﴾ أي من لدنه سبحانه تفضلاً وتكريماً إياه ﴿ نَسِىَ ﴾ ونبذ وراء ظهره ﴿ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ عند شدة ضره، وسورة كربه ﴿ وَ ﴾ مع ذلك لم يقتصر على النبذ والنسيان بل ﴿ جَعَلَ ﴾ وأثبت ﴿ لِلَّهِ ﴾ الصمد المنزه عن الضدّ والندّ ﴿ أَندَادًا ﴾ وادعاهم شركاء له سبحانه، وإنما جعل وفعل كذلك ﴿ لِّيُضِلَّ ﴾ الناس الناسين عهود ربهم ﴿ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ويحرفهم عن طريق توحيده، ساعياً في إغوائهم وإضلالهم، مجتهداً فيه ﴿ قُلْ ﴾ يا أكمل الرسل نيابة عنا مهدداً إياه: ﴿ تَمَتَّعْ ﴾ أيها الضالُّ المضلُّ ﴿ بِكُفْرِكَ ﴾ هذا في نشأتك هذه ﴿ قَلِيلًا ﴾ زماناً قليلاً، ومدةً يسيرةً ﴿ إِنَّكَ ﴾ البتة في النشأة الأخرى ﴿ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾ أي من ملازميها، ومن جملة ما فيها.

ثم قال سبحانه:

أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ....

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ أي يتعجب المشرك المثبت لنا شركاءَ وأنداداً من تهديدنا إياه بالنار وعذابها، فيظن أن من هو قائم على أداء العبادات، مواظبٌ عليها ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ أي في خلاله وأطراف النهار ﴿سَاجِدًا﴾ متذللاً واضعاً جبهته على تراب المذلة من خشيتنا ﴿وَقَآئِمًا﴾ على قدميه مدةً متطاولةً تعظيماً لأمرنا، مع أنه ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي العذاب الأحق فيها بمقتضى جلالنا وسخطنا ﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ﴾ على مقتضى لطفه وجلاله وجماله كهؤلاء الكفرة بالله، الجهلة بشأنه، المتخذين له سبحانه أنداداً ظلماً وزوراً، مع تعاليه عنه سبحانه.

وبعدما تفرست يا أكمل الرسل منهم هذا الظن والتسوية ﴿ قُلْ﴾ لهم على سبيل التبكيت والإلزام مستفهماً إياهم على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى﴾ المكلفون ﴿ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ الحقَّ بذاته وأسمائه وأوصافه، ويعبدون له سبحانه بمقتضى علمهم به، وبأوامره ونواهيه ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾ ذاته، ولا شيئاً من أوصافه وأسمائه، ولا يعبدون له أيضاً؟ كلَّا وحاشا! من أين تتأتى المساواة، فشتان ما بين العالم والجاهل، والعابد والعاصي، إلا أنه ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ أي ما يتذكر ويتعظ بأمثال هذه المواعظ والتذكيرات المنبِّهة على سرائر التوحيد، إلا أولو الألباب الناظرون[1] إلى

---

(١) في المخطوط (الناظرين).

قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ....

لبِّ الأمور، المعرضون[1] عن قشوره.

﴿ قُلْ ﴾ يا أكمل الرسل نيابةً عنا منادياً لخُلّص عبادنا: ﴿ يَٰعِبَادِ ﴾ أضافهم إلى نفسه اختصاصاً وتكريماً ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ منكم بوحدة ذاتي وظهوري حسب شؤوني وتطوراتي بمقتضى أسمائي وصفاتي، مقتضى إيمانكم التقوى عن مقتضيات الهوى ﴿ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ واجتنبوا عن محارمه ومنهياته، واتصفوا بمأموراته، واعلموا أنه ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ﴾ الأدبَ مع الله ﴿ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ﴾ التي هي نشأة الاعتبار والاختبار ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ وبأضعافها وآلافها أيضاً في الآخرة التي هي دار القرار، فاعتبروا يا أولي البصائر والأبصار.

فعليكم الإتيان بالإحسان في كل حين وأوان وزمان ومكان ﴿ وَ ﴾ لا تفتروا عنه وعن المواظبة عليه بتفاقم الأحزان وتلاطم أمواج الفتن في الأوطان، إذ ﴿ أَرْضُ ٱللَّهِ ﴾ المعدةِ لأداء العبادات والاشتغال بالطاعات ﴿ وَٰسِعَةٌ ﴾ فسيحةٌ، فعليكم الجلاء لأجل الفراغ والخلاء، فتهاجروا إليها متحملين ما لحقكم من الشدائد والمتاعب في الانتقال، صابرين على مفارقة الأوطان والخلان، ومصادفة الكروب والأحزان، واعلموا ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ المتحملون لأنواع الشدائد والمشاق في طريق الإيمان ﴿ أَجْرَهُم ﴾ ويوفر عليهم الحسنات وأنواع المثوبات والكرامات ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ إلى توفيةٍ وتوفيرٍ لا يمكن ضبطه بالعدّ والإحصاء تفضلاً عليهم، وتكريماً.

---

(١) في المخطوط (المعرضين).

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ ....

وفي الحديث صلوات الله على قائله: «يُنْصَبُ المَوَازِيْنَ يَوَم القِيَامَةِ لِأَهْلِ الصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالحَجِّ، فَيُوَفَّوْنَ بِهَا أُجُوْرَهُمْ، وَلَا يُنْصَبُ لِأَهْلِ البَلَاءِ، بَلْ يُصَبُّ عَلَيْهِمُ الأَجْرُ، حَتَّى يَتَمَنَّى أَهْلُ العَافِيْةِ فِي الدُّنْيَا: أَنَّ أَجْسَادَهُمْ تُقْرَضُ بِالمَقَارِيْضِ، مِمَّا يَذْهَبُ بِهِ أَهْلُ البَلَاءِ مِّنَ الفَضْلِ»(١).

ثم قال سبحانه آمراً لحبيبه بالتوصية والتبليغ لعموم عباده كلاماً ناشئاً عن محض الحكمة، خالياً عن رعونات الرياء، متمحضاً للنصح والتكميل:

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ﴾ من قِبل ربي ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ حق عبادته وأطيعه حق إطاعته ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ والانقياد الصادر مني، لأتسبب بإطاعتي وانقيادي على وجه الإخلاص كي أعرفه حق معرفته، ويفيض على قلبي زلال توحيده وكرامته.

﴿وَأُمِرْتُ﴾ أيضاً من عنده ﴿لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ أي أسبق المسلمين المفوضين أمورهم كلها إليه، منخلعين عن لوازم بشريتهم ومقتضيات أهوية هويتهم، ثم ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِنِّيٓ﴾ مع كمال وثوقي بكرم الله وسعة رحمته ووفور فضله وجوده علي ﴿أَخَافُ﴾ خوفاً شديداً ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ وخرجت عن عروة إطاعته وانقياده ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ فظيع ؛ لعظم ما فيه

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير بلفظ: (عَنِ ابن مَسْعُودٍ قال: يَوَدُّ أَهْلُ الْبَلاءِ يوم الْقِيَامَةِ حين يُعَايِنُونَ الثَّوَابَ لو أَنَّ جُلُودَهُمْ كانت تُقْرَضُ بِالْمَقَارِيضِ). المعجم الكبير [٩/ ١٥٥ رقم / ٨٧٧٧/] وابن أبي شيبة في المصنف [٢/ ٤٤٣ رقم / ١٠٨٢٩/ باب: ما جاء في ثواب عيادة المريض].

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾ ....

من الجزاء المترتب على الجرائم العظام.

وبعد ما بلغتَ ما بلغتَ.

﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل على وجه الحصر والتخصيص: ﴿ٱللَّهَ أَعۡبُدُ﴾ لا غير، إذ لا غير معه ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤﴾ حسب وسعي وطاقتي.

﴿فَٱعۡبُدُواْ﴾ أيها المنهمكون في بحر الغيِّ والضلال ﴿مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ سبحانه بمقتضى أهويتكم الفاسدة وآرائكم الكاسدة، واعلموا أنه ما يترتب على عبادة غير الله إلا الخيبة والخسران ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بعبادة غير الله والانحراف عن جادة توحيده، ﴿وَ﴾ خسروا ﴿أَهۡلِيهِمۡ﴾ أيضاً بالإغواء والإضلال ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ المعدةِ لجزاء الأعمال ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾ والحرمان العظيم.

نعوذ بك منه يا ذا القوة المتين.

وكيف لا يكون خسران المشركين مبيناً وحرمانهم عظيماً، إذ:

﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ﴾ وأطباقٌ ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾ كذلك بالنسبة إلى مَن في الطبقة السفلى ؛ لأن دركات النيران مثل دركات الإمكان متطابقة بعضها فوق بعض، فيكون سكانها أيضاً كذلك ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الذي سمعت وصفه ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾ في دار الاختبار ويحذّرهم عنه، ثم

يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ ....

ناداهم ليقبلوا إليه، ويعتبروا من تخويفه فقال: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ واحذروا من بطشي وتعذيبي.

﴿وَ﴾ المؤمنون الموحِّدون ﴿ٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ المبالغَ في الطغيان والعدوان، وهي الشيطان المضلُّ المغوي، واستنكفوا ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ ويقبلوا منها وسوستها، ويصغوا إلى إغوائها وتغريرها ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَنَابُوٓا۟﴾ ورجعوا ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ في النشأة الأولى على وجه الإخلاص والخضوع، نادمين عن ما صدر عنهم من الجراءة والجريمة ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ في النشأة الأخرى بالدرجة العليا والمثوبة العظمى ﴿فَبَشِّرْ﴾ بها يا أكمل الرسل ﴿عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ الحقَّ الذي صدر منا، ولا يمترون فيه، بل ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ ويمتثلون بما أُمروا به، ويجتنبون عما نهوا عنه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ السعداء الموفقون على استماع قول الحق والامتثال به، هم ﴿ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ إلى طريق توحيده، ووفَّقهم إلى الفناء فيه والبقاء ببقائه ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ الواصلون إلى لبِّ اللباب.

ثم قال سبحانه على وجه التنبيه والتأديب:

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ أتسعى وتجتهد يا أكمل الرسل في تخليص من ثبتَ منا في سابق قضائنا وحضرة علمنا الحكمُ بتعذيبه، يعني أبا لهبٍ

أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ....

وولدَه وأتباعه ﴿ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾ أي أتظنُّ وتعتقدُ في نفسك أنك تقدر على إنقاذ من هو مخلَّدٌ في نار جهنم بمقتضى قهرنا وجلالنا، فلا تُتعب نفسك في ما ليس في وسعك، إذ لا يبدَّلُ قولنا، ولا يُغيَّر حكمنا.

﴿لَٰكِنِ﴾ المؤمنين ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ في جميع شؤونهم وحالاتهم خائفين من قهره وغضبه، راجين رحمتَه ﴿لَهُمْ﴾ عند ربهم ﴿غُرَفٌ﴾ درجات عليَّةٌ ﴿ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ درجاتٌ أعلى منها، كأنها منازلُ ﴿ مَّبْنِيَّةٌ﴾ على الأرض، بعضها فوق بعض على تفاوت طبقاتهم في مراتب القرب ﴿تَجْرِى﴾ على التعاقب والتوالي ﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي أنهار المعارف والحقائق المترشحة من بحر الذات على مقتضى استعداداتهم الفطرية الموهوبة لهم بمقتضى الجود الإلهي، وما كان ذلك إلا ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ الذي وعدها لخُلّص عباده الذين سلكوا في سبيله، متعطشين إلى زلال توحيده، فله أن ينجزه حتماً، إذ ﴿ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ﴾ القادر المقتدر على جميع ما شاء وأراد ﴿ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ الذي وعده للعباد، سيّما لأهل العناية منهم.

أتتعجب وتستبعد من الله إنجاز المواعيد الموعودة من عنده ؟!

﴿ أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ القادرَ المقتدرَ بالإرادة والاختيار ﴿ أَنزَلَ﴾ وأفاضَ بمقتضى جوده المعهود ﴿ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي عالم الأسماء

مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ....

والصفات ﴿مَآءً﴾ أي حياةً مترشحةً من عين الوجود وبحر الذات ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ﴾ أي أدخله في ينابيع التعينات والهويات المنعكسة من تلك السماء والصفات، وأجراه ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي الأرض الطبيعية القابلة لقبول الآثار الفائضة ﴿ثُمَّ﴾ بعد إجرائه عليها ﴿يُخْرِجُ بِهِۦ﴾ بمقتضى حكمته المتقَنة

﴿زَرْعًا﴾ أي هياكلَ أنواعاً وأصنافاً مثمرةً ثمرَ العقائد والمعارف والحقائق ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ حسب اختلاف الاستعدادات الفائضة عليها من عنده ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي بعد ما ظهر منها ما ظهر، وترتب عليها ما ترتب، يجف وييبس إلى حيث يذهب نضارتها ورواؤها المترتب على الإمداد الإلهي ﴿فَتَرَىٰهُ﴾ حينئذٍ ﴿مُصْفَرًّا﴾ مشرفاً على الانهدام والانعدام ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ﴾ بقبض ما فيه من رشاشات الحياة ﴿حُطَٰمًا﴾ فتاتاً رفاتاً، تذروه رياح الآجال، وتعيده إلى ما عليه من العدم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ أي تذكيراً بليغاً، وبرهاناً قاطعاً على وجوب وجود من هو منبع الجود، ومبدأ جميع الموجود، لا يطرؤه زوالٌ، ولا يعرضه انتقالٌ، ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير، إلا أنه لا يتذكر به، ولا يتنبه منه إلا أولوا اللباب، الناظرون بنور الله على لب الأمور، المعرضون عن قشوره، ثم قال سبحانه:

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ يعني أيستوي من وسع الله قلبه بنزول

فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ ....

توحيده ووفَّقه لقبول شرائع الإسلام ومعالم الدين المبين لدلائل التوحيد واليقين، ﴿ فَهُوَ﴾ بواسطة تشرح الله وتوفيقه إياه ﴿ عَلَىٰ نُورٍ﴾ انكشافٍ تام ويقينٍ كامل ﴿ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ بحيث يفنى فيه، ويبقى ببقائه، وينظر بنوره. ومن طَبع الله على قلبه، وختم على سمعه وبصره، فأعماه عن إبصار آيات وجوب وجوده، وأصمّه عن استماع دلائل توحيده؟ كلا وحاشا، بل ﴿ فَوَيْلٌ﴾ عظيمٌ وعذابٌ شديدٌ معدٌّ ﴿ لِّلْقَٰسِيَةِ ﴾ المضيقة المكدرة ﴿ قُلُوبُهُم مِّن ﴾ سماع ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ واستماع ما نزل من عنده من الآيات العظام الدالة على وحدة ذاته ووجوب وجوده ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ الأشقياء المردودون عن ساحة عز القبول والحضور ﴿ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ وجهلٍ عظيمٍ وغفلةٍ شديدةٍ وغشاوةٍ غليظةٍ، لا نجاة لهم منها.

وبالجملة لا يرتفع عن عيون بصائرهم حجبهم الكثيفة أصلاً، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

فكيف يتيسر لأحدٍ أن يعرض عن ذكر الله وعن استماع كلامه؟ مع أنه:

﴿ ٱللَّهُ ﴾ الذي دبر أمور عباده وأرشدهم إلى طريق معاده حيث ﴿ نَزَّلَ ﴾ تتميماً لتربيتهم ﴿ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ وأبلَغه في الإفادة والبيان ﴿ كِتَٰبًا ﴾ جامعاً لما في الكتب السالفة ﴿ مُّتَشَٰبِهًا ﴾ بعض آياتها ببعضٍ في حسن النظم واتساق المعنى ﴿ مَّثَانِىَ ﴾ أي ثنّى سبحانه وكرر الأحكام فيه تأكيداً ومبالغةً،

تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟

أمراً ونهياً، وعداً ووعيداً، ثواباً وعقاباً، عِبراً وأمثالاً، قصصاً وتذكيراً، وجعله في كمال الإيجاز والإعجاز والتأثير، بحيث ﴿ تَقْشَعِرُّ ﴾ أي تنقبض وتضطرب على الاستمرار ﴿مِنْهُ﴾ أي من سماعه ﴿ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ ﴾ مهابةَ ﴿رَبَّهُمْ ﴾ في جميع حالاتهم، خوفاً من سطوة سلطنة جلاله ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ﴾ تطمئن ﴿ قُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ رجاءً من سعة رحمته، بمقتضى لطفه وجماله.

وبالجملة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي الكتابُ الرفيعُ الشأن، الواضحُ البرهان ﴿هُدَى ٱللَّهِ ﴾ الهادي لعباده ﴿يَهْدِى بِهِۦ ﴾ ويوفِّق على الهداية والرشاد بمقتضى ما فيه ﴿مَن يَشَآءُ ﴾ من عباده، ويضلُّ به وعن الاستفادة بما فيه من يشاء إرادةً واختياراً ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ ﴾ بمقتضى قهره وجلاله ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ إذ لا يبدَل قوله، ولا ينازَع حكمه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿ أَفَمَن يَتَّقِى ﴾ أي يصل ويدخل ﴿بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي أشده وأسوأه، إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل في أيديهم، يُسحبون إلى النار بحيث لا يصل منهم إليها أولاً إلا وجوههم، كمن آمن منه وسَلِم عن مطلق المكاره؟ كلا وحاشا ﴿ وَقِيلَ ﴾ حينئذ ﴿ لِلظَّٰلِمِينَ ﴾ الخارجين من مقتضى الحدود الإلهية ظلماً وعدواناً على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿ذُوقُوا۟ ﴾

مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ....

أيها المنهمكون في بحر الغفلة والشهوات جزاءَ ﴿مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾ في دار الاختبار، بمقتضى أهويتكم الفاسدة وآرائكم الباطلة.

وليس هذا التكذيب والجزاء المترتب عليه مخصوصاً بهؤلاء الكفرة المكذبين لك يا أكمل الرسل. بل كل من

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من المشركين رسلَهم المبعوثين[1] إليهم ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ فجأةً ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ مقدماته وأمَاراته أصلاً.

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ المنتقم منهم ﴿ٱلْخِزْىَ﴾ أي الذلَّ والهوان، والخيبةَ والخسران ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ المعدُّ لهم فيها ﴿أَكْبَرُ﴾ أي أشدُّ وأفزعُ ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ شدَّتَه وفظاعتَه لما ارتكبوا ما يؤول إليه ويوقعهم فيه.

﴿وَ﴾ اللهِ ﴿لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ الناسين عهودنا ومواثيقنا ﴿فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ المتكفلِ لإهداء عموم الضالين ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ ينبههم على معالم الدين ومراسم التوحيد واليقين ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ رجاءَ أن يتعظوا بما فيه، ويتفطنوا بسرائره ومرموزاته، مع أنا جعلناه :

(١) في المخطوط (المبعوثة).

قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ....

﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أوضحَ بياناً، وأعظمَ شأناً، وأجلَ تبياناً وبرهاناً ﴿ غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ أي بلا اختلالٍ واختلافٍ في معناه، موجِبٍ للتردد والالتباس والشك والارتياب ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ عن محارمنا، ويحذَرون عن ما نهيناهم عنه، ومع ذلك لم يتقوا، بل لم يتنبهوا ولم يتفطنوا أصلاً. ولهذا

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ ﴾ المطّلعُ على جميع ما في استعدادات عباده وقابلياتهم

﴿ مَثَلًا﴾ موضحاً لحالِ الموحد منهم والمشرك، وشبّه كلتا الطائفتين برجلين مملوكين ﴿ رَّجُلًا ﴾ مملوكاً ﴿ فِيهِ شُرَكَآءُ ﴾ أي له أربابٌ متشاركون فيه، كلهم ﴿مُتَشَٰكِسُونَ ﴾ أي متشاخصون متخالفون في استخدامه، متنازعون في شأنه، يتجاذبونه على مقتضى أهويتهم وأمانيهم بكمال الاستيلاء والغلبة، هذا مَثَلُ المشركين بالنسبة إلى معبوداتهم الباطلة ﴿ وَرَجُلًا ﴾ أي مملوكاً آخر ﴿ سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾ أي مسلّماً مخصوصاً لمالكٍ فقط بلا شوب شركةٍ فيه، ونزاعٍ في أمره، هذا مثل الموحد بالنسبة إلى ربه الواحد الأحد الصمد الذي لا تعدد فيه ولا كثرة أصلاً ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ ويتماثلان ﴿مَثَلًا ۚ﴾ هذان الرجلان المملوكان. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ ﴾ الذي لا شركة في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله، بل ولا نزاعَ لأحدٍ في حكمه، يفعل ما يشاء بالإرادة والاختيار، ويحكم ما يريد بالاستقلال ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ وحدتَه واستقلاله في التصرفات

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ....

الواردة، باعتبار شؤونه وتطوراته، لذلك يُشركون به غيره ظلماً وجهلاً، ثم قال سبحانه:

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ ﴾ يعني كيف لا يستقل سبحانه بالوجود والآثار المترتبة عليه، مع أنك يا أكمل الرسل وأشرف الكائنات وأفضلهم معطلٌ في ذاتك وفي نشأتك هذه عن استناد ما ظهر منك إليك، إذ لا وجود لك من ذاتك ﴿ وَإِنَّهُم ﴾ أي غيرك من أشخاصٍ بالطريق الأولى ﴿ مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ معطّلون عن آثار الوجود مطلقاً في هذه النشأة، بل كلكم أنتم وعموم العباد مسخَّرون تحت حكمه وأمره، ما عليكم إلا الامتثال والانقياد.

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ ﴾ أيها الموحدون والمشركون جميعاً ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ المعدَّةِ للحساب والجزاء ﴿عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ المطّلعِ على جميع ما جرى عليكم ﴿تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ بعضكم مع بعض في ما أنتم عليه في نشأتكم الأولى، ثم تحاسبون وتجازون بمقتضاه، فستعلمون حينئذٍ أيّ منقلبٍ ينقلبون.

ثم قال سبحانه على سبيل الاستبعاد والتقريع:

﴿ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ وأضلُّ طريقا ﴿ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ وأنكرَ وجودَه واستقلالَه فيه، وفي الآثار المترتبة عليه ﴿ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ﴾ يعني بالقرآن الذي جاء به محمد ﷺ مبيناً لتوحيد الحق واستقلاله في الوجود ﴿ أَلَيْسَ ﴾ يبقى ﴿ فِى جَهَنَّمَ ﴾ البعدِ والحرمان ﴿ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾

الساترين بغيوم هوياتهم الباطلة شمسَ الحق الظاهر في الآفاق بالاستقلال والاستحقاق، مع أنه معدٌّ لهؤلاء المردة المطرودين عن ساحة عز القبول.

﴿وَ﴾ الموحد ﴿ٱلَّذِى﴾ من قِبل ربه ﴿جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ بلا افتراءٍ ومراءٍ ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ إيماناً واحتساباً بلا شوب شكٍ وترددٍ فيه ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ السعداء الصادقون المصدّقون ﴿هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ الذين يُحفظون عن الميل إلى ما لا يرضى منهم سبحانه. وبسبب اتصافهم بالتقوى عن محارم الله

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ من اللذات الروحانية ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بأنواع الكرامة، ووفّقهم للهداية إلى جنابه، والعكوفِ حول بابه تفضلاً عليهم وتكريماً. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي سمعت من الكرامات ﴿جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾ الذين يُحسِنون الأدب مع الله بحسب ظواهرهم وبواطنهم، ويأخذون ما نزل من عنده من الأوامر والنواهي على وجه العزيمة الخالصة عن شوب الرياء والرعونات المنافية لإخلاص العبودية.

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بسبب إخلاصهم في عزائمهم ﴿أَسْوَأَ﴾ العمل ﴿ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ فكيف أسهله وأصغره ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ أي يعطيهم جزاء أعمالهم في الآخرة ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي أحسن من حسناتهم، وأوفر منها؛ لخلوصهم فيها.

أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ....

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ ﴾ القدير العليم ﴿ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ المتوكل عليه، المفوض أمره إليه ليكفيه ما ينفعه، ويكف عنه ما يضره، ﴿وَ﴾ هم من جهلهم بالله وكمال علمه وقدرته ﴿ يُخَوِّفُونَكَ ﴾ يا أكمل الرسل يعني قريشاً

﴿ بِٱلَّذِينَ ﴾ أي بأصنامهم الذين يدعونهم آلهةً ﴿ مِن دُونِهِۦ ﴾ سبحانه جهلاً وعناداً، ويقولون لك على سبيل النصيحة: لا تذكرهم بسوء، فإنا نخاف عليك أن يخبلوك، ويفسدوا عقلك، وما ذلك إلا من نهاية جهلهم بالله، وغوايتهم عن طريق توحيده ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ ﴾ بمقتضى قهره وجلاله ﴿ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ ﴾

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾ إذ هو فاعل على الإطلاق بالاختيار والاستحقاق لا يجري في ملكه إلا ما يشاء.

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ ﴾ العليم القدير ﴿ بِعَزِيزٍ ﴾ منيعٍ غالبٍ على أمره ﴿ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ شديدٍ على من أراد انتقامه من أعدائه.

ثم أشار سبحانه إلى توضيح دلائل توحيده تعريضاً على المشركين، وتسجيلاً على غوايتهم وغباوتهم، فقال مخاطبا لحبيبه ﷺ:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم ﴾ يا أكمل الرسل، يعني كفار قريش ﴿ مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أي العلويات والسفليات وما بينهما من الممتزجات، ومن

لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ

أوجدها وأحدثها وأظهر ما فيها من العجائب والغرائب ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ البتة: ﴿ٱللَّهُۚ﴾ المتفرد بالخلق والإيجاد، المتوحدُ بالألوهية والربوبية، إذ لا يسع لهم العدول عنه لظهوره ﴿قُلۡ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعد ما سمعتَ منهم قولهم هذا، إلزاماً لهم وتبكيتا: ﴿أَفَرَءَيۡتُم﴾ عياناً أو سمعتم بياناً من ﴿مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من هؤلاء المعبودات الباطلة، وتدعونها آلهةً شركاء مع الله قوةَ المقاومة وقدرةَ المخاصمة معه سبحانه مثلاً ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ﴾ وجرى حكمه علي أن يمسني ﴿بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ﴾ أي آلهتكم ﴿كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ سبحانه عني على سبيل المعارضة ﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ﴾ فائضةٍ من عنده علي ﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ يمنعونها عني، ويدفعون وصولها إليّ ؟!!

وبعد ما بهتوا وسكتوا عند سماع هذه المقالة نادمين.

﴿قُلۡ﴾ يا أكمل الرسل كلاماً ناشئاً عن محض التوحيد واليقين، خالياً عن أمارات الريب واليقين التخمين: ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾ الواحد الأحد الصمد الكافي لمهام عموم عباده، الرقيبُ عليهم في جميع حالاتهم، إذ ﴿عَلَيۡهِ﴾ لا على غيره من الوسائل والأسباب العادية ﴿يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ المفوضون أمورهم كلها إليه، حيث يتخذونه وكيلاً، ويعتقدونه كافياً وحسيباً.

﴿قُلۡ﴾ لهم أيضاً على سبيل التوبيخ والتهديد: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ وحالكم ما شئتم من الأعمال ﴿إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾ أيضاً على

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ

مكانتي وحالي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ مآلَ ما يعملون وغايته، واعلموا أن ﴿مَن يَأْتِيهِ﴾ منا ومنكم ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ويرديه في الدنيا ﴿وَ﴾ هو دليل على أنه ﴿يَحِلُّ﴾ وينزل ﴿عَلَيْهِ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ دائمٌ مؤبدٌ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، ونحن نتربص أيضاً. ثم قال سبحانه على وجه التأديب لحبيبه:

﴿إِنَّآ﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الجامعَ المشتمل على عموم مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم؛ لتكون هادياً ﴿لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ﴾ مبلِّغاً إياهم جميعَ ما فيه من الوعد والوعيد ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ ووُفِّق على قبول ما فيه من الأوامر والنواهي ﴿فَلِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ أي نفعُ هدايته واهتدائه عائدٌ إلى نفسه ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ كذلك ﴿وَ﴾ بعد ما وضَح الأمر لديك، لا تُتعب نفسك في إهدائهم، إذ ﴿مَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ ضمينٍ لإهدائهم وتكميلهم، بل ما عليك إلا البلاغ، وعلينا الحساب.

وكيف لا يكون حساب العباد على الله ولا يكون في قبضة قدرته؟

إذ ﴿ٱللَّهُ﴾ المستوى على عروش ما ظهر وبطن بالاستيلاء التام والقدرة الكاملة الشاملة ﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ ويقطع إمداده بالحياة عليها بمقتضى

﴿حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ....

النفس الرحماني ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي حين تعلق إرادته سبحانه بقطع علقة عنها وإرجاعها إلى ما كانت عليه من العدم ﴿وَ﴾ كذا تتوفى الأنفس ﴿الَّتِي لَمْ تَمُتْ﴾ أي لم تحكم عليها بقطع العلقة والإمداد عنها ﴿فِي مَنَامِهَا﴾ أي يفصل عنها ما هو مبدأ الآثار والأفعال، وما يترتب عليه التمييز والشعور، ويبقى رمق منه عنها ﴿فَيُمْسِكُ﴾ ويقبض سبحانه بعد الفصل والتوفي الأنفسَ ﴿الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ في لوح قضائه وحضرة علمه ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ﴾ أي يعيدها إلى أبدانها ويمهلها ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ معينٍ مقدرٍ عنده ؛ لقطع الإمداد والارتباط

وعن المرتضى الأكبر كرم الله وجهه: «يخرج الروح عند النوم ويبقى شعاعه في الجسد، فبذلك يرى الرؤيا، فإذا انتبه من النوم عاد الروح إلى جسده بأسرع من لحظة».

ولهذا قيل: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام، فتتعارف ما شاء الله، فإذا أرادت الرجوع إلى الأجساد، أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها.

وبه ورد الحديث صلوات الله على قائله: « إِذَا أَوَى أَحَدُكُم إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُوْلُ: باسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِيْ، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَها

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ ....

فَاحْفَظْها بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبادَكَ الصَّالِحِيْنَ»[1] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التوفي والفصل، والإمساك والإرسال ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل واضحاتٍ وشواهد لائحاتٍ على قدرة الصانع الحكيم القدير العليم ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ في مقدوراته سبحانه، ويشاهدون آثار قدرته عليها.

وبعد ما سمع قريش كمال قدرة الله واستقلاله بالتصرفات الواقعة في ملكه وملكوته حسب إرادته واختياره، ينبغي لهم أن يوحِّدوه سبحانه، ويتخذوه وكيلاً، ويجعلوه حسيباً وكفيلا، ومع ذلك لم يتخذوه .

﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ أي بل اتخذوا من تلقاء أنفسهم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أولياءَ من الأصنام والأوثان، وسموهم ﴿شُفَعَاءَ﴾ عنده سبحانه، لذلك يعبدونهم كعبادته ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزاماً وتبكيتاً: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا﴾ أي أتتخذون الأصنام والأوثان شفعاء أيها الحمقى، وتستشفعون منهم، ولو كانوا ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ من جلب النفع ودفع الضر ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ويدركون مقاصدهم أصلاً؟! وما هو إلا وهمٌ باطلٌ، وخروجٌ عن مقتضى

---

(١) في التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول برقم: ٢٢٥٦: عن أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: «إذا أوى أحدكم إلى فِراشه فَلْيَنفُض فِرَاشه بِدَاخِلَةِ إِزَارِه، فَإنه لا يَدْري ما خَلفَه عليه، ثم يقول: باسمك ربي وَضَعْتُ جنبي، وبك أرفعُهُ، إنْ أَمسكْتَ نَفْسي فارْحَمْها، وإنْ أرْسَلتَها فَاحْفَظْها بما تَحْفظُ به عبادَكَ الصالحينَ». وهو صحيح أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي. الكتاب المصدر: جامع الأصول في أحاديث الرسول ٤/ ٢٦٦.

قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) ....

العقل الفطري.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعد ما لاح عندك غباوتهم وضلالهم على وجه العظة والتذكير لعلهم يتنبهوا: ﴿لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ أي مطلق الشفاعة، مختصةٌ لله، مستندةٌ إليه أصالةً، كائنة من عنده، لا يسع لأحدٍ من أهل العناية أن يشفع لمجرمٍ عنده سبحانه إلا بإذنه، وكيف لا يكون كذلك؟

إذ ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ما ظهر من العلويات والسفليات، وما بينهما من الممتزجات، بلا تصرفٍ فيها بالاستقلال والاختيار، بلا مزاحمة أندادٍ وأغيارٍ ﴿ثُمَّ﴾ لو وقعت شفاعةٌ من أحد ممن أذِن له الرحمن، ورضي له قولاً، فإنما هي أيضاً آيلٌ إليه سبحانه، إذ ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من العكوس والأظلال ﴿تُرْجَعُونَ (٤٤)﴾ رجوع الأضواء إلى الشمس.

﴿وَ﴾ من شدة قساوة المشركين وجهلهم بالله ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد المستقل بالألوهية والربوبية ﴿وَحْدَهُ﴾ على ما كان بلا مشاركة أحدٍ معه في الثبوت والوجود ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ أي انقبضت وضاقت ﴿قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ بالانكشاف التام في النشأة الأخرى المفني لأظلال السوى والعكوس مطلقاً ﴿وَإِذَا ذُكِرَ﴾ آلهتهم ﴿الَّذِينَ﴾ يدعونهم ﴿مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥)﴾ أي فاجؤوا عند ذكر آلهتهم

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ....

إلى البسط والاستبشار.

﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل عند يأسك عنهم وعن إيمانهم وتنبُّههم مسترجعاً إلى ربك، مفوضاً أمور عباده إليه، سيما هؤلاء المعاندين: ﴿ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومظهرهما من كتم العدم بالإرادة والاختيار، يا ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ على التفصيل، بحيث لا يعزب عن حيطة علمك مثقال ذرةٍ من ذرائر ما لمع عليه برق وجودك بمقتضى جودك، ﴿أَنتَ﴾ بذاتك حسب شؤونك وتطوراتك ﴿تَحْكُمُ﴾ وتقضي ﴿بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ هؤلاء وبيني ﴿فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ معي في أمور الدين القويم المنزَّل من عندك والكتاب المبيِّن طريق توحيدك.

ثم قال سبحانه تسجيلاً على عدم قابليتهم واستعدادهم لقبول الحق وفيضان أسرار التوحيد:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي بعد ما جُبلوا على فطرة الشقاوة من عند الله الحكيم لو حقّ وثبتَ لهم ملكُ ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الزخارف الإمكانية ﴿جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ﴾ بل أضعافه وآلافه ﴿مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ﴾ في سبيل الله، راجين النجاة ﴿مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ﴾ المعدِّ لهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ جزاءً لأعمالهم لما حصل لهم هذا، ولا نجاة لهم منه أصلاً، إذ لا يبدَّل قولنا ولا يغير حكمنا، بل

وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ....

﴿ وَبَدَا ﴾ أي لاح وظهر ﴿ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ من قِبله، إذ هم عند الإتيان بفواسد الأعمال والعبادات على معبوداتهم، زاعمين جزاء ترتب جزاء الخير عليها، وقد انعكس الأمر عليهم.

﴿وَ﴾ حين ظهر عليهم عكس المطلوب ﴿ بَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ أي تحقق عندهم كون أعمالهم التي أتوا بها سيئاتٍ كلها ﴿وَ﴾ حينئذٍ ﴿ حَاقَ﴾ وأحاط ﴿ بِهِم ﴾ خجالةَ ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ من الأمور الدينية والمعتقدات الأخروية الجارية على ألسن الرسل والكتب في النشأة الأولى، ولم ينفعهم الندم والخجالة حينئذٍ لانقضاء التدارك والتلافي.

ثم أشار سبحانه إلى تزلزل الإنسان وعدم ثباته على العزيمة الخالصة نحو ربه فقال:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾ منا مؤلمٌ مزعجٌ إلى التوجه والتحنن إلينا

﴿دَعَانَا﴾ واستكشف عنا الضر على سبيل الإلحاح والاقتراح ﴿ثُمَّ﴾ بعد كشفنا عنه ضره ﴿ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ﴾ أي أعطيناه ووسَّعنا عليه ﴿ نِعْمَةً ﴾ تفضلاً ﴿مِّنَّا﴾ وتكريماً لنختبر كيف يشكر على دفع الضرِّ وحصول النعمة بعده ﴿ قَالَ ﴾ حينئذ على سبيل الكفران: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ من النعم ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ﴾ مني بوجوهِ كسبه وجمعه وأرباحه وأخذه، أو المعنى: ما أُوتيت وأُعطيت

بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ ....

بما أوتيت إلا بسبب علمي بوجوه جمعه وتحصيله، لا من حيث لا احتسب، هكذا يقول من الهذيانات الدالة على الكفران والطغيان، مع أن نعمته ما هي نعمةٌ في نفسها ﴿ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ ﴾ ابتلاءٌ منا إياه، واختبارٌ، لننظر أيشكر أم يكفر ؟ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ولا يفهمون فتنتنا واختبارنا، لذلك ينهمكون في بحر الكفران والطغيان.

وليس هذا مخصوصاً بهؤلاء الكفرة التائهين في تيه الغفلة والكفران، بل ﴿ قَدْ قَالَهَا ﴾ أي الكلمة المخصوصة التي من جملة: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [٢٨-القصص:٧٨ و٣٩-الزمر:٤٩] الكافرون المسرفون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ مثل قارون وغيره ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ﴾ أي كفى ودفع ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ من الزخارف شيئاً من عذاب الله حين أحاط بهم ونزل عليهم العذاب، فكذلك ما أغنى عن هؤلاء أمتعتهم شيئاً من العذاب حين حلوله .

﴿ فَأَصَابَهُمْ ﴾ أي الكفرة الماضين في النشأة الأولى ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ۚ﴾ مثل الخسف والكسف والغرق وغيرها ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ الكفرة المستخلفين منهم، القائلين بقولهم، يعني قريشاً ﴿سَيُصِيبُهُمْ﴾ عن قريب ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ أمثال أولئك الهالكين ﴿وَمَا هُم﴾ أي هؤلاء ﴿بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾ اللهَ القادرَ المقتدرَ على أنواع التعذيب والانتقام، فقُتل

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ ....

صناديدهم يوم بدر، وقُحطوا سبع سنين، ثم وسَّع عليهم رزقهم ؛ ليتنبهوا أن مقاليد الأمور بيده، وخزائن الرزق من عنده، ومع ذلك لم يعلموا.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ ولم يتنبهوا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المتكفل بأرزاق عباده ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده ﴿وَيَقْدِرُ ۚ﴾ أي يقبض عمن يشاء منهم إرادةً واختياراً على مقتضى علمه بتفاوت استعداداتهم الفطرية وقابلياتهم الجبلية الفائضة عليهم من الحكيم الوهاب ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ القبضِ والبسطِ المستلزَمين للدقائق والرقائق الغير المحصورة في الأمور الإلهية ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ براهينَ واضحاتٍ على حكمة القدير العليم ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ بذات الله، وكمال أوصافه وأسمائه.

وبعد ما تنبهوا على حقية الحق وتفطنوا دلائل توحيده

﴿۞ قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا، منادياً لهم على وجه الاختصاص، مضيفاً لهم إلينا عطفاً ولطفاً: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ طولَ دهرهم قبل انكشاف الأغطية والسُّدل عن عيون بصائرهم: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟﴾ ولا تيأسوا ﴿مِن﴾ فيضان ﴿رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ عليكم بعد انكشافها ورفعها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلعَ على ضمائر عباده ونياتهم ﴿يَغْفِرُ﴾ ويستر ﴿ٱلذُّنُوبَ﴾ التي صدرت عنكم حين غفلتكم ﴿جَمِيعًا ۚ﴾، وكيف لا يغفرها سبحانه ﴿إِنَّهُۥ﴾

هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ....

بمقتضى ذاته وأوصافه وأسمائه ﴿هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ المقصود على العفو والستر لعموم عباده، سيما على أهل التوحيد منهم ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ لهم يوصلهم بعد رفع الحجب عنهم إلى مقر التجريد والتفريد.

﴿وَ﴾ بعد ما سمعتم سعة رحمة الحق وجميلِ عفوه ومغفرته ﴿ أَنِيبُوٓاْ﴾ أي تقربوا وتوجهوا أيها المجبولون على فطرة الإسلام ﴿ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ الذي رباكم لمصلحة المعرفة والتوحيد ﴿ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ وانقادوا لأوامره، واجتنبوا عن نواهيه بالعزيمة الخالصة عن كدر الرعونات وشين الشهوات ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ الموعودُ في يوم الجزاء ﴿ ثُمَّ ﴾ بعد نزوله وإتيانه ﴿ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ إذ حينئذٍ لا يسع لكم التدارك والتلافي لانقضاء زمان التوبة والرجوع.

﴿وَ﴾ بالجملة إن أردتم النجاة من العذاب ﴿ ٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ أيها المكلّفون على الدين المستبين، ألا وهو القرآن الكريم المنزَّل على خير الأنام وأفضل الرسل الكرام، وامتثلوا بجميع ما فيه من الأوامر والنواهي على وجه العزيمة ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً ﴾ فجأة ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ علاماته حتى تتداركوا وتحذروا منها.

وبالجملة احذروا من يوم هائلٍ مهولٍ مخافة:

أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ....

﴿أَن تَقُولَ﴾ فيه ﴿نَفْسٌ﴾ وازرةٌ منكم، مقصرةٌ عن الإنابة والرجوع حين حلول العذاب عليها: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ ويا ندامتنا ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ وقصرتُ ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي في جانبه ورعاية حقه في إطاعته وانقياده ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي فرطتُ في حقه سبحانه، والحال أني حينئذٍ من الساخرين بالأنبياء الهادين والعلماء الراشدين المنبهين علي.

وبالجملة فندمتَ حينئذٍ، وما ينفع[1] الندم .

﴿أَوْ تَقُولَ﴾ متحسراً على كرامة أهل العناية: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ ووفَّقني على التوبة والإنابة نحوه كسائر أوليائه ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾﴾ المتحفظين نفوسهم عن الإفراط في حق الله ورعاية جانبه.

﴿أَوْ تَقُولَ﴾ متمنياً مستبعداً: ﴿حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾ يحلُّ عليها، ويحيط بها ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ أي رجوعاً إلى الدنيا مرةً أخرى ﴿فَأَكُونَ﴾ حينئذٍ ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ الذين يُحسنون الأدب مع الله، ويصدِّقون رسله وكتبه، وإنما تقول حينئذٍ ما تقول من كمال تحسرها على ما فات منها، وشدة هولها مما نزل عليها.

ثم قيل لها من قبل الحق رداً لقولها:

---

(١) في المخطوط (تنفعه) .

بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ

﴿ بَلَىٰ ﴾ هداك الله إذ ﴿ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى ﴾ لهدايتك وإرشادك على ألسنة رسلي ﴿ فَكَذَّبْتَ بِهَا ﴾ وبهم ﴿ وَٱسْتَكْبَرْتَ ﴾ عليها وعليهم ﴿ وَكُنتَ ﴾ حينئذٍ بتكذيبك واستكبارك ﴿ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ الذين ستروا الحق الحقيق بالإطاعة والاتباع، وأظهروا الباطل الزائغ الزاهق الزائل، فاتَّخذُوه معبوداً، وعبدوا له ظلماً وزوراً، عناداً واستكباراً.

﴿وَ﴾ لا تبالوا أيها الموحدون بعتوهم واستكبارهم في هذه النشأة إذ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ التي تبلى السرائر فيها ﴿تَرَى﴾ فيها أيها الرائي ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بإثبات الولد والشريك له، افتراءً ومراءً ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ﴾ أي تراهم حال كونهم مسودة الوجوه ؛ لأنهم حينئذٍ ملازموا النار وملاصقوها، تستبعدُ وتستغربُ أيها المعتبر الرائي حالتهم هذه، ﴿ أَلَيْسَ ﴾ يبقى ﴿فِى جَهَنَّمَ ﴾ البعد والخذلان وجحيم الطرد والحرمان ﴿مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ الذين يتكبرون على الله وعلى أوليائه بأنواع الفسق والعصيان والكذب والطغيان، مع أنه ما هي إلا معدةٌ لهؤلاء البغاة الطغاة الهالكين في تيه الكبر والعناد.

﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ﴾ المفضلُ المحسنُ بمقتضى لطفه وجماله من أهوال يوم القيامة وأفزاعها ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ عن محارم الله ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي بفوزهم وفلاحهم المورث لهم فتح أبواب السعادات وأنواع الخير والبركات

لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ ....

﴿ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ ﴾ أي ينجيهم، بحيث لا يعرضهم شيء يسوءهم في النشأة الأخرى ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ فيها أصلاً.

وكيف لا ينجّي سبحانه أولياءه؟ إذ

﴿ ٱللَّهُ ﴾ المحيطُ بجميع ما ظهر وبطن ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ومظهرُه من العدم بامتداد أظلال أسمائه وصفاته عليه ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من مظاهره ومصنوعاته ﴿ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ يولي أمره، ويحفظه عما يضره.

إذ ﴿ لَّهُۥ ﴾ وفي قبضة قدرته ﴿ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ ﴾ أي مفاتيح العلويات والسفليات، وما يتولد بينهما، ويتصرف فيهما بالإرادة والاختيار، ما شاء بلا منازع ومخاصم، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ وأنكروا دلائل توحيده واستقلاله في الآثار الصادرة منه سبحانه باختياره ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الأشقياء الضالون عن طريق التوحيد، المنحرفون عن جادة العدالة ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ المقصورون على الخسران والحرمان، لا يُرجى نجاتهم منه أصلاً.

ثم إن أرادوا يعني قريشا أن يخدعوك ويلبّسوا عليك الأمر بأن أمروك باستلام بعض آلهتهم ليؤمنوا بإلهك.

﴿ قُلْ ﴾ لهم يا أكمل الرسل على سبيل التعيير والتوبيخ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ ﴾ الواحد الأحد الصمد الحقيق بالإطاعة والعبادة ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ ﴾ أي تأمرونني

أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ....

﴿ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ بالله وباستحقاقه للعبادة والانقياد، وبالأصالة والاستقلال.

ثم قال سبحانه مقسماً على سبيل التأكيد والمبالغة في التأديب، تحريكاً لحمية ﷺ، وتثبيتاً على محبته.

﴿وَ﴾ الله ﴿ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ وَإِلَى﴾ الرسل ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ أنتَ مع كمال ودادتك وخلتك، وكل واحد منهم أيضاً مع كمال محبتهم وخلوصهم، وأتيت أنتَ وهُم بشيءٍ يلوح منه الإشراك المنافي للتوحيد ﴿ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وعملُهم، أي ليضيعن البتة صالح عملك الذي جئت به ليفيدك ﴿ وَلَتَكُونَنَّ﴾ حينئذٍ ﴿ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ خسراناً مبيناً.

فعليك أن لا تصاحب مع المشركين، ولا تقبل منهم قولهم، ولا تمتثل أمرهم،

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ أي بل إن أردت العبادة والإطاعة، فاعبد الله خاصةً خالصةً ولا تلتفت إلى غيره ﴿ وَكُن﴾ في شأنك هذا ﴿ مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ الصارفين لنعم الله إلى ما خُلق لأجله، إذ هم جُبلوا على فطرة العبادة والعرفان، بالنسبة إليه سبحانه حتى يتخذوه وكيلاً حسيباً.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ....

﴿وَ﴾ بالجملة المشركون الذين اتخذوا أولياء من دونه سبحانه، وادّعوا الوجود له وشركتهم معه سبحانه ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي ما وسعوا الحق باعتبار ظهوره بهذا الاسم المخصوص المستجمع لجميع الأسماء والصفات المعبر به عن الذات الأحدية كاسمه العليم، لذلك لم يعرفوا ﴿حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ وقدر ظهوره وبطونه، ولو وسعوا له، وعرفوا حق قدره، لما أثبتوا له شريكاً، إذ كل من تحقق بوحدة الحق وكيفية سريانه على هياكل الأظلال والعكوس المنعكسة، لم يبق عنده شائبة شكٍ في أن لا تعدد في ذاته سبحانه، ولا تكثرَ، بل يتجلى ويتجدد في كل آنٍ بشأنٍ، ولا شكَّ أن كل ما ظهر من الشؤون فانٍ، ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام ﴿وَ﴾ من جملة ما انعكس من بعض شؤونه سبحانه ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا﴾ أي جميع ما يتولد من الطبيعة والهيولى المنعكسة من التجليات الإلهية حسب اقتضاء أسمائه الحسنى وصفاته العليا، فيها ﴿قَبْضَتُهُۥ﴾ أي مقبوضةٌ في كف قدرته ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ التي هي الطامة الكبرى التي انقهرت دونها أظلال السوى مطلقاً، مندكة في نفسها، معدومة في حد ذاتها، لا وجود لها ﴿وَ﴾ كذا ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ حينئذٍ ﴿مَطْوِيَّٰتٌۢ﴾ معطلاتٌ عن مقتضياتها التي هي الأفعال والحركات، ساقطاتٌ في زاوية العدم على ما كانت عليها أزلاً وأبداً، أي تنزه ذاته وتقدست أسماؤه ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ وقدرته ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ شأنه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ له غيره ظلماً وزوراً.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ....

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمشركين يوم ﴿ نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ لرد الأمانات التي هي الوجودات المترشحة من بحر الذات على هياكل الهويات ﴿فَصَعِقَ﴾ أي خرَّ وسقط مغشياً من فزعه ﴿ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي جميع العلويات ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي جميع السفليات خوفاً من انقطاع الأمور الإلهية بمقتضى النفس الرحماني ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ﴾ من المعتبرين الفانين في الله، الباقين ببقائه، فإنهم قد قامت قيامتهم ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ﴾ إيقاظاً لهم عن سِنَة الغفلة ونعاس النسيان ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ أي فاجؤوا على القيام، بعد ما صاروا مغشياً عليهم ﴿ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ حينئذٍ حيارى سكارى مبهوتين هائمين، كأنهم صرعى مخبولين.

﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿ أَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي صارت الطبيعة والهيولى منورة بنور الله على ما كانت عليه قبل الفتح، وحينئذٍ عُرضوا على الله ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي مكتوب أعمال كلٍ من النفوس الزكية والخبيثة بين أيديهم، وحوسبوا بمقتضى ما فيه ﴿وَ﴾ بعد ما تم حسابهم وتنقيد أعمالهم ﴿ جِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ المبعوثين كلٌ منهم إلى أمةٍ من الأمم ؛ ليشهدوا على أممهم بما كانوا عليه في النشأة الأولى ﴿ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ أي وجيء بالشهداء أيضا، يعني أنطق الله أركانهم وجوارحهم التي أتَوا بها ما أتَوا من خير وشر فيشهدون.

وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ ....

﴿وَ﴾ بعد انكشاف أحوالهم وضبط أعمالهم[1] ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ على مقتضى العدالة الإلهية بلا حيفٍ وميلٍ ﴿وَهُمْ﴾ حينئذ ﴿لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ بالزيادة والنقصان ثواباً وعقاباً.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ جزاءَ ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ من خيرٍ وشرٍ ﴿وَ﴾ كيف لا يُوفَّى إذ ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعْلَمُ﴾ وأحفظ منهم ﴿بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي بجميع أفعالهم وأعمالهم الصادرة منهم، صالحها وفاسدها، نقيرها وقطميرها.

﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿سِيقَ﴾ سوقَ البهائم إلى المسلخ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بالإعراض عن الحق وأهله ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ الطرد والخذلان ﴿زُمَرًا﴾ فوجاً بعد فوجٍ، وطائفةً إثر طائفةٍ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ يعني جهنم ﴿فُتِحَتْ﴾ لهم ﴿أَبْوَٰبُهَا﴾ أي أبواب النيران المعدَّة لأهل الكفر والطغيان على تفاوت طبقاتهم فيه، ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ حينئذٍ على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أيها الضالون المستحقون لهذا الوبال والنكال ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي من بني نوعكم مبعوثون إليكم من قبل الحق ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ أي دلائل توحيده وكمال قدرته على أنواع الإنعام والانتقام ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ﴾ أي يخوفونكم عن لقاء هذا اليوم الذي تدخلون فيه في النار

(١) في المخطوط لا توجد (وكلمة إعمالهم).

قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ ....

بأنواع الخيبة والخسران.

وبعد ما سمعوا منهم ما سمعوا ﴿قَالُواْ﴾ متحسرين متأوهين: ﴿بَلَىٰ﴾ قد جاءت إلينا رسل ربنا بالحق، وتلَوا علينا آياته المشتملة على أنواع الإنذار والنذير ﴿وَلَٰكِنْ﴾ لم يفد بنا إنذراهم وتبشيرهم، إذ ﴿حَقَّتْ﴾ أي صدرتْ وثبتتْ منه سبحانه في سابق قضائه وحضرة علمه حتماً ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ وهي قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [١١-هود:١١٩ و ٣٢-السجدة:١٣] ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ المعرِضين عن الحق وآياته، وعن مَن بلّغها إليهم بإذنه، لذلك أعرضنا عنها وعنهم، فوجبت لنا النار.

وبالجملة أتَوا بالعذر وما ينفعهم.

بل ﴿قِيلَ﴾ لهم من قِبل الحق: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ﴾ أيها الضالون المجرمون ﴿أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي كل فرقة منهم بباب يخصها في سابق القضاء، وكونوا ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا نجاةَ لكم منها ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ أي الكافرين المستكبرين وأهله جهنم الخذلان وجحيم الحرمان والخسران.

أعاذنا الله وعموم المؤمنين منها بفضله العظيم.

﴿وَسِيقَ﴾ أيضاً سوق الحمام إلى المسرح ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ عن محارم الله بمقتضى أوامره ونواهيه الجارية على ألسنة رسله وكتبهم

إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ ....

﴿إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾ المعدةِ لفيضان أنواع اللذات الروحانية على أهلها ﴿زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ فرحين مسرورين، وتحننوا نحوها ﴿وَ﴾ قد ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ عنايةً من الله إياهم ﴿وَقَالَ لَهُمْ﴾ حينئذٍ ﴿خَزَنَتُهَا﴾ ترحيباً وتكريماً: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المهديون المهتدون الذين ﴿طِبْتُمْ﴾ وطهّرتم أنفسكم في دار الاختبار عن دنس الشهوات ورين المزخرفات ﴿فَٱدْخُلُوهَا﴾ أي الجنة المشتملة على أنواع الكرامات وأصناف السعادات الآن، وكونوا ﴿خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ فيها أبد الآباد بلا نقلٍ وتحويلٍ إلا إلى ما شاء الله لأهل العناية من الدرجات العلية التي لا تُكتنه ولا تُوصف.

﴿وَ﴾ بعد ما تمكنوا في مقر العز والحضور ﴿قَالُوا۟﴾ مسترجعين إلى الله عادّين موائد إنعامه وإفضاله على أنفسهم، قائمين لأداء حقوقها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ والمنة لله ﴿ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ أي جميع ما وعدنا الله به في النشأة الأولى بوحيه النازل على ألسنة أنبيائه ورسله من المعتقدات الأخروية ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أي المقر الموجود الذي بشَّرَنا به الرسل الكرام، وهي الجنة الموروثة لأهل العناية من سوابق الإيمان والمعرفة والأعمال الصالحة الصادرة منهم في دار الاختبار، ومكَّنَنَا فيه بحيث ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ وننزلُ ﴿حَيْثُ نَشَآءُ﴾ يعني ينزل ويستريح كلٌ منا حيث شاء وأراد من المقامات

فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ....

البهية والدرجات العلية، بلا مضايقةٍ وممانعةٍ ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ المخلِصين المخلَّصين نفوسهم عن أودية الجهالات والضلالات بنور الآيات البينات، الواصلين إلى روضة الرضا وجنة التسليم.

اللهم ارزقنا بلطفك العميم، واجعلنا من ورثة جنة النعيم.

﴿وَ﴾ بعدما تقرر أهل النار في النار وأهل الجنة في الجنة ﴿تَرَى﴾ أيها المعتبر المنكشف بكمال عظمة الله وجلاله ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي الأسماء والصفات الإلهية عبَّر عنها سبحانه بالملائكة المهيمين المستغرقين بمطالعة وجهه الكريم ﴿حَآفِّينَ﴾ صافين محدّقين محلّقين ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي حول عرشه العظيم المستغني عن عروش مطلق المظاهر، والحال الكائنة في عالمي الغيب والشهادة، إذ هو سبحانه غنيٌ بذاته عن مطلق التعينات الطارئة على شؤونه وتطوراته، لذلك ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ وينزهون أولئك المهيمون ذاتَه سبحانه عن سِمات الحدوث والإمكان مطلقاً دائماً، ويواظبون ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ على ما وهب لهم المعرفة بعلو شأنه وسموِّ برهانه، وباستغنائه في ذاته عن مظاهر أوصافه وأسمائه جميعاً ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي هم يحمدونه ويثنون عليه سبحانه أيضاً على عموم قضائه وحكمه وأحكامه الجارية بين عباده بمقتضى العدل القويم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿قِيلَ﴾ من قِبلِ كل من يتأتى منه الرجوع إليه سبحانه والتوجه نحوه طوعاً على الوجه الذي

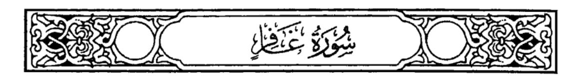
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

أَمر به: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ المطلق المستوعِب لجمع الأثنية والمحامد الصادرة من عموم المظاهر ثابتٌ ﴿لِلَّهِ﴾ أي للذات المستجمعِ لجميع أوصاف الكمال بالاستحقاق والاستقلال لكونه ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ بمقتضى توحيده وانفراده، فيكون جميع محامدهم مختصةٌ به سبحانه، إذ لا مربي لهم سواه.

حققنا بكرمك بحق قدرك وبقدر حقك [في نسخةٍ: وبقدر حقيتك] يا ذا القوة المتين.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي القاصد للتحقيق والإدراك بكمال عظمة الله وجلاله: أن تتأمل في أواخر هذه السورة، وتتعمق فيها وفي كشف سرائرها ومرموزاتها وإشاراتها الخفية وعباراتها المنبِّهة على وحدة الحق وحقيته؛ لينكشف لك أنه لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، ولا يقدّر تحققه وقيوميته زمانٌ ومكانٌ، بل هو كائنٌ على ما كان في كل آنٍ وشأنٍ بلا زمانٍ ومكانٍ.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ ....

فاتحة سورة غافر (المؤمن)

لا يخفى على من ترقى من حضيض التقليد إلى ذروة التوحيد ومن أودية الجهالات اللازمة للتعينات الإمكانية إلى أقصى درجات الإدراك وأعلاها: أن أجلّ المعلومات وأولاها وأدقّ المعارف وأخفاها هو الإطلاع على وحدة الحق وتوحيده في الذات الوجود وبكثّرة حسب الأسماء والصفات المقتضية للشؤون والتطورات الغير المحصورة.

لذلك أوحى سبحانه حبيبه بما أوحى من دلائل التوحيد، وأوصاه بحفظ ما نزل من الآيات المنزلة المبينة لتلك الآيات الدلائل ؛ ليكون على ذكر منها، فقال سبحانه مخاطبا له بعد ما تيمن باسمه الأعلى:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ المفصِح المعرِب عن الذات الأحدية باعتبار التسمية ونشأة العبارة ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الدالِّ على ثبوت عموم الأسماء والصفات لتلك الذات المؤثرة بها آثاراً لا تعدُّ ولا تحصى ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ الدال على رجوع الكل إليها رجوع الأظلال إلى الأضواء.

﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ يا حامل الوحي وحاميه ويا ماحي الغير والسوى عن لوح الضمير مطلقاً.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ....

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه إليك يا أكمل الرسل تأييداً لك في أمرك وشأنك ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي من الذات المعبَّر بهذا الاسم الجامع ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ المنيع الغالب ساحة عز حضوره عن أن يحوم حول وحيه شائبةُ الريب والتخمين ﴿ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ الذي لا يعزب عن حيطة علمه شيء مما جرى عليه قضاؤه.

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ أي ساتر ذنوب الأنانيات والهويات الحاصلة من انصباغ التعينات العدمية بصيغ الأسماء والصفات ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ أي التوبة والرجوع على وجه الإخلاص والندم من إثبات الوجود لغيره سبحانه ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ على من خرج عن ربقة عبوديته ؛ بإسناد الحوادث إلى نفسه، أو إلى مثله في الحدوث والمخلوقية ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ والغني عن توحيد الموحِّد وإلحادِ المشرك الملحد ؛ لأنه في ذاته ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا موجودَ سواه يُعبد له ويُرجع إليه في الخطوب، إذ ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ أي مرجع الكل إليه سواء وحَّده الموحدون أو ألحد في شأنه الملحدون المشركون.

ثم قال سبحانه توضيحاً وتصريحاً لما عُلم ضمناً:

﴿مَا يُجَٰدِلُ﴾ ويكابر ﴿فِىٓ﴾ شأن ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ودلائل توحيده واستقلاله في الآثار المترتبة على شؤونه وتجلياته ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وستروا ظهور

﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ ....

شمس الذات وتحققها في صفحات الكائنات بغيوم هوياتهم الباطلة وتعيناتهم العاطلة ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٤﴾﴾ أي لا يغررك يا أكمل الرسل إمهالنا إياهم، يتقلبون في بلاد الإمكان وبقاع الهيولى عن إمهالنا وعدم انتقامنا منهم بالطرد إلى هاوية العدم وزاوية الخمول.

وإن كذبوك يا أكمل الرسل في دعوتك وشأنك، وعاندوا معك فاصبر على أذاهم. وتذكر كيف

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أخاك نوحاً، وكيف صبرَ هو حتى ظفر عليهم حين ظهر أمرنا وجرى حكمنا بأخذهم واستئصالهم ﴿وَ﴾ كيف كذّبت ﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾ والأمم الكثيرة ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي بعد قوم نوح رسلَهم المبعوثين إليهم للهداية والإرشاد ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿هَمَّتْ﴾ وقصدتْ ﴿كُلُّ أُمَّةٍۭ﴾ من الأمم الماضية ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾ المرسِل إليهم ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ ويأسروه، بل ليقتلوه أو يستحقروه ويهينوه ﴿وَجَـٰدَلُوا۟﴾ أولئك الهالكون المنهمكون في تيه الكبر والعناد معهم ﴿بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ الزاهق الزائل في نفسه ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ﴾ ويزيلوا به ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الحقيق بالإطاعة والاتباع ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ واستأصلتُهم بعد ما أمهلتُهم زمانا، يعمهون في طغيانهم، ويترددون في بنيانهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ إياهم حين حلّ عليهم ما حلّ من العذاب.

وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ....

﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ ﴾ وثبتت ﴿ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ يا أكمل الرسل في لوح قضائه وحضرة علمه ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ بك وبدينك وكتابك ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ﴾ أي ملازموها وملاصقوها، أبد الآباد، لا نجاة لهم منها، فلا تحزن عليهم، ولا تك في ضيقٍ مما يمكرون.

ثم أشار سبحانه إلى حثّ المؤمنين الموحدين على الإيمان ومواظبة الشكر على إنعام الله إياهم باليقين، فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ ﴾ وهم الكروبيون الذين سبقوا بحمل العرش الإلهي وحفظِ ما انعكس فيهم من تجلياته الجمالية بدوام المراقبة والمطالعة بوجهه الكريم ﴿ وَمَنْ حَوْلَهُۥ ﴾ من الملائكة الذين يطوفون حول العرش ويقتفون أثر أولئك الحملة السابقين كلهم ﴿ يُسَبِّحُونَ ﴾ وينزهون[1] الحق عن سمات الحدوث والإمكان، ويقدسونه عن عروض السهو والنسيان، إذ كمال ما يدرك المدرك منه سبحانه إنما هو التسبيح والتقديس، وإلا فالأمر أعزُّ وأعلى من أن يحيط به الآراء ويحوم حوله الأهواء، ويواظبون ﴿ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ على ما أولاهم نعمةَ التوجه إليه والتحنن نحوه ﴿ وَ ﴾ بالجملة ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ سبحانه ويوحدونه ويعتقدون أوصافه العليا وأسماؤه الحسنى، وإن عجزوا عن كنه ذاته ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي يطلبون العفو والستر منه سبحانه لذنوب

---

(١) في المخطوط (تنزيه).

رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ ....

إخوانهم الذين آمنوا بوحدة الحق وكمالات أسمائه وصفاته، مثل إيمانهم سواءً كانوا سماويين أو أرضيين، قائلين مناجين مع ربهم حين استغفارهم: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على فطرة تسبيحك وتقديسك ومداومة حمدك وثنائك، أنت بذاتك بمقتضى كرمك وجودك ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي وسعتْ رحمتك وأحاطتْ حضرة علمك على كل ما لمع عليه بروق تجلياتك وشروق شمس ذاتك ﴿ فَاغْفِرْ﴾ لسعة رحمتك وجودك ﴿ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ ورجعوا نحو بابك نادمين، وامح عن عيون بصائرهم سبل الغير والسوى في جنب بابك ﴿ وَاتَّبَعُوا﴾ بالعزيمة الصادقة الخالصة ﴿ سَبِيلَكَ﴾ الذي أرشدتهم إليه بوحيك على رسلك ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ أي احفظهم عن عذاب الطرد والحرمان المعدِّ لأصحاب الخسران في جميع حجتهم الخذلان.

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ﴾ بفضلك ولطفك ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي متنزهات العلم والعين والحق ﴿ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ في كتابك لعموم أرباب العناية من عبادك ﴿وَ﴾ كذا أَدخل ﴿ مَن صَلَحَ﴾ عندك لفيضان جودك وإحسانك ﴿ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ﴾ الذين تناسلوا منهم على فطرة التوحيد، وحلية الإيمان والعرفان ﴿ إِنَّكَ﴾ بذاتك وأسمائك وصفاتك ﴿ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ المنيعُ ساحة عز حضوره عن أن يحوم حوله شائبةُ وَهْمِ أحدٍ من

ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ....

مظاهرك ومصنوعاتك ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾ في جميع أفعالك الصادرة عنك على كمال الإحكام والإتقان.

﴿وَقِهِمُ﴾ بمقتضى حكمتك المتقنة ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي عن الجرائم والآثام المستتبعة لإدخالهم إلى دركات النيران، ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي من تحفظه أنت بمقتضى لطفك وتوفيقك عن المعاصي في النشأة الأولى ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ البتة في النشأة الأخرى ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي وقايتك وحفظك إياهم عن أسباب الخذلان والحرمان ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ والكرم العميم واللطف الجسيم.

ثم أشار سبحانه إلى تفضيح من كفر بالله وكذّب بما نزل من عنده من الأوامر والنواهي الجارية بمقتضى وحيه على ألسنة رسله وكتبه في النشأة الأولى، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله وأنكروا بوحدة ذاته وسريان وجوده الوحداني الذاتي على جميع مظاهر الكائنات حسب شؤون الأسماء والصفات، بأن أشركوا فيه سبحانه، وأثبتوا وجوداً لغيره، وادّعوا ترتب الآثار عليه ﴿يُنَادَوْنَ﴾ في الطامة الكبرى، والنشأة الأخرى حين ظهر الحق، واستقر على مقز العز والتمكين، وانقهر الباطل الزاهق الزائل، واضمحل التلون والتخمين ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ أي طردُه وتحريمه لكم اليوم ﴿أَكْبَرُ﴾

مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾

وأفظع ﴿مِن مَّقْتِكُمْ﴾ وتحريمكم ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ عن موائد لطفه وإحسانه سبحانه، وذلك ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ أي وقت دعوة الأنبياء والرسل إياكم بإذن الله ووحيه ﴿إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ به سبحانه وبتوحيده ﴿فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ حينئذٍ وتسترون شروق شمس ذاته بغيوم هوياتكم الباطلة جهلاً وعناداً، بل تشركون له غيره في الألوهية والوجود، وتعبدون له كعبادته سبحانه.

وبعد ما سمعوا ما سمعوا من النداء الهائل المهول ﴿قَالُوا۟﴾ بلسان استعداداته متحسرين متضرعين: ﴿رَبَّنَآ﴾ يا من ربانا على فطرة معرفتك وتوحيدك، فكفرناك وأشركنا بك غيرك، قد ظهر لنا اليوم حقية ما ورد علينا من قبل بعدما ﴿أَمَتَّنَا﴾ وأفنيتنا في هويتك مرتين ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾ مرةً في النشأة الأولى بانقضاء الأجل المقدر من عندك، ومرةً في النشأة الأخرى بعد النفخة ﴿وَ﴾ كذا ﴿أَحْيَيْتَنَا﴾ وأبقيتنا ببقائك مرتين ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾ مرةً عند حشرنا من أجداث طبائعنا، ومرةً بعد النفخة الثانية للعرض والجزاء.

وبعد ما لاح علينا من دلائل توحيدك وكمال قدرتك ما لاح ﴿فَٱعْتَرَفْنَا﴾ الآن ﴿بِذُنُوبِنَا﴾ التي صدرت عنا من غاية غفلتنا وجهلنا بك وبقدرتك ووحدة ذاتك واستقلالك في آثارك الصادرة عنك ﴿فَهَلْ﴾ لنا اليوم مجالٌ ﴿إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ من عذابك الذي أعددتَ لنا بمقتضى عدلك حسب جرائمنا وآثامنا ﴿مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ إلى الخلاص والنجاة منه.

ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ....

ثم بعدما تضرعوا من شدة هولهم وفظاعة أمرهم ما تضرعوا، نودوا من وراء سرادقات القهر والجلال:

﴿ذَٰلِكُم﴾ أي العذاب الذي أنتم فيه ﴿بِأَنَّهُۥٓ﴾ أي بسبب أنه ﴿إِذَا دُعِىَ﴾ وذُكر ﴿ٱللَّهُ﴾ المتعززُ برداء العظمة والكبرياء ﴿وَحْدَهُۥ﴾ أي على صرافة وحدته واستغنائه عن العالم وما فيه ﴿كَفَرْتُمْ﴾ وأنكرتم وجوده وكمال أوصافه وأسمائه، وكذّبتم رسله المبعوثين إليكم للتبليغ والتبيين ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ﴾ ويُثبت له شركاء ﴿تُؤْمِنُوا۟﴾ وتقروا بالشركاء، وتعتقدوا وجودها، وتصدقوا مَن تفوّه بها ﴿فَٱلْحُكْمُ﴾ المحكم والقضاء الحتم المبرم الآن ﴿لِلَّهِ﴾ المنزه ذاتُه عن أن يُتردد فيه أو يُشرك ﴿ٱلْعَلِىِّ﴾ الغني شأنه عن إيمان المؤمن وكفر الكافر ﴿ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ المتعال وحدة ذاته عن أن يحوم حوله إقدام الإقرار والإنكار.

وكيف تنكرون له سبحانه، وتشركون فيه مع أنه سبحانه

﴿هُوَ﴾ الله الكامل في الألوهية والربوبية ﴿ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على وحدة ذاته ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي سماء الأسماء المربية لكم من لدنه ﴿رِزْقًا﴾ صورياً ومعنوياً تتميماً لتربيتكم وتكميلكم ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ ويتّعظُ منكم بآياته ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ إليه ويرجع نحوه طالباً الترقي من

﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾

حضيض التقليد والتخمين إلى ذروة التحقيق واليقين.

وإذا سمعتم كمال تربيته وتكميله سبحانه

﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد، وتوجهوا نحوه، واعبدوه حق عبادته أيها المكلَّفون بمعرفته وتوحيده حال كونكم ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي الإطاعة والانقياد بلا رؤية الوسائل والأسباب العادية في البين ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤﴾ المكابرون إطاعتكم إياه، ورجوعكم إليه على وجه الإخلاص والاختصاص.

وكيف لا يدعون ويعبدون له سبحانه، مع أنه هو في ذاته

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أي درجاتُ قربه ووصوله رفيعةٌ، وساحةُ عز حضوره منيعةٌ لا يسع لكل قاصدٍ أن يحوم حولها، إلا بتوفيقٍ منه سبحانه وجذبٍ من جانبه ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ العظيم، إذ لا ينحصر مقر استيلائه وظهوره بمظهرٍ دون مظهرٍ ومجلىً دون مجلى، بل له مجالي إلى ما شاء الله، إذ هو بمقتضى تجليه الجمالي ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ﴾ على وجه الأمانة ويمدُّ الظل ﴿مِنۡ﴾ عالم ﴿أَمۡرِهِۦ﴾ بمقتضى حبه الذاتي ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ أي استعدادت مظاهرة، المستظلين بظلال أسمائه وصفاته، وبعد إلقائه ومده إياهم، كلَّفهم بما كلَّفهم من الأوامر والنواهي المصححة للعبودية اللازمة للألوهية والربوبية، وإنما كلفهم بما كلفهم ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾ أي يخوفهم عن زمان الوصول

﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ ....

والرجوع في النشأة الأخرى، والطامة الكبرى التي تردُ فيها الأمانات إلى أهلها على وجهها. إذ هو

﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾ خارجون من أجداث أجسادهم، راجعون إلى الله جميعاً بأرواحهم، محشورون عنده، معروضون عليه بحيث ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ المحيطِ بهم ﴿مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ من أعيانهم وأعمالهم ونياتهم، وبعد ما برزوا لله ورجعوا نحوه صائرين إليه، فانين فيه، قيل لهم من قبل الحق بعد فناء الكل إظهاراً لكمال قدرته وجلاله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي مُلك الوجود والتحقق والثبوت، فأُجيب أيضاً من قبله، إذ لا موجودَ سواه، ولا شيء غيره: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ﴾ من كل الوجوه ﴿ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ لنقوش السوى والأغيار، وعكوس الأظلال والأمثال.

وبعد ما استقروا، استوى سبحانه على المُلك المطلق بالإطاعة والاستحقاق على ما كان ويكون في أزل الآزال وأبد الأباد، أشار إلى سرائر ما ظهر منه في النشأة الأولى فقال:

﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أي يوم الجزاء والنشأة الأخرى ﴿تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي طِبق ما كسبت واقترفت في النشأة الأولى، التي هي نشأة التكلف والاختبار بلا ازديادٍ وتنقيصٍ عليه، إذ ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي يوم الجزاء ؛ لأنه إنما وُضع لظهور العدالة الإلهية والقسط الحقيقي، بل تجزى

إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ....

فيه كل من النفوس بجميع ما صدرت عنها، خيراً وشراً نفعاً وضراً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ المطلع على عموم ما ظهر وبطن من عباده ﴿ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾ عليهم بلا فترةٍ وتلبيس، إذ لا يُشغله شأن عن شأن، ولا يطرأ عليه سهوٌ ونسيانٌ.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ ﴾ يا أكمل الرسل أي عموم المكلفين ﴿ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ ﴾ والمشارفة على العذاب الأبدي، حين أُحضروا على شفير جهنم للطرح فيها ﴿ إِذِ ٱلْقُلُوبُ ﴾ أي قلوب أولئك المحضَرين ترتفع حينئذ ﴿ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ ﴾ وتلتصق بحلاقيمهم من كمال هولهم واضطرابهم، وكانوا حينئذ ﴿ كَٰظِمِينَ ۚ ﴾ ومملوئين من الغم والحزن وأنواع الكآبة والخذلان، وبالجملة ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي لهؤلاء المسرفين المقصورين على الخيبة والخسران حينئذ ﴿ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ قريبٍ يدركهم، ويولي أمرهم، ويسعى في استخلاصهم ﴿ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾ أي شفيعٍ يَشفع ويقبل الشفاعة منه لأجلهم، مع أنه سبحانه

﴿ يَعْلَمُ ﴾ بعلمه الحضوري ﴿ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾ أي خيانتهم التي يتغامزون بعيونهم نحو محارم الله ﴿ وَ ﴾ يعلم أيضا ﴿ مَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ أي ما يخفي صدورهم من الميل إلى الشهوات المحرمة بلا مباشرة الآلات.

وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ ....

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱللَّهُ﴾ المطلعُ بظواهرهم وضمائرهم ﴿يَقۡضِي﴾ ويحكم بهم ويجازي عليهم بمقتضى علمه وخبرته منهم ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ بلا حيفٍ وميلٍ إظهاراً لكمال عدالته ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ سبحانه من الأوثان والأصنام ﴿لَا يَقۡضُونَ﴾ ولا يحكمون لا لهم ولا عليهم ﴿بِشَيۡءٍۗ﴾ من نفعٍ وضرٍ، إذ هم جماداتٌ لا شعورَ لها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ القادرَ المقتدر على أنواع الإنعام والانتقام ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع ما صدر من ألسنة استعداداته ﴿ٱلۡبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ بما ظهر على هياكل هوياتهم.

ثم أشار سبحانه إلى تقريع أهل الزيغ والضلال، وتفضيح أصحاب العناد والجدال، فقال مستبعداً مستنكراً إياهم:

﴿۞ أَ﴾ ينكرون قدرتنا عليهم وانتقامنا عنهم ﴿وَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ ويسافروا ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الموروثة لهم من أسلافهم الذين أسرفوا على أنفسهم أمثالهم ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ بنظر التأمل والاعتبار ليظهر عندهم ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ المسرفين ﴿ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ مستقرين عليها، متمكنين فيها، مترفهين أمثالهم، بل ﴿كَانُواْ هُمۡ﴾ أي أسلافهم ﴿أَشَدَّ مِنۡهُمۡ﴾ أي من هؤلاء الأخلاف ﴿قُوَّةٗ﴾ وقدرةً وأكثرَ أموالاً ﴿وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي

فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ ....

حصوناً وقلاعاً وقصوراً وأخاديد، وغير ذلك مما صدر من ذوي الأحلام السخيفة، ومع ذلك ما أغنى عنهم شيئاً من غضب الله وعذابه، بل ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ المنتقم منهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ التي صدرت عنهم على سبيل البطر والغفلة، فاستأصلهم بالمرة ﴿وَمَا كَانَ لَهُم﴾ حينئذ ﴿مِّنَ﴾ عذاب ﴿ٱللَّهِ﴾ وبطشه ﴿مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ حفيظٍ لهم، يمنع عذابَ الله عنهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي ما ذلك البطش والانتقام إلا بسبب أنهم من شدة عتوهم وعنادهم ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم﴾ من قبل الحق مؤيّدين ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الواضحة والبراهين القاطعة من أنواع الآيات والمعجزات ﴿فَكَفَرُوا۟﴾ بالله وبهم أمثال هؤلاء التائهين في بيداء الغفلة والغرور، وأنكروا على بيناتهم، ونسبوها إلى السحر والشعبذة، وظهروا على رسل الله بأنواع الخرافات والهذيانات ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾ القدير الحليم بكفرهم وعتوهم، بعدما أمهلهم زماناً، يترددون في ما يرومون ويقصدون فيه، وكيف لا يأخذهم سبحانه ﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ﴾ مطلقٌ، وقديرٌ كاملٌ على من ظهر عليه وخرج عن ربقة عبوديته ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ صعب الانتقام على من كذّب وتولى على الرسل الكرام.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ من مقام جودنا أخاك ﴿مُوسَىٰ﴾ الكليم ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدالة على كمال قدرتنا ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾ أي

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ ....

حجةٍ واضحةٍ دالةٍ على صدقه في رسالته ودعوته.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ الطاغي الذي بالغ في العتو والعناد، حيث تفوه بأنا ربكم الأعلى ﴿وَهَٰمَٰنَ﴾ المصدِّق لطغيانه، المعاون على عتوه وعدوانه ﴿وَقَٰرُونَ﴾ المباهي بالثروة والغنى، وبعد ما بلّغ إليهم الدعوة، وأظهر عليهم المعجزة ﴿فَقَالُوا۟﴾ بلا ترددٍ وتأملٍ في ما سمعوا وشاهدوا منهم: ما هذا المدعي إلا:

﴿سَٰحِرٌ﴾ في بينته ﴿كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ في دعوته، أي فاجؤوا على التكذيب والإنكار بلا مبالاةٍ به وبشأنه، بمقتضى ما هم عليه من العتو والاستكبار.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ موسى ملتبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مؤيداً ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ وآمن له بنو إسرائيل حين عاينوا منه الآيات الكبرى والمعجزات العظمى ﴿قَالُوا۟﴾ يعني فرعون أصالةً وملؤه تبعاً لأعوانهم وأتباعهم: ﴿ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ يعني أعيدوا على بني إسرائيل الزجرَ الشنيع الذي أنتم تفعلون معهم من قبل ﴿وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ﴾ للزواج والوقاع، تعييراً عليهم وتضعيفاً لهم، يعني هم قصدوا المكر والمقت على أولئك المؤمنين بقولهم هذا ﴿وَ﴾ ما يظنوا أنهم ممكورون وممقوتون، إذ ﴿مَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ....

ومكرهم حيث كادوا ومكروا ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾ أي هلاكٍ وبوارٍ على أهل الحق، لذلك لم ينالوا على ما قصدوا، بل عاد عليهم، ولَحِق بهم أضعاف ما قصدوا إياهم، ومكروا لأجلهم.

﴿وَ﴾ بعد ما ظهر أمر موسى الكليم وعلا قدره، وانتشر بين الناس حجته وبرهانه ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لملئه الذين قالوا له حين غلب موسى على السحرة، وقصد فرعونُ قتلَه فمنعه الملأ عن قتله، حتى لا يظهر بين الناس مغلوبيته من موسى، مع أنه ادعى الألوهية لنفسه: ﴿ذَرُونِيٓ﴾ اي اتركوني على حالي، أنا ﴿أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أي يمنعني عن قتله، أو يهلكني لأجله، يعني لا أبالي به وبربه، بل ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ عليكم لو لم أقتله ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ وانقيادكم على سحره ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ أي النهب والغارة في أطراف المملكة وأكناف البلاد، وإن لم يقدر على تغيير دينكم وعقائدكم.

﴿وَ﴾ بعد ما وصل إلى موسى ما قصد له العدو ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ﴾ متوكلاً على الله مفوضاً أمره إليه، ﴿إِنِّي عُذْتُ﴾ والتجأتُ ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ الواحد الأحد الصمد المراقب على حفظ عباده الخُلّص أيها المؤمنون ﴿مِّن﴾ شر ﴿كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ متناهٍ في الكبر والخيلاء بمقتضى أهويته الباطلة

لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ....

وإرادته الفاسدة، إذ ﴿ لَا يُؤْمِنُ ﴾ ويصدّق ﴿ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾ حتى يرتدع عن أمثال هذه الجرأة على رسل الله، وتُخلّص عباده، فإنه سبحانه يكفي عني مؤنة شره.

﴿وَ﴾ بعد ما صمم فرعون عزمه لقتل موسى وجزم لمقته وهلاكه ﴿ قَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ ﴾ موحِّدٌ ما كان له اعتقادٌ بألوهية فرعون، وإن كان ﴿ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ لكن ﴿ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ ﴾ منهم: ﴿ أَتَقْتُلُونَ ﴾ أيها المسرفون المتكبرون ﴿ رَجُلًا ﴾ موحِّدا بمجرد ﴿ أَن يَقُولَ ﴾ حقاً: ﴿ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾ الواحد الأحد الصمد، المنزهُ عن الشريك والنظير، ليس كمثله شيءٌ، وهو السميع البصير ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿ قَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ الواضحة والمعجزات اللائحة ﴿ مِن ﴾ قِبل ﴿ رَّبِّكُمْ ﴾ الذي أوجدكم من كتم العدم ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا﴾ في دعواه ﴿ فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ﴾ أي وبالُ كذبه آيل إليه ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم ﴾ البتة ﴿ بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ بمقتضى وحي الله وإلهامه، وبالجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ الهادي إلى سبيل الرشاد ﴿ لَا يَهْدِى ﴾ ويوفِّقُ على الهداية كلَّ ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في فعله ﴿كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ في قوله، فلا حاجة إلى قتله ودفعه، إذ قد يرهق عن قريبٍ، إن كان كاذباً.

يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ....

ثم ناداهم وخاطبهم مضيفاً لهم إلى نفسه إمحاضاً للنصح واشتراكاً معهم في الوبال النازل عليهم، فقال:

﴿ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ أي ملك العمالقة مختصٌ لكم اليوم بلا منازعٍ ومخاصمٍ، حال كونكم ﴿ ظَٰهِرِينَ ﴾ عالين غالبين ﴿ فِي ﴾ أقطار ﴿ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ كلها، والحمد لله والمنة، فلا ترتكبوا فعلاً جالباً لغضب الله عليكم، بل اتركوا قتله، وإلا ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا ﴾ وينقذنا ﴿ مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ ﴾ المنتقمِ الغيورِ وعذابِه ﴿ إِن جَآءَنَاۚ ﴾ ونزل علينا بسبب قتل الصادق الصدوق في الدعوى، المرسلِ من عند الله تبارك وتعالى، لو نزل بنا كيف ندفعه؟.

قيل: هذا القائل المؤمن هو ابن عم فرعون، وهو عنده من المقربين.

ثم لما سمع فرعون من كلامه المشتمل على محض النصح ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ﴾ معرضاً له مطرحاً إياه: ﴿ مَآ أُرِيكُمۡ ﴾ وأشير إليكم في رفع هذا المفسد المدعي ﴿ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾ واستصوبَ في رأيي، واستقرَ عليه فكري، وهو أن يقتله ليدفع شره ﴿وَ﴾ اعلموا أيها الملأ ﴿ مَآ أَهۡدِيكُمۡ ﴾ بقولي هذا، وأمري بقتله ﴿ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾ الموصلِ إلى نجاتكم وخلاصكم من مفاسد هذا المدعي الساحر.

﴿وَ﴾ بعد ما أكد فرعون أمرَ القتل وبالغَ في تصميم العزم ﴿ قَالَ ﴾ الرجل

﴿ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢﴾ ....

﴿ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ﴾ ناداهم وأضافهم إلى نفسه إظهاراً لكمال الاختصاص والشفقة: ﴿إِنِّيٓ﴾ بمقتضى عقلي ﴿أَخَافُ عَلَيۡكُم﴾ يوماً هائلاً شديداً ﴿مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠﴾ الهالكين المستأصَلين بحلول عذاب الله عليهم فيه ؛ لأن دأبكم وديدنتكم في الخروج عن حدود الله ومقتضيات أوامره وأحكامه، والظهور على رسله وتكذيبهم إياهم.

﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ وَ﴾ مثل المكذبين المسرفين ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ظهروا على رسل الله وكفروا به سبحانه ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ فلحقهم من العذاب ما لحقهم، وكذلك يحل عليكم ما حل عليهم، لو تقتفون أثرهم بالخروج عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿وَ﴾ إلا ﴿مَا ٱللَّهُ﴾ العليمُ الحكيمُ ﴿يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١﴾ المتحرزين عن مطلق الجرائم والآثام المنافية للحدود الإلهية، فلا يعاقِب من لا ذنبَ له، ولا يحل عليه عذابه.

ثم ناداهم القائل الموحد أيضاً على سبيل التأكيد والمبالغة تتميماً لما يخفي في صدره من ترويج الحق وتقوية الرسول المرسَل به، فقال:

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ[1] ٣٢﴾ أي العذاب الموعود في يوم القيامة، سميت به لتفرق الناس فيه وفرارِ كلٍ منهم عن أبيه وأخيه وأمه وبنيه، وأخاف أيضاً

(١) هذا المعنى إذا كانت الدال مشددة (التنادّ) وإلا فالمعنى: يوم ينادي بعض الناس بعضا .

يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ ....

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ﴾ وتنصرفون عن موقف العرض والحساب ﴿مُدْبِرِينَ﴾ قهقرى هاربين فارين من كثرة الآثام والجرائم الجالبة لأنواع العذاب تخيلوا أيها المسرفون وتحروا في نفوسكم ﴿مَا لَكُم﴾ حينئذٍ ﴿مِّنَ﴾ غضب ﴿ٱللَّهِ﴾ ونزول عذابه عليكم ﴿مِنْ عَاصِمٍ ۗ﴾ يعصمكم ويدفع عنكم عذابه ﴿وَ﴾ بالجملة: اعلموا أن ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ المضلُّ المغوي بمقتضى قهره وجلاله، ويحمله على ما لا ينبغي له ولا يرضى منه سبحانه، بل إنما ابتلاه وحمله عليه فتنةً واختباراً ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ أي أنه ماله هادٍ يهديه إلى ما يعينه ويليق بحاله ويرضى منه سبحانه.

ثم قال القائل المذكور تسجيلاً على غيِّهم وضلالهم:

﴿وَ﴾ كيف تستبعدون نبوة هذا المدعي ورسالته من عند الله، مع أنه ليس ببدعٍ منه، بل ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ أي على آبائكم وأسلافكم ﴿يُوسُفُ﴾ بن يعقوب رسولاً ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل هذا المدعي مؤيداً من عنده سبحانه ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المبينة الموضِّحة لدعواه ورسالته ﴿فَمَا زِلْتُمْ﴾ أي كنتم دائماً مستمراً سلفاً وخلفاً ﴿فِى شَكٍّ﴾ وترددٍ ﴿مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ في أمر الدين وشأن التوحيد واليقين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ أي مات يوسف عليه السلام وانقرض زمانه ﴿قُلْتُمْ﴾ من كمال تعنتكم وعنادكم على سبيل الجزم بلا

لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ

دليلٍ وبرهانٍ نزلَ عليكم عقلاً ونقلاً: ﴿ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ ﴾ مع أنكم شاكُّون في رسالته أيضاً، بل في مطلق الرسالة والإنزال من الله الواحد القهار، ﴿كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ضلالكم هذا ﴿ يُضِلُّ ٱللَّهُ ﴾ المضلُّ المغوي بمقتضى قهره وجلاله جميعَ ﴿ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في الخروج عن مقتضى الحدود الموضوعة لحفظ القسط الإلهي والاعتدال الحقيقي ﴿مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ شاكٌ في ما يثبته البينات الواضحة والمعجزات اللائحة. وبالجملة: المسرفون المكابرون

﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الدالة على توحيده واستقلاله بالتصرفات الواقعة في ملكه وملكوته ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ أي حجةٍ قاطعةٍ وبرهانٍ واضحٍ ﴿ أَتَىٰهُمْ﴾ على سبيل الإلهام والوحي والبيان ﴿ كَبُرَ ﴾ وعظُم حالهُم وشأنهم هذا ﴿ مَقْتًا ﴾ أي ليكون سببا لمقتهم وهلاكهم ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أصالةً ﴿ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بالله وكمال قدرته على أنواع الإنعام والانتقام تبعاً ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما سمعت يا أكمل الرسل ﴿ يَطْبَعُ﴾ ويختم ﴿ ٱللَّهُ﴾ العليمُ الحكيمُ ﴿ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ ﴾ مجبولٍ على الشقاوة والضلال في أزل الآزال ﴿مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ يمشي على الأرض خيلاءَ ويضر بأهلها، وإنما أمهله سبحانه هكذا ليوفِّر عليه عذابه المعدّ لأجله، ويخلده في نار القطيعة

﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ ....

والحرمان أبد الآباد .

﴿وَ﴾ بعد ما ظهر أمر موسى وانتشر دينه بين الناس ودعوتُه إلى الله الواحد الأحد الموجِد للسموات العلى والأرضين السفلى، ومالت النفوس إليه لوضوح براهينه وسطوع معجزاته، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ مدبراً في دفع موسى، متأملاً في شأنه، مشاوراً مع وزيره آمراً له، منادياً إياه: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ﴾ قد وقع ما نخاف منه من قبل ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ بناءً رفيعاً ظاهراً عالياً من جميع الأبنية والقصور ﴿لَّعَلِّىٓ﴾ بالارتقاء والعروج إليه ﴿أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾﴾ المؤيِّدة لأمر موسى، يعني :

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي المؤثِّرات العلوية ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ وأسأل منه أمرَه: أهو صادقٌ في دعواه أو كاذبٌ؟ ﴿وَإِنِّى﴾ بمقتضى عقلي وفَراستي ﴿لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ ساحراً مفترياً على الله ترويجاً لسحره، وتقريراً لضعفاء الأنام.

قيل: أمرَ ببناء رصدٍ ليطّلع على قوة طالع موسى وضعفه ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما سمعت ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي حسن الله له تدبيرَه الذي تأمل في دفع موسى بأمثال هذه الأفكار الفاسدة ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ السويِّ الموصِلِ إلى توحيد الحق ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ ومكره

إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ....

الذي دبّره لدفع موسى ﴿ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ هلاكٍ وخسارٍ.

﴿ وَ ﴾ بعد ما ألزمهم القائل بأنواع الإلزام، وأسكتهم بالدلائل القاطعة، اضطروا وتحيّروا في شأن موسى ودفعِه ﴿ قَالَ ﴾ القائل ﴿ الَّذِي آمَنَ ﴾ له وكتم إيمانه منهم: ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ ناداهم ليقبلوا إليه بكمال الرغبة: ﴿ اتَّبِعُونِ ﴾ واستصوبوا رأيي واقبلوا قولي ﴿ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾ وطريق الصدق والصواب.

﴿ يَا قَوْمِ ﴾ ما شأنكم وأمركم في دار الفتنة والغرور ومنزل الغفلة والثبور ﴿ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾ مستعارٌ بلا مدارٍ واعتبارٍ ﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ ﴾ المعدَّة لذوي البصائر وأولي الألباب ﴿ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

واعلموا أيها المجبولون على فطرة التكليف أن

﴿ مَنْ عَمِلَ ﴾ في النشأة الأولى ﴿ سَيِّئَةً ﴾ جالبةً لغضب الله، مستتبعةً لعذابه ﴿ فَلَا يُجْزَى ﴾ في النشأة الأخرى ﴿ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ بمقتضى العدل الإلهي ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا ﴾ مستجلباً لنعم الله وموائد كرمه، سواءً كان ﴿ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَ ﴾ الحال أنه ﴿ هُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ موقنٌ بتوحيد الله، مصدقٌ برسله وكتبه ﴿ فَأُولَئِكَ ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ﴾

يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ ....

في النشأة الأخرى ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا﴾ رزقاً صورياً ومعنوياً رغداً واسعاً ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ بلا تقديرٍ وموازنةٍ مثل أرزاق الدنيا.

﴿۞ وَ﴾ قال القائل المذكور أيضاً على سبيل الملاينة والمجاراة في صورة المناصحة والمقابلة إيقاظاً لهم عن سِنة الغفلة وتتميماً للغرض المسوق له الكلام: ﴿يَٰقَوْمِ مَا لِيٓ﴾ أي أيّ شيء عرض عليّ ولحق لي ﴿أَدْعُوكُمْ﴾ أنا من كمال عطفي ومرحمتي إياكم ﴿إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ من عذاب الله وحلول غضبه، وإلى دخول الجنة المشتملة على أنواع اللذات الجسمانية والروحانية المعدَّة لأهل التوحيد والإيمان ﴿وَ﴾ أنتم ﴿تَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾ المعدَّة لأصحاب الخيبة والخذلان، إذ

﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد المتفردِ بالألوهية والربوبية، وأنكر وجوده ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي أشرك به شيئاً لم يتعلق علمي بألوهيته وشركته مع الله لا يقيناً ولا ظناً ووهماً، إذ هو جمادٌ ماله شعورٌ ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ﴾ بمقتضى الوحي الإلهي المنزَّل على رسول الله المؤيَّد بالعقل الفطري المفاض لخواص عباده من لدنه سبحانه ﴿إِلَى ٱلْعَزِيزِ﴾ القادر الغالب في أمره بلا فتورٍ وقصورٍ ﴿ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾ الستَّار لنفوس السوى والأغيار مطلقاً.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ....﴾

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حق وثبت ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ وتمدونني نحوه ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ أي لا يتأتى منه الدعوة والهداية والإرشاد، ولا ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ إذ لا يتيسر للجمادات دعوة الإنسان وتكميله مطلقاً، ﴿وَ﴾ بعد ما انقضى أمرُ آلهتكم وعدم لياقتهم بالألوهية والربوبية، ظهر ﴿أَنَّ مَرَدَّنَآ﴾ ومرجعنا يعني أنا وأنتم وسائر العباد والمظاهر عموماً ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد الحقيق بالحقية، بلا توهم الشركة والنزاع رجوعَ الأظلال إلى الأضواء، والأمواجِ إلى الماء ﴿وَ﴾ ظهر أيضاً ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ الخائضين في توحيده سبحانه بالهذيانات التي تركِّبها أوهامهم وخيالاتهم بلا تأييدٍ من وحي إلهيٍ وعقليٍ فطريٍ ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾ ملازموها وملاصقوها أبد الآباد.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ أيها الممكورون الممقوتون حين تعاينون وتدخلون النار ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ على وجه النصح من شأن العذاب الموعودِ لكم في النشأة الأخرى، وبعد ما سمعوا منه ما سمعوا من الوعيدات الهائلة، أضمروا في نفوسهم عداوته والإنكار عليه وقصدوا مقته ﴿وَ﴾ لما تفرس منهم السوء، قال مسترجعاً إلى الله متوكلاً نحوه: ﴿أُفَوِّضُ أَمْرِىٓ﴾ أي حفظي وحصانتي عن شروركم ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ المراقبِ على محافظة عباده المتوكلين عليه، المتوجهين نحو جنابه، يكفي بلطفه مؤنة شروركم عني

إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ....

وإساءتكم عليّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ القادر العليم ﴿بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ الخُلّص، وما في ضمائرهم من الإخلاص والاختصاص.

قيل: فر منهم إلى جبلٍ فأرسل فرعون جماعتَه لطلبه، فلحقوه، وهو في الصلاة والوحوشُ حوله صافّين حافّين، يحرسونه عما يضره، فلم يظفروا عليه، فرجعوا خائبين، [1]فقتلهم، وبالجملة

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ﴾ أي حفظَه الله الرقيب عليه من شدائد مكرهم وإساءتهم عليه ﴿وَحَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ النازل إليهم من عند الله العزيز الغيور، وهي:

﴿ٱلنَّارُ﴾ لتعذيب أصحاب الشقاوة الأزلية الأبدية، ولهذا ﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ أي فرعون وآله على النار حال كونهم في برزخ القبر ﴿غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾ دائماً في جميع الأزمان قبل انقراض النشأة الأولى ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يُحشرون من قبورهم صرعى مبهوتين، قيل لهم من قبل الحق بلا كشفٍ وتفتشٍ عن حالهم: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ﴾ يا ﴿ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ أي أفزعه، وأخلده، أو قيل للملائكة الموكَّلين عليهم لتعذيبهم: أَدخلوا آل فرعون أشدَّ العذاب وأسوأَ النكال والوبال، وهو تخليدهم في نار القطيعة على القراءتين.

(١) بالغرق في اليم ثم النقلة منه إلى الجحيم.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾

ثم قال سبحانه:

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمعتبرين من المكلفين وقت ﴿إِذْ يَتَحَآجُّونَ﴾ ويتخاصمون أي أصحاب النار ﴿فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ منهم أي الأتباع والأرذال ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ أي لدى رؤسائهم ومتبوعيهم المستكبرين عليهم، المستتبعين لهم في النشأة الأولى: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في دار الدنيا، بل أنتم أضللتمونا عن متابعة الرسل والهادين ﴿فَهَلْ أَنتُم﴾ اليوم ﴿مُّغْنُونَ﴾ دافعون مانعون ﴿عَنَّا نَصِيبًا﴾ جزءاً أو شيئاً، قد صار حظنا ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ النازلة علينا بسبب اتباعنا إياكم، واقتفائنا أثركم، وتديننا بدينكم وخصلتكم.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ أي الرؤساء المتبوعين ﴿إِنَّا﴾ نحن وأنتم ﴿كُلٌّ﴾ منا معذَّبون ﴿فِيهَآ﴾ أي في النار، لا يسع أحدٌ منا ومنكم، ليدفع شيئاً منها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المنتقم الغيور ﴿قَدْ حَكَمَ بَيْنَ﴾ عموم ﴿ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ بأن أدخلَ بعضاً منهم في الجنة بفضله وبعضاً في النار بعدله، ولا معقب لحكمه، وهو شديد المحال.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لأصحاب العبرة ما ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾ كفروا حال كونهم:

فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ....

﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ محزونين متضرعين: ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ وهي أعمق أماكن النار وأغورها ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أيها الخزنة حسبةً لله، واستشفعوا منه سبحانه لأجلنا، وإن لم يغفر لنا، ولم يعف عن جرائمنا ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ أي مقدار يومٍ واحدٍ ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ الدائم المستمر حتى نتنفس فيه ونستريح(١).

﴿قَالُوٓا۟﴾ أي الخزنة في جوابهم تهكماً وتوبيخاً على سبيل التجاهل: ﴿أَوَلَمْ تَكُ﴾ أيها الحمقى الهالكون في تيه البعد والضلال ﴿تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم﴾ المبعوثون إليكم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الواضحة الدالة على قبول الإنذارات الصادرة من الله أصالةً ومنهم تبعاً، وبعد ما سمعوا من الخزنة ما سمعوا، ﴿قَالُوا۟﴾ متأوهين متحسرين: ﴿بَلَىٰ﴾ قد جاءنا نذيرٌ فكذّبنا وقلنا: ما نزل الله من شيءٍ، ﴿قَالُوا۟﴾ أي الخزنة بعد ما سمعوا منهم ما سمعوا: إن أنتم إلا في ضلالٍ مبين، ﴿فَٱدْعُوا۟﴾ على حالكم بلا استشفاعٍ منا، إذ نحن لا نجترئ بالشفاعة عنده، والاستغفار منه سبحانه لأمثالكم، إذ لا يقبل الدعاء منا ومنكم في أمثال هذه الجرائم الكبيرة ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ المصرين على كفرهم في النشأة الأولى التي هي دار الاختبار لاستخلاصهم في النشأة الأخرى التي هي دار القرار ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ ضياعٍ وخسارٍ، لا

---

(١) في المخطوط (تتنفس فيه وتستريح).

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾

يُسمع من أحدٍ أمثال هذا الدعاء، ولا يُجاب له.

ثم قال سبحانه وعداً للمؤمنين وحثاً لهم على تصديق رسل الله وكتبه:

﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ولطفنا ﴿لَنَنصُرُ﴾ ونعاون ﴿رُسُلَنَا﴾ الذين هم حملة وحينا وحفظةُ ديننا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لهم واسترشدوا منهم طريق الهداية واجتنبوا بسببهم عن الغيّ والضلال ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ التي هي نشأة الفتن والاختبارات الإلهية، بتوفيقهم على العمل الصالح، وردعهم عن المفاسد والمنكرات وننصرهم أيضاً نصرةً تامةً ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ أي يوم القيامة التي تقوم فيها الشهود والعدول من الملائكة والنبيين والمؤمنين لنصرة المؤمنين ومقت الكافرين

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى الحدود الإلهية في نشأة الدنيا ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ التي أتوا بها يومئذٍ، إذ قد انقضى حينئذ وقت التلافي والتدارك، ومضى زمان الاختبار، بل ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي الطرد والتبعيد عن ساحة عزّ الحضور ﴿وَلَهُمْ﴾ أيضا ﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ المعدة لأصحاب الخسار والبوار، وهي جهنم البعد والخذلان أعاذنا الله منها.

ثم قال سبحانه تسليةً لحبيبه، وتوطيناً له على تحمل أعباء الرسالة الجالبة لأنواع المكروهات من النفوس المجبولة على الشقاوة والضلال والتبصر على أذياتهم:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ....

﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ من كمال فضلنا وجودنا أخاك ﴿مُوسَى﴾ الكليم ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ أي الشرائع والمعجزات الدالة على كمال الهداية والإرشاد إلى سبيل الرشاد والسداد ﴿وَ﴾ بعد انقراض موسى ﴿أَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾﴾ أي التوراة المنزلة عليه، وأبقيناها بينهم لتكون:

﴿هُدًى﴾ هادياً إلى ما هداهم موسى من الأمور الدينية ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ أي عظةً وتذكيراً يتذكرون به إلى ما يرومون من المقاصد الدينية والمعالم اليقينية، لا لكلِّ أحدٍ من العوام بل ﴿لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾ الألباء المستكشفين عن سائر الأمور الدينية بمقتضى العقول المستقيمة المفاضة لهم من المبدأ الفياض.

ومع ذلك سمعت يا أكمل الرسل قصص أولئك الهالكين في تيه العتو والعناد، وما جرى بينهم وبين الرسل المبعوثين إليهم من التحارب والتنازع المفضي إلى أذى الأنبياء العظام والرسل الكرام، فصبروا على أذاهم إلى أن ظفروا عليهم بنصر الله إياهم وإعلاء دينه المنزَّل عليهم من عنده سبحانه.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ أنت أيضا يا أكمل الرسل على ما أصابك من أذيات هؤلاء الجهلة المستكبرين المعاندين معك، وانتظر إلى ما وعدك الحق من النصر والظفر وإعلاء دين الإسلام، وإظهاره على الأديان كلها ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ العليم القدير الحكيم الخبير ﴿حَقٌّ﴾ ثابتٌ محققٌ إنجازه ووفاؤه، إلا

وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ ....

أنه مرهون بوقته، فسينصرك ويغلبك على أعدائك عن قريب ويُبقي آثار هدايتك وإرشادك بين أوليائك إلى النشأة الأخرى ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ أي اشتغل في عموم أوقاتك بالاستغفار لفرطاتك، ليكون استغفارك هذا سُنَّة سَنِيَّةً منك لأمتك ﴿وَسَبِّحْ﴾ أيضاً ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في جميع حالاتك وأوقاتك، إذ كل نفسٍ من أنفاسك يستلزم شكراً منك، سيما ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ أي في أول النهار وأواخره، إذ هما وقتان خاليان عن تزاحم الأشغال وتفاقم الآمال، وبالجملة كن مع ربك في جميع أحوالك وأطوارك، يكفي عنك مؤنة جميع من عاداك وعاندك.

ثم قال سبحانه:

﴿إِنَّ﴾ المشركين المعاندين ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ ويخاصمون معك يا أكمل الرسل ﴿فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ المنزَّلة عليك لتأييد دينك وشأنك على سبيل المكابرة والعناد ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ أي حجةٍ وبرهانٍ ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ وفاضَ عليهم من ربهم على طريق الوحي والإلهام ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ﴾ أي ما في صدورهم وضمائرهم شيءٌ يبعثهم على المجادلة ﴿إِلَّا كِبْرٌ﴾ وخيلاءٌ مركوزٌ في جِبلَّتهم، تقيةً لثروتهم ورياستهم على زعمهم الفاسد، مع أنه ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ على مقتضى ما جُبلوا في نفوسهم، إذ هم سيُغلبون

فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ....

عن قريب في هذه النشأة الأولى، ويحشرون إلى جهنم البعد والخذلان في الأخرى ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ القوي القادر والتجئ إليه سبحانه عن غدرِ[1] كل غادرٍ ﴿ إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ بنياتهم وأفعالهم، يكفيك مؤنة ما يقصدون عليك بمقتضى آرائهم الباطلة.

ومن أعظم ما يجادلون فيه أولئك المكابرون أمر الساعة والمعاد الجسماني وبعث الموتى من قبورهم وحشرهم الى المحشر. واللهِ

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي إظهار العلويات والسفليات من كتم العدم على سبيل الإبداع في النشأة الأولى ﴿ أَكْبَرُ﴾ وأعظم ﴿ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ وإعادتهم أحياءً في النشأة الأخرى ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ قدرةَ الحق واقتداره على جميع ما دخل في حيطة علمه الشامل، وإرادته الكاملة ؛ لقصور نظرهم عن إدراك الحق وصفاته، ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور.

ثم أشار سبحانه إلى تفاوت طبقات عباده في العلم بالله والجهل به وبصفاته، فقال:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ﴾ الغافل عن ظهور ذات الحق ومقتضيات أوصافه العظمى وأسمائه الحسنى ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ العارف الكاشف بوحدة

---

(١) في المخطوط (عن عذر) .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

الحق وظهوره سبحانه على هياكل جميع ما ظهر وبطن سبحانه حسب أسمائه وشؤنه الذاتيه ﴿وَ﴾ لا المصلحون المحسنون ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بالله واعتقدوا بتوحيده ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿ عَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ المقبولة عنده سبحانه من الأعمال والأفعال المترتبة على الإيمان واليقين ﴿ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ﴾ أي المسيؤون الأدبَ مع الله، وهم الكفرة الذين لا يؤمنون بالله، ولا يتصفون بتوحيده، بل يستروحون شروق شمس ذاته بغيوم هوياتهم الباطلة وأظلال أنانياتهم الزائلة المضمونة في شمس الذات ؛ لذلك عملوا عملاً سيئاً بمقتضى ما تهويه نفوسهم الخبيثة وأخلاقهم السخيفة، لكن ﴿ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ أي ما تتذكرون وتتفطنون على عدم المساواة إلا تذكراً قليلاً، لذلك تنكرون البعث والحشر، وكيف تنكرونه؟!

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ﴾ الموعودة على ألسنة عموم الأنبياء والرسل ﴿ لَءَاتِيَةٌ ﴾ البتة بحيث ﴿ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي في مجيئها ووقوعها بوضوح الدلائل العقلية الدالة على إمكان إعادة المعدوم مع أنها مديدة بالوحي والإلهام على عموم الأنبياء والرسل الكرام ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ بها، ولا يصدقون وقوعها وقيامها ؛ لانحطاطهم عن مرتبة الخلافة المترتبة على فطرة التوحيد واليقين.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ ....﴾

﴿وَ﴾ بعد ما أشار سبحانه إلى مرتبة كِلا الفريقين الموحد والمشرك، أشار إلى أن من توجه نحوه متحنناً، وقصد تجاه توحيده مجتهداً، ودعا إليه متضرعاً، أجاب له وأنجح مطلوبه حيث ﴿قَالَ رَبُّكُمُ﴾ الذي رباكم على فطرة التوحيد والعرفان: ﴿ٱدۡعُونِيٓ﴾ أيها المكلفون بمقتضى العقل المفاض حق دعوتي، وتوجهوا إلي مخلصين بلا رؤية الأسباب والوسائل في البين ﴿أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ دعوتكم وأوصلكم إلى مقصدكم ومقصودكم الذي هو توحيد الذات، فعليكم ألا تستكبروا عن عبادتي وإطاعتي، وبالجملة ﴿إِنَّ﴾ المسرفين ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ ويستكنفون ﴿عَنۡ عِبَادَتِي﴾ بمقتضى آرائهم الباطلة وأهوائهم الفاسدة ﴿سَيَدۡخُلُونَ﴾ في يوم الجزاء ﴿جَهَنَّمَ﴾ الحرمان والخذلان ﴿دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ صاغرين ذليلين مُهانين.

وكيف يستنكفون ويستكبرون عن عبادة الفاعل على الإطلاق والمنعِم بالاستقلال والاستحقاق مع أنه ﴿ٱللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد المتصفُ بصفات الكمال ونعوت الجلال والجمال هو ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ﴾ مظلماً بارداً ﴿لِتَسۡكُنُواْ﴾ وتستريحوا ﴿فِيهِ﴾ بلا ضررٍ وإضرارٍ ﴿وَ﴾ جعل لكم ﴿ٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ لتكتسبوا فيه معايشكم وتجمعوا حوائجكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المنعمَ المكرمَ على عباده ﴿لَذُو فَضۡلٍ﴾ عظيمٍ وكرامةٍ كاملةٍ شاملةٍ

عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ....

﴿عَلَى﴾ عموم ﴿ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ المجبولين على النسيان والكفران ﴿ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾ نعمه، ولا يواظبون على أداء حقوق كرمه، جهلاً منهم بالله، وعناداً مع رسله الهادين إليه.

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ الذي أفاض عليكم موائد بره وإحسانه، وأظهر عليكم مقتضيات ألوهيته وربوبيته ﴿ رَبُّكُمْ﴾ الذي رباكم بأنواع اللطف والكرم، بعد ما أوجدكم من كتم العدم، إذ هو ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ومظهره من العدم إظهاراً إبداعياً بمقتضى اختياره واستقلاله، فلكم أن تتوجهوا إليه وتتحنثوا نحوه مخلصين، إذ ﴿ لَّآ إِلَٰهَ﴾ يُعبد له بالاستحقاق، ويُرجع إليه في الخطوب على الإطلاق ﴿ إِلَّا هُوَ﴾ الذات الواحدة الموصوفة بالصفات الكاملة، المربيةُ لجميع ما في الكون من العكوس والأظلال المنعكسة منها ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾ وتنصرفون عن عبادته أيها الآفكون المنصرفون؟!.

فأين تذهبون من بابه أيها الذاهبون الجاهلون، ما لكم كيف تحكمون أيها الضالون المحرومون؟! ﴿ كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما سمعت من المجادلة والمكابرة بلا برهانٍ واضحٍ وبيانٍ لائحٍ ﴿ يُؤْفَكُ﴾ ويُصرف عن طريق الحق عموم المسرفين ﴿ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ودلائل توحيده ﴿يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ وينكرون بلا تأملٍ وتدبرٍ ؛ لينكشف لهم ما فيها من

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ....

المعارف والحقائق المودعة فيها، فكيف تجحدون بآيات الحكيم العليم أيها الجاحدون الجاهلون، مع أنه سبحانه هو المتفرد بالألوهية والربوبية؟!

إذ ﴿ٱللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ أي عالم الطبيعة والهيولي ﴿قَرَارًا﴾ تستقرون عليها بمقتضى هويتكم ﴿وَ﴾ رفع لكم ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ أي عالم الأسماء والصفات ﴿بِنَآءً﴾ أي سقفاً محفوظاً رفيعاً، تستفيضون منها الكمالات اللائقة لاستعداداتكم وقابلياتكم الموهوبة لكم من عنده ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿صَوَّرَكُمْ﴾ من آباء العلويات وأمهات السفليات ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ بأن خلقكم على أعدل الأمزجة وأحسن التقويم ؛ لتكونوا قابلين لائقين لخلافة الحق ونيابته ﴿وَ﴾ بعد ما صوركم فأحسن صوركم ﴿رَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ الصورية والمعنوية تقويةً وتقويماً لأشباحكم وأرواحكم ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ الذي سمعتم نُبذاً من أوصافه الكاملة ونِعمه الشاملة ﴿رَبُّكُمْ﴾ الذي أظهركم من كتم العدم بمقتضى لطفه، فأنى تصرفون عنه وعن توحيده وعبادته أيها المسرفون الضالون، مع أن لا ربّ لكم سواه؟!! ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد العليُّ بذاته، الجليُّ بحسب أسمائه وصفاته ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ على الإطلاق بالاستقلال والاستحقاق لا يعرضه زوالٌ ولا يطرأ له انقراضٌ وانتقالٌ، بل

هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ ....

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ الأزلي الأبدي الدائم المستغني عن مقدار الزمان ومكيال المكان مطلقاً ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ في الوجود سواه، ولا موجود يُعبد بالحق ﴿إِلَّا هُوَ﴾، وبعد ما سمعتم أيها المكلفون خواصَّ أسمائه وصفاته سبحانه ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ﴾ واعبدوه مخصصين ﴿لَهُ ٱلدِّينَ ۗ﴾ أي العبادة والانقياد، إذ لا مستحق للإطاعة والعبادة سواه، وبعد ما رجعتم نحوه مخلصين وعبدتم له مخصصين قولوا بلسان الجمع: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ المستوعب لجميع المحامد الناشئة من ألسنة عموم المظاهر ثابت ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ لانفراده في الألوهية، واستقلاله في الربوبية بلا توهم الشركة والمظاهرة.

﴿۞ قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لعموم المشركين على وجه التنبيه والإرشاد بعدما وضح أمر التوحيد، واتضح سبيل الهداية والرشاد: ﴿إِنِّى نُهِيتُ﴾ من قبل ربي الذي سمعتم استقلاله في ألوهيته وربوبيته ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ وأنقاد الآلهةَ الباطلةَ ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أنتم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد الفريد في الألوهية، الوحيد بالربوبية ﴿لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي حين نزل عليّ الآيات المبينة الموضحة ﴿مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ﴾ أيضاً من لدنه سبحانه ﴿أَنْ أُسْلِمَ﴾ أي أعبد وأنقاد على وجه الإخلاص والاختصاص بلا رؤية الوسائل والأسباب ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ إذ هو سبحانه منزهٌ عن التعدد

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ....

والتكثر مطلقاً، ورجوع الكل إليه أولاً وبالذات.

وكيف لا يعبدونه سبحانه ولا ينقادون إليه بتوحده.

مع أنه ﴿ هُوَ ﴾ الخالق المصور ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُم ﴾ قدّر صوركم أولاً ﴿ مِّن تُرَابٍ ﴾ مسترذلٍ إظهاراً لقدرته الغالبة الكاملة ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ مهينةٍ مستحدثةٍ من التراب ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ خبيثةٍ متكونةٍ من النطفة ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿ طِفْلًا ﴾ كائناً من أجزاء العلقة والروح المنفوخ فيها من لدنه سبحانه ﴿ ثُمَّ ﴾ يربيكم بأنواع اللطف والكرم ﴿ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ﴾ أي كمال قوتكم وحولكم نظراً وعملاً ﴿ ثُمَّ ﴾ أمهلكم وأعمركم زماناً ﴿ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ ﴾ منحطين منسلخين عن كلتا القوتين معاً ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ ﴾ ويموت ﴿ مِن قَبْلُ ۖ ﴾ أي قبل بلوغه إلى أشده أو شيخوخته ﴿ وَ ﴾ إنما فعل سبحانه كل ما فعل من الأطوار المتعاقبة ﴿ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا ﴾ معيناً مقدراً ﴿ مُّسَمًّى ﴾ عنده بلا اطلاعِ أحدٍ عليه؛ لقبضكم نحوه ورجوعكم إليه ﴿ وَ ﴾ الحكمة الباعثة على جميع ذلك ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ وتفهمون أن مبدأكم ومنشأكم منه، ومعادكم إليه، فتعبدونه حق عبادته كي تعرفوه حق معرفته.

وكيف لا تعبدونه سبحانه ولا تعرفونه أيها العقلاء المجبولون على فطرة الدراية والشعور مع أنه ؟!:

هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ ....

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ ﴾ بامتداد أظلال أسمائه كل ما لاح عليه شمس وجوده ﴿وَيُمِيتُۖ ﴾ بقبض تلك الأظلال بالإرادة والاختيار، وبالجملة ﴿ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا ﴾ أي تعلقت إرادته ومشيئته بإحداث ما ظهر في عالم الأمر ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ﴾ بعد تعلق مشيئته: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾ بلا تراخٍ وتعاقبٍ، مفهوم من منطوق هذا الكلام على ما هو المتبادر من أمثاله، بل كل ما لمع عليه برق إرادته، وصدر منه سبحانه ما يدل على نفوذ قضائه يكون المقضي بحيث لا يسع بين القضاء والمقضي توهمُ المهلة والتراخي والترتيب أصلاً.

ومع سرعة نفوذ قضاء الله وظهور هذه الآثار العظيمة من قدرته الكاملة على الوجه المذكور.

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أيها الرائي ﴿ إِلَى ﴾ المشركين المسرفين ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ ﴾ ويكابرون ﴿ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الدالة على كمال علمه وقدرته ومتانة حُكمه وحِكمته ﴿ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي إلى أين ينصرفون عن عبادته، ويعرضون عن ساحة عز الوحدة الذاتية؟ سيما إلى المكابرين

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي بالقرآن الجامع الكامل المنزَّل عليك يا أكمل الرسل ﴿ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا ﴾ أي بجميع ما أرسلنا ﴿ بِهِۦ رُسُلَنَاۖ ﴾ الذين مضوا من قبلك من الكتب والصحف المنزلة عليهم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ....

وبالَ جِدالهم وتكذيبهم في النشأة الأخرى وقت :

﴿ إِذِ ﴾ تكون ﴿ ٱلْأَغْلَٰلُ ﴾ الثقيلة معقودةٌ ﴿ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ ﴾ بسبب انصرافهم عن آيات الله وعدم التفاتهم إلى رسله الحاملين ﴿ وَٱلسَّلَٰسِلُ ﴾ في أيديهم وأرجلهم ؛ لعظم جرائمهم وآثامهم الباعثة على أخذهم ومقتهم ﴿ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ ويجرون على وجوههم

﴿ فِى ٱلْحَمِيمِ ﴾ أي الجحيم إلى ما شاء الله تفضيحاً لهم ﴿ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ ﴾ المسعرة ﴿ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ يوقدون ويُطرحون فيها طرح الحطب الوقود للنار.

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ ﴾ من قبل الحق توبيخاً وتقريعاً: ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ أي أين أصنامكم وأوثانكم وعموم معبوداتكم التي ادعيتم شركتها مع الله في الألوهية، وسميتموهم آلهة ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ لم لا تنقذكم من عذاب الله، ولم لا يشفعون لكم عنده سبحانه بمقتضى ما زعمتم في شأنكم.

وبعد ما سمعوا ما سمعوا من التوبيخ والتقريع

﴿ قَالُوا۟ ﴾ متحسرين متأوهين: ﴿ ضَلُّوا۟ ﴾ وغابوا ﴿ عَنَّا ﴾ آلهتنا وشفعاؤنا التي كنا ندعو إليهم ونستشفع منهم ﴿ بَل ﴾ قد ظهر اليوم أنا ﴿ لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ في النشأة الأولى ﴿ شَيْـًٔا ﴾ ينفعنا ويدفع عنا من غضب الله

كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ ....

﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ﴾ المنتقم المضل ﴿ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ الضالين، حيث لا ينكشفون بضلالهم إلا وقت حلول العذاب والوبال عليهم.

ثم قيل لهم مبالغة في توبيخهم وتعييرهم:

﴿ ذَٰلِكُم ﴾ أي إضلال الله إياكم ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وتمشون عليها خيلاء بطرين مسرورين مستكبرين عن قبول آيات الله المنزلة على رسله، مكذبين لهم ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ أي بلا دليلٍ عقليٍ، قطعيٍ أو سمعيٍ، إقناعيٍ أو ظنيٍ، بل بمجرد الوهم الناشئ من كبركم وخيلائكم ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ أي تتوسعون وتتوفرون على أنفسكم الفرح والسرور بمخالفتكم حدود الله وسنن أنبيائه ورسله عناداً ومكابرةً.

ثم قيل لهم بعد تفضيحهم على رؤوس الأشهاد:

﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ ﴾ أيها المسرفون الضالون ﴿ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾ المعدة لكم بدل ما فوتم على نفوسكم من الدرجات العلية الجنانية، وكونوا ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ ﴾ أبد الآباد ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ ومأواهم جهنم البعد والخذلان وجحيم الطرد والحرمان أعاذنا الله وعموم المؤمنين.

وبعد ما ظهر واتضح مآل حال الكفرة المستكبرين وعاقبة أمرهم ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ يا أكمل الرسل على أذاهم وانتظر إلى هلاكهم الموعود،

﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٧٧ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ ....

وثق بالله في إنجاز وعده ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ القدير الحكيم بإهلاك المشركين المكذّبين المسرفين ﴿حَقٌّۚ﴾ ثابت محقق ثبوته البتة، بلا خلفٍ منه سبحانه، إذ الله لا يخلف الميعاد مطلقاً، إلا أن وعده سبحانه مرهونٌ بأجلٍ مقدرٍ عنده، ولا تحزن من تأخير الموعود، ولا تعجل لحلول الأجل المعهود ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أي فإن نُرِك ونبصرك، زيدت «ما» في أول الفعل، والنون في آخره للتأكيد والمبالغة ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ من القتل والسبي والجلاء، فذاك تحققٌ وعدِنا إياك، ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ ونميتنك قبل حلول أجل إهلاكهم وتعذيبهم ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٧٧﴾ أي لا تحزن من تأخير الموعود، وبعد توفيك أيضاً، إذ نحن نعذبهم وننتقم عنهم بعد رجوعهم إلينا في النشأة الأخرى بأضعاف ما في النشأة الأولى وآلافها.

وبالجملة بعدما وعدنا لهم العذاب بانحرافهم عن سبيل الرشاد، مصرين على المكابرة والعناد، أنجزنا الموعود البتة سواءً كان عاجلاً أم آجلاً .

﴿وَ﴾ ليس لك أن تُتعب نفسك بتعجيل العذاب عليهم قبل حلول الأجل المقدر من عندنا إذ ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ من مقام جودنا ﴿رُسُلٗا﴾ كثيراً ﴿مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا﴾ قصتهم ﴿عَلَيۡكَ﴾ في كتابك ﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ ولم نذكر قصتهم في كتابك، إذ ما يعلم جنود

وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ ....

ربك، وما جرى عليهم إلا هو ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا كَانَ﴾ أي ما صحّ وجازَ ﴿لِرَسُولٍ﴾ من الرسل ﴿أَن يَأْتِيَ﴾ ويعجّل ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ مقترحَة أو غير مقترحَة من تلقاء نفسه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ وبمقتضى مشيئته وإرادته سبحانه، بل أن ينتظر الوقت الذي عين سبحانه ظهورها فيه، إذ جميع الآيات والمعجزات موهوبةٌ لله مقسومةٌ بين أنبيائه ورسله بمقتضى قسمته سبحانه في حضرة علمه ولوح قضائه، لا يسع لأحدٍ منهم أن يعجل بها، أو يؤخر عن وقتها، بل ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ العليم الحكيم بتعذيب المشركين وإثابة الموحدين ﴿قُضِيَ بِٱلْحَقِّ﴾ جميع المقضيات الإلهية، سواءً كانت من العقوبات والمثوبات ﴿وَ﴾ كما ﴿خَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي عند وقوع المقضي وظهوره ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ المستوجبون لأنواع العذاب والنكال، وربح حينئذ المستحقون لأصناف المثوبات واللذات الروحانية.

وكيف لا يكون مقاليد الأمور بيد الله وقبضته وقدرته؟ إذ

﴿ٱللَّهُ﴾ المتفرد بالألوهية والربوبية هو ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ مسخَّرةً مقهورةً لكم، محكومةً تحت أمركم وحكمكم ﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا﴾ ما يليق بركوبكم تتميماً لتربيتكم وحضوركم ﴿وَ﴾ جعل لكم أيضاً ﴿مِنْهَا﴾ أي من الأنعام ما ﴿تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ لتقويم المزاج وتقوية البدن.

وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ ....

﴿وَ﴾ جعل ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أيضاً ﴿مَنَٰفِعُ﴾ كثيرة كالألبان والأصواف والأشعار والأوبار وغير ذلك ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟﴾ أي لتصلوا وتنالوا بالحمل والركوب ﴿عَلَيْهَا﴾ أي على الأنعام ﴿حَاجَةً﴾ مطلوبةً لكم مركوزة ﴿فِى صُدُورِكُمْ﴾ ونفوسكم، ولولا ركوبكم وحملكم عليها، لم تصلوا إليها إلا بشق الأنفس ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿عَلَيْهَا﴾ أي على الأنعام في البر ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ في البحر ﴿تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ يعني سهَّل عليكم سبحانه أمور معاشكم في إقامتكم وأسفاركم تتميماً لتربيتكم وحفظكم ؛ لتواظبوا على شكر نعمه، وتلازموا لعبادته وعبوديته بالتبتل والإخلاص التام.

﴿وَ﴾ لهذا ﴿يُرِيكُمْ﴾ أيها المغمورون المستغرقون في بحار أفضاله وجوده ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالةِ على وجوب وجوده، ووحدة ذاته واستقلاله في الآثار الصادرة منه سبحانه حسب أسمائه وصفاته ﴿فَأَىَّ﴾ آيةٍ من ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على كمال ألوهيته وربوبيته ﴿تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ أيها المسرفون المشركون.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني أينكر المشركون المصرون على الخروج عن مقتضى الحدود الإلهية كمالَ قدرته سبحانه على أنواع الانتقام والعذاب، فلم يسيروا في الأرض التي هي محل الكون والفساد ﴿فَيَنظُرُوا۟﴾

كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ......

عليها معتبرين من البلاقع والخربة والأطلال المندرسة ﴿ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ﴾ الأمم الهالكة المسرفة ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ مضوا ﴿ مِن قَبْلِهِمْ ۚ ﴾ مع أنهم ﴿ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾ عدداً وعُددا ﴿ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ أي بسطةً واستيلاءً ﴿ وَ ﴾ أحكم ﴿ آثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي أبنيةً وقصوراً وقلاعاً وحصوناً مشيدةً مرفوعةً، ومع ذلك ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ ﴾ وأدفع ﴿ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ عليها من الأمور المذكورة شيئاً من غضب الله وعذابه، بل لحقهم ما لحقهم من العذاب، بحيث لا شعور لهم بأماراته ومقدماته فاستأصلهم بالمرة.

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي فهم في العتوِّ والعناد كانوا كأمثال هؤلاء المسرفين، لما جاءهم رسلهم المبعوثون إليهم بالمعجزات والآيات الواضحات، المبينة لطريق الحق، لم يلتفتوا ولم يلقوا أسماعهم نحوها تعنتاً واستكباراً، بل ﴿ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ أي الجهل المركب المركوز في طباعهم من تقليد آبائهم على أوجه الإصرار بلا التفاتٍ منهم إلى ما ظهر من الوحي الإلهي المنزل على رسلهم، بل كذبوهم واستهزؤوا معهم ﴿ وَ ﴾ لهذا ﴿ حَاقَ ﴾ وأحاط ﴿ بِهِم ﴾ وبالُ ﴿ مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ حين دعوة الرسل وإرشادهم إلى طريق الحق بأنواع الوعد والوعيد، وكانوا على ما هم عليه من العناد مصرين مستكبرين.

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ أي عذابنا وبطشنا حل عليهم ﴿ قَالُوٓا۟ ﴾ متذكرين دعوة رسلهم متحسِّرين على ما فوَّتوا على أنفسهم: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ ﴾ على الوجه الذي هدانا إليه رسله ﴿ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ من الأصنام والأوثان، وسائر ما عبدنا من دونه سبحانه ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ إذ حينئذٍ قد انقضى زمان التدارك والتلافي، وبالجملة قد كانت هذه الديدنة المستمرة

﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ العليم الحكيم ﴿ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ ﴾ ومضتْ ﴿ فِى عِبَادِهِۦ ﴾ المستكبرين عن إطاعته وانقياده حين دعوة الرسل وإرشادهم ﴿وَ﴾ بعد حلول أوان اليأس ونزول العذاب ﴿خَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي عنده ﴿ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ المصرون على الإنكار والاستهزاء خسراناً عظيماً في الدنيا، وفي الآخرة أعظم منه وأدوم.

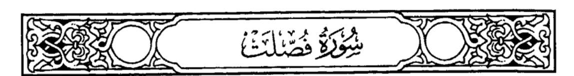
أعاذنا الله وعموم عباده المؤمنين من بأسه وبطشه بمنِّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي القاصد نحو الحق المتوجه إلى توحيده وفقَّك الله على إنجاح مهامك، وأوصلك إلى منتهى مقصدك ومرامك: أن تكون على خبرةٍ كاملة من آيات الله النازلة من عنده سبحانه لإهداء عباده التائهين في فضاء وجوده، وعبرةٍ تامة من سريان وحدته الذاتية على عموم هياكل ما لمعَ عليه بروق تجلياته الجمالية والجلالية المنتشئةِ من ذاته حسب شؤونه وتطوراته المتفرعة على أسمائه الحسنى وأوصافه العظمى.

فلك أن لا تغفل في عموم أحوالك عن مطالعة جمال الله وجلاله في كل ذرةٍ من ذرائر الأكوان على وجه الاستبصار والاعتبار، بلا شائبة شكٍ وإنكارٍ وترددٍ واستكبارٍ؛ لئلا تلحق بالأخسرين الذين يؤمنون بالله وتوحيده، حين لم يك ينفعهم إيمانهم؛ لانقضاء نشأة التلافي والاختبار، وذلك حين يعرضون على الملك الجبار، ويساقون إلى النار بأنواع الخسار والبوار.

ربنا آتنا من لدنك رحمةً وقنا عذابَ النار.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة فصلت[1]

لا يخفى على المستبصرين المستكشفين عن سرائر الكتب الإلهية وأسرار الآيات المنزلة من عنده سبحانه على رسله وأنبيائه المؤيدين من لدنه بتكميل مرتبتي الولاية والنبوة المتفرعة على اسم الظاهر والباطن والأول والآخر: أن سر الإنزال والإرسال الذي جرت عليه السُّنة السَّنية الإلهية، واقتضت حكمته البالغة العلية وعلمه الشامل ورحمته الواسعة، إنما هو لتنبيه أهل الحيرة والضلال من المترددين في فضاء الوجود بلا شعورٍ منهم إلى مبدئهم ومعادهم لاحتجابهم بالقرب المفرط المعمي عيون بصائرهم وقلوبهم ليتفطن منهم ويتذكر بها من كان له قلبٌ يقلّبه الرحمان بأصابع أسمائه وصفاته كيف يشاء، أو ألقى السمع وهو وإن كان محجوباً بهويته، شهيدٌ حاضرُ القلب غير مغيبٍ من الله وآثار ألوهيته وربوبيته، ليفنى كل من سمع وتذكر عن هويته الباطلة، ويبقى بهوية الله الغير الزائلة.

ولهذا خاطب سبحانه حبيبه ورمَّز في خطابه بعد ما تيمن بأمهات أسمائه التي هي مقاليد كنوز الوجود، ومفاتيح خزائن الفيض والجود فقال:

(١) في المخطوط (فاتحة سورة السجدة).

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ....

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ المدبر لأمور عموم مظاهره بمقتضى استعداداتها الفائضة عليها حسب جوده ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ عليها بإخراجها عن مكمن العدم إلى فضاء الوجود ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لخواص عباده بإيصالهم إلى الحوض المورود والمقام المحمود.

﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ يا حافظ وحي الله المؤيد من عنده لحفظ حدوده بمقتضى أوامره ونواهيه، هذا القرآن الجامع لمصالح عموم المظاهر والأكوان.

﴿تَنزِيلٌ﴾ صادرٌ ﴿ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ أي من الذات الأحدية بمقتضى اسم الرحمن المستوي به على عروش عموم الأكوان لإصلاح حال كل ما لاح عليه شمس ذاته تتميماً لتربيته إياه، إذ ما من رطبٍ ولا يابس إلا وهو سبحانه مشتملٌ عليه ومتكفلٌ لتربيته وتدبيره ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ بإنزاله لخواص عباده ليتنبهوا من رموزه وإشاراته إلى وحدة الحق وكمال أسمائه وصفاته.

وإنما صار القرآن جامعاً بين مرتبتي الظاهر والباطن والأول والآخر ؛ لأنه ﴿ كِتَٰبٌ ﴾ شاملٌ كاملٌ ﴿ فُصِّلَتْ ﴾ بُيِّنت وأُوضحت ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾ المشتملة على دلائل التوحيد بشواهد القصص والأحكام ومنبهات العز والحكم ومحاسن الأخلاق والأعمال ومقابيح المناهي من الأفعال والأحوال في النشأة الأولى والأخرى، ولهذا صار ﴿قُرْءَانًا﴾ فرقاناً واضحاً تبياناً ﴿عَرَبِيًّا﴾ بياناً، إذ لا لغة أحسن منه وأشمل وأفضل وأكمل، وإنما فُصِّلت وأُوضحت ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ أي يوفقون من لدنه سبحانه على العلم اللدني والفطرة

بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ ....

الأصلية التي هي المعرفة والتوحيد، ولهذا صار

﴿بَشِيرًا﴾ يبشر أهل العناية والسعادة والفوز العظيم الذي هو يحققهم بمقام الرضا والتسليم ﴿وَنَذِيرًا﴾ ينذر أصحاب الشقاوة والحرمان عن خلود النيران والعذاب الأليم، ومع علو شأنه ووضوح تبيانه وبرهانه

﴿فَأَعْرَضَ﴾ عنه وانصرف عن قبوله وسماعه سمع تدبر وتأمل ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ أي أكثر المكلفين المأمورين من عنده سبحانه بامتثال ما فيه من الأوامر والنواهي والأحكام، وباتصاف ما ذُكر فيه من الأخلاق والأعمال وما رُمز إليه من المعارف والأحوال ﴿فَهُمْ﴾ من شدة قساوتهم وغفلتهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾ ولا يلتفتون نحوه عتواً وعناداً، فكيف عن فحصه وقبوله ودراية ما فيه من الرموز والإشارات.

﴿وَ﴾ من غاية عمههم وسكرتهم ونهاية عتوهم وإعراضهم عن استماع كلمة الحق والالتفات إليه ﴿قَالُوا﴾ على سبيل التهكم والتسخر: ﴿قُلُوبُنَا﴾ التي في وعاء الإيمان والاعتقاد ﴿فِي أَكِنَّةٍ﴾ وأغطيةٍ كثيفةٍ وغشاوةٍ غليظةٍ ﴿مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من المعرفة والتوحيد، لا نتنبهُ ولا نتفطن بحقيته ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿فِي ءَاذَانِنَا﴾ التي هي وسائل العظة والتذكير ﴿وَقْرٌ﴾ صممٌ مانعٌ عن استماع آياتك الدالة على صدقك في دعواك المبينة المثبتة لدعواك ﴿وَ﴾ بالجملة حالَ ﴿مِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ﴾ أيها المؤيَّدُ بالوحي والإلهام ﴿حِجَابٌ﴾ عظيمٌ يمنعنا عما تدعونا إليه، بحيث لا يتيسر لنا رفعه، ولا نقدر على انكشافه ﴿فَاعْمَلْ﴾ أيها المدعي

إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ

بمقتضى ما أوحاك إليك ربك وألهمك عليه ﴿ إِنَّنَا ﴾ أيضاً ﴿عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾ بما تيسر لنا ووفقنا عليه، إذ كلٌ ميسر لما خلق له، وبعد ما استنكفوا عنك واستكبروا عليك وعلى دينك وكتابك.

﴿ قُلْ ﴾ لهم يا أكمل الرسل كلاماً ناشئاً عن محض اليقين والتوحيد خالياً عن وصمة التخمين والتقليد: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ أي ما أنا إلا بشرٌ مثلكم ما أدعي الملكية لنفسي، غاية ما في الباب أنه ﴿ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ أي يوحي ربي إليّ بمقتضى سُنَّته السَّنية المستمرة في سالف الزمان ﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ ﴾ الذي أظهركم من كتم العدم وأخرجكم من فضاء الوجود ﴿ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ أحدٌ صمدٌ فردٌ وترٌ، لا تعدد فيه بوجهٍ من الوجوه ﴿ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾و توجهوا نحوه مخلصين موحدين ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ لفرطاتكم التي صدرت عنكم بمقتضى بشريتكم ليغفر لكم ما تقدم منكم من طغيان بهيميتكم ﴿وَ﴾ عليكم ألا تشاركوا معه سبحانه شيئاً من مظاهره ومصنوعاته، إذ ﴿وَيْلٌ﴾ عظيمٌ وعذابٌ أليمٌ معدٌ عنده ﴿لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾ المشركين له غيره، الخارجين عن مقتضى توحيده واستقلاله في ألوهيته ظلماً وزوراً.

والمشركون المستكبرون عن آيات الله هم

﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ المفروضة لهم من أموالهم تطهيراً لنفوسهم

وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ....

عن رذالة البخل، ولقلوبهم عن الميل إلى ما سوى الحق، ﴿وَ﴾ سببُ امتناعهم عن التخلية والتطهير أنه هم بمقتضى أهويتهم الفاسدة وآرائهم الباطلة ﴿هُم بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ المعدة لتنقيد أعمال العباد ﴿هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾﴾ منكرون جاحدون، لذلك يمتنعون عن قبول التكاليف الشرعية، وعن الامتثال للأوامر الدينية المنزلة على مقتضى الحكمة الإلهية.

ثم قال سبحانه على مقتضى سُنَّته السَّنية:

﴿إِنَّ﴾ الموحدين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بوحدة الحق واستقلاله في الألوهية ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي أكدوا إيمانهم بصالحات الأعمال، مخلصين فيها لمجرد امتثال أمر العبودية، بلا ترقب منهم إلى ما يترتب عليها من المثوبات ﴿لَهُمۡ﴾ عند ربهم بدل إخلاصهم ﴿أَجۡرٌ﴾ وجزاءٌ ﴿غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾﴾ أي بلا منةٍ[1] معقبةٍ للثقل والأذى، بل يحسن ويتفضل عليهم سبحانه من محض الرضا.

﴿۞ قُلۡ﴾ يا أكمل الرسل لمن أشرك بالله وجحد توحيده على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَئِنَّكُمۡ﴾ أيها الجاهدون المسرفون ﴿لَتَكۡفُرُونَ﴾ وتنكرون ﴿بِٱلَّذِي﴾ أي بالقادر العليم الحكيم الذي ﴿خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي عالم الطبيعة والهيولى ﴿فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ يوماً لاستعداداتها القابلة لانعكاس أشعة نور الوجود، ويوماً لاتصافها بها بمقتضى الجود الإلهي، ﴿وَ﴾ من كمال غفلتكم وضلالكم عن توحيد الحق وتوحده في ذاته ﴿تَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾ تثبتون له

---

(١) الأصح (غير ممنون) أي غير مقطوع.

﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ ....

شركاء في الوجود، مشاركين معه سبحانه في الآثار والتصرفات الواقعة في الكائنات، وتتوجهون[1] نحوهم في الخطوب والملمات، مع أنه لا رب لهم سواه سبحانه، ولا مرجع لهم غيره، بل ﴿ذَٰلِكَ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي ذكر نبذاً من أخص أوصافه ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩﴾ أي موجد جميع ما لاح عليه برق الوجود ومربيها بمقتضى الجود.

﴿وَ﴾ كيف تنكرون[2] وحدة الحق واستقلالَه في ملكه وملكوته مع أنه ﴿جَعَلَ﴾ بمقتضى حكمته ﴿فِيهَا﴾ أي في عالم الطبيعة ﴿رَوَٰسِىَ﴾ أي أقطاباً وأوتاداً رفيعة الهمم عالية القدر مستمرة ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ أي من عالم الأسماء والصفات ﴿وَ﴾ لهذا ﴿بَٰرَكَ فِيهَا﴾ وكثّر الخير والبركة عليها ﴿وَ﴾ من كمال حكمته سبحانه ﴿قَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أي قدر وأظهر في عالم الطبيعة جميع ما يحتاج إليه أهلها من الرزق الصوري والمعنوي تتميماً لتربيتهم وتكميلاً لهم حسب نشأتهم، كل ذلك صدر منه سبحانه ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ يومين للنشأة الأولى المتعلقة بالظهور والبروز، ويومين للنشأة الأخرى المتعلقة بالكمون والبطون، ولهذا كانت الأيام المذكورة ﴿سَوَآءً﴾ أي سبيلاً سوياً وطريقاً مستقيماً ﴿لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠﴾ المستكشفين عن مدة بروز عالم الطبيعة عن مكمن الغيب.

﴿ثُمَّ﴾ أي بعد ما هبط ونزل من عالم الأسماء إلى مهبط الطبيعة والهيولى وصعد إليها ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي سماء الأسماء، وتمكن عليها مستعلياً

---

(١) في المخطوط (ويتوجهون).

(٢) في المخطوط (ينكرون).

﴿وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ ....﴾

مستغنياً فارغاً عن الصعود والهبوط ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هِيَ﴾ أي عالم الأسماء والصفات في أنفسها أيضاً ﴿دُخَانٌ﴾ حجابٌ بالنسبة إلى صرافة الذات، إذ لا تخلو عن شوب الكثرة المستلزمة للظلمة، بعد ما استقر عليها سبحانه، وتمكن ﴿فَقَالَ لَهَا﴾ أي لسماء الأسماء والصفات ﴿وَلِلْأَرْضِ﴾ أي الطبيعة والهيولى إظهاراً للقدرة الشاملة والسلطنة الغالبة: ﴿ٱئْتِيَا﴾ وتوجها نحو جنابنا، منسلخين عن هوياتكما الباطلة ووجوداتكما العاطلة الزائلة ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي طائعتين أو كارهتين، إذ لا وجود لكما في أنفسكما، وبعد ما سمعتا من النداء الهائل المهول ما سمعتا ﴿قَالَتَآ﴾ على وجه التصريح والتذلل حسب استعداداتهما الفطرية وقابلياتهما الجبلية[1]: ﴿أَتَيْنَا﴾ نحو بابك يا ربنا ﴿طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ من أين يتأتى منا الكره لحكمك، يا من لا وجود لنا إلا منك، ولا تحققَ إلا بك، نعبدك ونستعين منك على العبادة عبادتك، إذ لا معبود لنا سواك، ولا مقصود إلا إياك.

وبعد ما اعترفتا بالعبودية طوعاً والتزمتا بالإطاعة والانقياد والرغبة

﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ أي قضى سبحانه وقدّر لإمدادهما ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ على عدد الصفات السبع التي هي أمهات الأسماء الإلهية ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي يوم الظهور ويوم البطون، يومٌ لتحصيل المادة، ويومٌ لتكميل الصورة ﴿وَ﴾ بعد ما حكم وقضى سبحانه ﴿أَوْحَىٰ﴾ وألهم ﴿فِي كُلِّ سَمَآءٍ﴾ من الأسماء المدبرة

(١) في المخطوط (استعدادهم الفطرية).

أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ

﴿ أَمْرَهَاۚ ﴾ أي أمورها التي طلب منها ووضع لأجلها ﴿وَ﴾ قال سبحانه بعد ما رتبها عليها تتميماً للتربية، وتكميلاً للقدرة الكاملة الشاملة: ﴿ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي القرب إلى عالم الشهادة المشتملة على الآثار والأعمال، الصادرة من المظاهر والأظلال ﴿ بِمَصَٰبِيحَ ﴾ مقتبسةٍ مسرجةٍ من أشعة أنوار الذات ﴿وَ﴾ جعلناها ﴿حِفْظًا﴾ أي وقايةً ورقيباً لأرباب العناية من وساوس شيطان الأوهام والخيالات المترتبة على القوى الطبيعية المائلة بالذات إلى السفل ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذي سمعت من الخلق والإيجاد على النظام البديع والترتيب العجيب ﴿ تَقْدِيرُ ﴾ الحكيم ﴿ ٱلْعَزِيزِ ﴾ الغالب على إيجاد جميع ما دخل في حيطة إرادته ﴿ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ بإظهارها على عموم الصور الممكنة لظهورها.

وبعد ما ظهر من دلائل توحيد الحق ما ظهر، ولاح من آثار قدرته الكاملة ما لاح ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ ﴾ أي الكفرة الجهلة المستكبرون عنك يا أكمل الرسل وعن جميع ما جئتَ لهم من الآيات البينات لدلائل توحيد الذات وكمال الأسماء والصفات الإلهية ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم على وجه التحذير والتنبيه: ﴿ أَنذَرْتُكُمْ ﴾ أيها التائهون في تيه الغفلة والضلال أتى بالماضي لتحقق وقوعه ﴿ صَٰعِقَةً ﴾ أي بليةً عظيمةً نازلةً عليكم من شدة قساوتكم وإعراضكم عن الحق وأهله كأنها صاعقةٌ في الحول والشدة ﴿ مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ وقت:

﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ ﴾ المبعوثون إليهم لتكميلهم وإرشادهم والمبلغون لهم

مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ ....

الوحيَ الإلهي ﴿ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾ أي في حضورهم وغيبتهم بواسطة وبغير واسطة، المنبهون عليهم، القائلون لهم: عليكم أيها المجبولون على فطرة التوحيد ﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ ﴾ ولا تتوجهوا[1] بالعبودية الخالصة ﴿ إِلَّا ٱللَّهَۖ ﴾ الواحد الأحد الصمد الحقيق بالإطاعة والانقياد، إذ لا معبود لكم سواه، ولا مقصد إلا هو.

وبعد ما سمعوا من رسلهم ما سمعوا

﴿ قَالُواْ ﴾ متهكمين مستهزئين: ﴿ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا ﴾ الذي ادعيتم ربوبيته وألوهيته بالانفراد والاستقلال ﴿ لَأَنزَلَ ﴾ بمقتضى قدرته الكاملة التي ادعيتم له ﴿ مَلَٰٓئِكَةٗ ﴾ يخرجوننا من أودية الجهالات وبادية الضلال والغفلات، وبالجملة ﴿ فَإِنَّا ﴾ بأجمعنا ﴿ بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ ﴾ أي بجميع ما جئتم به وادعيتم الرسالة فيه ﴿ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ منكرون جاحدون، إن أنتم إلا بشرٌ مثلنا بلا مزيةٍ لكم علينا، ومن أين يتأتى لكم هذا ؟!

ثم فصل سبحانه ما أجمل بقوله:

﴿ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ ﴾ على عباد الله ﴿ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ التي هي محل الاختبار الإلهي ﴿ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ أي بلا انقياد وإطاعة إلى دينٍ ونبيٍ يرشدهم إلى طريق الحق ﴿ وَ ﴾ من كمال تعنتهم وبطرهم ﴿ قَالُواْ ﴾ على وجه الشرف

(١) في المخطوط (ولا يتوجهوا).

مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ ....

والمباهاة: ﴿مَنْ أَشَدُّ﴾ على وجه الأرض ﴿مِنَّا قُوَّةً﴾ وأكثر عَدداً وعُدداً وأتم بسطةً واستيلاءً ؟!

وقالوا هذا حين تخويفهم الرسل بإلمام العذاب عليهم، وهم كانوا أعظم الناس جسماً وأوفرهم قوةً وقدرةً، لذلك اغتروا بما عندهم من القوة والثروة، فكذبوا الرسل وقالوا لهم: نحن ندفع العذاب الذي ادعيتم نزوله أيها الكاذبون بوفور حولنا وقوتنا ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني أيغترون على قوتهم وجسامتهم وينكرون كمال قدرة الله وشدة انتقامه ولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ القدير العزيز ﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾ وأظهرهم من كتم العدم ولم يكونوا شيئاً مذكوراً ﴿هُوَ﴾ سبحانه بذاته وكمال أسمائه وصفاته ﴿أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وأكمل حولاً وقدرةً، وأحكم بطشاً وانتقاماً ﴿وَ﴾ هم وإن جزموا حقية رسلنا المبعوثين إليهم، وآياتنا المنزلة عليهم في ظواهرهم وبواطنهم، لكن ﴿كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ وينكرون بحسب الظاهر عناداً ومكابرةً، اغتراراً بما معهم من الثروة والجسامة.

وبعد ما تمادوا على غيهم وأصروا على عتوهم وضلالهم

﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ باردةً شديدةَ البرد، عقيمةً عن المطر، تعميهم بنقعها، وتصميهم بصريرها ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ لا سعود فيها، يعني إنما بدلنا مسعودات أيامهم بالمنحوسات ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾ أي المذلة والهوان اللازم على العذاب حيث كان

فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ....

ونزل ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ التي هم مغرورون فيها، مسرورون بلذاتها وشهواتها ﴿وَ﴾ الله ﴿لَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ﴾ المعدة للانتقام والجزاء ﴿أَخْزَىٰ﴾ أي أشد خزياً، وأتم تذليلاً وتصغيراً بأضعاف عذاب الدنيا وآلافها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿هُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ ولا يُشفعون فيها بدفع العذاب عنهم لحظةً، بل يخلدون في العذاب، ما شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ بإرسال الرسل إياهم ليرشدوهم إلى النجاة وينقذوهم من الضلال، وبعد ما بلغهم الرسل ما بلغهم من آيات الهداية والرشاد كذبوهم وأنكروا هدايتهم ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ﴾ والضلال بمقتضى عميهم وغفلتهم ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ المنزل عليهم من عندنا على ألسنة رسلنا، وبعد ما أصروا على ما هم عليه من الغواية ﴿فَأَخَذَتْهُمْ﴾ فجأةً ﴿صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ المخزي المذل النازل من نحو السماء على صورة الصاعقة السريعة الجري والحركة، فاستأصلهم بالمرة ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي بشؤم ما يقترفون من المعاصي والآثام الجالبة إياهم شدة غضب الله وعذابه.

﴿وَ﴾ من كمال قدرتنا على الإنعام والانتقام ﴿نَجَّيْنَا﴾ من تلك الصاعقة المهولة المهلكة القوم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ برسلنا واهتدوا بهدايتهم، مع أنهم كانوا فيهم مجاورين معهم ﴿وَ﴾ بسبب تخليصنا إياهم أنهم ﴿كَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ عن محارمنا ومنهياتنا، مع كونهم متصفين بكمال الإيمان والتوحيد.

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ....

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن عاندك من المشركين ﴿يَوْمَ يُحْشَرُ﴾ ويساق ﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ بعد العرض والحساب ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ المعدة لجزائهم ﴿فَهُمْ﴾ حينئذٍ ﴿يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي يُدفعون يعني يُحبس أولهم ومقدمهم على آخرهم ؛ لئلا ينقطع تلاحقهم واجتماعهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ أي حضروا النار وازدحموا حولها مجتمعين صائحين فزعين مجادلين منكرين بصدور أسباب العذاب عنهم، مع أنهم يُحاسَبون أولاً ثم يُساقون نحو النار، ولإسكاتهم وتبكيتهم عن الجدال والمراء ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾ أي اعترفت جوارحهم وقواهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ ويقترفون بها من المحرمات والمنهيات، بأن يلهمهم الله الاعتراف والتنطق بلسان الحال والمقال، إذ الكل مما أحاطت به قدرته سبحانه.

﴿وَ﴾ بعد ما سمعوا من قواهم ما سمعوا من الاعتراف

﴿قَالُوا۟﴾ موبخين مقرعين ﴿لِجُلُودِهِمْ﴾ وجوارحهم المعترفة بذنوبهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ مع أنا لا نُعذَّب إلا بكم ومعكم، من أين تجترئون على أنفسكم بالعرض على العذاب المؤبد أيها الحمقى الجهلاء.

﴿قَالُوٓا۟﴾ ما كنا مختارين في هذه الشهادة والاعتراف بل ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ القادر المقتدر العليم الحكيم ﴿ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ بآيات وجوب وجوده

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ ....

ودلائل توحيده بمقتضى جوده، وليس تعجباً من قدرته سبحانه إنطاقنا بما اقترفتم بنا من المعاصي والآثام المخالفة لأمره وحكمه، غيرةً منه سبحانه، وقهراً على من خرج عن ربقة عبوديته بترك أوامره وأحكامه.

﴿وَ﴾ كيف لا يغار ويقهر سبحانه عليكم أيها المفسدون المسرفون مع أنه ﴿هُوَ﴾ بذاته وبمقتضى أسمائه وصفاته ﴿خَلَقَكُمْ﴾ وأظهركم من كتم العدم خلقاً إبداعياً ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بلا سبق مادةٍ ومدةٍ وشركةٍ من أحدٍ ومظاهرةٍ ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أيضاً آخر مرة كذلك ﴿تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ رجوع العكوس والأظلال إلى الأضواء، والأمواج إلى الماء، فمِن أين تستنكفون عن عبوديته، وتخرجون عن حكمه وأمره.

ثم قال سبحانه تذكيراً لما هم عليه عند ارتكاب المعاصي توبيخاً لهم وتقريعاً:

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ أي لم تكونوا مسرين مستترين عند ارتكاب الفواحش والمحظورات مخافة ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ عند الله في يوم الجزاء لإنكاركم به، بل إنما تستترون وتكتمون معاصيكم وقبائحكم مخافة فضاحتكم واشتهاركم بين الناس بالمذام ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ﴾ بالله ظن السوء وهو ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لسرائر الأمور وخفاياتها ﴿لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ في خلواتكم، لذلك اجترأتم على اقتراف المعاصي والآثام المحرمات.

وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ....

﴿ وَذَٰلِكُمْ ﴾ أي هذا الذي نسبتم إلى الله بقولكم هذا ﴿ ظَنُّكُمُ ﴾ السوء وزعمكم الفاسد ﴿ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ ﴾ العليمُ الخبير بجميع ما صدر عنكم وهذا ﴿ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ وأهلككم في تيه الجهل والضلال، وبعد ما فوتم على أنفسكم أسباب السعادة والهداية، واخترتم بدلها ما يوجب الشقاوة والضلال ﴿ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ﴾ زمرة ﴿ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ وانقلبتم صاغرين مهانين، وصرتم في النار خالدين.

وبعد ما دخلوا في النار المسعرة بأنواع المذلة والهوان:

﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ ﴾ على فوحاتها والتهاباتها الشديدة ﴿ فَٱلنَّارُ مَثْوًى ﴾ منزلاً ﴿ لَّهُمْ ﴾ أبداً، لا نجاة لهم منها أصلاً ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ ﴾ ويبثوا الشكوى والعتبى، ويُظهروا الكآبة وعدم الطاقة ﴿ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ المجابين بإزالة العتبى والشكوى بل كلما [1] أظهروا العتابَ ضوعف لهم العذاب.

﴿ ۞ وَ ﴾ كيف يُزال عتابهم ولا يُضاعف عليهم عذابهم، إذ قد ﴿ قَيَّضْنَا ﴾ وقدرنا ﴿ لَهُمْ ﴾ في ما هم عليه من الكفر والشقاق وأنواع الفسوق والنفاق ﴿ قُرَنَآءَ ﴾ أخداناً وإخواناً من الشياطين يوحون إليهم ما يبعدهم عن الحق وأهله ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم﴾ وحسّنوا لطباعهم ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من اتباع الشهوات

(١) كلما: لا تدخل إلا على ماضيين .

وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ....

وارتكاب المناهي والمحظورات ﴿وَ﴾ إنكار ﴿مَا خَلْفَهُمْ﴾ من الأمور الأخروية مواعيدها وموعوداتها، ﴿وَ﴾ سبب ارتكاب المعاصي وإصفاؤهم قول قرنائهم ﴿حَقَّ﴾ وثبت ﴿عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ وكلمة العذاب المؤبد منا، وليس هذا مخصوصٌ بقومٍ دون قومٍ بل جرت سنتنا كذلك ﴿فِي﴾ كل ﴿أُمَمٍ﴾ مفسدةٍ مشركةٍ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ أي قبل هؤلاء المشركين المسرفين سواءً أكانوا ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ أي المكلفين منها، وإنما استحقوا العذاب المؤبد والنكال المخلد بسبب ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥)﴾ خسراناً مبيناً لاستبدالهم أسباب السعادة والهداية بالشقاوة والضلال.

﴿وَ﴾ من شدة غيهم وضلالهم المفضي إلى الخسران العظيم ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وبدينك وبكتابك يا أكمل الرسل حين تلاوتك وتبليغك عليهم آيات القرآن: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ ولا تلتفتوا إلى محمد حين قرأ، بل ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ بالصياح وإنشاد الأشعار وخلط الأصوات والخرافات ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ محمداً، وتدفعون قراءتهم، وتُخجلونه[1]، فيسكت.

وهم من شدة شكيمتهم وغيظهم وإن بالغوا في تخجيلك وتخذيلك يا أكمل الرسل لا تبال بهم وبفعلهم هذا

---

(١) في المخطوط (ويخجلونه).

فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ....

﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾ لهؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بك وأساؤوا الأدب معك ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ منتقمين عنهم في النشأة الأولى ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿أَسْوَأَ﴾ وأشدَّ وأقبحَ من ﴿ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ معك بأضعافها وآلافها ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الأسوأ الأشدّ ﴿جَزَآءُ﴾ أعمال ﴿أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ الذين عاندوا معك يا أكمل الرسل، واستهزؤوا بك وبكتابك، بطرين بما معهم من الجاه والثروة، وهي ﴿ٱلنَّارُ﴾ المسعرةُ المعدةُ لدخولهم ونزولهم إذ ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ أي في النار ﴿دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أي الإقامة على وجه الخلود، وإنما صارت كذلك ليكون ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ وينكرون بها، ويكذبون بمن أنزل إليه، ويستهزئون.

﴿وَ﴾ بعد ما استقرّ أهل النار في النار بأنواع السلاسل والأغلال ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله ورسله وكتبه في النشأة الأولى متحسرين متأسفين متضرعين إلى الله مناجين له: ﴿رَبَّنَآ﴾ يا من ربانا على فطرة الإسلام والتوحيد فكفرنا بك وأشركنا معك غيرك في ألوهيتك بإضلال قرنائنا الضالين المضلين ﴿أَرِنَا﴾ الشياطين ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ عن طريق توحيدك وتصديق كتبك ورسلك الكائنَين ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي المضلَين اللذين أضلانا من هذين

نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ ....

الجنسين بأنواع الوساوس والزخارف والتغريرات والتزيينات ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ لننتقم عنهم جزاء ما فوّتوا عنا سعادة الدارين وصلاح النشأتين، وإنما نرجو منك هذا يا مولانا ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ المستتبعين لنا، كما كنا كذلك بالنسبة إليهم، وإنما قالوا ما قالوا تحسراً وتضجراً.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته في كتابه:

﴿إِنَّ﴾ الموحدين ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ في السراء والضراء والسر والعلن ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ وثبتوا على ما أقروا واعترفوا بأعمالهم وأحوالهم وبيناتهم المترتبة عليها عموم أفعالهم ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ على إعانتهم وشرح صدورهم وتهذيب أخلاقهم ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ المترصدون لأمر الله، القائمون لحكمه، قائلين لهم مبشرين إياهم: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ على فرطاتكم التي صدرت عنكم قبل انكشافكم بسرائر التوحيد واليقين، ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ بما جرى عليكم من مقتضيات بشرياتكم، ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ بألسنة أنبيائكم ورسلكم الهادين المهدين.

وبعد ما وفقناكم على انكشاف سرائر توحيدنا والتخلق بأخلاقنا.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾ نولي عموم أموركم بحيث نكون سمعكم وبصركم

فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ....

وجميع قواكم وجوارحكم ﴿ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ حسب اسمنا الظاهر ﴿ وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ أيضاً كذلك حسب اسمنا الباطن ﴿ وَلَكُمْ﴾ منا وراء ذلك تفضلاً وإحساناً ﴿ فِيهَا﴾ أي في الآخرة ﴿ مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ من اللذات الروحانية حسب استعداداتكم الفطرية وقابلياتكم الجبلية الفائضة عليكم بمقتضى جودنا الواسع ﴿وَلَكُمْ﴾ أيضاً ﴿ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ تطلبون وتتمنون وقت دعائكم في نشأة الدنيا حسب عقولكم وهوياتكم، كل ذلك صار .

﴿ نُزُلًا﴾ معداً لكم قبل نزولكم فيها تفضلاً عليكم وإحساناً لكم ﴿ مِّنْ غَفُورٍ﴾ ستارٍ لأنانياتكم، محّاءٍ لذنوب هوياتكم ﴿ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ موصلٍ لكم بمقتضى سعة رحمته وجوده إلى زلال توحيده.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا ﴾ وأصلح عملاً، وأكمل إيماناً واعتقاداً، وأتم معرفة وتوحيداً ﴿ مِّمَّن دَعَآ ﴾ أي أرشد وهدى ﴿ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستقل بالألوهية والربوبية، المتفرد بالوجود والديموميّة ﴿ وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿ صَٰلِحًا﴾ مطابقاً موافقاً لصفاء مشرب التوحيد، مجتنباً عن رعونات العجب والرياء وتخمينات التقليد والهوى ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ قَالَ ﴾ بعد ما نال أولاً ما نال، وفني فيما فني: ﴿ إِنَّنِي مِنَ﴾ زمرة ﴿ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ المسلِّمين

وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ....

المنقادين، المفوضين إلى الله جميع ما لاح عليهم من بروق تجلياته الجمالية والجلالية، وما لي أيضاً إلا التسليم والرضا بعموم ما جرى عليه القضاء.

ثم قال سبحانه على سبيل التعليم والإرشاد لعموم العباد:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ﴾ أي لا تستوي جنس الحسنات بل هي متفاوتةٌ في الحسن والبهاء ﴿وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ أي وكذا لا تستوي جنس السيئات أيضاً بعضها أسوأ من بعض ﴿ادْفَعْ﴾ أيها السالك القاصد سلوك طريق التوحيد من جادة العدالة المنكشفة لأكمل الرسل وأفضل الأنبياء الهادين المرشدين إلى بحر الوحدة الذاتية من جداول الأسماء والصفات المترشحة منها حسب تموجاتها وتطوراتها المتفرعة على شؤنها الذاتية ﴿بِالَّتِي﴾ أي بالخصلة الحسنة التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ الحسنات أسوأَ السيئات وداوم عليها وتخلق بها حتى تستوي وتستقيم أنت على جادة العدالة الإلهية، وبعد استقامتك وتحققك في هذه المرتبة ﴿فَإِذَا الَّذِي﴾ كان ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ﴾ مستمرةٌ ناشئةٌ من القوى البهيمية من كلا الطرفين، صار صديقك وخليلك إلى حيث ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ﴾ حفيظٌ لك، رقيبٌ على حضانتك عن جميع ما يؤذيك ويرديك، فكيف يؤذيك إذ هو ﴿حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ مشفقٌ كريمٌ رؤوفٌ رحيمٌ لك لا يخاصمك أصلاً.

﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا يُلَقَّاهَا﴾ أي الخصلة الحميدة الحسنة التي هي دفع الإساءة بالإحسان، والمكروه بالمعروف، والقهر باللطف ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ ....

الأبطال المتحملون الذين صبروا على كظم الغيظ وتحمل المتاعب والمشاق المتعاقبة على نفوسهم ؛ لتحققهم بمقام الرضا، والتسليم بما جرى عليهم من القضاء، وتمكنهم في مقر التوحيد المسقط للإضافات، المستلزمة لأنواع الاختلافات والانحرافات ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ ونصيبٍ كاملٍ من الكشف والشهود بأسرار الوجود بمقتضى الجود الإلهي.

﴿وَ﴾ بعد ما أرشد سبحانه عموم عباده إلى طريق النجاة وعلّمهم الخصلة المحمودة المخلِّصة لهم عن أودية الضلالات والجهالات، وأوصاهم بما أوصاهم من الصبر والثبات على تحمل المشاق والمكروهات، خاطب حبيبه ﷺ بما خاطب حثاً له ولمن تبعه واسترشد منه على دفع ما يمنعهم عن الاتصاف بتلك الخصال الحميدة، ويعوقهم منها بالإضلال والإغواء فقال: ﴿إِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ ويعرضن عليك يا أكمل الرسل ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ المضل المغوي ﴿نَزْغٌ﴾ نخسٌ[1] يحرك غضبك وحمية بشريتك ويوقعن فيك بوسوسته فتنةً تبعثك على الإساءة والانتقام بترك تلك الخصلة المحمودة ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ بالله أي بادر إلى الإعاذة والالتجاء ﴿بِٱللَّهِ﴾ المقلب للقلوب وفوض أمورك كلها إليه سبحانه على وجه التبتل والإخلاص ؛ لتأمن من غوائله وتلبيساته ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لمناجاتك ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ بحاجاتك وخلوص نياتك فيها.

---

(١) في المخطوط (بخس).

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ....

ثم قال سبحانه رداً على المشركين المتخذين شركاء لله من مظاهره ومصنوعاته ظلماً وزوراً يعبدونهم كعبادته:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ أي من جملة الدلائل الدالة على قدرة الصانع الحكيم ﴿ٱلَّيْلُ﴾ المظلم ﴿وَٱلنَّهَارُ﴾ المبصرُ المضيءُ ﴿وَ﴾ كذا ﴿ٱلشَّمْسُ﴾ المشرقُ في النهار ﴿وَٱلْقَمَرُ﴾ المنيرُ في الليل، قل لهم يا أكمل الرسل على وجه التنبيه والتذكير: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟﴾ أي لا تعبدوا ولا تتذللوا أيها الأظلال الهالكة في شمس الذات ﴿لِلشَّمْسِ﴾ المستهلكة أمثالكم في شروق ذاته سبحانه ﴿وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ المستنير منها بالطريق الأولى، بل ﴿وَٱسْجُدُوا۟﴾ وتذللوا بوضع جباهكم وجوارحكم على تراب المذلة ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد القدير العزيز ﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ أي أظهرهن وأوجدهن من كتم العدم على سبيل الإبداع بلا سبق مادةٍ وزمانٍ، بل بمجرد امتداد أظلال أسمائه وبسط عكوس صفاته على مرآة العدم، فعليكم الإطاعة والانقياد إليه والتوجه نحوه على وجه الإخلاص والاختصاص، فاعبدوه ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ﴾ سبحانه ﴿تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أيها العابدون المخلصون.

وبعد ما بلَّغتَ إليهم يا أكمل الرسل ما بلَّغتَ من الحق الحقيق بالقبول والاتباع ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ واستنكفوا عن سجود الله وأصروا على ما هم عليه

﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩ ٣٨ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ

عن سجود الله ، أعرضْ عنهم وعن نصحهم، ولا تبال لهم وبشأنهم ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل من الملائكة المهيمين المستغرقين بمطالعة جماله وجلاله، والموحدين المفنين هوياتهم في هوية الله ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ﴾ ويقدسون ذاته عن شوب[١] الشركة مطلقاً، قولاً وفعلاً، وخاطراً وناظراً ﴿بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي في عموم الأوقات والحالات ﴿وَهُمۡ﴾ من كمال شوقهم وتحننهم ﴿لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩ ٣٨﴾ أي لا يملون ولا يفترون منها أصلاً.

ومع ذلك هو سبحانه غنيٌ عن عبادتهم فكيف عن عبادة هؤلاء الحمقى المنغمسين في بحر الجهالات، التائهين في بادية الضلالات وأودية الشهوات والغفلات.

﴿وَ﴾ أيضاً ﴿مِنۡ﴾ جملة ﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدالة على وحدة ذاته وكمال أسمائه وصفاته ﴿أَنَّكَ﴾ يا أكمل الرسل وإنما وجه سبحانه أمثال هذه الخطابات إلى النبي ﷺ، مع أنه يصلح لعموم الناس ؛ لكمال لياقته بمطالعة آيات الله، وخبرته منها : ﴿تَرَى ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي الطبيعة العدمية الجامدة اليابسة ﴿خَٰشِعَةٗ﴾ ذليلةً ساقطةً عن درجات الاعتبار ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا﴾ من مقام جودنا ورششنا ﴿عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ﴾ المحييَ المترشحَ من بحر الوجود الذي هو الحي الأزلي والقيوم السرمدي ﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾ أي تحركتْ وارتعدتْ اهتزازاً شوقياً ﴿وَرَبَتۡۚ﴾ أي زادتْ ونمتْ، مع أنها لا شعورَ فيها، بل لا وجود لها أصلاً، وبالجملة ﴿إِنَّ﴾ القادر

(١) في المخطوط (شوك).

ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ ....

المقتدر الحكيم ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾ مع أنها لم تكن في ذاتها شيئاً مذكوراً ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ مرةً أخرى بعد ما كانت أحياءً بالطريق الأولى، وبالجملة ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ دخل في حيطة علمه وإرادته ﴿قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ بلا فتورٍ وقصورٍ.

ثم قال سبحانه تهديداً على منكر الآخرة، وقدرةِ الله على إعادة الموتى وحشر الأموات:

﴿إِنَّ﴾ المسرفين ﴿ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ أي يميلون وينحرفون ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ الدالة على عظمة ذاتنا وكمال قدرتنا على أنواع الانتقام ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ أي لا يشتبه حالهم علينا، بل نحن منكشفون بهم وبجمع ما جرى في ضمائرهم واختلج في خواطرهم من الميل والانحراف، فيجازيهم على مقتضى إلحادهم وانحرافهم بأشد العذاب وأسوأ[1] الجزاء.

﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي قل لهم يا أكمل الرسل على سبيل التوبيخ والتقريع: إن من يلقى في النشأة الأخرى في النار المسعرة بأنواع المذلة والهوان ﴿خَيْرٌ﴾ عندهم ﴿أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا﴾ من العذاب مسروراً ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بأنواع الفتوحات والكرامات الموهوبة له من ربه تفضلاً عليه وإحساناً، وبالجملة قل يا أكمل الرسل للملحدين المصرين على الميل والإلحاد على سبيل التبكيت والتهديد: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ من الخوض في آيات الله، والميل عن دلائل

(١) في المخطوط لا توجد (واسوأ).

إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾

توحيده ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ يجازيكم عليه بلا فوت شيء منه، ثم أَعرضْ عنهم ودعْهم في خوضهم يلعبون.

ثم قال سبحانه على وجه التخصيص بعد التعميم:

﴿إِنَّ﴾ المشركين المفرطين ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وأنكروا ﴿بِٱلذِّكْرِ﴾ أي القرآن الكامل الشامل لما في الكتب السالفة، المنزل على أكمل الرسل تفضلاً منا إياه وتكريماً ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي حين جاءهم به الرسول المؤيدُ من عندنا، المرسلُ إليهم ليرشدهم به إلى سبيل الهداية والرشاد، وهم يعاندون في تكذيبه، ويكابرون في إنكاره وقدحه عتواً واستكباراً، كيف يفرّطون في علوّ شأنه، ويكابرون في سمو برهانه ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾ منيعٌ ساحةَ عزته ورتبته وعلو قدره ومكانته عن أن يحوم حوله شائبةُ الجدل والعناد.

إذ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ الزائغ الزائل في خلال أوامره وأحكامه لا ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ بأن يتصف حكمه وأحكامه حين نزوله وظهوره بعدم المطابقة لما في الواقع وما في علم الله ولوح قضائه ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ بأن يلحقه نسخٌ وتبديلٌ كالكتب السالفة، إذ هو ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ كاملٍ في الإتقان والإحكام، عليمٍ بأساليب الحكم والأحكام ﴿حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ في ذاته، يحمده كل الأنام على ما أفاض عليهم من موائد الإفضال والإنعام.

مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ

ثم أخذ سبحانه يسلي حبيبه ﷺ، ويزيل عنه أذى الكفرة الجهلة المعاندين معه بمقتضى آرائهم الباطلة وأهويتهم الفاسدة العاطلة، فقال:

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ ﴾ أي ما يقول لك كفار قومك ليس ﴿ إِلَّا ﴾ مثل ﴿ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ ﴾ الذين مضوا ﴿ مِن قَبْلِكَ ۚ ﴾ من قِبل قومهم، فصبروا على أذاهم حتى ظفروا عليهم وانتصروا، فاصبر أنت أيضاً على أذى هؤلاء المعاندين، حتى تظفر عليهم، وبعد ما ظفرت يؤمنوا بك، ويصروا على عنادهم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ على المؤمنين بك، يغفر لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر، إن أخلصوا في إيمانهم ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ على من تولى واستكبر وأصرّ على كفره ولم يؤمن.

وبعدما قدح كفار مكة في شأن القرآن وقالوا: هلا نزل بلغة العجم كالكتب السالفة، مع أنه لم يعهد منه سبحانه إنزالُ كتاب بلغة العرب قطّ، ورد الله عليهم هذا بقوله:

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ ﴾ أي الذكر المنزل عليك يا أكمل الرسل ﴿ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا ﴾ في شأنه من شدة بغضهم وشكيمتهم معك ﴿ لَوْلَا فُصِّلَتْ ﴾ أي هلا أُوضحت وبُينت ﴿ آيَاتُهُ ۖ ﴾ بلسان نفقهها وندركها، مع أنه إنما أنزل إليك وإلينا ونحن لا نفهم لغة العجم، ثم يأخذون في القدح والاستهزاء بوجهٍ آخر، ويقولون: ﴿ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ ﴾ يعني أينزل كلامُ أعجمي من قبل الحق على

قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ....

سبيل الوحي على نبيٍ عربيٍ، لا شعور له بكلام العجم أصلاً ليرشد الأعراب به ويبين لهم ما فيه، كلا وحاشا ما هذا إلا كذبٌ مفترىً، وبالجملة لا يسكتون أولئك المعاندون عن القدح والطعن فيه بحالٍ.

وبعد ما وضح حالهم في التعنت والعناد

﴿ قُلْ ﴾ لهم يا أكمل الرسل كلاماً خالياً عن وصمة المجادلة والعناد: ﴿هُوَ﴾ أي القرآن ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ به وامتثلوا بأوامره ونواهيه، وتنبهوا من رموزه وإشاراته، واعتبروا من عبره وأمثاله وقصصه وأخباره ﴿ هُدًى ﴾ يهديهم إلى الحق الصريح، ويوصلهم إلى محض اليقين والتحقيق ﴿وَشِفَآءٌ﴾ لما في النفوس من الجهل والأمراض العضال المورثة لهم من تقليد آبائهم وتخمينات وأوهام صناديدهم ورؤسائهم ﴿وَ﴾ المكابرون ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ولا يصدقون نزوله، بل يكذبونه ويستهزئون مع من أنزل إليه، هو بالنسبة إليهم ﴿ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ مستقرٌ وصممٌ شديدٌ يصمهم عن استماع آياته الدالة على تهذيب الظاهر والباطن، بل ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾ يعمي بصائرهم وأبصارهم عن رؤية الحق الظاهر في الأنفس والآفاق، وبالجملة ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ البعداء عن ساحة عز الحضور ﴿ يُنَادَوْنَ ﴾ إلى مقصد التوحيد ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ بمراحل عن الوصول إليه، يعني هم وإن جُبلوا على نشأة التوحيد صورةً، إلا أنهم حطوا عنها ولحقوا بمرتبة البهائم، بل صاروا أبعد منها وأنزلَ، لذلك ينادَون من مكان بعيد، إن نودوا.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ....

﴿وَ﴾ أن عاندوا معك يا أكمل الرسل واختلفوا في كتابك بالتصديق والتكذيب لا تبال بهم وبردهم وقبولهم فإنا ﴿ لَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ من كمال جودنا أخاك ﴿ مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة المشتمل على ضبط ظواهر الأحكام وبواطنه، حفظاً لهم وضبطاً لأمور معاشهم ومعادهم، ومع ذلك ﴿ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ﴾ أي في حق التوراة وشأنه، فقَبِله بعضهم، ورده الآخر[١] مثل ما يفعل هؤلاء الغواة بكتابك هذا، وليس هذه الديدنة ببدعٍ من هؤلاء الجهلة، بل هي من عادتهم المستمرة وشيمتهم القديمة، ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ لَوْلَا كَلِمَةٌ ﴾ موعودةٌ معهودةٌ ﴿ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ من أخذ الظالم منهم على ظلمه في يوم الجزاء ﴿ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ أي بأخذهم سبحانه بظلمهم ويستأصلهم اليوم بالكلية بلا إمهالٍ لهم لاستئهالهم بالأخذ والانتقام، لكن ثبت حكمه سبحانه على ما وعد وقضى، إذ ما يبدل القول لديه ﴿ وَإِنَّهُمْ﴾ من كمال تماديهم في الغفلة والإعراض عن الحق واقتداره على وجوه الانتقام ﴿ لَفِى شَكٍّ﴾ عظيم ﴿ مِّنْهُ﴾ أي من قضاء الله وحكمه المبرم في يوم الجزاء ﴿ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾ فيه ريباً منتهياً إلى الإنكار والتكذيب.

وبالجملة لا تبال يا أكمل الرسل بهم وبريبهم وإنكارهم وطغيانهم، فاعلم أنه

---

(١) في المخطوط (أخرى).

مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ

﴿مَّنْ عَمِلَ﴾ من عموم عبادنا عملاً ﴿صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ أي صلاحُه عائد إلى نفسه، راجعٌ إلى إصلاح حاله في معاده ومعاشه ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ أي رجع وبال إساءتها أيضاً على نفسها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا رَبُّكَ﴾ المنزهُ في ذاته عن طاعة المطيع وعصيان العاصي ﴿بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ أي لا يُنقص من أجور المطيعين، ولا يزيد عن جزاء العاصين، بل يتفضل على أهل الطاعة فوق ما استحقوا بأعمالهم أضعافاً وآلافاً عناية منه وفضلاً، ويقتصر على أصحاب المعصية والضلال بجزاء ما اقترفوا لأنفسهم عدلاً منه وقهراً.

وكيف لا يتفضل حين الجزاء على أرباب العناية ولا يعدل على أصحاب الغواية حين الجزاء؟ إذ

﴿۞ إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من أظلال الوسائل والأسباب ﴿يُرَدُّ﴾ ويرجع ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ﴾ أي العلم المتعلق بوقت قيامها وكيفية ما جرى فيها من الأهوال والأفزاع، إذ هي من جملة الغيوب التي استأثر الله بها ولم يُطلع أحداً عليها ﴿وَ﴾ أيضاً يرجع إلى علمه سبحانه ﴿مَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ أي من أجناس الثمار مع اختلاف أنواعها وأصنافها متى تخرج ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي أوعيتها التي فيها أنوارها الحاصلة منها الأثمار، إذ هي أيضاً من جملة الأمور الغيبية المستأثرة بها سبحانه ﴿وَ﴾ كذا ﴿مَا تَحْمِلُ﴾ وتحبل ﴿مِنْ أُنثَىٰ﴾ أي فوائد

وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ ....

الحمل والحبل ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ حملها بمكان من الأمكنة ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ﴾ سبحانه، إذ هو العالم لا غيره بما في الأرحام ومدة بقائه فيها وخروجه منها، لا اطلاع لأحدٍ عليها ﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن أشرك بالله وأثبت الوجود لغيره والشركة في ألوهيته وربوبيته عدواناً وظلماً ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ الله لهم حين إرادة الانتقام عنهم موبخاً لهم ومقرعاً إياهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ الذين تزعمون شركتهم معي، وشفاعتَهم عندي، أحضروهم لينجوكم من عذابي، ويشفعوا لكم لدي، وبعد ما سمعوا النداء الهائل ﴿قَالُوٓاْ﴾ متأسفين متحزنين: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ وأعلمناك يا مولانا اليوم، وإن كنتَ أعلم منا بحالنا إنا ﴿مَا مِنَّا﴾ أي ما أحدٍ منا اليوم ﴿مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾ يشهد على شركة شركائنا الذين ادعينا شركتهم معك ظلماً وزوراً.

﴿وَ﴾ بعد ما تقوّلوا ما تقوّلوا من شدة الأسف ونهاية الحسرة والضجرة ﴿ضَلَّ﴾ وغاب ﴿عَنْهُم﴾ وخفَّ عن أبصارهم وبصائرهم ﴿مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ﴾ ويعبدون إليه ﴿مِن قَبْلُۖ وَظَنُّواْ﴾ بل تيقنوا حينئذ ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾ مهربٍ ومخلصٍ من عذاب الله، فتندموا وما ينفعهم الندم، ورجعوا إلى الله حينئذ وما يفيدهم الرجوع ؛ لانقضاء مدة التدارك والاختبار.

ومن العادة القديمة والديدنة المستمرة أنه:

﴿لَّا يَسْـَٔمُ﴾ أي لا يمل ولا يفتر ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المجبول على جلب الإحسان

مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ....

﴿مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ لنفسه وجذب المنفعة إلى ذاته حريصاً عليها، مولعاً لاقتنائها وجمعها ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ وعُرض عليه الضر حيناً من الأحيان ﴿فَيَـُٔوسٞ﴾ من قدرة الله على دفع الضر عنه وجلب النفع إياه بعد ما أزال عنه ابتلاء ﴿قَنُوطٞ ﴿٤٩﴾﴾ من فضل الله عليه وسعة رحمته وجوده.

﴿وَ﴾ من غاية يأسه وقنوطه عن مقتضى فضلنا وجودنا ﴿لَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ﴾ ووفرناها عليه بحيث تسري في جميع أجزائه مع كونها[1] تفضلاً ﴿مِّنَّا﴾ بلا اقتراف ﴿مِنۢ﴾ جانبه سوى أنه ﴿بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾ لحقته أوائلها، إذ المساس يحصل بمجرد الملاقاة ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ معرضاً عن الله: ﴿هَٰذَا لِي﴾ وأنا أستحق بها لاحتمال الشدائد ولكمال فضلي وعلمي، أو هذا لي بمقتضى ذاتي ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ﴾ الموهومة الموعودة ﴿قَآئِمَةٗ﴾ آتية ﴿وَلَئِن﴾ فرضت وقوعها وقيامها على الوجه الذي زعم الرسل المدّعون، ونطقتْ الكتب المزورة المفترية ﴿رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ كما زعموا ﴿إِنَّ لِي﴾ أي ثبت وتحقق لي ﴿عِندَهُۥ﴾ سبحانه ﴿لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ أي الحالة التي هي أحسن الحالات وأكرم الكرامات؛ لاستحقاقي بها واقتضاء ذاتي إياها، وإنما يقول ما يقول استهزاءً وتهكماً.

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ ونخبرن حين الجزاء الكافرين ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بوفور

(١) في المخطوط (موكونها).

بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ....

قدرتنا على وجوه الانتقام ﴿ بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾ من الجرائم العظام وكبائر الآثام ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم ﴾ ونحيطن عليهم ﴿ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ مؤلمٍ فظيعٍ فجيعٍ، لا يمكنهم الخلاص عنه.

﴿وَ﴾ من شدة طغيان الإنسان ونهاية كفرانه وعدوانه إنا ﴿ إِذَآ أَنْعَمْنَا ﴾ وأكرمنا من مقام جودنا ﴿ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾ المجبول على النسيان ﴿ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ أي تباعد عنا، ولم يشكر على نعمنا، ولم يلتفت إلى موائد كرمنا ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾ ولحقه الضرُّ ﴿ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾ كثيرٍ ممتدٍ عرضاً وطولاً، وهو كنايةٌ عن إلحاحهم ولجاجهم في طلب الكشف والتفريج من الله عند نزول البلاء وإلمام المصيبة.

﴿ قُلْ ﴾ يا أكمل الرسل لمنكري القرآن والقادحين فيه عدواناً وظلماً: ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أخبروني ﴿ إِن كَانَ ﴾ القرآن منزلا ﴿ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ بحسب الواقع مع أنه لا شك فيه ﴿ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ بلا تأملٍ وتدبرٍ في دلائل صدقه وبراهين إعجازه لفظاً ومعنىً ﴿ مَنْ أَضَلُّ ﴾ سبيلاً وأخطأ رأياً وطريقاً ﴿ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ وخلافٍ شديدٍ عن الحق وقبوله، وبالجملة من أضل منكم أيها القادحون المنكرون له مع وضوح محجته وسطوع برهانه.

ثم أشار سبحانه إلى وحدة ذاته وظهوره حسب أسمائه وصفاته في عموم مظاهره ومصنوعاته وحيطته عليها وشموله إياها، ليكون دليلا على حقية كتابه

سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ....

وصدوره منه فقال:

﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ أي المجبولين على فطرة التوحيد، المخلوقين على نشأة الإيمان والعرفان، الموقنين على كمال الكشف والعيان ﴿ ءَايَٰتِنَا ﴾ أي دلائل توحيدنا الدالة على وحدة ذاتنا الظاهرة ﴿ فِى ٱلْآفَاقِ ﴾ أي ذرائر الأكوان الخارجة عن نفوسهم المدركة بآلاتهم وحواسهم سميت بها لطلوع شمس الحقيقة الحقية منها، وظهورها عليها ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي ذواتهم التي هي أدلُّ دليلٍ على معرفة الحق ووحدة الحق، لذلك قال أصدق القائلين وأكمل الكاملين: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»[1] وإنما نريهم ما نريهم ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ ﴾ ويظهر دونهم وينكشف عليهم ﴿ أَنَّهُ ﴾ أي الأمر الظاهر في الآفاق والأنفس ﴿ ٱلْحَقُّ ﴾ الحقيق بالتحقق والثبوت لصرافة وحدته الذاتية والقرآن المعجز أيضاً، ومن جملة مظاهره وصفاته.

ثم لما أشار سبحانه إلى وحدة ذاته بالنسبة إلى عموم عباده، أراد أن ينبه على المستكشفين من أرباب المحبة والولاء، الوالهين في مطالعة وجهه الكريم، فخاطب حبيبه ﷺ، إذ هو الحريُّ بأمثال هذه الخطابات، فقال مستفهماً على سبيل التعجب:

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ﴾ أي أتشكون في وجود مربيك يا أكمل الرسل

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء [١٠/ ٢٠٨].

أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ﴿٥٤﴾

ومربيهم وظهوره وتحققه، ولم يكف دليلاً ﴿أَنَّهُۥ﴾ بذاته وعموم أسمائه وصفاته ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ مما لاح عليه برق وجوده ورشاشة نوره ﴿شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ حاضرٌ غير مغيب عنه.

وبالجملة أولم يكف لهم دليلاً على تحقق الحق وحضوره مع كل شيء من مظاهره ومصنوعاته.

ثم نور سبحانه ما نبه عليه على سبيل التعجب والتلويح تأكيداً ومبالغةً وزيادة إيضاحٍ وتوضيحٍ، فقال:

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ﴾ بعد ما أضاء لهم شمس الذات من مرايا الكائنات ﴿فِي مِرۡيَةٖ﴾ شكٍ وارتيابٍ ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ﴾ فيها ومطالعة وجهه الكريم عنها ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ﴾ بذاته حسب شؤنه وتطوراته المتفرعة على أسمائه وصفاته ﴿بِكُلِّ شَيۡءٖ﴾ من مظاهره ومصنوعاته ﴿مُّحِيطُۢ ﴿٥٤﴾﴾ بالاستقلال والانفراد، إحاطةً ذاتيةً بلا شوبِ شركةٍ، إذ لا موجود سواه، ولا إله إلا هو.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المترقب لشهود الحق من ذرائر عموم المجال والمظاهر الظاهرة في الآفاق والأنفس: أن تصفيّ ضميرك أولاً من وساوس مطلق الأوهام والخيالات العائقة عن التوجه إلى صرافة الوحدة، وتجلي خلدك عن الإضافات الصارفة عنه.

فلك أيضاً أن تكون في نفسك متوجهاً إلى ربك الذي هو حصة لاهوتك، ونشأة جبروتك، خالياً عنك وعن لوازم ناسوتك وعوارض بشريتك بالمرة، بحيث لا شعور لك عما جرى على هويتك أصلاً.

وبالجملة كن فانياً في الله، باقياً ببقائه، ناظراً بنوره إلى وجهه الكريم تفز بنعيم الجنات وعظيم اللذات مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر عل قلب بشر.

تمّ بفضل الله تعالى الجزء الثالث من تفسير سلطان العارفين

سيدي عبد القادر الجيلاني

قدس الله سره العزيز

آمين



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ ....

فاتحة سورة الشورى

لا يخفى على من تحقق بمرتبة التوحيد وتمكن عليها بلا ترددٍ وتلوينٍ أن عموم مراتب الأنبياء والرسل ومشارب الأولياء المتابعين لهم، المقتفين أثرهم إنما هي على صرافة الوحدة الذاتية المسقطة لجميع الكثرات والإضافات، وإنّ ما أنزل الله على سبيل الوحي والإلهام من الكتب والصحف إنما هو لبيان الطرق الموصلة إليها، ولهذا نبّه سبحانه حبيبه على طريق توحيده، بعد ما خاطب بما خاطب متيمناً باسمه العظيم:

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على ما ظهر وبطن بصرافة وحدته الذاتية المحيطة بالكل ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ على جميع الكائنات بإفاضة الوجود الذي هو منبع عموم الكمالات ﴿الرَّحِيمِ﴾ على خواصها وخلاصتها بالإيصال إلى منبع ماء الحياة الذي هو وحدة الذات المسقطة لمطلق الإضافات.

﴿حمٓ ﴿١﴾﴾

﴿عٓسٓقٓ ﴿٢﴾﴾ يا حامل وحي الله وماحي الوجود عن غيره ويا عالم سرائر قدرة الله وعارف سريان سر وحدته الذاتية على قلوب خلّص عباده من الأنبياء

كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ ....

والأولياء ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ما ذكر في هذه السورة من سرائر التوحيد والأخلاق المرضية الإلهية ﴿ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ ﴾ يا أكمل الرسل في كتابك هذا ﴿ وَإِلَى ٱلَّذِينَ ﴾ مضوا ﴿ مِن قَبۡلِكَ ﴾ من الأنبياء والرسل في كتبهم وصحفهم ﴿ ٱللَّهُ ﴾ المتوحد بذاته المحيطُ بعموم مظاهره ومصنوعاته، المستقلُ بأمر الإرسال والإنزال والوحي والإلهام ﴿ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ الغالب في أمره وشأنه.

﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾ المتقنُ في أفعاله وتدبيراته الجارية في ملكه وملكوته، إذ ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ ملكاً وتصرفاً إيجاداً وإعداماً ﴿ وَ ﴾ بالجملة ﴿ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ﴾ المستقل بالعلو في مطلق ملكه وملكوته ﴿ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ في شأنه وأمره، لا علو ولا عظمة إلا له، ولا حول ولا قوة إلا به، ولا حكم ولا حِكمة إلا منه.

ومن كمال عزته وعظمته

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ السبع ﴿ يَتَفَطَّرۡنَ ﴾ بالياء والتاء، أو بالياء والنون معناه على كلتا القراءتين: يتشققن، ﴿ مِن فَوۡقِهِنَّۚ ﴾ أي من فوق السموات أو من فوق الأرضين السبع من كمال خشية الله ورهبته خوفاً من تجليه عليهن باسمه القهار المفني للأغيار مطلقاً ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أيضاً من خشيتهم من كمال غضبه وقهره سبحانه ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ ﴾ تعديداً لنِعَمه إياهم بإفاضة الشعور

وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا

والإدراك على حقوق ربوبيته ومقتضيات ألوهيته، والتمكن والاقتدار على مواظبة عبوديته ومشاهدة آثار سلطنته وعظمته ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ أيضاً بإذنه وبمقتضى أمره ﴿لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ من خلص عباده الموحِّدين المجبولين على صورته، المجعولين لخلافته ونيابته ﴿أَلَا﴾ أي تنبهوا أيها الأظلال المنهمكون في بحر الحيرة والضلال ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الذي أظهركم من كتم العدم، ورباكم بأنواع اللطف والكرم ﴿هُوَ الْغَفُورُ﴾ الستَّارُ لذنوب أنانياتكم، المحّاءُ لآثام هوياتكم إن تبتم وأخلصتم فيها ﴿الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ لكم يقبل توبتكم ويغفر زلتكم، ويوصلكم إلى ما جبلتم لأجله.

ثم قال سبحانه تهديداً على المشركين المتخذين لله المتوحدِ في ذاته، المستقلِ في وجوده أنداداً ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ يوالونهم كولايته سبحانه ويتوجهون نحوهم مثل توجهه، ولا تلتفت يا أكمل الرسل إليهم، ولا تبال بشأنهم إذ ﴿اللَّهُ﴾ المحيط بذواتهم وأفعالهم وصفاتهم ﴿حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ عليمٌ بأعمالهم ونياتهم فيها، ويحاسبهم عليها ويجازيهم بمقتضاها ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾ كفيلٍ يخلصهم عن مفاسد أعمالهم ومقابح أفعالهم، بل ما أنت إلا مبلغٌ ونذيرٌ.

وبعد ما بلَّغتَ[1] وأنذرتَ لم يبق من أمرك شيء ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا﴾ أي

---

(١) في المخطوط (بالغت).

إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ....

ومثل ما أوحينا إلى مَن قبلك من الأنبياء كتباً، أوحينا ﴿إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل أيضاً ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نظماً وأسلوباً ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني أهل مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من أقطار الأرض وأنحائها، كما أنذرَ الأنبياءُ أقوامهم فيما مضى من مطلق الأمور المنافية لسلوك طريق التوحيد وسبيل الهداية والرشاد ﴿وَتُنذِرَ﴾ خاصةً ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ أي الخذلان والحرمان الحاصل لهم يوم الحشر والاجتماع على المحشر والوقوف بين يدي الله، الذي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي في إتيانه ووقوعه، وبعد ما اجتمعوا فيه حيارى سكارى هائمين، يساقون بعد ما يحاسبون[1]، منهم ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ مسرورون مقبولون ﴿وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ محزونون مطرودون.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده وأراد هدايتهم جميعا ﴿لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مقتصدةً معتدلةً على مقتضى صرافة الوحدة الذاتية واعتدالها، ﴿وَلَٰكِن﴾ راعى سبحانه مقتضيات أوصافه وأسمائه المتقابلة وشؤونه المتخالفة لذلك ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ ويوصله إلى فضاء وحدته بمقتضى جوده وحكمته عنايةً منه وفضلاً وولايةً لهم ونصراً ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الخارجون عن مقتضى عناية الله وولايته بمقتضى قهره وانتقامه إياهم إظهاراً لكمال قدرته ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ﴾ يواليهم ويشفع لهم عنده سبحانه ﴿وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾ ينقذهم من عذابه، فظهر أن

(١) في المخطوط (يساق بعدما يحاسب).

أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ ....

لا ولاية ولا نصرة إلا لله، ولا غالب إلا هو، وإن زعموا آلهة سواه.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ ﴾ أي بل اتبتوا ﴿ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ سبحانه ﴿ أَوْلِيَآءَ ﴾ واعتقدوهم شركاء له سبحانه أو شفعاء لهم عندهم، لا تنفعهم موالاتهم واتخاذهم بل تضرهم وتغويهم[1] ﴿ فَٱللَّهُ ﴾ المستقل بالألوهية والربوبية ﴿ هُوَ ٱلْوَلِىُّ ﴾ المقصور على الولاية لا وليَّ في الوجود سواه ﴿ وَهُوَ ﴾ بكمال قدرته ﴿ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ ويميت الأحياء بالإرادة والاختيار، لا فاعل في الوجود إلا هو ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿هُوَ﴾ باستقلاله واختياره ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من مقدوراته ومراداته ﴿ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ ﴾ بلا فتورٍ وقصورٍ.

﴿وَ﴾ بعد ما ثبت أن الولاية والقدرة منحصرةٌ لله، لا فاعل في الوجود سواه، فاعلموا أيها المكلفون بسلوك طريق الحق وتوحيده أن ﴿ مَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ ﴾ أي من شعائر الدين ومعالم التوحيد واليقين واختلافكم فيه، إذ هل هو مفيدٌ لكم في سلوككم، أم مفسدٌ له ﴿ فَحُكْمُهُۥٓ ﴾ مفوضٌ ﴿ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ وأمره موكول إلى كتبه ورسله، فعليكم التعبد والامتثال بما أُمرتم به ونُهيتم عنه على ألسنة الرسل والكتب، إذ لا مدبر لأموركم سواه ولا متصرف في الوجود إلا هو ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ الذي سمعتم وصفه واستقلاله في ملكه وملكوته ﴿ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ وربُكم فاعبدوه حق عبادته، وفوضوا أموركم كلها إليه، وإن خوفتموني بغيره مع أنه لا غير في الوجود معه، فأنا ﴿عَلَيْهِ﴾ لا على غيره من الوسائل

(١) في المخطوط (لا ينفعهم بل يضرهم ويغويهم).

تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ....

والأسباب العادية ﴿ تَوَكَّلْتُ ﴾ واتخذته وكيلاً، يدفع عني مؤنة جميع من عاداني ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ لا إلى الوسائط ﴿ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴾ وأرجع في مطلق الملمات والخطوب.

وكيف لا أتوكل عليه ولا أنيب، إذ هو بذاته حسب شؤونه وتطوراته:

﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ومظهرهُا من كتم العدم، ومدبرُ ما يتكون بينهما من الطبائع والهيولى وصور المواليد، ومن جملة تدبيراته سبحانه أنه ﴿جَعَلَ ﴾ وخلق ﴿ لَكُم ﴾ أيها المجبولون على فطرة التوحيد إبقاءً لتناسلكم وتوالدكم ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ ومن بني نوعكم ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ أيضاً من جنسكم وصنفكم، إبقاءً لكم وإدامةً لبقائكم ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ ﴾ أيضاً ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ تربيةً لكم وتتميماً لمعاشكم، وبالجملة ﴿ يَذْرَؤُكُمْ ﴾ يبثكم ويكثّركم ﴿ فِيهِ ﴾ أي في عالم الظهور ونشأة الشهادة بهذا التدبير البديع، لتعلموا أو تعرفوا أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ ﴾ أي ليس مثله سبحانه ﴿ شَيْءٌ ﴾ يناسبه في الوجود ويماثله في التحقق والثبوت، والمراد يقينا بالمثل المنفي هو ذاته أي لا يماثله ذاته، فكيف غيره، من قولهم: مثلك لا يبخل، بمعنى: أنت لا تبخل، والمراد: نفي التعدد عنه سبحانه مطلقاً على سبيل المبالغة والتأكيد، فثبت حينئذ أن لا موجود سواه، ولا تحقق لغيره ﴿وَ﴾ متى ثبت هذا ظهر أنه ﴿ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ أي

لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ

هو بذاته المنحصر على صفة السمع والبصر وجميع الأوصاف الذاتية الكاملة الشاملة آثارها عالمي الغيب والشهادة. إذ

﴿لَهُۥ﴾ لا لغيره من الوسائل والأسباب العادية الظاهرة في أظلال المظاهر والمجالي ﴿مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مفاتيح خزائن العلويات من الأسماء والصفات، والسفليات من مظاهر الطبائع والمرايا العدمية القابلة لانعكاس شمس الذات من مشكاة الأسماء والصفات، هو بذاته ﴿يَبْسُطُ﴾ ويقبض ﴿ٱلرِّزْقَ﴾ الصوري والمعنوي ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من أظلاله وعكوسه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويقبض عمن يشاء منهم، وبالجملة ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه بذاته حسب أسمائه وصفاته ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ دخل تحت ظل وجوده بمقتضى فضله وجوده ﴿عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ بعلمه الحضوري، لا يعزب عن حضوره شيء مما ظهر وبطن، وغاب وشهد.

ومن كمال استقلاله في تدابير ملكه وملكوته وحيطة علمه وشمول قدرته:

﴿۞ شَرَعَ﴾ أي قضى ووضع ﴿لَكُم﴾ أيها الأظلال المنهمكون في بحر الحيرة والضلال ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ القويم والطريق المستقيم الموصل إلى توحيده ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ أي ديناً شرعه سبحانه ووضعه على نوح، إذ هو أول من ظهر على نشأة التدين والتشريع في طريق التوحيد، وهو الدين الموصل إلى توحيد الأفعال ﴿وَ﴾ الدين ﴿ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل من كمال جودنا هو

وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ....

الدين الموصِل إلى توحيد الذات، لذلك ختم ببعثتك أمر الرسالة والتشريع.

وبعد ما عين سبحانه مبدأ التوحيد ومنتهاه، أشار إلى ما بينهما من المراتب، فقال: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ أي والأديان التي وضعناها على هؤلاء المشاهير وغيرهم من جماهير الأنبياء والرسل المتشرعة وغير المتشرعة هو الموصل إلى توحيد الصفات، وبالجملة وصينا لعموم ذوي الأديان ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ المنزل إليهم واستقيموا في الإطاعة والامتثال به ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ أي لا تختلفوا في أصل الدين الذي هو التوحيد الإلهي، وإن كانت الطرق والأديان والمناهج نحوه مختلفةٌ باختلاف ذوي المراتب المترتبة اختلافاتهم إلى شؤون الحق وتجلياته، فلك يا أكمل الرسل أن تدعو الناس إلى توحيد الحق، وإن كان ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي شقَّ وعظم عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ﴾ أي دعوتك إياهم ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى التوحيد الذاتي، إذ لم يعهد هذا من غيرك من الأنبياء والرسل الماضين، لذلك شق عليهم حسداً وغيظاً، فكيف يحسدون ويغيظون لك ولشأنك، إذ ﴿ٱللَّهُ﴾ العليم الحكيم المطّلع على استعدادات العباد وقابلياتهم ﴿يَجْتَبِىٓ﴾ أي يختار ويجذب ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى توحيده الذاتي ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من المجبولين على فطرة التوحيد، ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ﴾ ويوفق عليه ويرشد نحوه ﴿مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ إليه سبحانه إنابةً صادرةً

وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ ....

عن محض الإخلاص والتبتل والتفويض والتوكل.

﴿وَ﴾ بعد ما ثبت أن أصل الأديان كلها هو التوحيد وأن الأنبياء والرسل إنما جاؤوا لإظهاره وتبيينه، ظهر أن الأمم الهالكة ﴿مَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ واختلفوا من مذاهبهم ومشاربهم ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ أي الوحيُ المشتمل على بيان التوحيد من قبل الحق على ألسنة الكتب والرسل، فتركوا مقتضى الوحي، وأنكروا عليه فاختلفوا ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي عدواناً وظلماً وإعراضاً عن الحق وأهله، وما ظهر بينهم هذا إلا مراءً وافتراءً، ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل وهي إمهال انتقامهم وتأخيره ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ هو يوم القيامة ﴿لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ وحُكم عليهم حين اختلافهم وتفرقِّهم إليه، فاستؤصلوا فيه بالمرة ﴿وَإِنَّ﴾ المختلفين المتفرقين ﴿ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ المنزلَ على أسلافهم ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي بعد انقراض أسلافهم ﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ﴾ أي من الكتاب أمثال أولئك الأسلاف الضُّلال ﴿مُرِيبٖ ﴿١٤﴾﴾ موقعٍ لهم في الريب والضلال، لذلك اختلفوا معك يا أكمل الرسل وأنكروا على كتابك ودينك، ولو كان لهم علمٌ بكتابهم ما ظهروا عليك وما طعنوا في دينك وكتابك، إذ الإيمان بكتابٍ من كتب الله، ودينٍ من أديانه، ورسولٍ من رسله يوجب الإيمان بجميع الكتب والرسل بناءً على الأصل الذي سمعتَ من التوحيد ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾

﴿فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ ....﴾

الأصل الذي هو التوحيد الذاتي المسقط لعموم الإضافات والاختلافات ﴿فَادْعُ﴾ يا أكمل الرسل كلَّ من تدعوه من المجبولين على فطرة التوحيد والإسلام ﴿وَاسْتَقِمْ﴾ أنتَ في نفسك على جادة التوحيد، ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ من قِبل ربك، ومكّن إقدام عزمك عليها معتدلاً حنيفاً مائلاً عن كِلا طرفي الإفراط والتفريط ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي أهوية أصحاب الخلاف والاختلاف الضالين المترددين في أودية الجهالات وأغوار الخيالات المنافية لصفاء مشرب التوحيد ﴿وَقُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعد صفاء سرك وخلاء خلدك عن الأكدار الموجبة للاختلاف: ﴿آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي بجميع ما أنزل الله ﴿مِنْ كِتَابٍ﴾ مبينٍ موضح لطريق الحق وتوحيده ﴿وَ﴾ قل بعد ذلك أيضاً إظهاراً لدعوتك إياهم: ﴿أُمِرْتُ﴾ من قِبل ربي ﴿لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ وأبينَ لكم طريق العدالة الإلهية بمقتضى وحي الله وإلهامه إياي، فأنا مأمورٌ بتبليغه وتبيينه إياكم وتربيتكم وتكميلكم، إذ ﴿اللَّهُ﴾ المدبرُ لأمور عموم عباده ﴿رَبُّنَا﴾ الذي ربانا للإرشاد والتكميل ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ أراد أن يربيكم بالهداية والرشاد، وإن لم نكن مأمورين من عنده سبحانه لإهدائكم وإرشادكم ما لنا معكم، إذ ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ أي جزاء صالحها وفاسدها ﴿وَلَكُمْ﴾ أيضاً ﴿أَعْمَالُكُمْ﴾ كذلك، إذ كلٌ منا ومنكم مجزيٌ بما عمل ﴿لَا حُجَّةَ﴾ أي لا نزاع ولا خصومة

بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ ....

﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ بعدما بلّغناكم ما أُمرنا بتبليغه، وأوضحنا لكم طريق الحق، وبالجملة ﴿ٱللَّهُ﴾ أي الذات المستجمع لجميع الأسماء والصفات ﴿ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ وبينكم، إن تعلق مشيئته بجمعنا ﴿وَ﴾ كيف لا يجمع بيننا سبحانه ﴿ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ أي رجوع الكل إليه كما هو صدوره منه.

﴿وَ﴾ بعد وضوح محجة الحق ومنهج اليقين ﴿ ٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ ﴾ يجادلون ويخاصمون، متشبثين بأذيال الجدل والمغالطات الواهية الزائفة ﴿ فِى ﴾ توحيد ﴿ ٱللَّهِ ﴾ سيما ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ ﴾ أي قَبِلَه العقلُ والنقل والكشفُ الصريح والذوقُ الصحيح ﴿ حُجَّتُهُمْ ﴾ التي تمسكوا بها ﴿ دَاحِضَةٌ ﴾ زائلةٌ باطلةٌ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ الذي رباهم لمصلحة المعرفة والتوحيد ﴿ وَعَلَيْهِمْ ﴾ بسبب عنادهم وجدالهم بالحق الصريح ﴿غَضَبٌ ﴾ نازلٌ من الله ﴿وَلَهُمْ ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ لا عذاب أشد منه وأفزع.

فكيف يحاجون أولئك المعاندون في توحيده سبحانه؟ مع أنه هو

﴿ ٱللَّهُ ﴾ المدبرُ المصلحُ لأمور عباده ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ﴾ لإصلاحهم ﴿ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ أي جنس الكتب النازلة من عنده لتبيين مناهج توحيده ملتبساً ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ الصريح المعرى عن الباطل الزاهق الزائل مطلقاً ﴿وَ﴾ أنزل على طبق الكتاب ﴿ ٱلْمِيزَانَ ﴾ أي جنس الشرائع والأديان التي توزن بها أعمال

وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ....

الأنام وإخلاصهم فيها وثباتهم على جادة التوحيد والإسلام، فعليك يا أكمل الرسل وعلى من تبعك امتثالُ عموم ما أمر ونهى من أحكام كتابك، وأن تزن[1] أنت ومن معك أعمالكم وأخلاقكم وأحوالكم بميزان الشرع القديم والدين المستقيم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا يُدۡرِيكَ﴾ أيها المجبول على الدراية والشعور ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ الموعودة التي تعذرت دونها التدارك والتلافي ﴿قَرِيبٞ ﴿١٧﴾﴾ إتيانها وقيامها، وعند قيامها تتندمون وما ينفعكم الندم.

﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا﴾ وبقيامها استهزاءً وتهكماً ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ ولا يصدّقون ﴿بِهَاۖ﴾ عناداً ومكابرةً، ويزعمون ألا يلحقهم ما يوعدون فيها من العذاب الروحاني والجسماني ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بها وبما فيها من المواعيد والوعيدات الهائلة هم ﴿مُشۡفِقُونَ﴾ خائفون ﴿مِنۡهَا﴾ ومن إلمامها بغتةً قبل تهيئة الإعداد والزاد ﴿وَ﴾ ذلك لأنهم ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ يقيناً ﴿أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾ المحققُ إتيانها وقيامها بلا ريب ومرية ﴿أَلَآ﴾ أي تنبهوا أيها المؤمنون بكمال قدرة الله ووفور حكمته ﴿إِنَّ﴾ المسرفين المكابرين ﴿ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ﴾ ويشكّون ﴿فِي﴾ قيام ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ الموعودة قيامها من قِبل الحق مراءً ومجادلةً ﴿لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ بمراحلَ عن الهداية الموصلة إلى مقر التوحيد، إذ هم محجوبون بالأغشية الكثيفة الإمكانية، والأغطية الغليظة الهيولانية، مع أنه

(١) في المخطوط (توزن).

ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ....

﴿ ٱللَّهُ ﴾ المنزهُ ذاته عن سمة الحدوث والإمكان، المقدسُ أسماؤه وصفاته عن وصمة العيب والنقصان ﴿ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ الخلّص ﴿ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ ﴾ منهم بالرزق المعنوي، الموصلِ إلى مبدئهم ومعادهم ترحماً وتلطفاً معهم ﴿ وَ﴾ كيف لا ﴿ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ﴾ القادر المقتدر على عموم مقدوراته الصادرة منه بمقتضى حكمته ﴿ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ الغالب على مطلق مراداته الجارية منه حسب اختياره.

ثم لما أشار سبحانه إلى كمال تنزهه وتقدس ذاته عن وصمة النقصان مطلقاً، وإلى كمال ترحّمه وتلطفه مع خلص عباده قال:

﴿ مَن كَانَ ﴾ منهم ﴿ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ أي يزرع في النشأة الأولى بذور الأعمال الصالحة والأخلاق الحميدة، ليحصد ما يترتب عليها من المثوبات والكرامات في النشأة الأخرى ﴿ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ ﴾ ونضاعف ثوابها لأجله، ونعطه من اللذات الروحانية ما لا مزيد عليه تفضلاً منا وتكريماً ﴿وَمَن كَانَ ﴾ منهم ﴿ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ ونوى نماء بذوره فيها ﴿ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ ولذاتها الباقية ﴿ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ لاختياره لذات الدنيا وشهواتها الفانية على ما في الآخرة من اللذات الروحانية، لذلك ما له حظ في الآخرة ونصيب من لذاتها.

أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ

أهم بأنفسهم يحرمون نفوسهم من اللذات الأخروية والفتوحات الروحانية؟

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ﴾ من شياطين الجن والإنس ظاهروهم عليه، حيث ﴿شَرَعُواْ﴾ وزينوا ﴿لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ الباطل والديدنة الزائغة ﴿مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ الحكيم المتقِن في أفعاله، المدبر لعموم مصالح عباده على مقتضى حكمته، ولم يأمر بوضعه واتخاذه لا بالوحي ولا بطريق الإلهام، بل إنما أخذوا ما أخذوا من تلقاء أنفسهم، وعلى مقتضى أهويتهم الباطلة، لذلك لم يتم لهم إلا الخيبة والخذلان والحسرة والحرمان، ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ والقضاء صادرةٌ من الله بتأخير أخذهم لِظُلْمهم وإمهالِ انتقامهم إلى يوم الجزاء ﴿لَقُضِيَ﴾ وحُكم اليوم ﴿بَيْنَهُمْۗ﴾ أي بين أهل الهداية والضلال، فيلحق لكل منهم جزاء ما اقترفوا من الحسنات والسيئات ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى الحدود الإلهية ومتابعة آرائهم وإخوانهم من الشياطين ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ في النشأة الأخرى، وهو حرمانهم عما أُعد لنوع الإنسان المصوَّر على صورة الرحمن من الكرامات السَّنية والمقامات العلية، لا عذابَ أشدَّ منه وأفزع.

ومن كمال حرمانهم وخسرانهم أنهم حينئذٍ

﴿تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى الحدود عدواناً

مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ۖ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۗ

وظلماً ﴿ مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين مرعوبين ﴿ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ أي من لحوق وبال ما اكتسبوا من الآثام والمعاصي ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿ هُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ لاحقٌ لهم، وما ينفعهم الإشفاق وعدمه؛ لانقضاء نشأة التدارك والتلافي.

ثم قال سبحانه على مقتضى سُنَّتِه السَّنية المستمرة:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي وترى أيضاً أيها الرائي المؤمنين الذين آمنوا بوحدة الحق حين أخبرهم الرسل ودعاهم إليه حسب استعداداتهم الفطرية وقابلياتهم الجبلية ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي وأكَّدوا إيمانهم وتوحيدهم بصالحات أعمالهم وأخلاقهم ؛ ليدل على توحيد الأفعال والصفات أيضاً، هم في النشأة الأخرى لكمال إطاعتهم وانقيادهم متنعمون ﴿ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ﴾ أي منتزهات اليقين العلمي والحقي والعيني، ومع ذلك حاصلٌ حاضرٌ ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ ﴾ من اللذات المتجددة والفيوضات المترادفة من الفتوحات وأنواع الكرامات ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ الذي أوصلهم إلى كنف قربه وجواره ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذي أُعدَّ لأرباب العناية والتوحيد ﴿ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾ والفوز العظيم الذي يستحقر دونه عموم اللذات والكرامات.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من الفضل والفوز هو ﴿الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ﴾ المنعمُ المفضلُ به ﴿ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بوحدة ذاته ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ المفضية الموصلة

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ....

لهم إلى توحيد أفعاله وصفاته ﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل بعد ما بينت لهم طريقيْ الهداية والضلال، وبلّغت ما يوصل بوحي إليك للإرشاد والتكميل إياهم: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ أي على تبليغي وتبشيري إياكم ﴿عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ جُعلاً منكم ونفعاً دنيوياً ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي ما أطلب منكم نفعاً دنيوياً، بل أطلب منكم محبة أهل بيتي ومودتهم، ليدوم لكم طريق الاستفادة والاسترشاد منهم، إذ هم مجبولون على فطرة التوحيد الذاتي مثلي.

روي أنها لما نزلت، قيل يا رسول الله ﷺ: من قرابتك ؟ قال: «عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَأَبْنَاؤُهُمَا»[١].

وكفاك شاهداً على ذلك ظهور الأئمة [في نسخةٍ زيادة: الاثنا عشر][٢] الذين هم أكابر أولي العزائم في طريق الحق وتوحيده صلوات الله على أسلافهم وسلامه عليهم وعلى أخلافهم، ما تناسلوا بطناً بعد بطنٍ. ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ﴾ ويكتسب متابعة الرسول وأهل بيته ﴿حَسَنَةً﴾ دينيةً حقيقةً ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا﴾ أي في ما يترتب عليها من الكرامات الأخروية ﴿حُسْنًا﴾ أي زيادةَ حسنٍ تفضلاً منا وإحساناً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ونياتهم ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوب من

---

(١) في التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول برقم: ٣٧٠٥٣: عن ابن عباس رضي الله عنهما، بلفظ: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير من رواية حرب بن الحسن الطحان عن حسين الأشقر عن قيس بن الربيع، وقد وثقوا كلهم وضعفهم جماعة وبقية رجاله ثقات. الكتاب المصدر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٧/ ٢٢٨.

(٢) في المخطوط (الاثنى عشر).

شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ....

أحب أهل بيت حبيبه لرضاه سبحانه ﴿شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ يوفي عليهم الثواب، ويوفّر عليهم أنواع الكرامات.

أينكرون مطلق رتبة النبوة والرسالة ؟! أولئك المنكرون المعاندون ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ﴾ محمدٌ ﷺ ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ واختلق آياتٍ مفترياتٍ ترويجاً لمدّعاه، وما قولهم هذا وزعمهم بك يا أكمل الرسل بأمثاله إلا قول باطلٌ، وزعمٌ زاهقٌ زائغٌ ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ﴾ الغني بذاته عن عموم مظاهره ومصنوعاته ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ كما ختم على قلوبهم، ويضلك عن طريق توحيده مثل ما أضلهم ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿يَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ لو تعلق مشيئته ﴿وَيُحِقُّ﴾ ويثبت ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الحقيق بالإطاعة والاتباع ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ التي هي آيات القرآن بلا سفارتك ورسالتك، وبالجملة ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌۢ﴾ يعلمه بعلمه الحضوري ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ فيُظهر عليهم ما هو مكنونٌ في صدورهم وضمائرهم، ويجازيهم بمقتضاه.

﴿وَ﴾كيف لا يعلم سبحانه بمكنونات صدورهم ﴿هُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾ الصادرةَ عن محض الندم والإخلاص اللذين هما من أفعال القلوب ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ المسترجعين نحوه بكمال الخشية والخضوع ﴿وَ﴾ بعد قبول التوبة عنهم ﴿يَعْفُوا۟﴾ ويتجاوز ﴿عَنِ﴾ مطلق ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الصادرة عنهم على سبيل الغفلة ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿يَعْلَمُ﴾ منكم جميع ﴿مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ بظواهركم

وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ ....

وبواطنكم ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ﴾ أي بحيث يقبل توبةَ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ترحماً لهم وإشفاقاً، بعد ما رجعوا نحوه تائبين نادمين عما فعلوا ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ ﴾ بدل إخلاصهم واستحيائهم منه سبحانه من الكرامات ما لا يكتنه وصفه ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ الساترون بأباطيل هوياتهم وما صدر منها من الجرائم والآثام شمسَ الحق الحقيق بالكشف والظهور ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ حين رجعوا إلى الله، وحُشروا نحوه مهانين صاغرين.

وبالجملة كفرُ عموم الكفرة واستكبارُهم وضلالهُم إنما نشأ من كفرانهم بنعم الله وطغيانهم لأجلها على الله وعلى خلَّص عباده، كما أشار إليه سبحانه بقوله:

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ ﴾ الصوريَ المستجلبَ المستتبعَ لأنواع العتو والاستكبار ﴿ لِعِبَادِهِۦ ﴾ المجبولين على الكفران والنسيان بمقتضى بشريتهم وبهيميتهم ﴿ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بغياً فاحشاً واستكبروا على عباد الله، وظهروا على أوليائه، ومشوا على وجه الأرض خيلاء مفتخرين بمالَهُم من الجاه والثروة والرئاسة، فسرى بغيهم واستكبارهم على الله وعلى أنبيائه ورسله، فكفروا لذلك ظلماً وعدواناً ﴿ وَلَٰكِن ﴾ جرت سنته سبحانه واقتضت حكمته على أنه ﴿ يُنَزِّلُ ﴾ ويفيض ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ أي مقداراً، وتقديرَ ﴿ مَّا يَشَآءُ ۚ ﴾ على من

إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ....

يشاء بمقتضى حكمته ومشيئته، وبالجملة ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ أي باستعداداتهم وعموم أحوالهم ﴿خَبِيرُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ يعلم منه ما خفي عليهم وما ظهر دونهم.

﴿وَ﴾ كيف لا يعلم سبحانه سرائر عباده وضمائرهم ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ بمقتضى علمه وحكمته ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ وآيسوا من نزوله ﴿وَ﴾ بتنزيله وإمطاره ﴿يَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ الواسعةَ على جميع أقطار الأرض وأرجائها عنايةً منه سبحانه إلى سكانها من أجناس المواليد وأنواعها وأصنافها ﴿وَ﴾ كيف لا يرحم سبحانه على مظاهره، إذ ﴿هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ المولي لعموم أمورهم المنحصرةِ على ولايتهم، إذ لا ولاية إلا له ﴿ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ المستحق لجميع المحامد بذاته، إذ عموم المظاهر وذرائرُ الأكوان حامدةٌ له سبحانه طوعاً ورغبةً، حالاً ومقالاً.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على كمال ولايته وتدبيره وتربيته ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي إظهار الكائنات العلوية والسفلية بامتداد أظلال أسمائه وصفاته ﴿وَمَا بَثَّ﴾ وبسط ﴿فِيهِمَا﴾ وركّب منهما ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ ذي حياةٍ وحركةٍ ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ أي جمع الأظلال والعكوس إلى شمس الذات وقبضهم عليها بعد بثهم وبسطهم منها ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾ ويريدُ ﴿قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ بلا فترةٍ وتقصيرٍ.

وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ (٣٠) وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ (٣١) وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ (٣٢) إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ ....

﴿وَ﴾ اعلموا أيها الأظلال الهالكة في أنفسها ﴿مَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ مضرةٍ مؤلمةٍ ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ أي بسبب اقترافكم المعاصي والآثام ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَعۡفُواْ﴾ سبحانه ﴿عَن كَثِيرٖ (٣٠)﴾ من المعاصي، لا يعقِّبها بمصيبةٍ تخفيفاً لكم وتسهيلاً.

﴿وَ﴾ لو أراد سبحانه تعقيبَ كل معصيةٍ بمصيبةٍ ﴿مَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ له ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي ليس لكم أن تفوتوا شيئاً مما قضى سبحانه عليكم من المصائب المستتبعة لجرائمكم وآثامكم إن شاء ﴿وَ﴾ الحال أنكم عاجزون في أنفسكم مقهورون تحت قبضة قدرته، إذ ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ﴾ يولي أموركم ويحفظكم منها ﴿وَلَا نَصِيرٖ (٣١)﴾ ينصركم ويدفع عنكم ما يؤذيكم ويعينكم على مبتغاكم.

﴿وَ﴾ أيضاً ﴿مِنۡ ءَايَٰتِهِ﴾ الدالة على ولايته الكاملة وتدبيراته الشاملة ﴿ٱلۡجَوَارِ﴾ أي السفن الجارية ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ (٣٢)﴾ أي كالجبال الرواسي في العظمة والثقل.

﴿إِن يَشَأۡ﴾ سبحانه ﴿يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ المجرية لهن ﴿فَيَظۡلَلۡنَ﴾ ويبقين تلك السفن حينئذٍ ﴿رَوَاكِدَ﴾ سواكن ﴿عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ﴾ أي ظهر البحر ولُججه، فضاع جميع من فيها وما فيها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإجراء والإرسال ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ دلائلَ

لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٤﴾ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ....

واضحاتٍ على تولية الحق وتدبيره ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾ حبسَ نفسَه في مقام الرضا بما قَسم له ربُّه ﴿شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ بما ظهر عليه من آلائه ونعمائه.

﴿أَوۡ﴾ إن يشأ يرسلهن إرسالاً عنيفاً بالرياح العاصفة حتى ﴿يُوبِقۡهُنَّ﴾ أي يُغرقهن ويهلك بعضَ من فيهن ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ أي بشؤم أعمالهم التي اقترفوها من البخل والحسد والحرص المفرط والأمل الطويل، وغير ذلك من الأخلاق المذمومة ﴿وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٤﴾﴾، أي ومع ذلك يتجاوز سبحانه عن إهلاك أكثرهم، وينجيهم[1] من ورطة الهلاك بحُسن أعمالهم وخلوص نياتهم تفضلاً منه سبحانه إياهم وتكريماً لهم.

كل ذلك ليختبر سبحانه عباده، وينتقم عنهم، ويميِّز منهم أهل الرضا والتسليم عن غيرهم.

﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ أي وليعلم المجادلون المكابرون ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ ومقتضياتها عناداً وعدواناً ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٣٥﴾﴾ مهربٍ ومخلَصٍ من عذابنا إن تعلقت إرادتنا بانتقامهم وإهلاكهم.

وإن استظهر أهل الجدال بالأموال والأولاد واستكبروا بها وافتخروا عليها، قل لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا:

﴿فَمَآ أُوتِيتُم﴾ وأُعطيتم ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾ حقيرٍ قليلٍ، ما هي إلا من حطام الدنيا ومتاعها ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ فانيةٌ بفنائها، تتمتعون بها فيها مدةً يسيرة، ثم

---

(١) في المخطوط (وينجوهم).

وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ

تمضون مع حسرةٍ كثيرةٍ وندامةٍ طويلةٍ ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من اللذات الروحانية والكرامات المعنوية ﴿خَيْرٌ﴾ من الدنيا وما فيها، بل من آلافها وأضعافها ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أقدمُ وأدومُ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بوحدة الحق وانكشفوا بكمالات أسمائه وأوصافه، وتحققوا بشهود شؤونه وتجلياته ﴿وَ﴾ هم بعد ما تمكنوا في مقام الرضا والتسليم، وتوطنوا في أعظم سواد الفقر، وأعلى درجات عالم اللاهوت ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لا على غيره من الوسائل والأسباب العادية ﴿يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ يفوِّضون أمورهم ويسلمون، غاضّين عيون بصائرهم وأبصارهم عن الالتفات إلى ما سوى الحق مطلقاً، لذلك ما يرون بنوره من مرايا مظاهره ومجاليه إلا لمعات وجهه الكريم.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ وهي الآثام والجرائم المؤدية إلى الشرك الجلي والخفي ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ أي الصغائرَ المنتهية إلى الكبائر بالرسوخ والإصرار ﴿وَ﴾ أيضاً من جملة أخلاق هؤلاء المؤمنين المحسنين ﴿إِذَا مَا غَضِبُوا۟﴾ من مكروهٍ ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ يبادرون إلى العفو والستر وكظم الغيظ وإصلاح البين وإخراج الغلّ والحقد عن نفوسهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾ أي أجابوا وقَبِلوا دعوة من دعاهم إلى الطاعات والعبادات ومطلق الخيرات والحسنات لا لغرضٍ دنيويٍ بل ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ طلباً

وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ....

لمرضاته وهرباً عن سخطه وانتقاماته ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أداموا الميل والرجوع إلى الله في جميع حالاتهم ﴿وَأَمْرُهُمْ﴾ أي عموم أمورهم المتعلقة لمعاشهم ومعادهم ﴿شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي هم متشاورن فيها مع إخوانهم بلا استبدادهم لهم فيها برأيهم ولا انفرادٍ بعقلهم ﴿وَ﴾ من معظم أخلاقهم أنهم ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أي أبحنا لهم وأضفنا إليهم من الرزق الصوري ﴿يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ في سبيلنا للفقراء والمساكين، طالبين منا مرضاتنا ومثوباتنا.

﴿وَ﴾ من جملة أخلاقهم وأجلِّها أنهم هم ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ﴾ ولإخوانهم في الدين ﴿ٱلْبَغْيُ﴾ والعدوان من بغيِ باغٍ ظالمٍ وعدوٍّ عادٍ ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ يبادرون إلى الغلبة والانتصار غيرةً على الله وحميةً لحمى حدوده الموضوعة على مقتضى العدالة القويمة الإلهية عن الظلم والعدوان، وإظهاراً لما أودع الحق فيهم من فضيلة خصلة الشجاعة المحمودة عند الله، وعند عموم أرباب المروءة من الأنبياء والأولياء، إذ كِلا طرفيها، وهما الجبن والتهور، مذمومان عقلاً وشرعاً، والشجاعةُ المقتصدة بينهما محمودةٌ جداً.

ثم قال سبحانه تعليماً لعباده طريق هدايته ورشاده:

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ﴾ أصابتك من أحدٍ من بني نوعك ﴿سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ لا أزْيدَ منها، أي إذا أساءك أحدٌ بسيئةٍ، فأنت أيها المكلف تسيئه بمثلها جزاءً وعقوبةً، سمى الجزاء سيئةً للازدواج والمشاكلة، هذا بحسب الرخصة الشرعية، وأما

فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ

بحسب العزيمة ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ وتجاوز عن الجاني والمسيء خالصاً لوجه الله وطلباً لمرضاته ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالصلح والإحسان ما أفسده بالجناية والإساءة ﴿فَأَجْرُهُۥ﴾ قد وقع ﴿عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ وجزاؤه مفوض إلى كرمه يجازيه بمقتضى فضله وجوده ما شاء الله، وبالجملة ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه بمقتضى عدالته الذاتية ﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ المجاوزين عن الحدود الإلهية سيما في العقوبات والجنايات.

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ﴾ وغَلب على الظالم ﴿بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أي بعد ما ظُلم منه منتقماً عليه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنتصرون المنتقمون ﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ بالمعاتبة والمعاقبة ؛ لأنهم منتقمون بالرخصة الشرعية. بل

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ بهما ﴿عَلَى﴾ المسرفين ﴿ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي يبتدئون بالظلم، ويظهرون بينهم بالعدوان والطغيان ﴿وَيَبْغُونَ﴾ أي يطلبون بظلمهم فساداً ﴿فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ﴾ بلا رخصةٍ شرعيةٍ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء المجاوزون عن الحدود الشرعية ﴿لَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ هو إحراقهم بنار القطيعة، لا عذاب أشدَّ منه وأفزع.

﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ من المظلومين ولم ينتصر ولم ينتقم من الظالم، كظماً وهضماً ﴿وَغَفَرَ﴾ أي عفا عنه وتجاوز مسترجعاً إلى الله، طالباً الأجر منه

إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ ....

سبحانه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ العفوَ والصفح عند القدرة ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ أي من الأمور التي آثرها أولوا العزائم الصحيحة من أرباب العناية، وهم الذين يرون من الله جميع ما يرون منحةً أو محنةً، ويوطّنون نفوسهم على الرضا بما جرى عليهم من القضاء.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ بمقتضى قهره وجلاله ويغويه عن طريق توحيده ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ﴾ سواه ينصره ويدفع عنه ما يخذله ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ أي من بعد خذلان الله إياه ﴿وَ﴾ بعدما ردهم سبحانه إلى دار الانتقام بأنواع الخيبة والخسران ﴿تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المغرورين بما هم عليهم من الجاه والثروة والمفاخرة بالأموال والأولاد في دار الدنيا ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ النازلَ عليهم المحيطَ بهم من جميع جوانبهم ﴿يَقُولُونَ﴾ حينئذ أي بعضهم لبعضٍ من شدة اضطرابهم واضطراهم: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ﴾ رجعةٍ إلى الدنيا وعودٍ إليها ﴿مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾ حتى نعود ونستعد ليومنا هذا.

﴿وَ﴾ هم في هواجس أنفسهم يتكلمون بهذا الكلام تحسراً وتضجراً ﴿تَرَىٰهُمْ﴾ أيها الرائي حين ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي على النار ﴿خَٰشِعِينَ﴾ خاضعين ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ والصَّغار المفرط[1] الشامل لهم ﴿يَنظُرُونَ﴾ نحو النار ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ﴾ أي بنظرةٍ خفيةٍ من تحت الأهداب بلا تحريك الأجفان من

---

(١) في المخطوط (للفرط).

وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ....

كمال رعبهم وخشيتهم منها، كنظر من يؤمَر بقتله إلى سيف الجلاد.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ حين رأوا أعداءهم معذَّبين: ﴿ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ المسرفين المفسدين ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ بالظلم والضلال ﴿ وَأَهْلِيهِمْ ﴾ بالصدّ والإضلال ؛ لذلك استحقوا العذاب المخلَّد ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ والنكال المؤبد فيها ﴿ أَلَآ ﴾ أي تنبهوا أيها الأظلال المستظلون تحت لواء العدالة الإلهية ﴿ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الخارجين عن مقتضاها بإغواء الغوائل الإمكانية والتسويلات الشيطانية ﴿ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ وعقاب دائم أليم.

﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ وينقذونهم من عذابه والحال أنه قد أضلهم الله بمقتضى قهره وجلاله ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ المنتقم الغيور ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ إلى الهداية والنجاة، من وبال ما يترتب على الغَي والضلال. وبالجملة

﴿ ٱسْتَجِيبُواْ ﴾ أيها المكلفون بالإجابة والقبول ﴿ لِرَبِّكُم ﴾ الذي رباكم على فطرة التوحيد، وتوجَّهوا نحوه مخلصين، وأجيبوا داعيه محمداً ﷺ، مصدِّقين ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ ﴾ يحلُّ فيه العذاب عليكم، مع أنه ﴿ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ ﴾ أي لا رفع ولا ردّ للعذاب النازل فيه ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ وبعد ما قضى سبحانه وحكم

مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ....

حتماً ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ سواه، وقد جرى حكمه بتعذيبكم ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ وما يتيسر لكم حينئذ إنكارُ أسباب العذاب وموجباته، إذ تشهد عليكم يومئذ أعضاؤكم وجوارحكم بما اقترفتم بها من الجرائم والآثام.

وبالجملة قل لهم يا أكمل الرسل على سبيل العظة والتذكير أمثالَ هذه المواعظ والتذكيرات نيابةً عنا، فإن امتثلوا وقَبلوا، فقد اهتَدوا.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عنها ولم يلتفتوا إليها عناداً ومكابرةً ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أي فاعلم أنا ما أرسلناك يا أكمل الرسل ﴿عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ يحفظهم عن جميع ما يضرهم ويغويهم، بل ﴿إِنْ عَلَيْكَ﴾ أي ما عليك ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ وقد بلَّغتَ، وبعد تبليغك ما بقي عليك من حسابهم من شيء.

ثم أشار سبحانه إلى وهن عزائم الإنسان وضعف عقائده فقال:

﴿وَإِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ تفضلاً ﴿مِنَّا﴾ بلا سبق استحقاقٍ منه ﴿رَحْمَةً﴾ شاملةً محيطةً بجمع أعضائه وجوارحه ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ وانبسط بحلولها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ حيناً من الأحيان ﴿سَيِّئَةٌ﴾ من السيئات مؤلمةٌ لهم، مع أنها ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بشؤم ما اقترفوا من المعاصي والآثام الجالبة لأنواع المضرات ﴿فَإِنَّ الْإِنسَانَ﴾ حينئذٍ ﴿كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ مسرعٌ إلى الكفران، مبادرٌ إلى النسيان، كأنه لم ير منا الإحسان والإنعام قط.

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ ....

فكيف يكفرون لوفور نعمة الحق وشمول رحمته مع أنه

﴿لِّلَّهِ﴾ المحيطِ بكل المظاهر الموجدِ المظهِرِ لها ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي العلويات والسفليات وما بينهما من الممتزجات لذلك ﴿يَخْلُقُ﴾ ويوجِد ﴿مَا يَشَآءُ ۚ﴾ إرادةً واختياراً حيث ﴿يَهَبُ﴾ بمقتضى جوده وفضله ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده ﴿إِنَٰثًا﴾ محضاً من الأولاد، قدمهن للتدرج من الأدنى إلى الأعلى، ونكّرهم لأن النكارة مطلوبةٌ فيهن ﴿وَيَهَبُ﴾ أيضاً ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ منهم ﴿ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾ الخلص عرَّفهم لأنهم أولى بالتعريف وأجرى بالمعرفة.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ ويخلط لهم ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ﴾ مجتمعين ممتزجين ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ﴾ منهم ﴿عَقِيمًا ۚ﴾ بلا إيلادٍ واستيلادٍ، ذكراً كان أو أنثى إظهاراً لكمال قدرته، وإشعاراً بأنه لا تأثير للوسائل والأسباب العادية حتى ينسب تناسلهم وتوالدهم إلى اجتماع الأزواج والزوجات منهم، كما هو المتبادر إلى الأحلام السخيفة، وبالجملة ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌ﴾ باستعدادات عباده وقابلياتهم ﴿قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ على إفاضة ما ينبغي لمن ينبغي كما ينبغي، بمقتضى كرمه وجوده، إرادةً واختياراً، بلا إيجابٍ والتزام من جانبه سبحانه.

ثم لما شنع اليهود على رسول الله ﷺ وعيّروه وطعنوا في نبوته، مستهزئين

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ ....

معه حيث قالوا له تهكماً: ألا تكلم الله وتنظر إليه لو كانت نبياً، كما كلمه موسى ونظر إليه.

فقال ﷺ: «لَمْ يَنْظُر مُوْسَى إِلَى اللهِ تَعَالَى»، إذ هو سبحانه أجلّ وأعلى من أن تنظر إليه العيون وتدركه الأبصار ومحيط به الآراء والأفكار، أنزل سبحانه هذه الآية تصديقاً لحبيبه ﷺ[1]، فقال:

﴿ ۞ وَمَا كَانَ ﴾ أي ما صح وجاز ﴿ لِبَشَرٍ ﴾ أي لجنسه، ليس في وسعه واستعداده ﴿ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ ﴾ مشافهةً بلا سترةٍ وحجابٍ، إذ لا مناسبة بين المحدود[2] والمحبوس في مضيق الجهات وبين غير المحدود والمستغني عن الحدود والجهات حتى تقع المكالمة بينهما ﴿ إِلَّا وَحْيًا ﴾ أي تكلماً ناشئاً عن وحيٍ إلهاميٍ أو مناميٍ ﴿أَوْ﴾ تكلماً مسموعاً ﴿ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ ﴾ أي وراء تعينٍ من التعينات، كما سمع موسى كلامه سبحانه من وراء حجاب الشجرة، فكذلك يسمع العارف المتحقق بمقام الفناء في الله كلامه سبحانه من وراء تعينات عموم المظاهر الناطقة بتسبيحه سبحانه حالاً ومقالاً ﴿ أَوْ ﴾ تكلماً بالسفارة والترجمان بأن ﴿ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ من سدنة ذاته التي هي الملائكة الحاملون لكمالات أسمائه وصفاته ﴿ فَيُوحِيَ ﴾ المَلَك ﴿ بِإِذْنِهِۦ ﴾ سبحانه ﴿ مَا يَشَآءُ ﴾ ويُسمعه من كلامه سبحانه لمن يشاء من عباده، وبالجملة ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ سبحانه

(١) مذكورة في أسباب النزول للواحدي ص: ٢٥٢، وتفسير الزمخشري ٣/ ٤٦١، وتفسير الآلوسي ٢٥/ ٥٦.

(٢) في المخطوط (المحمود).

﴿عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٥١ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ﴾ ....

﴿عَلِيٌّ﴾ في شأنه، المختص به وكمالاته اللائقة له، متعالٍ عن أن يحوم حول سرادقات عز سلطانه أحدٌ من خلقه فكيف أن يتكلموا معه بلا سترةٍ وحجابٍ ﴿حَكِيمٌ ۝٥١﴾ في كمال تمنعه وكبريائه ونهاية تعززه وترفُّعه بحيث تكلمَ تارةً بالوحي والإلهام، وتارةً من وراء الحجب والأستار، وتارةً بطريق السفارة والرسالة.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي ومثل ما أوحينا إلى من تقدمك من الأنبياء والرسل، وتكلمنا معهم بإحدى الطرق الثلاث ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أيضاً يا أكمل الرسل لنتكلم معك ﴿رُوحًا﴾ منا تكريماً لك وتعظيماً لشأنك وتخصيصاً لك من بين سائر الأنبياء لظهوره على نشأة التوحيد الذاتي، ناشئاً ﴿مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾ المتعلق لتدبيراتنا وتصرفاتنا في ملكنا وملكوتنا، ألا وهو القرآن المنتخب من حضرة علمنا ولوح قضائنا، سميناه روحاً لأنه يحيي به أموات مطلق التعينات، وخصصناك به، مع أنك ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي﴾ وتعلم قبل نزوله ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ المبين للأحكام المتعلقة بتهذيب الظواهر والبواطن ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ والإيقان المتعلق لتوحيد الحق وعرفانه، لكونك أمياً عارياً عن طريق الاستفادة والتعلم مطلقاً ﴿وَلَٰكِن﴾ من محض جودنا وفضلنا اصطفيناك لرسالتنا واجتبيناك لخلافتنا ونيابتنا، لذلك أنزلناه إليك، وبعد نزوله ﴿جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ تلألأ وتشعشعَ بعد ظهور نشأتك ﴿نَّهْدِي بِهِۦ﴾ إلى توحيدنا ﴿مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ المجبولين على فطرة الإسلام ﴿وَإِنَّكَ﴾

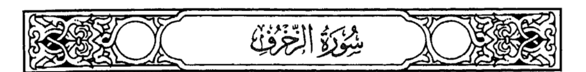
لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

أيضاً بمقتضى خلافتك ونيابتك عنا ﴿لَتَهْدِىٓ﴾ به عموم عبادنا وتدعوهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ لا عوج فيه ولا انحراف لكونه

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ﴾ مظاهر ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ أي العلويات والسفليات وما ظهر منهما وفيهما وعليهما، وبالجملة عموم ما ظهر وبطن وغاب وشهد، إذ هو سبحانه آخذٌ بيمين القدرة بناصية الكل، ويجذبه نحوه ﴿أَلَآ﴾ أي تنبهوا أيها الأظلال المستمدون من الله في كل الأحوال ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى وجهه الكريم لا إلى غيره من وجوه الأسباب والوسائل العادية ﴿تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ أي إليه ترجع وجوه الصور المرتبة بعد ارتفاع الوجوه الهالكة عن البين، واضمحلال الرسوم الباطلة عن العين.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب للتحقق في صراط الحق والراكنُ نحوه بحزائمك الأقصى وعزائمك الأوفى: أن تجعل قبلة مقصدك توحيدَ ربك وتستقيم على جادته التي هي الدين القويم المحمدي، والسبيلُ السوي المصطفوي، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتقتفيَ أثر من سلف مِنْ خُلَّص أتباعه الذين اهتدوا بمتابعته إلى مقر التوحيد واليقين، بك وصلوا إلى عالم اللاهوت والتمكين بعد ما انخلعوا عن جلبات ناسوتهم بالمرة، بتوفيقٍ من الله وجذبٍ من جانبه، وإرشادِ حبيبه ﷺ.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الزخرف

لا يخفى على المحققين المتحققين بحيطة الحق على عموم المظاهر وشمول أسمائه وأوصافه الذاتية عليها: أن من جملة أسمائه الحسنى وصفاته الأسنى: اسم المتكلم وصفة الكلام المنزل من عنده على كل أمةٍ من الأمم حسب اللغة الموضوعة فيهم بوضعٍ إلهيٍّ، إذ واضع الألفاظ واللغات كلها هو الله سبحانه.

ولا شك أن القرآن المنزَّلَ على خير الأنام إنما هو من أمهات الكتب الإلهية وأصولها، لكونه منتخباً من الحضرة العلمية الإلهية، منتزعاً[1] من لوحِ محفوظِ القضاء على الوجه الأتم الأبلغ.

ولهذا أقسم سبحانه بكتابه هذا، بعد ما خاطب على حبيبه ﷺ بما خاطب، ثم مَنَّ عليه بما مَنَّ، ورمَّز بما رمَّز تأييداً أو تعضيداً له على حمل أعباء الرسالة وتبليغ الوحي المنزل عليه من عنده باللغة الفصيحة العربية، المعجز نظمه ومعناه، على كافة البرية وعامة الرعية ؛ ليكون رحمةً للعالمين وخاتماً للنبيين، فقال بعد ما تيمن باسمه المبين:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ المنزِّل للرسل والكتب للهداية والإرشاد وتبيين طريق الرشاد

(١) في المخطوط (منتخبة.... منتزعة).

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ....

ومنهج السداد لعموم عباده ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم بإرسال رسولِ كل قوم من جنسهم، وإنزال الكتاب عليهم على لغتهم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم بتبليغ الرسل وتبيين الكتب إلى مبدئهم ومعادهم.

﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ يا حارس دين الله وملازم طريق توحيده.

﴿وَ﴾ حقِّ ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ العظيم الذي انتخبناه من حضرة علمنا ولوح قضائنا.

﴿إِنَّا﴾ من كمال فضلنا وجودنا ﴿جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا﴾ فرقاناً بياناً وتبياناً ﴿عَرَبِيًّا﴾ أسلوباً ونظماً ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ وتفهمون ما فيه من الأسرار العجيبة والحكم البديعة، والرموز والإشارات التي خلت عنها الكتب السالفة.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي الشأن المندرج فيه والمرموز إليه من جملة ما هو كائنٌ مثبتٌ ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي هو حضرة العلم ولوح القضاء، ولا يمكنكم الإطلاع عليها والاستفادة منها إلا بوسائل الألفاظ لكونه محفوظاً ﴿لَدَيْنَا﴾ محروساً عندنا، لا يتيسر لكم الوصول إلينا، ما دمتم محبوسين في مضيق الإمكان، مقيَّدين بسلاسل الزمان والمكان، إذ ساحة عز حضورنا ﴿لَعَلِىٌّ﴾ منيعٌ متعالٍ عن أن يحوم حول سرادقات عزنا أحدٌ من خلقنا، ونحن ﴿حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ في تلك المنعة والدفاع، لا نطلعكم على سرائرنا وأسرارنا، إلا من وراء الحجب والأستار.

ثم استفهم سبحانه مهدداً مقرعاً، مشيراً إلى ما أودع سبحانه في استعدادات

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم ....

عباده من قابلية الهداية والرشاد بقوله:

﴿أَ﴾ نهملكم أيها المجبولون على فطرة الهداية؟ ولم نرسل إليكم رسولاً يرشدكم إلى ما جُبلتم لأجله من قابلية الانكشاف لسرائر توحيدنا ﴿فَنَضْرِبُ﴾ أي فنصرف[1] ﴿عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ﴾ أي القرآنَ المبيِّن لكم ما في نشأتكم وفطرتكم من الاطلاع والشعور على شؤننا وتجلياتنا الذاتية، وبالجملة نُعرض عنكم ﴿صَفْحًا﴾ إعراضاً وانصرافاً كلياً، مع كمال قابليتكم على الصلاح وبالفوز بالفلاح ﴿أَن كُنتُمْ﴾ أي أنهملكم لئن كنتم ﴿قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾ منحطين عن الاعتدال الفطري والقسط الجِبلِّي الذي جبلناكم عليه.

والمعنى: أنهمل مقتضيات حكمتنا المودعة فيكم، إن كنتم في أنفسكم قوماً مسرفين في التمرد والإعراض؟.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا﴾ أي كثيرٌ أرسلنا ﴿مِن نَّبِيٍّ﴾ هادٍ مرشدٍ ﴿فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦﴾ أي في الأمم الماضين المسرفين في التمرد والإعراض.

﴿وَ﴾ هم من شدة تعنتهم وإصرارهم ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾ أمثال هؤلاء المستهزئين معك يا أكمل الرسل.

وبعد ما تمادوا في الغفلة والعناد، وبالغوا فيها مغرورين

﴿فَأَهْلَكْنَآ﴾ أي أخذناهم بذنوبهم واستأصلناهم مع كونهم ﴿أَشَدَّ مِنْهُم﴾

---

(١) في المخطوط (ننصرف).

بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ....

أي من هؤلاء المسرفين المستهزئين معك ﴿بَطْشًا﴾ حولاً وقوةً، وأكثر أموالاً وأولاداً، وأكبر جاهاً وشدةً.

﴿وَ﴾ بعدما ﴿مَضَىٰ﴾ وجرى ﴿مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾ على ما جرى، ومضى مثل الأولين من قصصهم ووقائعهم الهائلة، وسيمضي ويجري[1] عن قريب على هؤلاء أيضاً مثلهم بالطريق الأولى.

﴿وَ﴾ كيف لا يجري عليهم ما جرى على أسلافهم مع أنهم أعظم جرماً وأكبر إنكاراً منهم، ومن إنكارهم أنهم ﴿لَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي مشركي مكة يا أكمل الرسل: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وأوجدهما من كتم العدم؟ ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على الخلق والإيجاد ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ المطلع على سرائر ما أوجد وأظهر.

ومع اعترافهم بأخص أوصاف الفاعل المختار، وإقرارهم باستناد الأمور المتقنة إلى أوصافه وأسمائه، أنكروا وحدة ذاته، وأشركوا معه غيره عتواً وعناداً.

قل لهم يا أكمل الرسل بعد ما بالغوا في الإنكار والإصرار: كيف تنكرون وحدة الحق أيها الجاحدون المنكرون؟. مع أن الله

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ تستقرون فيها وتتوطنون عليها مترفهين متنعمين ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ لمعاشكم، تطلبون منها حوائجكم، وطرقاً

---

(١) في المخطوط (كمضي ويجري).

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا ....

تصلون منها إلى معادكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ بها إلى وحدة ربكم.

﴿وَ﴾ كيف تنكرون وجود موجدكم ﴿الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي من عالم الأسباب ﴿مَاءً﴾ محيياً لأموات المسببات ﴿بِقَدَرٍ﴾ معتدلٌ معتادٌ ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ﴾ أي أحيينا واخضررنا بإجراء الماء المحيي ﴿بَلْدَةً﴾ جافاً يابساً لا نبات فيها، ولا خضرة لها ﴿مَّيْتًا كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل إخراجنا النبات من الأرض اليابسة بإنزال الماء ﴿تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾ وتنشرون أي الموتى حال كونكم موتى من قبورهم بنفخ الروح فيكم تارةً أخرى.

﴿وَ﴾ كيف تجحدون وتنكرون وجود الصانع الحكيم ووحدته، مع أنه ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ وأظهرَ ﴿الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي جميع أصناف المخلوقات من زوجات ممتزجات ﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾ تتميماً لأمور معاشكم وتسهيلاً لها ﴿مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي تركبونه.

﴿لِتَسْتَوُوا﴾ وتتمكنوا ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ أي ظهور ما خلق لكم من المراكب ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ كيف أفاض عليكم من النِّعم أصولها وفروعها، وتواظبوا على شكرها أداءً لحق شيءٍ منها ﴿وَتَقُولُوا﴾ عند استوائكم

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ....

عليها: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى ﴾ أي تنزه وتقدس عن شوب النقص والاستكمال ذاتُ القادر العليم الحكيم الذي ﴿ سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا ﴾ المركوبَ ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ مطيقين لتسخيره لولا إقرانه وتسخيره سبحانه لنا.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ إِنَّآ ﴾ في عموم أوصافنا وأحوالنا وذواتنا ﴿ إِلَىٰ رَبِّنَا ﴾ الذي أظهرنا بمد أظلال أسمائه الحسنى وصفاته العليا علينا، وربانا بمقتضى لطفه بالنعم الأوفى ﴿ لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ راجعون إليه، صائرون نحوه بعد انخلاعنا عن لوازم ناسوتنا وارتفاع غشاوة تعيناتنا عنا.

وإنما أوصله به تنبيهاً على أن العبد العارف لا بد أن يكون في عموم انقلاباته وحالاته، مسترجعاً إلى الله، عازماً نحو الفناء فيه، متذكراً لموطنه الأصلي ومقره الحقيقي.

﴿وَ﴾ من غاية غفلتهم عن الحق وجهلهم بحقوق ألوهيته وربوبيته ﴿جَعَلُوا۟ لَهُۥ﴾ سبحانه واتخذوا ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ بعضاً، وادّعوه ﴿جُزْءًا ۚ﴾ له، وولداً ناشئاً منه حيث قالوا: الملائكة بنات الله، والعزير ابن الله، والمسيح كذلك، وبالجملة ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ المجبول على الجهل والنسيان ﴿لَكَفُورٌ ﴾ متناهٍ في الغفلة عن الله، والكفران بنعمه وحقوق كرمه ﴿ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ ظاهر البغي والطغيان على الله، والإلحاد عن دينه وطريق توحيده.

ومن شدة ظهور بغيهم وطغيانهم أثبتوا له أولاداً

أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ....

﴿ أَمِ اتَّخَذَ ﴾ أي بل قالوا: اتخذ وأخذ ﴿مِمَّا يَخْلُقُ ﴾ سبحانه أي من مظاهره ومصنوعاتها أخسَّها وأدونها، أعني ﴿ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم ﴾ أي أخلص أنفسكم ﴿ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَ﴾كيف تثبتون لله الواحد الأحد الصمد بناتٍ، وتختارون لأنفسكم بنين مع أنه ﴿ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ من إثبات البنات له ﴿ظَلَّ﴾ صار ﴿وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ من كمال ضجرته وكآبته ﴿ وَهُوَ ﴾ حينئذ ﴿ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ مملوءٌ من الغيظ والكرب.

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا ﴾ أي أتثبتون للصمد المنزه عن الأهل والولد ولداً ناقصاً يُربى ويُزين ﴿ فِي الْحِلْيَةِ﴾ والزينة، لعدم كماله الذاتي ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ فِي الْخِصَامِ﴾ أي المجادلة والمحاباة ﴿غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ معربٍ مظهرٍ لما يدعيه لنقصان عقله وركاكة رأيه وفهمه، وهن البنات الناقصات عقلاً وديناً وخلقةً.

وبالجملة أثبتوا لله ما ينزهون أنفسهم عنه، ويتغممون عند حصوله لهم.

﴿وَ﴾ من نهاية جهلهم وركاكة رأيهم ﴿جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ ﴾ المستغرقون الوالهون بمطالعة وجهه الكريم، المستغفرون لعموم عباد الله من سعة رحمته وجوده ﴿ إِنَاثًا ﴾ ناقصات العقل والدين، منحطاتٍ عن زمرة الكاملين، مع أنهم [أي الملائكة] من أعزة عباد الله وأجلّهم،

أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ (١٩) وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) ....

متمكنون عند كنف قربه وجواده، مسبحون له في عموم الأوقات والحالات ﴿أَشَهِدُوا۟﴾ وحضروا أولئك الحمقى ﴿خَلْقَهُمْۚ﴾ أي خلق الله إياهم في بدء الأمر، إذ الأنوثة والذكورة من جملة الأمور التي لا اطلاع لأحدٍ عليها إلا بالمشاهدة، أم شهدوا رجماً بالغيب، ظلماً وزوراً ﴿سَتُكْتَبُ﴾ في النشأة الأولى ﴿شَهَٰدَتُهُمْ﴾ التي شهدوا بها على خلّص عباد الله وافتراؤهم على الله الصمد المنزه من الاستيلاد ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿يُسْـَٔلُونَ (١٩)﴾ يوم القيمة عن جميع ما أتوا من المعاصي، سيما عن هذه الشهادة والافتراء، ثم يجازون بمقتضاها.

﴿وَ﴾ بعد ما سفّه المسلمون أهل الشرك وعيروهم باتخاذ الملائكة والأوثان والأصنام وجميع المعبودات الباطلة آلهةً من دون الله، شركاءَ له في الألوهية، مع كونهم منحطين عن رتبة الألوهية والربوبية مطلقاً ﴿قَالُوا۟﴾ مستدلين على أخذهم واتخاذهم: ﴿لَوْ شَآءَ﴾ وأراد ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ عدم أخذنا وعبادتنا إياهم ﴿مَا عَبَدْنَٰهُمۗ﴾ البتة، لكن أراد سبحانه عبادتنا فعبدناهم، إذ لا يبدل قوله[1] سبحانه ولا يغير حكمه ومشيئته، إنما قالوا ما قالوا تهكماً واستهزاءً، وعلى زعم المؤمنين، لا عن اعتقادٍ ويقينٍ بمشيئة الله وتقديره، وعدم تغيير مراده سبحانه، لذلك جعلهم سبحانه بقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ﴾ أي ما صدر عنهم هذا الاستدلال عن علم بمقدماته واعتقادٍ بنتيجته، بل ﴿إِنْ هُمْ﴾ أي ما هم في قولهم هذا واستدلالهم ﴿إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠)﴾

(١) في المخطوط (القول لدي).

أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ ....

يتمحَّلون تمحُّلاً باطلاً، ويتزورون زوراً ظاهراً.

أهم يدعون دليلاً عقلياً سواه على مدعاهم ؟

﴿ أَمْ ﴾ يدّعون دليلاً نقلياً بأن ﴿ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ أي من قبل القرآن مشتملاً على اتخاذهم وادعائهم المذكور ؟ ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾ متمسكون به في دعواهم هذه.

﴿ بَلْ ﴾ ليس لهم لا هذا ولا ذاك سوى أنهم ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ على وجه التقليد: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ طريقةٍ معينةٍ ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ إلى ما اهتدوا تقليداً لهم واقتفاءً بأثرهم.

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي ومثل ما قال هؤلاء التائهون في تيه التقليد والضلال ﴿ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ فِى قَرْيَةٍ ﴾ من القرى الهالكة ﴿ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ من النذر الأولى ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ ﴾ ومتنعموها على سبيل البطر والمفاخرة: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ أي طريقةٍ معهودةٍ معينةٍ ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ لا نترك ديدنة آبائنا، بما اخترعتموه من تلقاء أنفسكم أيها المدعون.

﴿ ۞ قَٰلَ ﴾ [المفسر بقراءة: ﴿قَالَ﴾ على قراءة الجميع غير حفص وابن عامر] يا أكمل الرسل بعد ما سمعت منهم ما سمعتَ كلاماً خالياً عن وصمة

أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ ....

المراء والمجادلة، عارياً عن أمارات التقليد والتخمين: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم﴾ يعني أتقلدون وتتبعون آباءكم أيها المقلدون المسرفون، ولو جئتكم ﴿بِأَهْدَىٰ﴾ أي بدينٍ أهدى وأنفع لكم في أولاكم وأخراكم ﴿مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ أي من أديان آبائكم وتقليداتهم، فتتركون الهداية وتتبعون الضلال.

وبعدما سمع منك هؤلاء المقلدون والمسرفون ما سمع أسلافهم من النذر الأولى من الهداية والرشاد ﴿قَالُوٓاْ﴾ مصرين على ما هم عليه: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي بجميع ما جئتم به أيها المدعون للرسالة ﴿كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ منكرون جاحدون، لا نقبل منك أمثال هذا، ولا نترك دين آبائنا ومتابعتهم بمجرد ما ابتدعتموه مراء، ونسبتموه إلى الله افتراءً.

وبعد ما أصروا على ضلالهم وتقليداتهم الموروثة لهم من آبائهم، ولم ينفعهم إرشاد الرسل وإهداؤهم ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فأخذناهم صاغرين ﴿فَٱنظُرْ﴾ أيها المعتبر الناظر ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ المصرِّين على التكذيب والعناد مع رسل الله وذوي الخطر من خلص عباده.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمشركي مكة وقت ﴿إِذْ قَالَ﴾ جدك ﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾ الخليل صلوات الله عليه وسلامه ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ المغمورين في التقليدات الموروثة لهم من أسلافهم، بعد ما انكشف بحقية الحق ووحدته، وبطلان الآلهة

إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ ....

الباطلة التي أثبتوها شركاء لله ظلماً وزوراً: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي أنا بريءٌ من معبوداتكم التي أنتم تعبدونها من دون الله الواحد الأحد المستحق للعبادة والإطاعة.

﴿إِلَّا ٱلَّذِى﴾ أي ما أعبد معبوداً سوى الذي ﴿فَطَرَنِى﴾ أي أظهرني وأوجدني بمقتضى حوله وقوته وفور علمه وحكمته ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ سبحانه بمقتضى سعة رحمته وتوفيقه ﴿سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ ويثبتني على جادة الهداية بأزيد مما هداني إليه من إجراء كلمة التوحيد على لساني.

﴿وَجَعَلَهَا﴾ سبحانه كلمة التوحيد ﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً﴾ مستمرةً ﴿فِى عَقِبِهِۦ﴾ أي أولاد إبراهيم وذرياته إلى يوم القيامة موروثةً لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ إلى الله بكرامة هذه الكلمة، ويوحدونه حق توحيده، لذلك ما خلا زمانٌ من الأزمنة من موحدي هذه الذرية، وممن يدعون منهم إلى الحق وطريق توحيده، وإن كان منهم أيضاً من يشرك بالله كمشركي قريش ـ خذلهم الله كما قال سبحانه في شأنهم:

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المسرفين المعاندين معك يا أكمل الرسل ﴿وَ﴾ كذا متعتُ ﴿ءَابَآءَهُمْ﴾ كذلك بأنواع النعم وأصناف الكرم ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي الطريق الموصل إلى التوحيد الذاتي ﴿وَرَسُولٌ﴾ مرشدٌ كاملٌ ﴿مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾

وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ

مظهرٌ موضحٌ لهم بطريق الهداية والرشاد.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الحقيق بالاتباع ﴿ قَالُواْ﴾ من فرط تعنتهم وعنادهم: ﴿هَٰذَا﴾ الذي جاء به هذا المدعي يعني محمداً ﷺ ﴿ سِحْرٌ﴾ وشعرٌ اختلقه من تلقاء نفسه، ونسبه إلى ربه افتراءً وتغريراً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ إِنَّا بِهِۦ﴾ وبدينه ﴿ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ منكرون جاحدون.

﴿ وَقَالُواْ﴾ من شدة شكيمتهم وغيظهم معك يا أكمل الرسل، ونهاية إنكارهم بكتابك: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ إن كان نزوله من عند الله حقيقةً ﴿ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ ذي ثروةٍ وجاهٍ لائقٍ بمرتبة النبوة والرسالة ﴿ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ أي من إحدى القريتين أي مكة والطائف ﴿عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ عند الناس بكثرة الأموال والأولاد والأتباع، ليكون له اليد والاستيلاء على سائر الناس، إذ منصب النبوة منصبٌ عظيمٌ، يحتاج إلى ثروةٍ ووجاهةٍ ومكنةٍ تامةٍ ورئاسةٍ ظاهرةٍ، ولم يفهموا أن رتبة النبوة والولاية عبارةٌ عن الغنى الذاتي المسقط لعموم الإضافات المنافية لصرافة الوحدة الذاتية، وهو لا يكون إلا بالتعري عن ملابس الأكوان، ولوازم الإمكان، والتخلق بالأخلاق المرضية الإلهية.

﴿ أَهُمْ﴾ بأخلاقهم السخيفة وتدبيراتهم الركيكة ﴿ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ﴾ يا أكمل الرسل، ويضعون رتبة النبوة والرسالة إلى من يقتضيه أوهامهم وخيالاتهم الباطلة ونفوسهم الخبيثة، بل ﴿نَحْنُ﴾ بوفور حكمتنا ﴿ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾

فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ ....

التي يحتاجون[1] إليها ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ ومع تدبيرنا إياهم مصالحَ معاشهم، لا يُحسنون تدبيرها في ما بينهم؛ ليصلح أمر ائتلافهم وتمدنهم فيها، فكيف يخوضون في مصالح العباد وتدبيراتها؟ ومن أين يتأتى لهم التفوه في الأوضاع الألوهية والتدابير الربوبية الناشئة عن كمال العلم والحكمة والإرادة الكاملة والقدرة الشاملة ؟؟ ﴿وَ﴾من غاية قصورهم عن تدبيرات معاشهم ﴿رَفَعۡنَا﴾ بمقتضى حكمتنا وتربيتنا إياهم ﴿بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ بأن فضَّلنا بعضهم على بعضٍ في الرزق الصوري وغيره؛ ليكون لهم الكبرياء والاستيلاء على البعض الآخر ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾ أي يستعمل البعض الأغنياء أجراء من البعض الفقراء فيأمروهم بما قصدوا من الحوائج، ليتم أمر النظام والتمدن والتضام ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿رَحۡمَتُ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل وهي رتبة النبوة والرسالة ﴿خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ من حطام الدنيا ومزخرفاتها الفانية؛ لاشتمالها على ضبط الظواهر والبواطن المتعلقة بالنشأة الأولى والأخرى.

ثم أشار سبحانه إلى دناءة زخارف الدنيا وأمتعتها، ورداءة ما فيها من اللذات الوهمية، وما يترتب عنها من الشهوات البهيمية فقال:

﴿وَلَوۡلَآ﴾ مخافة ﴿أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ﴾ المجبولون على الكفران والنسيان

(١) في المخطوط (يختلفون).

أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

﴿ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ مائلةً إلى الكفر، منحرفةً عن الإيمان ﴿ لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ أي بسطنا على الكافرين من الزخارف الدنيوية إلى حيث يتخذون ﴿ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا ﴾ مصنوعةً متخذةً ﴿ مِّن فِضَّةٍ وَ﴾ كذا يعملون ﴿ مَعَارِجَ ﴾ ومراقيَ منها ﴿ عَلَيْهَا ﴾ أي على سطوح بيوتهم ﴿ يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ أي يعلون ويصعدون بتلك المعارج المعمولة بالفضة عليها.

﴿ وَ﴾ كذا يعملون ﴿ لِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ترفعاً وتنعماً.

﴿ وَ﴾ بالجملة لوسَّعنا عليهم حطام الدنيا إلى حيث جعلنا لهم ﴿ زُخْرُفًا ﴾ وزينةً من الذهب والفضة يتزينون بها ويتلذذون بلذاتها الفانية وشهواتها الزائلة الزائفة، المبعِدة عن اللذات الباقية الأخروية، لكن لو فعلنا كذلك لمال إليها المسلمون، وتحسروا بما نالوا، فضعف رأيهم في اتباع الدين القويم والصراط المستقيم ﴿ وَ﴾ بالجملة ﴿ إِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ ﴾ أي ما كل ذلك المذكور من المزخرفات الدنيوية إلا متاع الحياة الدنيا الفانية، لا قرار لها، ولا مدار لما فيها ولما يترتب عليها من اللذات والشهوات ﴿ وَ﴾ النشأة ﴿ ٱلْـَٔاخِرَةُ ﴾ الباقية الدائمة لذاتُها أزلاً وأبداً ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ يا أكمل الرسل حاصلةٌ ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ الذين يحفظون نفوسهم عن التلطخ بقاذورات الدنيا، والركون إلى مزخرفاتها الفانية، سوى سد جوعةٍ ولبس خرقةٍ وكنٍّ

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ ....

يدفعون بها ضرر الحر والبرد، ولا يميلون إلى ما سواها طلباً لمرضاة الله وهرباً عن مساخطه.

﴿وَمَن يَعْشُ﴾ أي يعرض وينصرف ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي القرآن المبيِّن له طريق الإيمان والعرفان، لفرط انهماكه باللذات والشهوات الفانية الدنيوية ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ﴾ ونسلّط عليه ﴿شَيْطَٰنًا﴾ يضلُّه ويغويه ويوسوس عليه، ويرديه، وبالجملة ﴿فَهُوَ﴾ أي الشيطان ﴿لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ دائماً، يزيّن عليه المعاصي والقبائح، ويغريه عليها، إلى أن يدخله في نار القطيعة والحرمان.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي جنود الشياطين وأتباعهم ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أي يذبُّونهم ويصرفونهم أي أتباعهم ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ السويِّ، الموضوع بالوضع الإلهي، الموصل إلى توحيده ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ من فرط عمههم وسكرتهم ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ لهداية قرنائهم من الشياطين، مع أنهم غاوون ضالون بإغوائهم وإضلالهم، ولم يعلموا إضلالهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ أي الغاشي الأعمى، وعلِم ضلالَه عنا، وغوايتَه عن طريقنا ﴿قَالَ﴾ متحسراً متأسفاً لقرينه المغوي: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي بُعد ما بين المشرق والمغرب ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ أنت أيها المضل، أضللتني عن الطريق القويم وابتليتني بالعذاب الأليم.

﴿وَ﴾ قيل لهم حينئذٍ من قبل الحق: ﴿لَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ تمنيكم وأسفكم

إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ ....

﴿ إذ﴾ قد ﴿ ظَّلَمْتُمْ ﴾ أنفسكم في نشأة التدارك والتلافي، والآن قد انقرضت، بل ﴿ أَنَّكُمْ ﴾ وقرناءكم اليوم ﴿ فِي ٱلْعَذَابِ ﴾ النازل عليكم ﴿ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ كما إنكم كنتم مشتركون في الأسباب الجالبة له في النشأة الأولى.

ثم لما كان ﷺ يبالغ في إرشاد عشيرته ويُتعب نفسه في إهدائهم، ردَ الله سبحانه على وجه التعجب والتأديب ردعاً له عما كان عليه من المبالغة، فقال مستفهماً: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ أي أأنت تتخيل لنفسك أنك تقدر على إسماع من جُبلَ على الصمم في أصل فطرته ﴿ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ ﴾ المجبول على العمى في مبدأ خلقته ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ مَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ وغوايةٍ عظيمةٍ جبلِّية، كيف تسعى لهدايته، وتبالغ في إرشاده وتكميله، إذ ليس في وسعك تغيير الخلقة، وإنما عليك الإنذار والتبليغ فقط، وإلى متى تتعب نفسك وتسعى؟

ثم سجل سبحانه على أخذ المشركين والانتقام عنهم بقوله:

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ أي أن نتوفينك يا أكمل الرسل، ونخرجنك عن الدنيا قبل انتقامنا منهم، وأخذِنا إياهم ﴿ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ البتة بعد مماتك ووفاتك.

﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ ﴾ العذابَ الموعودَ ﴿ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ ﴾ للإعراض عنك، وعن

﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ۝٤٢ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٣ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ۝٤٥﴾

دينك وكتابك، وبالجملة ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ۝٤٢﴾ قادرون على وجوه الانتقام إياهم حال حياتك أو بعدها.

وبعد ما أكّد سبحانه إنجاز الوعد الموعود عليهم، وبالغ فيه، أمر حبيبه ﷺ بالتمكن والتثبت على مقتضى الوحي المنزَّل من عنده، فقال:

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ﴾ من القواعد الشرعية الموضوعة بالوضع الإلهي، واعتمد عليه، ولا تلتفت إليهم، ولا تبال بإعراضهم ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٣﴾ موصلٍ إلى توحيد ربك.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَذِكْرٌ﴾ أي عظةٌ وتذكيرٌ ﴿لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ﴾ فعليكم أن تتعظوا به، وبما فيه من الحِكم والأحكام، والعِبر والرموز والإشارات ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤﴾ عن قيامكم بها وامتثالكم بما فيها.

وإن عاند المشركون معك، واستهزؤوا بك وبكتابك، ونسبوا دينك إلى البدعة والاختلاق، فلا تحزن عليهم، ولا تك في ضيقٍ مما يمكرون وينسبونك إليه،

﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ أي أحبار قومهم وعلماء دينهم وفتِّش أحوالهم عن آثارهم وأخبارهم وكتبهم الباقية بعدهم ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ المنزَّه في ذاته عن الشركة والتعدد مطلقاً ﴿ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ۝٤٥﴾ أي هل حكمنا لهم، وأمرناهم باتخاذ آلهةٍ سوى الحق، يُعبد لهم كعبادة الله،

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟

بل ما اتخذوا آلهتهم إلا بمقتضى آرائهم الباطلة وأهويتهم الفاسدة، وما عبدوا لهم إلا ظلماً وزوراً.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ أخاك ﴿ مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ ﴾ الدالة على توحيدنا ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ الطاغي المستعلي على مَن في الأرض ﴿ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ المعاونين له في طغيانه ﴿فَقَالَ ﴾ لهم بإذنٍ منا وبمقتضى وحينا: ﴿ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أرسلني إليكم لأرشدكم إلى طريق توحيدي، وأوضح لكم سبيل المعاد.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم ﴾ مؤيَّداً ﴿ بِـَٔايَـٰتِنَآ ﴾ أي بالخوارق والمعجزات الدالة على صدقه ﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي فاجؤوا على الضحك والاستهزاء أول رؤيتهم بها بلا تأملٍ وتدبرٍ فيها.

﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿ مَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ ﴾ من الآيات ﴿ إِلَّا هِىَ ﴾ أي الآية المرئية في الحال ﴿ أَكْبَرُ ﴾ وأظهر دلالةً على كمال قدرتنا وصدق نبينا ﴿ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ أي من الآية السابقة عليها، ومع ذلك أنكروا عليها واستهزؤوا ﴿وَ﴾ بعدما بالغوا في العتو والعناد ﴿ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ ﴾ العاجل من القحط والطاعون وغيرها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ رجاء أن يرجعوا عن إنكارهم وإصرارهم عليه.

﴿وَ﴾ مع ذلك لم يرجعوا بل ﴿قَالُوا۟﴾ عند نزول البلاء وهجوم العناء

يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾

مسترجعين نحوه، منهمكين معه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ الماهرُ في السحر ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ الذي زعمتَ أن لا منزلَ للمصيبة سواه، ولا كاشف أيضاً إلا هو ﴿ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي بمقتضى ما وعد لك وعهد معك ألا يعذب من آمن بك وصدقك، فإن انكشف الضر عنا بدعائك ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ بهدايتك، مؤمنون لك، مصدقون بنبوتك ورسالتك، وبجميع ما دعوتنا إليه[1].

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ بعد دعاء الأنبياء والرسل وتضرعهم نحونا، راجين منا العفو والتجاوز ﴿ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي فاجؤوا على نقض ما عهدوا، مبادرين على الإنكار والعناد بلا تراخ وتأخير.

﴿وَ﴾من كمال عتوٍّ فرعون ونهاية عناده واستكباره ﴿ نَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾ بنفسه يوماً من الأيام حين كان ﴿ فِي﴾ مجمع ﴿قَوْمِهِۦ﴾ مباهياً بما عنده من الجاه وسعة المملكة حيث ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ ـ ناداهم ليسمعوا منه ويصغوا إليه سمعَ قبول ـ: ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ مع كمال وسعته وكثرة مملكته ﴿ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الثلاثة المنشعبة من النيل، هي نهر طولون ونهر دمياط ونهر نفيس ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ أي تحت تصرفي وملكي ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ أيها المجبولون على البصارة.

---

(١) في المخطوط (دعوتمونا إليه).

أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ....

﴿ أَمْ أَنَا۠ ﴾ أي بل أنا ﴿خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ﴾ الساحر المدعي ﴿ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ رذيلٌ مهانٌ، لا عزة له ولا مقدار ﴿وَ﴾ مع رذالته وسفالته ﴿ لَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ يظهر ويعرب كلامه للكنةٍ في لسانه.

﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ ﴾ أي فلو كان مؤيداً من عند الله، ومكرماً لديه كما زعم، هلا أُلقي عليه أَسورة ﴿مِّن ذَهَبٍ ﴾ تدل على عزته وكرامته عنده وسيادته عند الناس، إذ العادة حينئذ أن أهل الرئاسة والسيادة يُسورون ويُطوقون بأسورةٍ من ذهبٍ ﴿ أَوْ﴾ هلا ﴿جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ من عند ربه ﴿ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ معه مجتمعين، يعينونه في ما يعنيه؟ وبالجملة

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ وسفَّههم وضعَّف أحلامهم بامتثال هذه الهذيانات الباطلة ﴿فَأَطَاعُوهُ ۚ﴾ وقَبِلوا منه جميع ما قال عتواً وعناداً ﴿إِنَّهُمْ ﴾ في أنفسهم ﴿ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ خارجين عن مقتضى العدالة الإلهية، لذلك انحرفوا عن سواء السبيل واتبعوا ذلك الفاسق الطاغي.

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾ وحملونا على القهر والغضب، وحركوا حميَّة الغيرة الإلهية بامتثال هذه الجرائم الفاحشة ﴿ ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ في اليم، ومحونا رسومهم عن وجه الأرض.

فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ قدوةً وأسلافاً قديمةً ﴿وَ﴾ صاروا ﴿مَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ من أخلافهم، يمثّلون بهم، وبوقائعهم يتعظون.

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ﴾ يعني لما ضرب بن الزبعرى مثلاً بعيسى عليه السلام حين نزلت آية كريمة: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [٢١ - الأنبياء: ٩٨] حيث قال مجادلاً مع رسول الله ﷺ: إنك تزعم أن النصارى من أهل الكتاب، وأنهم يعبدون عيسى، ويعتقدونه ابن الله، والملائكة أولى بالمعبودية من عيسى، فسكت رسول الله ﷺ.

والقوم لما سمعوا مجادلته، ورأوا سكوت الرسول ﷺ من كلامه فهموا منه إلزام الرسول وإفحامَه، فأوجسوا في نفوسهم إعراضاً، كما حكى عنهم سبحانه بقوله[1]: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ﴾ أي من كلام ابن الزبعري ﴿يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ ويعرضون عنك فرحاً بأنك قد أُلزمت من كلامه.

﴿وَ﴾ بعد ما أعرضوا واعتقدوا إلزامك من ذلك الطاغي ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي بعضهم لبعض ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا﴾ التي كنا نعبد نحن وأسلافنا أيضاً إياهم ﴿خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون أن محمداً الذي ادعى الرسالة من عنده، وإنما قالوا ما قالوا له تهكماً واستهزاءً، كما قال سبحانه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ﴾ مثلاً ﴿إِلَّا جَدَلًۢا﴾

(١) مذكورة في أسباب النزول للواحدي ص: ٢٠٦، وفي الدر المنثور ٥/ ٦٥، وتفسير البيضاوي ٥/ ١٤٩.

بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ ....

مجادلةً ومراءً ﴿بَلْ هُمْ﴾ في أنفسهم ﴿قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ مجادلون مكابرون في الخصومة وإجراء الباطل مجرى الحق وترويجه جدلاً ومغالطةً. بل

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما عيسى ﴿إِلَّا عَبْدٌ﴾ من جملة عبادنا ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بمقتضى فضلنا وجودنا، وأظهرنا على يده من المعجزات الباهرة والخوارق الظاهرة الدالة على كمال قدرتنا ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا﴾ عجيباً وشأناً بديعاً ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ يسري بينهم أمر وجوده بلا أبٍ وظهور الخوارق العجيبة عنه، سيما في حال صباه وإرهاصات أمه كالمثل السائر، كل ذلك من كمال قدرتنا وعلمنا، ومتانة حكمتنا.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ أيضاً وأنشأنا بدلكم ﴿مَّلَٰٓئِكَةً﴾ يسكنون ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مكلَّفين بالعبادة والعرفان أمثالكم، وإذا انقرضت طائفةٌ منهم ﴿يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أمثالهم أمثالكم إلى ما شاء الله.

يعني: لا تتعجبوا من شأن عيسى وظهوره على الوجه الأبدع الأغرب، بل تأملوا وتدبروا في كمال قدرة المبدع وفور حكمته وجُوده، إذ هو سبحانه قادرٌ على إظهار أمورٍ عجيبةٍ وشؤون بديعةٍ، لا تعد ولا تحصى، ومن جملتها ظهور عيسى وما صدر منه من الخوارق، بل كل من وصل بعالم القلب، وحصل دور الكشف والشهود اليقيني الحقي، مترقباً من المشاهدات العادية والمحسوسات الأُلفية ظهر له ولاح عنده أن كل ما لمع عليه برق الوجود وتشعشع منه بمقتضى الجود، إنما هو على وجهٍ غريبٍ وشأنٍ عجيبٍ.

ثم قال سبحانه:

وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ ....

﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾[1] أي شأن الظهورات المنبهة عليها والتطورات المشارة بها ﴿ لَعِلْمٌ ﴾ دليلٌ لائحٌ وبرهانٌ واضحٌ ﴿ لِّلسَّاعَةِ ﴾ الموعودة المعهودة ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ وبقيامها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱتَّبِعُونِ﴾ في جميع ما أنزلت لكم في كتبي وعلى ألسنة رسلي وأطيعوا أمري وأمرهم ﴿ هَٰذَا﴾ الذي أشرناكم إليه ﴿ صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ فاسلكوا فيه لعلكم تهتدون إلى توحيدي وتفوزون بالفوز العظيم.

﴿وَ﴾ عليكم محافظة الحدود الشرعية والمعالم الدينية حتى ﴿لَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي لا يعرضنكم عنها، ولا يوقعنكم في فتنةٍ عظيمةٍ وبليةٍ شديدةٍ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾ ظاهر العداوة شديد الخصومة، يضلكم عن جادة التوحيد ويوقعكم في العذاب الشديد، أعاذنا الله وعموم عباده من فتنته.

﴿وَ﴾ كيف لا يكون عيسى عبداً من عبادنا، اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿لَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ﴾ إلى بني إسرائيل من عندنا مؤيداً ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ الباهرة التي ما ظهر مثلها من نبي من الأنبياء ﴿قَالَ﴾ مظهراً لهم الدعوة إلى طريق الحق وتوحيده: ﴿قَدْ جِئْتُكُم ﴾ من عند ربي ﴿ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ البالغة ﴿وَ﴾ إنما جئتكم ﴿لِأُبَيِّنَ ﴾ أوضح وأظهر ﴿لَكُم ﴾ طريق العبودية والعرفان سيما ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى ﴾ أي بعض المعالم الدينية التي ﴿تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ وفي نزوله في كتب الله وعدم نزوله فيها

(١) قيل نزول عيسى عليه السلام قبل قيام الساعة، وقيل الضمير للقرآن فإ فيه الإعلام بالساعة و الدلالة عليها.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾........

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أولاً حق تقاته ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ في ما جئت لكم من عنده.

﴿ إِنَّ اللَّهَ ﴾ المتوحد المتفرد بالألوهية والربوبية ﴿هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ دبّرَ أمري وأمرَكم وبيَّنه في كتابه ﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴾ بمقتضى وحيه وإنزاله، واعلموا أن ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ موصلٌ إلى توحيده الذي جُبلتم لأجله، إن كنتم مؤمنين موقنين.

وبعد ما تم أمر الدعوة والتبليغ

﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ ﴾ وتفرقوا تفرقاً ناشئاً ﴿ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ أي من بين قومه المبعوث إليهم، بعد ما دعاهم إلى طريق الحق وتوحيده، وهداهم إلى صراط مستقيم ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ عظيمٌ وعقابٌ شديدٌ يُتوقع ﴿ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ خرجوا عن مقتضى العبودية المأمورة لهم بالوحي الإلهي ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾ مؤلمٍ في غاية الإيلام.

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ أي ما ينظرون وينتظرون ﴿ إِلَّا السَّاعَةَ ﴾ الموعودة قيامها ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ فجأةً بلا سبق مقدمةٍ وأماراتٍ ﴿ وَهُمْ ﴾ من غاية اشتغالهم بالملاهي الدنيوية ﴿ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ إتيانها إلا وقت وقوعهم في أهوالها.

ﭐلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ ....

﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ﴾ والأحباء ﴿ يَوۡمَئِذِۢ﴾ من شدة الهول والفزع ﴿ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾ إذ يتذكرون حينئذٍ ما جرى بينهم من المعاونة والمشاركة في الإعراض عن الله وكتبه ورسله وعدم الانقياد والإطاعة للدين القويم ﴿ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ أي الأحباء الذين تحابّوا في الله، وتشاركوا في طريق توحيده.

ثم التفت يومئذ سبحانه إلى خلّص عباده الذين اتقوا عن محارمه، طلباً لمرضاته، منادياً لهم على رؤوس الأشهاد:

﴿ يَٰعِبَادِ﴾ ناداهم وأضافهم إلى نفسه اختصاصاً لهم وتكريماً: ﴿ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ لخوفكم عن مقتضى قهرنا وجلالنا في النشأة الأولى ﴿ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ اليوم لتصبُّركم على الشدائد ومقاساة الأحزان في طريق الإيمان في دار الابتلاء.

وهؤلاء البررة المبشرون هم

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المنزلة على رسلنا وامتثلوا بمقتضاها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ منقادين مطيعين، مفوضين أمورهم كلها إلى الله، راضين بجميع ما قضى عليهم، وكتبَ لهم من المِنَح والمِحَن، لذلك نودوا حينئذٍ من قبل الحق على سبيل البشارة والكرامة ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ المعدةَّ لخلص أوليائنا الذين اتخذونا وكيلاً ﴿ أَنتُمۡ﴾ أصالةً ﴿ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ أي نساؤكم

تُحۡبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٣﴾

المؤمنات المتوكلات الراضيات من الله بما قسم لهن المجتنباتُ عن محارم الله حال كونكم ﴿تُحۡبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ تبهجون وتسرون فيها على وجهٍ يظهر أثر البهجة والمسرة في وجوهكم، ويلوح من سيماكم.

وبعد ما تقرروا في مقام العز والتكريم، وتمكنوا في مكمن التمجيد والتعظيم:

﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ أي يطوف حولهم خدمة الجنة ﴿بِصِحَافٖ﴾ جمع صحفةٍ وهي القصعة الكبيرة المتخذة ﴿مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ﴾ جمع كوبٍ، وهي الكوز التي لا عرى لها أيضاً متخذةً منها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ﴾ من اللذات والشهوات المدركة بآلاتها ﴿وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ أي من المحسوسات التي استحسنتها العيون واستلذذن بها.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿أَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ دائمون لا تتحولون منها أبد الآبدين ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ﴾ تفوزون بها ﴿أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ من الأعمال المصورة بها، المنتجة لها، المأمورة لأجلها، وبالجملة ﴿لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ﴾ من المستلذات الروحانية والجسمانية ﴿مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ ومنها تتفكهون جزاءً بما كنتم يعملون.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته السنية المستمرة:

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ ....

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المنهمكين في بحر الجرائم والمعاصي ﴿ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾ على عكس خلود أصحاب الجنة في الجنة بحيث.

﴿لَا يُفَتَّرُ﴾ ولا يخفف ﴿ عَنْهُمْ﴾ من عذابها ﴿ وَهُمْ فِيهِ﴾ أي في العذاب الدائم ﴿ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ آيسون من الخلاص والنجاة.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بإنزال العذاب عليهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ المقصورين على الخروج والعدوان على مقتضى الحدود الموضوعة فيهم، لحفظهم عن مثال هذا العذاب والنكال.

﴿وَ﴾ من شدة العذاب عليهم وقلة التصبر وفرط الفزع والجزع ﴿ نَادَوْا۟﴾ صائحين صارخين: ﴿ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ﴾ أي سل ربك أن يقضي علينا بالمقت والهلاك، إذ لا طاقة لنا اليوم بالعذاب وهوله وشدتِّه، ثم لما بثوا شكواهم مراراً وصاحوا فجعين فزعين تكراراً ﴿قَالَ﴾ القائل في جوابهم من قبل الحق على سبيل الاستبعاد والتأبيد: هيهات هيهات ﴿ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ لا نجاة لكم عنها، لا بالموت، ولا بالخلاص والتخفيف، بل كلما نضجت جلودكم بدّلنا لكم جلوداً غيرها، وعذبناكم أشد العذاب.

وكيف لا نعذبكم أيها الجاهلون المسرفون؟

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالطريق الحق الثابت الحقيق بالإطاعة والاتباع

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ....

فانصرفتم عنه، وأنكرتم عليه، ولم تلتفتوا إليه، بل ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ ﴾ بعد ما تفطنوا ﴿ لِلْحَقِّ ﴾ وحقيته ﴿ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ لقبوله والامتثال بمقتضاه.

وهم مع كمال كراهتهم للحق وذبهم عنه لا يقتصرون عليها.

﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓاْ ﴾ أي بل حكموا وقطعوا ﴿ أَمْرًا ﴾ حكماً مبرماً، مكراً وخديعةً لرد الحق وتكذيب أهله ﴿ فَإِنَّا ﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿ مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ حاكمون حكماً قطعياً بإنزال العذاب المخلَّد عليهم، جزاءً لمكرهم وخداعهم.

أيشكّون ويترددون أنا لا نقدر على انتقامنا وأخذهم؟!

﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ ﴾ نَعلم ونُدرك ﴿ سِرَّهُمْ ﴾ الذي يخفونه في ضمائرهم ﴿ وَنَجْوَىٰهُم ۚ ﴾ الذي يتناجون به في هواجس نفوسهم ﴿ بَلَىٰ ﴾ إنا عالمون بجميع ما يجري في أسرارهم وضمائرهم، مطلعون بعموم ما صدر من استعداداتهم وقابلياتهم ﴿ وَ ﴾ مع إحاطة علمنا بهم وبأحوالهم ﴿ رُسُلُنَا لَدَيْهِمْ ﴾ حفظتنا عندهم ﴿ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ جميع ما صدر عنهم، نقيره وقطميره، حتى نحاسبهم عليه، ونجازيهم بمقتضاه.

ثم لما شاع قول اليهود والنصارى بولدية عزير وعيسى، ومالَ إليه أولو الأحلام الضعيفةِ منهم ومن غيرهم.

رد الله عليهم على أبلغ وجهٍ وآكده، بأن أمر حبيبه ﷺ بالقول على سبيل الفرض والتقدير:

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ ....

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعد ما بالغوا في هذه الفرية البعيدة عن الحق بمراحل مستحيلةٍ في نفسها: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ أي إن صحّ وجاز أن يكون له ولدٌ متصفٌ بنبوته ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ لابنه، إذ أنا أعلم الناس بلوازم الألوهية وأحفظهم بحقوق الربوبية، إن كان له سبحانه ولدٌ أنا أحق بعبوديته وتعظيمه من جميع بريته.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ أي تنزه وتعالى شأن من هو مربي العلويات والسفليات، المنبسط بالإحاطة التامة والاستيلاء الكامل الشامل على عموم عروش المظاهر بالاستقلال والانفراد ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أولئك الواصفون من نسبة الولد والمولود له، تعالى شأنه عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وبعد ما انكشفت يا أكمل الرسل بحقية الحق ووحدته وحميديته:

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟﴾ في أباطيلهم ويستغرقوا في ضلالهم وغفلاتهم ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ بمقتضيات أوهامهم وخيالاتهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟﴾ يلحقوا ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾ بملاقات ولحوق ما فيه من أنواع العقوبات والنكبات.

﴿وَ﴾كيف يتخذون له سبحانه ولداً وينسبون له شريكاً، مع أنه سبحانه ﴿هُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي عالم الأسماء والصفات ﴿إِلَٰهٌ﴾ يُعبد له ويُرجع

وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ

إليه مع صرافة وحدته الذاتية ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي عالم الطبيعة والهيولى ﴿إِلَٰهٌ﴾ كذلك بلا تعددٍ وتغيّرٌ في ذاته ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿هُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ المقصور على الحكمة المتقنة البالغة لا حاكم سواه ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ المقصور على العلم الكامل الشامل، المحيط بجميع ما لاح عليه بروق تجليات الوجود وشروق شمس الذات.

﴿وَتَبَارَكَ﴾ أي تعاظم وتعالى الذات القادر العليم الحكيم ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي العلويات والسفليات ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المركّبات والممتزجات، تدبيراً وتصرفاً على وجه الاستقلال بالإرداة والاختيار ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الموعودة قيامها من عنده سبحانه ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ في النشأة الأخرى رجوع الأظلال إلى الأضواء والأمواج إلى الماء.

﴿وَ﴾ بعد ما ثبت وحدة الحق واستقلاله في ملكه وملكوته ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ ولا ينفع المشركين المسرفين ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويعبدون ﴿مِن دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ عنده من آلهتهم الذين زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ﴾ أن الشفاعة أي إلا شفاعة من أقرَّ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ واعترف بتوحيده ﴿وَهُمْ﴾ مع إقرارهم واعترافهم ﴿يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ وينكشفون بوحدة ذاته وكمالات أسمائه وصفاته.

﴿وَ﴾ الله يا أكمل الرسل ﴿لَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي المشركين عن ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾

﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٨٧ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٨٨ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾

وأوجدهم من كتم العدم، وأظهر أشباحهم منه ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ الموجدُ المظهرُ للكل، إذ لا يمكنهم المكابرة والعناد في أمثال هذه الظواهر ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٨٧﴾ ويُصرفون بعد ما اعترفوا باستقلاله في الخلق والإيجاد.

وكيف يشركون معه غيره في استحقاق العبادة، والرجوع إليه في الخطوب والمهمات

﴿وَقِيلِهِۦ﴾ أي من جملة قوله ومقوله ﷺ في مناجاته مع ربه في شأن قومه حين آيس عن إيمانهم، بعد ما بالغ في إرشادهم وتكميلهم منادياً متضرعاً إلى الله، متعجباً من كمال قسوتهم وانهماكهم في الغي والضلال: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ البعداء عن جادة الهداية والرشاد ﴿قَوْمٌ﴾ متناهٍ في الغفلة والإعراض منك ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٨٨﴾ بتوحيدك ولا يقبلون دعوتي، ولا يسمعون قولي.

وبعد ما تضرع وناجى مع ربه، قيل له من قبل الحق على سبيل الوحي والإلهام:

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل، وأعرض عن هدايتهم وإرشادهم، فإنهم مجبولون على الغواية، مطبوعون بالكفر والضلال ﴿وَ﴾ بعد ما أيست منهم يأساً كلياً ﴿قُلْ سَلَٰمٌ﴾ على سبيل التوديع والمتاركة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾ وبال ما تعملون وتدخرون لنفوسكم من الذخائر الجالبة لأنواع العقوبات.

نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد القاصد لتحقيق الحق الحقيق بالإطاعة والاتباع: أن تصفي همك في جميع حالاتك عما سوى الحق، وتخلّي قلبك عن الشواغل العائقة عن التوجه الحقيقي نحوه، وتستقيم على صراط التوحيد مستوياً، مائلاً عن كلا طرفي الإفراط والتفريط، مقتصداً، إذ مرجع جميع الطرق والسبل السوية إلى العدالة الإلهية الفائضة منه سبحانه على استعدادات عموم القوابل والمجالي حسب قابلياتهم الفطرية التابعة للتجليات الإلهية وشؤونه المتفرعة على أسمائه وصفاته الذاتية، وتقتفيَ في تهذيبك وتصفيتك هذا أثر النبي المجبول على العدالة الإلهية وخلافته ونيابته.

وعليك الإعراض عمن أعرض عن الحق وأهله، وانحرف عن سواء السبيل.

جعلنا الله وعموم عباده من زمرة أهل الهداية واليقين، وجنَّبنا من الضلال عن الطريق المستبين.

سورة الدخان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الدخان

لا يخفى على أرباب الكشف والشهود من المنجذبين نحو الحق في عموم أوقاتهم وحالاتهم سيما في أوائل أيام الطلب والإرادة المنبعثة من المحبة الغالبة الجالبة للميل والركون إلى المبدأ الحقيقي والمنشأ الأصلي: أن الحالات الطارئة على أرباب الإرادة في تلك الأوقات متفاوتةٌ قبضاً وبسطاً، تلذذاً وتحزناً، تلوناً وتمكناً، وبالجملة لا طمأنينة للسالك في تلك الأوقات إلى أن يصفو له الحال، وينزلَ على سلطانِ قلبه التمكن والوقار والتمرن والقرار.

ثم لما وصل ﷺ إلى ذلك المقام واستولى وغلب على قلبه سلطانُ المحبة والعشقُ المفرط الإلهي، وكان ورود تلك الحالة إياه في ليلة القدر أو البراءة على اختلاف الرواية، أنزل سبحانه عليه بعض آيات القرآن الفرقان الفارق بين نشأتي التلوين والتمكن؛ ليتقرر في مقام الكشف والشهود، ويتمكن في مقعد الصدق والمقام المحمود، وقال منادياً لحبيبه بعد ما تيمن باسمه الأعلى:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي تجلى على ما تجلى ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ لعموم مظاهره بإفاضة الوجود والرزق الأوفى بمقتضى الكرم والجود ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لخواصهم بإيصالهم إلى سدرة المنتهى والمقام المحمود.

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ....

﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ يا حافظَ حدود الله ومراقبَ وحيه في عموم أوقاتك وحالاتك.

﴿وَ﴾ حق ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ الذي هو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم عليم.

﴿إِنَّآ﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي ابتدأنا إنزاله إليك تأييداً لأمرك وتعظيماً لشأنك ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ كثيرة الخير والبركة، هي ليلة القدر أو البراءة، وإنما أنزلناه مشتملاً على الأحكام والمواعظ والعبر والأمثال والقصص والتواريخ والرموز والإشارات المنبهة على المعارف والحقائق ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾﴾ مخوفِّين بإنزال ما فيه من الأوامر والنواهي والوعيدات الهائلة على من انصرف عن جادة العدالة الإلهية وانحرف عن الطريق المستبين.

وإنما أنزلناه إليك في ليلتك هذه إذ:

﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾ يُميَّز ويُفصل عندك يا أكمل الرسل بعد ما تمكنت في مقر العز والتمكين ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ أي محكمٍ صادرٍ عن محض الحكمة المتقنة الإلهية.

ولهذا صار ما ذكر في كتابك هذا

﴿أَمْرًا﴾ محكماً مبرماً نازلاً ﴿مِّنْ عِندِنَآ﴾ على مقتضى كمال علمنا وقدرتنا ووفور حكمتنا؛ ليكون هدايةً لك وإرشاداً لعموم عبادنا، متابعين لك المهتدين

إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ....

بهدايتك ﴿ إِنَّا كُنَّا ﴾ في عموم الأوقات ﴿مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾﴾ رسلاً مبشِّرين ومنذِرين، منزِّلين عليهم كتباً مُبيِّنةً مُصلِحةً لأحوال عبادنا، بعد ما أفسدوا على أنفسهم. وصار ذلك الإرسال والإنزال

﴿ رَحْمَةً ﴾ نازلةً ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل سُنَّةً سنيةً مستمرةً بين عموم عباده حين ظهر الفساد فيهم، وبالجملةِ

﴿ إِنَّهُۥ ﴾ سبحانه ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لمناجاة عباده نحوه بألسنة استعداداتهم ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ لحاجاتهم ونياتهم فيها.

وكيف لا يرحمهم ولا يصلح أحوالهم مع أنه هو بذاته ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ [السياق يدل على أن التفسير على قراءة: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ على قراءة ابن عامر وغيره] من الكوائن المركبة منها، يعني مربي الكلِّ ومُظهره بالاستقلال والانفراد ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾﴾ أي من أرباب المعرفة واليقين، فاعرفوه كذلك ووقروه.

إذ ﴿لَآ إِلَٰهَ ﴾ ولاموجودَ في الوجود ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ بصرافة وحدته وتنزهه عن وصمة الشركة مطلقاً هو﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أي يُظهر ويوجِد ما يظهر، ويُعدم ما يعدم، بمد ظله إليه وقبضه عنه، إذ هو سبحانه ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾ لا مربي لكم ولهم سواه.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢﴾

لو تأمل عموم العباد في دلائل توحيده سبحانه، ونظروا في آيات ألوهيته وربوبيته ؛ لعرفوا يقيناً وحدة ذاته.

﴿بَلْ هُمْ﴾ أي أكثرهم ﴿فِي شَكٍّ﴾ أي غفلة وتردد ﴿يَلْعَبُونَ ۝٩﴾ ويترددون في أودية الظنون والجهالات حسب آرائهم الفاسدة وأهويتهم الباطلة.

﴿فَارْتَقِبْ﴾ يا أكمل الرسل وانتظر لهم مترقباً بإلمام البلاء عليهم، بعد ما أصروا على كفرهم وشركهم ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ﴾ مظلم ﴿مُّبِينٍ ۝١٠﴾ عظيم.

﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ يحيط بهم وينزل عليهم، فيتيقنوا أن ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١﴾ مؤلمٌ أَلَمَّ بهم، فيتضرعون حينئذٍ نحو الحق صارخين قائلين:

﴿رَّبَّنَا اكْشِفْ﴾ بفضلك وجودك ﴿عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا﴾ بعد ما كشفتَ عنا ﴿مُؤْمِنُونَ ۝١٢﴾ موقنون بوحدانيتك، مصدقون بكتابك ورسولك.

وذلك أن قريشاً لما بالغوا في استهزاء الرسول صلى الله عليه وسلم والتهكم معه ومع ضعفاء المؤمنين، دعا عليهم ﷺ فقال: «اللّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِم بِالسَّبْعِ الشِّدَادِ كَسَبْعِ يُوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَام»[1] فأجاب الله دعاءه، فأخذهم بالقحط،

(١) في التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول برقم: ٨٠٠: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، بلفظ: «اللهم أعِنِّي عليهم بسبع كسبْع يُوسف». وهو صحيح، أخرجه البخاري ومسلم والترمذي. الكتاب المصدر: جامع الأصول في أحاديث الرسول ٢/ ٣٤٨.

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ﴾ ....

فأكلوا الميتة والجيفة، وهلك كثيرٌ منهم، فيغشاهم حينئذ دخانٌ عظيمٌ، يسمعُ كل منهم كلامَ صاحبه ولا يراه من ظلمة الدخان، وقالوا صارخين متضرعين: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [٤٤-الدخان:١١، ١٢]، وكانوا عليه حتى جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ، فقال: إنك قد جئتَ بصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا من الجَهد، فدعا لهم، فكشف الله عنهم جَهدهم، ومع ذلك لم يوفوا بعهدهم الذي عهدوا، لذلك رد الله عليهم بقوله:

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي من أين يتأتى منهم التذكر والاتعاظ ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ﴾ لتكميلهم وإرشادهم ﴿رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ ظاهر الفضل والعظمة أكملُ من كل الرسل.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟﴾ مدبرين وأعرضوا عن دعوته ودينه، مصرين على ما هم عليه ﴿وَ﴾لم يقتصروا على مجرد التولي والإعراض، بل ﴿قَالُوا۟﴾ في شأنه كلاماً لا يليق بعلوِّ مكانه، حيث قال بعضهم إنه: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾ يعلمه بعض الأعجمين مع أنه أمي، وقال البعض الأخر: إنه مجنون مخبط مختل العقل يتكلم بكلام المجانين، مع أنه أعقل الناس وأرشدهم.

ثم قال سبحانه على سبيل الإخبار والتنبيه لحبيبه ﷺ بعد ما دعا لهم بالكشف:

﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا معك يا أكمل الرسل ﴿كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ﴾

قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ ....

المحيط بهم بدعائك زماناً ﴿قَلِيلًاۚ﴾ في دار الاختبار، إلا أنهم لم يوفُوا بعهدهم الذي عهدوا معك لعراقتهم وانهماكهم في الكفر.

ثم خاطبهم سبحانه مخبراً بما سيصدر عنهم فقال:

﴿ إِنَّكُمْ ﴾ وإن كشفنا العذاب عنكم أيها الضالون المكذبون ﴿عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ راجعون إلى كفركم وضلالكم غب الكشف والفرج، مبادرون على ما كنتم عليه. اذكر لهم يا أكمل الرسل

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ أي يوم نأخذهم وننتقم عن جرائمهم وآثامهم في يوم القيامة والطامة الكبرى، كيف ينقذون أنفسهم من عذابنا الذي لا مردَّ له حينئذٍ ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ منهم البتة يومئذٍ.

ثم قال سبحانه تسلية لحبيبه ﷺ، وتسكيناً لقلبه بما أهمّه من استهزاء قومه معه واستخفافهم عليه:

﴿وَ﴾كما امتحنَّا قريشاً بإرسالك إليهم مع أنا نعلم منهم أنهم لم يؤمنوا بك ولم يهتدوا بهدايتك، وأوقعناهم في فتنةٍ عظيمةٍ وبليةٍ فظيعةٍ ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا ﴾ وامتحنا ﴿ قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ بإرسال أخيك موسى الكليم إياهم ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ ﴾ مرسلٌ من لدينا ﴿كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ مكرمٌ بأنواع الكرامات، مؤيدٌ بالمعجزات، مبلغٌ لهم على مقتضى الوحي الإلهي .

﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ ....

﴿أَنْ أَدُّوٓاْ﴾ أي بأن أدوا ﴿إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ حق الله، وأرسلوا معي عباده بني إسرائيل ﴿إِنِّى لَكُمْ﴾ من قبل ربي ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾ مأمونٌ مصونٌ عن الكذب والافتراء، غير متهمٍ به ؛ لدلالة ما عندي من المعجزات على صدق دعوتي ورسالتي.

﴿وَ﴾ عليكم ﴿أَن لَّا تَعْلُواْ﴾ ولا تتكبروا ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ وعلى قبول وحيه وتصديق رسوله ﴿إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾ حجةٍ واضحةٍ دالةٍ على صدقي في دعواي.

﴿وَ﴾مع وضوح الحجة وسطوع البرهان أن تُظهروا عليَّ بالعناد والمكابرة اتكالاً على شوكتكم وكثرتكم، فإنا لا نبالي بكم وبشوكتكم واستيلائكم، بل ﴿إِنِّى عُذْتُ﴾ التجأتُ وثقتُ ﴿بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾ وتقتلون أو تضربوني بالحجارة أو تشتموني باللسان.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى﴾ ولم تقبلوا قولي ودعوتي ﴿فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾ لا عليّ ولا لي.

وبعد ما كذبوه وقصدوا قتله ومقته:

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ وتضرع نحوه بقوله: ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المسرفون ﴿قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ منهمكون في الغي والضلال ؛ لا ينفعهم نصحي، ولا يؤثر فيهم

فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ ....

قولي ودعوتي.

وبعد ما أيس عن إيمانهم، بل خاف عن مكرهم وطغيانهم، قلنا له: إن كان الأمر كذلك

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي سر معهم ﴿لَيْلًا﴾ وبعد ما علموا خروجك ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي يتبعكم فرعون وجنوده ليلحقوكم ويستأصلوكم.

وبعد ما وصلتم غدوة، وهم على أثركم مدركون بكم، فاضرب حينئذ بعصاك البحر، فانفلقَ وتفرقَ من كمال قدرتنا، وادخل أنت ومن معك بلا خوفٍ من الغرق، فاعبروا سالمين.

﴿وَ﴾ بعد عبوركم ﴿اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ ذا فجوةٍ وانفلاقٍ ولا تقصد إلى اجتماعه خوفاً من عبورهم، ولا تضرب بالعصا ليجتمع ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ بعد دخولهم البتة، لا تخف منهم ومن إدراكهم.

ففعل موسى عليه السلام كذلك، فعبروا سالمين، وتركَ البحر على هيئته، فاقتحمه فرعون وجنوده بأجمعهم اغتراراً بعبورهم بافتراق البحر وانفلاقه، فلما دخلوا اتصل البحر فغرقوا بالكلية. وبعد ما هلكوا

﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ أي كثيراً تركوا ﴿مِن جَنَّاتٍ﴾ منتزهات ﴿وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾﴾ جارياتٍ فيها.

﴿وَزُرُوعٍ﴾ كثيرةٍ في حواليها ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي محافل مزينة ومنازل

﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالْأَرْضُ ....﴾

حسنة في خلالها.

﴿وَنَعْمَةٍ﴾ أي أسباب تنعم وترفهٍ من الأمتعة والنسوان ﴿كَانُوا فِيهَا﴾ أي في تلك الجنات ﴿فَٰكِهِينَ (٢٧)﴾ متنعمين مترفهين، كذلك فعلنا بهم معهم من كمال قدرتنا، بعدما أردنا إهلاكهم وانتقامهم بسبب تكذيبهم واستكبارهم على رسولنا، وهكذا نفعل مع كل مكذبٍ متكبرٍ، لا يؤمن بيوم الحساب.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ بعد ما تركوا الكل على ما كان وهَلكوا ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ أي تلك الجنات وما يتفرع عليها من المستلذات المتروكات ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ (٢٨)﴾ لا قرابة بينهم نسباً وديناً، وهم بنو إسرائيل، وبعد ما هُلكوا واستؤصلوا.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالْأَرْضُ﴾ أي لم تكترثا، ولم تعتدا بهلاكهم واستئصالهم أصلاً، مثل اعتدادهما لهلاك المؤمنين وفقدهم.

قال ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا لَهُ فِي السَّمَاءِ بَابَانِ بَابٌ يَخْرُجُ مِنْهُ رِزْقُهُ وَبَابٌ يَدْخُلُ مِنْهُ عَمَلُهُ فَإِذَا مَاتَ فَقَدَاهُ وَبَكِيَا عَلَيْهِ»[1].

وعن المرتضى الأكبر كرم الله وجهه: (إذ مات المؤمن بكى عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء).

قال السدي: (لما قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما بكت عليه السماء)،

---

(١) في التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول برقم: ٣٧٠٥٩: عن أنس بن مالك رضي الله عنه، بلفظ: «ما من عبد إلا وله في السماء بابان». رواه أبو يعلى قلت: روى الترمذي بعضه وفيه موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف. الكتاب المصدر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٧/ ٢٣١.

وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ....

وبكاؤها عبارة عن حمرة أطرافها.

﴿وَ﴾ هم من غاية انهماكهم في الغي والضلال واستئهالهم بالمقت والهلاك ﴿مَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ممهَلين مؤخَّرين إلى وقتٍ آخر، بل أخذتهم العزة بإثمهم حيث لا يمهلهم ولا يسوف عليهم ساعة.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾ وهو استعبادهم وقتل أبنائهم واستحياء نسائهم استذلالاً لهم واستهانةً عليهم، وإنما نجيناهم كرامةً منا إياهم وامتناناً عليهم، وكيف لا يهينهم العذاب النازل عليهم.

﴿مِن فِرْعَوْنَ ۚ﴾ الطاغي المتجبر المتكبر على الأرض ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ﴾ عموم ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ في عصره، متبالغاً في العتو والعناد، والغلبة على العباد أقصى غايته. وبالجملة لقد اخترناهم أي بني اسرائيل واصطفيناهم من بين سائر الأمم المعاصرين معهم على علم متعلق منا أنهم أحقاء بالرياسة والسيادة وأنواع الثروة والجاه على العالمين لكثرة ظهور الأنبياء والرسل فيهم ومنهم وبعد.

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ بعد ما اخترناهم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ العظام الدالة على كمال اختصاصهم بمزيد الشرف والكرامة ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟﴾ واختبارٌ ﴿مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ ظاهرٌ، نختبر به إخلاصهم

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ ....

ورسوخهم على الإيمان.

ثم لما أوضح سبحانه تفضيح حال المجرمين المكذبين لرسول الله قال:

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ المسرفين المكذبين لك يا أكمل الرسل - يعني قريشاً خذلهم الله - ﴿لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ من غاية إنكارهم بقدرة الله، وبما أخبر به الرسول، ونطق به الكتاب:

﴿ إِنْ هِىَ ﴾ أي ما الموتة التي تعرض لنا ﴿ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ التي طرأ علينا في دار الدنيا وأزال حياتنا عنا ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ مبعوثين من قبورنا أحياء، ثم نحشرهم للحساب والجزاء كما زعمتم أيها المفترون الكاذبون، وإن أردتم تصديقنا إياكم في هذه الدعوى.

﴿ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ ﴾ الذين انقرضوا عن الدنيا أحياءً ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ في دعواكم، إنما قالوا ما قالوا تهكماً واستهزاءً.

وبعد ما أصروا على عنادهم وبالغوا في إنكارهم، رد الله عليهم على أبلغ وجه وآكده بقوله مستفهماً على سبيل التقريع والتوبيخ:

﴿أَهُمْ﴾ يعني قريشا ﴿ خَيْرٌ ﴾ مالاً وجاهاً، وثروةً وسيادةً ﴿ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ اسم لمن ملك الحِمْيَر، ككسرى لملوك فارس، وقيصر لملوك الروم، والمراد: أبو كريب سعيد بن منبل، آمن بنبينا قبل بعثته، فتنحّى عنه قومه، معللين أنك قد تركت ديننا، فأخذهم الله بجرمهم هذا، وأهلكهم ﴿وَٱلَّذِينَ ﴾ مضوا

مِن قَبْلِهِمْۚ أَهْلَكْنَٰهُمْۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ ....

﴿مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ من الأمم الهالكة كعادٍ وثمودَ ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْۖ﴾ مع شدة قوتهم وبسطتهم وكثرة شوكتهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ بالجرائم العظيمة الموجِبة للمقت والهلاك، أمثال جرائمكم أيها المجرمون المسرفون.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا خَلَقْنَا﴾ وأظهرنا ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الممتزجات ﴿لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ عابثين بلا طائل.

﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ﴾ وأظهرناهما على هذا النمط البديع والنظام العجيب المشتمل على أنواع التغييرات من الكائنات والفاسدات ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ ليستدلوا بها على وحدة ذاتنا، وكمال علمنا وقدرتنا، ومتانة حكمتنا وحكمنا واستقلالنا في تدبيراتنا، وتصرفاتنا في ملكنا وملكوتنا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ لقصور نظرهم عن إدراك الحكم والأسرار ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ ولا يشعرون إلا بالمحسوسات العادية، أولئك القاصرون عن النظر والاستدلال، القانعون باللذات البهيمية من هذا النظام العجيب كالأنعام بل هم أضل سبيلاً وأسوأ حالاً منها، اذكر لهم يا أكمل الرسل:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ الذي يمتاز فيه المحق عن المبطل والهادي المهتدي عن الضال المضل ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾ وموعد جزائهم وقطع خصوماتهم ﴿أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾ فيجزى كلٌّ منهم حسب ما حوسب، إن خيراً فخيرٌ، وان شراً فشرٌ.

﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤١ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٤٢ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ٤٤ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ٤٥ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ٤٦﴾..........................

﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي﴾ لا يدفع ولا يرفع ﴿مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى﴾ قرابةٌ عن قرابةٍ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ من الإغناء والدفع مما كتب له من الجزاء ثواباً كان أو عقاباً ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤١﴾ بعضهم ببعض على سبيل المظاهرة والمعاونة.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ بمقتضى فضله وجوده، أو قَبِل شفاعة أحدٍ في حق أحدٍ عنايةً منه وعفواً ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على عموم مراداته ومقدوراته ﴿ٱلرَّحِيمُ ٤٢﴾ المشفقُ على عباده عند إنابتهم ورجوعهم نحوه، يقبل توبتهم ويعفو زلتهم، ثم قال سبحانه:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ٤٣﴾ المعدة لذوي الغفلة والضلال ﴿طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ٤٤﴾ المنهمك في الجرائم والآثام، وهو أبو جهل ومن مثله في العتو والعناد، وهي في الحرقة والبشاعة ﴿كَٱلۡمُهۡلِ﴾ أي الذهب الذائب، أو دردي الزيت الأسود، وهو من شدة حرقته وحرارته ﴿يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ٤٥﴾

﴿كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ٤٦﴾ أي كالماء الحار إذا اشتد غليانه، كيف هو، هو مثله يغلي في بطون أهل النار.

قال ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوْا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنْ الزَّقُّوْمِ قَطَرَتْ عَلَى الأَرْضِ لَأَمَرَّتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعِيْشَتَهُمْ أَبَدَاً»[1].

---

(١) في التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول برقم: ٨٠٦٣: عن ابن عباس رضي الله عنهما، بلفظ: «أن رسولَ الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾

﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

فكيف حال من هو طعامه دائماً ولم يكن له غذاء سواه، وبالجملة هم مبتلون بهذا العذاب إلى حيث قطع أمعاءهم، ومع ذلك العذاب الهائل يقال من قبل الحق للزبانية الموكلين عليهم على الدوام:

﴿خُذُوهُ﴾ أي المسرف الأثيم ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾ أي ادفعوه وسوقوه بشدة العنف والزجر ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٤٧﴾﴾ أي وسطه.

﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ﴾ مثل ما في جوفه ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾ ليستغرقوا بالعذاب الهائل استغراقاً تاماً.

وقولوا له عند صبكم وتعذيبكم على سبيل التهكم والتوبيخ:

﴿ذُقۡ﴾ أيها المتجبر الطاغي طعم العذاب الهائل ﴿إِنَّكَ﴾ في نفسك وعلى مقتضى زعمك ﴿أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ المنيع ﴿ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ الغالب المقصور على الغلبة والكرم بين أهل الوادي ثم قولوا لهم بعد تشديد العذاب عليهم تفظيعاً لهم وتفضيحاً:

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ العذاب والنكال الذي أنتم فيه الآن ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ تشكون وتمارون في النشأة الأولى.

ثم ذكر سبحانه على مقتضى سُنَّتِه المستمرة مستقر المؤمنين المتقين ومنزلتهم في النشأة الأخرى فقال:

[آل عمران: ١٠٢] فقال: لو أن قطْرَة من الزَّقُّوم قطرت في الدنيا لأفسدَتْ على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن يكون طعامهم؟» وهو صحيح أخرجه الترمذي. الكتاب المصدر: جامع الأصول في أحاديث الرسول ١٠/ ٥١٦.

إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٢﴾ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٥٤﴾ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ ....

﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ المجتنبين عن محارم الله في عموم أوقاتهم وحالاتهم، بعد ما انقرضوا عن نشأة الاختبار والابتلاء ﴿ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴿٥١﴾ ﴾ أي مقرٍ مأمونٍ مصونٍ عن طريان التغير والانتقال، محروسٍ عن وصمة الغفلة والضلال، وبالجملة ﴿ فِي جَنَّٰتٖ ﴾ متنزهاتٍ من العلم والعين والحق ﴿ وَعُيُونٖ ﴿٥٢﴾ ﴾ جارياتٍ من أنواع المعارف والحقائق والكشوفات والشهودات.

ومن كمال تلذذهم وترفههم باللذات الروحانية

﴿ يَلۡبَسُونَ ﴾ من ألبسة أرباب الكشف والشهود في مراقي درجات القرب والوصول ﴿ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ ﴾ أي مما رقَّ وغلظ من عروض المعارف والحقائق إلى أن صاروا ﴿ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ في المحبة، متماثلين في الوجد والحضور.

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ ينكشف لهم الأمر بعد انقراضهم عن نشأة الدنيا وعالم الحجبات ﴿ وَ ﴾ مع ذلك القرب والوصول والوجد والحضور ﴿ زَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٥٤﴾ ﴾ مصورة من الأعمال الصالحة والأخلاق المرضية والخصائل السنية التي تأدبوا بها عند ربهم في النشأة الأولى.

﴿ يَدۡعُونَ ﴾ أي يطالب بعضهم بعضاً حين تمكنهم واستقرارهم ﴿ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ﴾ ملذةٍ لأزواجهم واستعداداتهم من الفواكه الحاصلة لهم من شجرة اليقين العلمي والعيني والحقي ﴿ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ من غوائل الشيطان

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ....

وتسويلاته وتزييناته كما في النشأة الأولى، وبالجملة هم أحياء عند ربهم بحياته الأزلية الأبدية، باقون دائمون ببقائه السرمدي. بحيث

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ ﴾ أي طعم مرارة الموت المعطِّل عن التلذذ باللذات الروحانية ﴿ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ﴾ التي ذاقوها عند افتراقهم عن لوازم نشأة الإمكان وانقطاعهم عن مقتضيات عالم الناسوت ﴿وَ﴾ بالجملة بعد ما وصلوا إلى فضاء الوجود، وحصلوا في عالم اللاهوت ﴿ وَقَاهُمْ﴾ وحفظهم ربهم ﴿عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ أي عن عذاب بقعة الإمكان ونشأة الناسوت.

وبالجملة إنما أعطوا ما أعطوا

﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ﴾ يا أكمل الرسل وبمقتضى كرمه وجوده بلا استحقاقٍ منهم واستجلاب بطاعاتهم ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذي بشَّر الله به عباده المتقين ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾ والفضل الجسيم، لا فوز أعظم منه وأعلى.

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ ﴾ وسهلناه أي المذكور في القرآن من المعارف والحقائق والرموز والإشارات التي خَلَتْ عنها سائر الكتب ﴿ بِلِسَانِكَ﴾ وبناءً على لغتك ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ أي الأعراب ﴿يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي يفهمونه ويتعظون بما فيه، كي يتفطنوا إلى كنوز رموزه وبعدما لم يؤمنوا بك ولم يقصدوا كتابك، فكيف التذكر والاتعاظ بما فيه. وبالجملة:

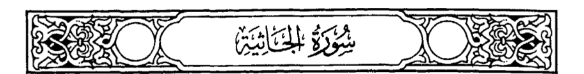
فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

﴿ فَٱرۡتَقِبۡ ﴾ وانتظر يا أكمل الرسل ما ينزِل عليهم من العذاب ﴿ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ منتظِرون أيضاً بما ينزِل عليك من القهر والغضب على زعمهم الفاسد.

جعلنا الله من المتذكرين الفائزين من عنده سبحانه بالفوز العظيم بمنِّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المراقب لنفحات الحق ونسمات لطفه الموهبة من عالم قدسه في عموم أحوالك: أن تلازمَ بالتقوى عن محارم الله، والاجتناب عن منهياته المنافية لآداب العبودية، وتداومَ على التخلق بالأخلاق المرضية الإلهية، والاشتغال بالطاعات المقربة نحوه، والإعراضِ عن الملاهي الملهِية عن التوجه إليه ؛ لتكون من جملة المتقين الفائزين من عنده سبحانه بالفوز العظيم والفضل الكريم.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ....

فاتحة سورة الجاثية

لا يخفى على أرباب العزة المتحققين بمقتضيات الفطرة الأصلية التي فُطروا عليها من المعرفة واليقين: أن المظاهر العلوية والسفلية من الآفاق والأنفس والغيب والشهادة إنما ظهرتْ وبرزتْ من مكمن الغيب وعالم العماء ليستدل الوالهون المستغرقون في مطالعة جمال الله وجلاله من صحائف الكائنات على شؤون الحق وتطوراته، لذلك نبه سبحانه حبيبه صلى الله عليه وسلم على ذلك بعد ما تيمن باسمه الكريم:

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الذي ظهر على ما ظهر بمقتضى حكمته ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لعموم بريته بسعة رحمته ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لخواصهم بمزيد عطيته التي هي وصولهم إلى ينبوع وحدته.

﴿ حمٓ ﴿١﴾ ﴾ يا حاوي الوحي والإلهام ومزيل الشبه الحادثة من الأوهام وذي الأحلام.

﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ الجامع لجميع مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم على الإطلاق ﴿ مِنَ ٱللَّهِ﴾ المحيط لعموم الأنفس والأفاق ﴿ ٱلۡعَزِيزِ ﴾ المنيعِ ساحة عز حضوره عن أن يحيط به الإدراك.

ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ....

﴿ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ المتقن في أفعاله، بحيث لا يكتنه حكمته أصلاً.

اعلموا أيها الأظلال الهالكة في شمس الذات:

﴿إِنَّ فِى﴾ خلق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ورفعها وتنظيمها مطبقة ﴿وَ﴾ في خفض ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ وبسطها ممهدة ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ دلائل واضحات وشواهد لائحات على كمال قدرة الصانع الحكيم ومتانة حكمته وتدبيراته ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ الموقنين بوحدة الحق وكمال أسمائه وصفاته، هذا في خلق الآفاق.

﴿وَفِى خَلْقِكُمْ﴾ أي في خلق أنفسكم وإيجادكم من كتم العدم ﴿وَ﴾ كذا في أنفس ﴿مَا يَبُثُّ﴾ ينتشر ويتفرق على الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ مركبةٍ من العناصر، متحركةٍ على وجه الأرض من أنواع الحيوانات والحشرات وأصنافها ﴿ءَايَٰتٌ﴾ دلائل وشواهد واضحات ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ وحدة الحق وينكشفون بشؤونه وتجلياته التي لا تعد ولا تحصى.

﴿وَ﴾ كذا في ﴿ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وإيلاجهما وازديادهما وانتقاصهما في الفصول الأربعة حسب الأوضاع الفلكية وأشكالها، وارتفاع الشمس وانحطاطها ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ المدبِّر لأمور عباده ﴿مِنَ﴾ جانب ﴿ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ بعد تصعيد الأبخرة والأدخنة وتراكمها سحباً وصيرورتها ماء في غاية الصفاء ﴿فَأَحْيَا بِهِ﴾ بإنزال المطر ﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها وجفافها

وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ

﴿وَ﴾ في ﴿تَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ السائقة للسحب إلى الأراضي الميتة اليابسة، بعد ما تعلق إرادته سبحانه بإحيائها ﴿ءَايَٰتٌ﴾ أنواعٌ من الدلائل القاطعة والبراهين الساطعة على وحدة القادر العليم الحكيم ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾ يستعملون عقولهم في كيفية انبعاث هذه الأوضاع والحركات، وارتباط بعضها مع بعض، وترتب الأمور الغير المحصورة عليها، وانشعاب الحوادث الغير المتناهية منها.

وبالجملة ﴿تِلْكَ﴾ الآيات المجملة الكلية ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي بعض آياته الدالة على نبذٍ من كمالاته، وإلا فلا يفي درك أحد من عباده لتفصيل كمالاتها كلها ﴿نَتْلُوهَا﴾ ونقصها ﴿عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل تأييداً لأمرك وتعظيماً لشأنك ملتبسةً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بلا ريبٍ فيه وترددٍ، وإنما نتلوها عليك لتُبين لهم بها طريق توحيدنا، وتنبههم على وحدة ذاتنا وكمالات أسمائنا وصفاتنا ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ﴾ أي فبأيّ كلامٍ وقولٍ ﴿بَعْدَ﴾ نزول كتاب ﴿ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ﴾ المنزّلة من عنده المبينةِ لتوحيده ﴿يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ يذعنون ويوقنون.

وبعد ما وضح محجة الحق واتضح دلائل توحيده:

﴿وَيْلٌ﴾ عظيمٌ وهلاكٌ شديدٌ ﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ مفترٍ كذابٍ ﴿أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾ منغمسٍ في الإثم والعدوان، مغمورٍ في العناد والطغيان، إلى حيث:

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على عظمة ذاته حين ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ مع كمال

ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا ....

وضوحها وسطوعها ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ يقيم ويديم على ما هو عليه من الكفر والضلال ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ بلا علةٍ وسندٍ سوى العناد والاستكبار، ويصير من نهاية عتوه وعناده حين يسمعها ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ اغتراراً بما عنده من الجاه والثروة، وبالجملة ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ يا أكمل الرسل على إصراره وعناده ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾ في غاية الإيلام، وهو انحطاطه عن رتبة الخلافة الإنسانية، إذ لا عذاب عند العارف أشد من ذلك.

﴿وَ﴾ من نهاية استكباره واغتراره ﴿إِذَا عَلِمَ﴾ بعد ما بلغه ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ الدالة على ضبط الظواهر وتهذيب البواطن ﴿شَيْـًٔا﴾ أي آية ﴿ٱتَّخَذَهَا﴾ وأخذها من غاية تكبره وتجبره ﴿هُزُوًا﴾ محل استهزاءٍ وسخريةٍ يَستهزأ بها ويَتهكم عليها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ البعداء الأفاكون الضالون، المنحرفون عن منهج الحق وصراطه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾﴾ في الدنيا بإعلاء كلمة الحق وإظهار دين الإسلام على الأديان كلها.

ومع تلك الإهانة العاجلة ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ﴾ أي قدامهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد والخذلان، وسعير الطرد والحرمان ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَا يُغْنِى﴾ ولا يدفع ﴿عَنْهُم﴾ يومئذ ﴿مَّا كَسَبُوا۟﴾ وجمعوا من الأموال والأولاد والثروة والجاه ﴿شَيْـًٔا﴾ من الدفع والإغناء من غضب الله عليهم ﴿وَ﴾ كذا ﴿لَا﴾

مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم ....

ينفعهم ﴿ مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستقل بالألوهية، المتفرد بالربوبية ﴿ أَوْلِيَآءَ ﴾ من الأصنام والأوثان، يدعون ولايتهم كولاية الله، ويعبدونهم كعبادته عدواناً وظلماً، بل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ لا عذاب أعظم منه، وبالجملة

﴿هَٰذَا﴾الذي ذُكر في كتابك يا أكمل الرسل ﴿هُدًى﴾ يبين طريق الهداية والرشاد لأهل العناية والتوفيق ﴿وَ﴾ المسرفون ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ المنزَّلة في كتابك هذا، والتي نَزلت في الكتب السالفة ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ ﴾ نازلٌ ناشىء ﴿مِّن رِّجْزٍ﴾ غضبٍ عظيمٍ من الله المقتدر على أنواع الانتقام ﴿ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ مؤلمٌ أشد الإيلام.

وكيف تكفرون أيها الجاحدون المسرفون بآيات المنعم المفضل الكريم مع أنه:

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾ وسهّل عليكم العبور عنه بأن جعله أملس، مستوي السطح، ساكناً على هيئته ﴿ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ أي بمقتضى تسخيره وحكمه ﴿وَ﴾ أنتم تركبون عليها ﴿ لِتَبْتَغُوا۟ ﴾ وتطلبوا ﴿مِن فَضْلِهِۦ ﴾ بالتجارة والاصطياد والغوص، وغير ذلك من الأغراض ﴿وَ﴾ إنما سخَّر وسهَّل ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ نِعَمه، وتواظبون على أداء حقوق كرمه.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿سَخَّرَ لَكُم ﴾ وهيأ لتربيتكم وتدبير معاشكم مظاهر

مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

﴿ مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ إذ أنتم زبدة الكائنات، وخلاصة الموجودات كل ذلك لكم منتشئة منه سبحانه، مستندة إليه أولاً، وبالذات، فعليكم ألا تسندوها إلى الوسائل والأسباب العادية ﴿ مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ في آلاء الله، وسوابغ نعمائه، وكيفية ظهور العالم منه سبحانه، وصدوره عنه، وارتباطه له.

ثم قال سبحانه على سبيل العظة والتذكير: ﴿ قُل ﴾ يا أكمل الرسل نيابةً عنا:

﴿ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ تذكرةً للمؤمنين وتهذيباً لأخلاقهم: اغفروا واصفحوا واعفوا سيما عن المسيئين ؛ ليكون العفو والغفران ديدنةً راسخةً في نفوسكم حتى ﴿ يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ ﴾ أي للكافرين الذين ﴿ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ أي انعكاس الدول وتقلبها عليهم، اغتراراً بما عندهم من الثروة والجاه، وإنما أمر سبحانه المؤمنين بالصفح والعفو عن المسيء ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ سبحانه جزاءً حسناً ﴿ قَوْمًۢا ﴾ من المتخلقين بالعفو عند المقدرة، وكظم الغيظ عند الغضب ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ من الإحسان بدل الإساءة ؛ لأن:

﴿ مَنْ عَمِلَ ﴾ عملاً ﴿ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ أي يعود نفعه إليه ﴿ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ وبالُ إساءته ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ جميعاً، يحاسبكم على

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ....

أعمالكم، ويجازيكم بمقتضاها.

لكن ما أخذ الله سبحانه عباده إلا بعد أن يرسل عليهم رسلاً مبشرين ومنذرين، وينزِّل عليهم كتباً مبينةً لهم طريق الهداية والرشاد، فإن اهتدوا، فقد فازوا بصلاح الدارين، وإن اعتدوا، فقد ضلوا عن سواء السبيل، واستحقوا بالعذاب الأليم.

كما أخبر سبحانه حكايةً عن ضلال بني إسرائيل وانحرافهم عن سواء السبيل:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ بمقتضى فضلنا وجودنا ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة المبينة لهم طريق الهداية والرشاد ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ أي الحكمة المنبئة عن العدالة الإلهية في قطع الخصومات ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ إذ أكثر الأنبياء بُعث منهم وإليهم ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي الرزق الصوري والمعنوي ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿فَضَّلْنَاهُمْ﴾ بإفاضة النعم الجليلة عليهم ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ من أهل عصرهم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ﴾ دلائل مبينات منبهات موضحات ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي التوحيد الذاتي الذي أنت يا أكمل الرسل تُبعث عليه، وعلى تبيينه، وبالجملة ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟﴾ في شأنك أي ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ القطع في كتبهم وعلى ألسنة رسلهم بأنك وكتابك ودينك يا أكمل الرسل على الحق وما أنكروا

بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ

لك إلا ﴿ بَغۡيَۢا ﴾ وطغياناً ناشئاً بينهم حسداً وعدواناً بلا مستندٍ عقلي أو نقلي، فاصبر يا أكمل الرسل على مضضهم. وغيظُهم ﴿ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ الذي اصطفاك بكرامته، واجتباك لرسالته ﴿ يَقۡضِي ﴾ ويحكم ﴿بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ يعني في شأنك ودينك وكتابك، بعد ما عرفوا صدقك وحقية كتابك بالدلائل العقلية والنقلية بأنواع المؤاخذة والمجازاة.

﴿ ثُمَّ ﴾ اعلم يا أكمل الرسل إنا من مقام فضلنا وجودنا ﴿ جَعَلۡنَٰكَ ﴾ تابعاً مقتدياً مقتفياً ﴿ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ ﴾ وطريقةٍ منبئةٍ موضحةٍ ﴿ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ الذي أنت تظهر عليه، وأتيت لتنبيهه، ألا وهي الحقيقة التي هي عبارةٌ عن الوحدة الذاتية الإلهية ﴿ فَٱتَّبِعۡهَا ﴾ أي الشريعة الموصلة إلى الحقيقة بالعزيمة الخالصة ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ﴾ القوم ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ فكيف ينكشفون بسرائرها وحِكمها، ولا تقبل منهم أباطيلهم الناشئة وأراءهم الفاسدة وأحلامهم السخيفة الكاسدة. وبالجملة ﴿ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ﴾ غضب ﴿ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ ﴾ إن تعلقت مشيئته بطردك ومقتك بسبب موالاتهم ومتابعتهم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الخارجين عن مقتضى الحدود الإلهية، المنحرفين عن جادة العدالة الفطرية ﴿ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ ﴾ لكمال مناسبتهم وموالاتهم، إذ الجنسية علة الانضمام وعلامة الالتئام بينهم، فعليك الإعراض والانصراف عنهم وعن موالاتهم

وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ....

﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلعُ على عموم ما في ضمائر عباده ﴿وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ الذين يتقون عن محارم الله، ويوالون أولياء الله لله وفي الله.

﴿هَٰذَا﴾ الذي ذُكر في كتابك من الأخلاق المرضية، المنبهة على القسط الحقيقي والعدل الإلهي ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ يبصرهم طريق الهداية، ويوصلهم إلى التوحيد الذاتي، إن استقاموا عليها بالعزيمة الصادقة الصحيحة ﴿وَهُدًى﴾ يهديهم إلى سواء السبيل ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ نازلةٌ من قبل الحق ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ يوفقون للإيمان(١) والإيقان والكشف والعيان، ثم قال سبحانه:

﴿أَمْ حَسِبَ﴾ الغافلون الضالون المسرفون ﴿ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ﴾ واكتسبوا طول عمرهم ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ المبعِدة لهم عن طريق الحق وسبيل الهداية ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ ونصيَّرهم بعد ما رجعوا إلينا ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المقربة لهم إلى الحق وتوحيده، أي مثلهم بلا مزيةٍ لهم عليهم، بل ظنوا أنهم وهم ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ [السياق يدل على أن التفسير على قراءة ابن عامر ونافع وغيرهما: ﴿سَوَآءٌ﴾] يعني حياة المشركين ومماتهم عندنا كحياة الموحدين المخلصين ومماتهم؟ كلا وحاشا ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي حكمهم هذا، وما حكموا به لأنفسهم أولئك الجاحدون الجاهلون.

---

(١) في المخطوط (يوفقون على الإيمان).

وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾.............

﴿وَ﴾ كيف يحكم الحكيم المتقن في عموم أحكامه وأفعاله بمساواة المطيع والعاصي، مع أنه ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ المستوي بالعدل القويم على عروش عموم المظاهر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ ملتبسةً بالحق، أي بالعدالة الصورية المنبئة عن العدالة المعنوية الحقيقية، وإنما خلقها كذلك ﴿بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ من خيرٍ وشرٍ، بعد ما أمر الحق بما أمر، ونهى عن ما نهى ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ في أجور أعمالهم وجزائهم زيادةً ونقصانا.

﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾ أيها المعتبر الرائي إلى ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ﴾ أي إلى الجاحد الجاهل المعاند الذي اتخذ ﴿إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي ما يهواه، وكيف أطاع من يتمناه وعبد إلى ما يحبه ويرضاه، ولم يفوض أمره إلى مولاه ﴿وَ﴾ ما ذلك إلا أن ﴿أَضَلَّهُ ٱللَّهُ﴾ العليم الحكيم باسمه المذلِّ المضلِّ مع أنه أظهره سبحانه ﴿عَلَىٰ﴾ صورة ذي ﴿عِلۡمٖ﴾ وجَبله على فطرة أولي المعرفة والتوحيد ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ﴾ لئلا يسمع كلامه الحق من أهله ﴿وَ﴾ ختم أيضاً على ﴿قَلۡبِهِۦ﴾ لئلا يتفكر في آيات الله ودلائل توحيده ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ﴾ غليظةً وغطاءً كثيفاً، لئلا يعتبر من عجائب مصنوعاته سبحانه وغرائب مخترعاته، مع أنه خلقه سبحانه كذلك ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ﴾ ويرشده أي ينقذه من الضلال ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ إضلال ﴿ٱللَّهِۚ﴾ إياه وإذلاله ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ وتتفطنون من تبدل أحواله أيها العقلاء

وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ....

المجبولون على فطرة العبرة والعظة من غاية غوايتهم وضلالهم، عن مقتضى كمال قدرة الله، وعدم تنبههم وتفطنهم بوحدة ذاته، وكمال أسمائه وصفاته، واستقلاله في تدبيراته وتصرفاته.

﴿وَقَالُوا۟﴾ منكرين الحشر والنشر: ﴿مَا هِىَ﴾ أي ما الحال والحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ التي ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ فيها لا منزل لنا سواها، ولا سكن لنا غيرها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا يُهْلِكُنَآ﴾ ويميتنا فيها ﴿إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾ أي مر الزمان وكرُّ الأعوام، لا فاعل سواه، ولا متصرف إلا هو ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ الذي صدر عنهم ﴿مِنْ عِلْمٍ ۖ﴾ عقلي أو نقلي أو كشفي بل ﴿إِنْ هُمْ﴾ أي ما هم باعتقادهم هذا ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ ظناً على وجه التقليد والتخمين بلا سندٍ لهم يستندون إليه، سوى الأُلف بالمحسوسات والتقليد بالرسوم والعادات.

﴿وَ﴾ من نهاية جهلهم وغفلتهم عن الله وعن مقتضى ألوهيته وربوبيته ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ الدالة على كمال تربيتنا إياهم مع كونها ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ مبيناتٍ لهم طريق الهداية والرشاد، منبهاتٍ لهم إلى ميعاد المعاد ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ حين سمعوها ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ على سبيل الإنكار والاستبعاد: ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ وأسلافنا الذين مضوا وانقرضوا أحياءً كما كانوا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ في دعوى الحشر والنشر والميعاد الجسماني.

قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾

وبعد ما أعرضوا عن الحق وانصرفوا عن الآيات البينات، وتشبثوا بأمثال هذه الحجج الواهية:

﴿قُلِ﴾ لهم يا أكمل الرسل كلاماً يحرك سلسلة حميتهم الفطرية، ومحبتهم الجِبلِّية لو ساعدهم التوفيق والعناية من عندنا: ﴿ٱللَّهُ﴾ المظهرُ للكل، المحيطُ به، المتصرفُ فيه على الإطلاق بالاختيار والاستحقاق ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ ويبعثكم في النشأة الأخرى كما أوجدكم وأظهركم من كتم العدم أولاً في النشأة الأولى، يبسط ظله عليكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ ويعدمكم بقبضه عنكم ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ أي أنتم ومن انقرض من آبائكم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الذي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وفي وقوع ما فيه من الحساب والجزاء والسؤال والصراط والجنة والنار وسائر المعتقدات الأخروية ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ المجبولين على الكفران والنسيان ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ وقوعه وقيامه، بل ينكرون عليه لاعتيادهم بالأمور الحسية، وقصورهم عن مدركات الكشف والشهود.

﴿وَ﴾ كيف ينكرون جمع الله عباده في النشأة الأخرى إذ ﴿لِلَّهِ﴾ المتوحدِ في الألوهية والربوبية ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وملكوتهما، وله التصرف المطابق في ملكه وملكوته بالاستقلال، إرادةً واختياراً ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ المعدة للحشر والجزاء ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ المنكرون حين يشهدون ربح المحقين المؤمنين بقيام الساعة، وبحقية جميع ما فيها من الوعد والوعيد.

وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ ....

﴿وَتَرَىٰ﴾ أيها المعتبر الرائي حين تقوم الساعة ويحشر الناس إلى الحشر للحساب ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿جَاثِيَةً﴾ أي كل فردٍ فردٍ من أفراد الأمم، ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ بين يدي الله إلى صحيفة أعمالها التي كُتب فيها جميع أحوالها وأفعالها الكائنة الحاصلة منها في النشأة الأولى، فيقال لهم حينئذٍ: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ كل منكم ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ في نشأتكم الأولى، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ، وبالجملة:

﴿هَٰذَا كِتَابُنَا﴾ الذي فصّلنا فيه أعمال كلٍ منكم ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾ ويذكّركم ﴿بِالْحَقِّ﴾ على الوجه الذي صدر عنكم بلا زيادةٍ ولا نقصانٍ ﴿إِنَّا﴾ بعد ما كلفناكم على امتثال أوامرنا، والاجتناب عما نهيناكم عنه ﴿كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ ونأمر الملائكة الموكلين عليكم، المراقبين لأحوالكم وأعمالكم أن يكتبوا جميع ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي أعمالكم حسناتها وسيئاتها، صغائرها وكبائرها.

وبعدما تحاسبون على مقتضى كتبكم وصحائفكم:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أذعنوا وأيقنوا بوحدة الحق، وصدَّقوا رسله وكتبه ﴿وَ﴾ مع كمال إيمانهم ويقينهم ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الأفعال والأخلاق تقرباً إلى الله، وتأدباً معه سبحانه بما يليق بعبوديته وتعظيم شأنه ﴿فَيُدْخِلُهُمْ﴾ اليوم ﴿رَبُّهُمْ﴾ الذي يوفقهم على الإيمان والتوحيد

فِي رَحْمَتِهِۦٓۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ....

﴿فِي﴾ سعة ﴿رَحْمَتِهِۦٓۚ﴾ وفضل وحدته وفضل لطفه ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي بشر به عباده المؤمنين المخلصين ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾ والفضل العظيم، لا فوزَ أعظم منه وأعلى.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بالله وأنكروا وحدة ذاته، بل أثبتوا له شركاء ظلماً وزوراً، يقال لهم حينئذٍ من قبل الحق مستفهماً على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي ألم يأتكم رسلي، ولم يتلوا عليكم آياتي الدالة على عظمة ذاتي وكمال قدرتي على أنواع الانتقامات والوعيدات، فكذبتم بها وبهم، بل ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ على الرسل ومن قبول الآيات ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿كُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ مستكبرين، عادتكم الإجرام والعدوان.

﴿وَ﴾ من كمال استكباركم واغتراركم بما عندكم من الجاه والثروة ﴿إِذَا قِيلَ﴾ لكم إمحاضاً للنصح: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ الذي وعدكم على ألسنة رسله وكتبه ﴿حَقٌّ﴾ مطلقاً، لا بد وأن يقع الموعود منه سبحانه البتة بلا خُلف في وعده ﴿وَ﴾ لا سيما ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ الموعودة آتيةٌ ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ وفي قيامها، وإذا سمعتم كلمة الحق عن أهله ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى﴾ على وجه الاستبعاد والاستغراب ﴿مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ الموعودة وما معنى قيامها والإيمان بها ﴿إِن نَّظُنُّ﴾ أي ما نظن بها وفي شأنها ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ ضعيفاً، بل وهماً مرجوحاً سخيفاً، إذ ما لنا علم بها

وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا

سوى الاستماع من أفواه الناس ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ بها حتى نؤمن لها وبقيامها، ونصدق بما فيها من المواعيد والوعيدات.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿بَدَا﴾ وظهر ﴿لَهُمْ﴾ بعد ما تبلى السرائر وانكشفت الحجب والأستار ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ مصرين عليه، وعرفوا وخامة عاقبته ﴿وَ﴾ حينئذٍ ﴿حَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِم﴾ جزاء ﴿مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَقِيلَ﴾ لهم حينئذٍ من قبل الحق: ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ نتركم في النار خالدين ﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ ونبذتم وراء ظهوركم ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ بل أنكرتم لقياه، وكذبتم الرسل المبلغين لكم أخباره، المنذرين لكم من أهواله ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أبداً، لا منزل لكم سواه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ منقذين لكم منها بعد ما استوجبتم بها بمفاسد أعمالكم ومقابح أفعالكم.

﴿ذَٰلِكُم﴾ الذي وقعتم فيها وابتُليتم بها ﴿بِأَنَّكُمُ﴾ بسبب أنكم ﴿ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على الرشد والهداية ﴿هُزُوًا﴾ محل استهزاءٍ، واستهزأتم بها بلا مبالاةٍ بشأنها، وأنكرتم عليها بلا تأملٍ وتفكرٍ في برهانها ﴿وَ﴾ أيضاً بسبب أنكم ﴿غَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ ولذاتها وشهواتها، بحيث لا تلتفتون إلى العقبى ولذاتها الأبدية، بل تنكرون عليها عناداً ومكابرةً ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أي

وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

من النار المترتبة على ذلك الاتخاذ والغرور ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ أي لا يمكنهم أن يعتذروا عند الله، ويتداركوا ما فوتوا على أنفسهم بالتوبة والإنابة، إذ قد انقرض أوانه ومضى زمانه.

وبعد ما ثبت أن مرجع الكل إلى الله ومحياه ومماته بيده، وله أن يثيب ويعاقب عباده على مقتضى فضله وعدله.

﴿ فَلِلَّهِ ﴾ على وجه الاختصاص لا لغيره من الوسائل والأسباب العادية ﴿ الْحَمْدُ ﴾ المستوجبُ [في نسخةٍ: المستوعب] لجمع الأثنية، والمحامد الصادرة من ألسنة ذرائر مظاهره، لكونه ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ ﴾ أي العلويات ﴿ وَرَبِّ الْأَرْضِ ﴾ أي السفليات، وربِّ ما يتركب منهما من الممتزجات، وبالجملة ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ أي مربي الكل، هو بذاته علواً وسفلاً، بسيطاً ومركباً، غيباً وشهادةً.

﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ ﴾ والعظمة ﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تدبيراً وتصرفاً، حلاً وعقداً، إذ ظهور الكل من آثار أوصافه وأسمائه ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب على عموم تدابيره وتقاديره، إرادةً واختياراً ﴿ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ المتقن في جميع مقدوراته ومراداته على الوجه الأبلغ الأحكم.

فعليكم أيها المجبولون على فطرة العبودية والعرفان: أن تحمدوه وتكبروا ذاته، وتشكروا نعمه؛ لتؤدوا شيئاً من حقوق كرمه، إن كنتم مخلصين.

جعلنا الله من زمرة الحامدين المخلصين.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتحقق بمقام الرضا والتسليم، المنكشفُ بعظمة الله وكمال كبريائه وعلو شأنه وبهائه: أن تواظب وتلازم على أداء الشكر له، ملاحظاً نعمه الفائضة المترادفة عليك، المتجددة آناً فآناً، بحيث تستغرق جميع أوقاتك وحالاتك بشكره سبحانه، إذ علامة العارف الواصل ألا يرى في مملكة الوجود سواه سبحانه، ولا يتكلم إلا به ومعه وفيه وله، لا إله إلا هو، ولا نعبد إلا إياه.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ ....

فاتحة سورة الأحقاف

لا يخفى على من انكشف بسلطنة الحق واستيلائه التام على عروش عموم مظاهره: أن إثبات الوجود لما سواه وادعاء التحقق والثبوت لغيره من الأظلال الهالكة في شمس ذاته، إنما هو زورٌ ظاهر وقولٌ باطلٌ، بل ما ظهر إلا من انعكاس أشعة أسمائه وآثار أوصافه الذاتية الصادرة منه سبحانه حسب شؤونه وتجلياته الحبية، ليستدل بها من جُبل على فطرة الدراية والشعور على وحدة ذاته وكمال أسمائه وصفاته.

لذلك خاطب سبحانه حبيبه بما خاطب، وأوصاه بما أوصى، بعد ما تيمن باسمه العلي.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ المنزل للكلم مفصحاً عما عليه قضاؤه وإرادته ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ لعموم عباده يصلح أحوالهم على مقتضى حكمته ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم إلى منبع رحمته وفضاء وحدته.

﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ يا من حمل أعباء الرسالة بحولنا وقوتنا، ومال إلى جناب قدسنا بالميل الذاتي الحقيقي بعد مساعدة توفيقنا وجذبٍ من جانبنا.

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ ....

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي أُنزل إليك لتأييد أمرك، وضبط شرعك[1] ودينك ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ المطلع لما في استعدادات عباده ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب على جميع ما دخل في حيطة قدرته وإرادته ﴿ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ في مطلق تدابيره الصادرة منه لضبط مصالح عباده.

ثم التفت سبحانه تهويلاً وتفخيماً لحكمه فقال:

﴿مَا خَلَقْنَا﴾ وأظهرنا من كتم العدم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي آثار الأسماء والصفات الذاتية ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ أي عالم الاستعدادات القابلة لانعكاس أشعة أنوار الذات الفائضة عليها حسب الشؤون والتطورات الجمالية والجلالية ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ من الآثار المتراكمة من امتزاج الفواعل الأسمائية مع الآثار الناشئة من قوابل المسميات والهيولى[2] ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي خلقاً ملتبساً بالصدق المطابق للواقع ﴿وَ﴾ قدَّرنا بقاء ظهورها إلى ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ أي وقتٍ مقدرٍ عندنا، محفوظٍ في خزانة حضرة علمنا ولوح قضائنا لا نطلع أحداً عليه، فإذا جاء الأجل المسمى انعدم الكل بلا تقدمٍ وتأخرٍ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وأنكروا كمال قدرتنا واقتدارنا على إيجاد الأشياء وإعدامها وإبدائها وإعادتها ﴿عَمَّآ أُنذِرُوا۟﴾ من أهوال يوم القيامة المعدة لانعدام الكل وانقهار الأظلال الهالكة في شروق

(١) في المخطوط (عرشك)وفي نسخة أخرى (شرعك) وهو الأصح
(٢) في نسخة أخرى وردت هكذا: (من الآثار المتراكمة المتكونة من امتزاج آثار الفواعل والمؤثرات الأسمائية مع المتأثرات الناشئة من قوابل المسميات والهيولى).

﴿مُعْرِضُونَ ۝٣ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ....

شمس الذات ﴿مُعْرِضُونَ ۝٣﴾، لذلك لا يترددون له، ولا يتهيؤون أسبابه، ولا يستعدون لحلوله.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعد ما أفرطوا في الإعراض عن الله وعن توحيده وأثبتوا له شركاء ظلماً وزوراً، مستفهماً على سبيل الإلزام والتبكيت: ﴿أَرَءَيْتُم﴾ أي أخبروني ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وتتخذون آلهةً سواه وتعتقدونهم شركاء معه في الأرض ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟﴾ أي أيّ شيء أوجدوا ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ حتى اتصفوا بالخالقية واستحقوا بالمعبودية والربوبية، وأخبروني هل تنحصر شركتهم مع الله بعالم العناصر والمسببات ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أيضاً ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وعالم الأسباب ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ﴾ نازلٍ من قبل الحق ﴿مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ القرآن يؤمَر فيه باتخاذ هؤلاء الهلكى آلهةً سوى الله، مستحقة بالعبادةِ ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ﴾ ائتوني ببقية ﴿مِّنْ عِلْمٍ﴾ دليلٍ عقلي أو نقلي، قد بقي لكم من أسلافكم، يدل على إيثارهم واختيارهم آلهةً شركاء معه سبحانه في ألوهيته، وبالجملة ائتوني بسند صحيح ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤﴾ في دعوى الشركة مع الله، المنزه عن التعدد مطلقاً.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ طريقاً وأسوأ سبيلاً وأشدُّ سفهاً وحماقةً ﴿مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ السميع العليم البصير الحكيم القدير الخبير،

مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ....

المستقل في تصرفاته بالإرادة والاختيار ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾ أي أصناماً لا يسمع دعاءه، ولا يجيب ولا يعلم بحاله، ولا يدبر له أموره، وإن دعاه وتضرع نحوه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي أبداً ما دامت الدنيا بل ﴿وَهُمْ﴾ أي معبوداتهم الباطلة ﴿عَن دُعَآئِهِمْ﴾ أي عن دعاء عابديهم ﴿غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ ذاهلون، لا شعورَ لهم حتى يفهموا أو يجيبوا.

﴿وَ﴾ هم قد عبدوهم معتقدين نفعهم، ولم يعلموا أنهم ﴿إِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ وجُمعوا في الحشر للحساب والجزاء ﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ أي المعبودين للعابدين، بل ﴿وَكَانُوا۟﴾ أي المعبودين ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي العابدين لهم ﴿كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ منكرين جاحدين.

﴿وَ﴾ هم كانوا من شدة غيهم وضلالهم عنا وعن توحيدنا ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا﴾ الدالةُ على وحدة ذاتنا وكمال أسمائنا وصفاتنا مع كونها ﴿بَيِّنَـٰتٍ﴾ واضحاتٍ مبيناتٍ، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ﴾ الصريح الصحيح المبيِّن ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي حين جاءهم ليهديهم ويبين لهم طريق الحق وتوحيده ﴿هَـٰذَا﴾ المتلو ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ ظاهر كونه سحراً باطلاً، وهذا التالي ساحرٌ عظيمٌ، إنما قالوا هكذا ونسبوا إلى ما نسبوا؛ لعجزهم عن إتيان مثله، مع إنهم من أرباب اللسن ووفور دواعيهم بالمعارضة معه.

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ ....

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي بل انصرفوا عن نسبته إلى السحر إلى أفحش من ذلك، وهو الافتراء فيقولون: اختلقه هذا المدّعي من تلقاء نفسه ونَسَبه إلى ربه تغريراً وترويجاً ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعد ما نسبوا كتابك إلى الفرية كلاماً مفصحاً لهم عن حقيقة الأمر وحقيّته لو تأملوا فيه: ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ واختلقته من عندي ونسبته إلى الله زوراً وبهتاناً، فيأخذني العزيز بإثم الافتراء البتة، وإن أخذني ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ﴾ ولا تدفعون ﴿لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ حين أخذني وانتقم، وبالجملة ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِمَا تُفِيضُونَ﴾ وتخوضون ﴿فِيهِ﴾ أي في كلامه بما يليق به وبشأنه سبحانه من نسبته إلى السحر والافتراء وتكذيبه بأنواع وجوه المراء ﴿كَفَىٰ بِهِۦ﴾ أي كفى الله ﴿شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي بيننا يجازينا على مقتضى علمه وخبرته بي وبكم ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ المبالغ في الستر والعفو لمن استغفر له ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ لمن تاب ورجع نحوه نادماً عن ما صدر عنه، يقبل توبته ويمحو زلته.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعد ما اقترحوا عليك من الآيات التي تهواها نفوسهم ليلزموك ويعجزوك: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا﴾ رسولاً بديعاً ﴿مِّنَ﴾ بين ﴿ٱلرُّسُلِ﴾ مبتدعاً أمراً غريباً مدعياً الإتيان، بل ﴿وَ﴾ الله ﴿مَآ أَدْرِى﴾ وأعلم بحال نفسي ﴿مَا يُفْعَلُ بِى﴾ وكيف يُصنع معي ﴿وَلَا بِكُمْ﴾ أي وكيف بما يصنع

إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ....

بكم، بل ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ أي ما أتبع ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ من قِبل ربي ويطلعني عليه ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ من قِبل الحق ﴿مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾ مبينٌ موضِّحٌ مظهرٌ لكم بإذنه ما أوحي إلي من وحيه، وما لي إلا التبليغ والإنذار، والتوفيقُ من الله العليم الحكيم.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعد ما أقر رأيهم على أن القرآن مختلق من عندك، افتريتَه على الله، أو سحرٌ نسبتَه إلى الله تغريراً وترويجاً: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ العليم العلام ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ بلا مستندٍ لكم في تكذيبه وإنكاره، ﴿وَ﴾ الحال أنه قد ﴿شَهِدَ شَاهِدٌ﴾ حَبْرٌ ماهرٌ ﴿مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ عالمٌ بالتوراة ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أي على مثل ما في القرآن، يعني أقر واعترف عبد الله بن سلام أنه قرأ في التوراة أحكاماً وأوامرَ مثل ما في القرآن، ووجد فيها من أوصاف القرآن ما يُلجئه إلى الإيمان به ﴿فَـَٔامَنَ﴾ به وصدَّق من أُنزل إليه، وامتثل بما فيه ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم عن الإيمان والقبول، بل كذبتم به، وأنكرتم عليه ألستم قوماً ضالين ظالمين؟!! ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع على ما في استعدادات عباده ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ الخارجين عن مقتضى حدوده إلى زلال هدايته وتوحيده.

﴿وَ﴾ من شدة شقاقهم ونفاقهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي

﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ١١ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ﴾ ....

لأجلهم وفي حقهم ﴿لَوۡ كَانَ﴾ الإيمان وبما أتى به محمد من الدين ﴿خَيۡرٗا﴾ مما نحن عليه ﴿مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ بأنواع الكرامة والجاه والثروة، إذ هو ومن تبعه كلهم أراذلُ سقاطٌ رعاةٌ فقراءُ، فاقدين لوجه الكفاف، ونحن أغنياء ذوو الحظ بين الناس، إنما قالته(١) قريشٌ حين افتخروا على المؤمنين وقصدوا إضلالهم وإذلالهم ﴿وَ﴾ لا تبال يا أكمل الرسل بهم وبعنادهم بك وبكتابك ﴿إِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ من جهلهم وضلالهم: ﴿هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ١١﴾ وأساطير الأولين.

﴿وَ﴾ عليك يا أكمل الرسل أن لا تلتفت إلى هذياناتهم وأباطيلهم، إذ جاء ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾ أي قبل كتابك ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي التوراة حال كونه ﴿إِمَامٗا﴾ مقتدى لقاطبة الأنام ﴿وَرَحۡمَةٗۚ﴾ شاملةً فوائدها على كافة الخواص والعوام ﴿وَهَٰذَا﴾ الكتاب الذي نُزِّل عليك يا أكمل الرسل ﴿كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ﴾ لجميع ما مضى من الكتب السالفة ﴿لِّسَانًا عَرَبِيّٗا﴾ أسلوباً ونظماً، إنما جاء كذلك ﴿لِّيُنذِرَ﴾ [التفسير هنا على قراءة ابن عامر ونافع وغيرهما: ﴿لِتُنْذِرَ﴾] بما فيه من الوعيدات الهائلة ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ خرجوا عن مقتضى العدالة الإلهية بمتابعة آرائهم الباطلة المنحرفة عن صراط الحق الحقيق بالإطاعة والاتباع ﴿وَ﴾ ليصير ﴿بُشۡرَىٰ﴾ بما فيه من أنواع المواعيد الدالة على كرامة الحق

(١) في المخطوط (قاله).

لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ ....

وإحسانه ﴿لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ من خُلّص عباده.

﴿إِنَّ﴾ المحسنين ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟﴾ بعدما تحققوا بمقام العبودية ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد المستقل بالألوهية والربوبية ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما تمكنوا من مقر التوحيد وتمرنوا عليه ﴿ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ فيه ورسخوا بمحافظة الآداب الشرعية والعقائد الدينية الموضوعة لتأييد أرباب المعرفة، وتمكينهم على جادة التوحيد؛ لئلا يطرأ عليهم التزلزل والانحراف عن صراط الحق وسواء سبيله ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بعد ما وصلوا إلى مقر التمكين ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ عن التردد والتلوين. وبالجملة

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ المعدة لأرباب العناية ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ بلا تبديلٍ ولا تحويلٍ، وإنما جُوزوا ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ من الإحسان مع الله بمراعاة الأدب معه سبحانه بملازمة الطاعات والعبادات على وجه الإخلاص والتسليم، ومع عموم عباده بحسن المعاشرة والمصاحبة وأداء حقوق المؤاخاة والموالاة.

ثم أشار سبحانه إلى معظم أخلاق المحسنين المستحقين بخلود الجنة وبالفوز العظيم فيها، فقال:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ أي ومن جملة ما ألزمنا على الإنسان الاتصاف به

بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي ....

والمحافظة عليه حتماً إكرامه ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ﴾ لهما وحسن الأدب معهما، أداءً لحقوق تربيتهما وحضانتهما له، وكيف لا يحسن إليهما إذ ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ﴾ لأجله حين حبلت به ﴿كُرۡهٗا﴾ مشقةً عظيمةً، وألماً شديداً، وحملاً ثقيلاً ﴿وَ﴾ حين ﴿وَضَعَتۡهُ﴾ أيضاً ﴿كُرۡهٗاۖ﴾ أشد من مشقة الحمل، وأكثر ألماً منها ﴿وَ﴾ليست مشقتها ومُقاساتها زماناً قليلاً، بل ﴿حَمۡلُهُۥ﴾ أي مدة حمل أمه إياه في بطنها ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ أي مدة فطامه عن لبنها كلاهما ﴿ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ وهي مدةٌ طويلةٌ، ثم بعد فطامه أيضاً تُلازم حفظه وحضانته ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ وكَمُل عقله ورشده ﴿وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ إذ القوة العاقلة إنما تكاملت دونها، لهذا قيل: لم يُبعث نبي إلا بعد الأربعين إلا نادراً ﴿قَالَ﴾ بعد ما تذكر نعمَ الحق الفائضة عليه من بدء فطرته إلى أوان رشده وكماله مناجياً مع ربه، مستمداً منه: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ أي أولعني وحرِّصني بتوفيقك إياي ﴿أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾ طول دهري وأواظب على أداء حقوقها حسب طاقتي وقدر قوتي ﴿وَ﴾ كذا أشكرَ نعمتك التي أنعمت ﴿عَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ إذ أداء حقوقهما، وما لزم عليهما من حقوق نعمك عليها واجبةٌ علي ﴿وَ﴾كذا حرِّصني بمقتضى كرمك وجودك ﴿أَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا﴾ مطلقاً على الوجه الذي ﴿تَرۡضَىٰهُ﴾ عني ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿أَصۡلِحۡ لِي﴾ بمقتضى كرامتك علي عملي،

فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ....

واجعل بفضلك صلاحي سارياً ﴿ فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ ﴾ ليكونوا صلحاءَ مثلي، وارثين مستحقين لكرامتك وعنايتك بهدايتهم وصلاحهم ﴿إِنِّي تُبۡتُ﴾ ورجعت ﴿ إِلَيۡكَ ﴾ عن جميع ما لا يرضيك من عملي، إذ أنت أعلم مني بحالي ﴿ وَإِنِّي ﴾ إليك يا رب ﴿ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ المنقادين لك، المطيعين لحكمك، المفوضين أمورهم كلها إليك، إذ لا مقصد لنا غيرك ولا مرجع سواك.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ السعداء المولعون على شكر نِعم الله وأداءِ حقوق الوالدين، وحسن المعاشرة معهما، والإحسان إليهما، هم ﴿ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ ﴾ [التفسير جرى على قراءة ابن عامر ونافع وغيرهما: ﴿يُتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوْا وَيُتَجَاوَزُ عَنْ...﴾ الآية ولكن سياق ﴿وَيَتَجَاوَزُ﴾ سبحانه لا تدل إلا على قراءة المطوعي ـ بفتح الياء ـ وهي قراءة شاذة ولكنها تُذكر ضمن القراءات الأربع عشرة] ﴿يُتَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾ بقبولٍ حسنٍ ﴿ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ مخلصين فيه، طالبين رضاء الله، مجتنبين عن سخطه ﴿ وَنَتَجَاوَزُ ﴾ وَيَتَجَاوَزُ سبحانه ﴿ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ ﴾ بعد ما تابوا، ورجعوا نحوه نادمين، وهم ﴿ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ ﴾ ومعهم، آمنون فائزون لا خوفٌ عليهم، ولا هم يحزنون، إنجازاً لما وعد لهم الحق ﴿ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ في النشأة الأولى.

وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ ....

وبعد ما وصى سبحانه بما وصى من رعاية حقوق الوالدين، وما يترتب عليها من الفوز العظيم عقَّبه بضده، وهو عقوق الوالدين، وما يترتب عليها من العذاب الأليم فقال:

﴿ وَٱلَّذِى ﴾ أي والمسرف المتناهي الذي ﴿ قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ ﴾ من فرط سرفه وعصيانه وشدة عقوقه عليهما حين دعواه إلى الإيمان والتوحيد، واجتهدا أن يخلصاه من ظلمة الشرك والتقليد، وعن أهوال يوم القيامة وأفراغها: ﴿ أُفٍّ ﴾ أي أتضجرُ ﴿ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ ﴾ وتخوفانني من العذاب والنكال بعد ﴿أَنْ أُخْرَجَ ﴾ من قبري حياً ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿ قَدْ خَلَتِ ﴾ ومضت ﴿ ٱلْقُرُونُ ﴾ الماضية ﴿مِن قَبْلِى﴾ ولم يخرج أحدٌ منهم من قبره حياً، فأنا أيضاً لا أخرج أمثالهم، والحال أنه هو يصر على هذا ﴿ وَهُمَا ﴾ من كمال تحننهما وترحمهما ﴿ يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ ﴾ ويطلبان الغوث والتوفيق منه سبحانه لأجل إيمانه قائلين له على وجه المبالغة في التخويف: ﴿ وَيْلَكَ ﴾ أي ويلٌ وهلاكٌ ينزل عليك أيها المسرف لو لم تؤمن ﴿ ءَامِنْ ﴾ بالله، وبجميع ما جاء من عنده في النشأة الأولى والأخرى ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ بعموم المواعيد والوعيدات الصادرة منه سبحانه على ألسنة رسله وكتبه ﴿حَقٌّ ﴾ لا خلف فيه، سينجزه الله القادر المقتدر على وجوه الانتقام والإنعام ﴿فَيَقُولُ ﴾ بعد ما سمع منهما ما سمع من شدة إصراره وإنكاره: ﴿مَا هَٰذَآ ﴾ الذي جئتما به على سبيل العظة

إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ

والتذكير ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي أباطيلهم الزائغة؛ لمجرد الترغيب والترهيب، وبالجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأشقياء المردودون عن ساحة عز القبول هم ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ﴾ أي ثبتَ وتحققَّ ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ والحكمُ من الله المطلع بما في صدور عباده من الغل والغواية، بأنهم أصحاب النار المعدودون ﴿فِىٓ﴾ زمرة ﴿أُمَمٍ﴾ هالكةٍ مستحقةٍ للعذاب ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضتْ ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي من جنسهما، وبالجملة ﴿إِنَّهُمْ﴾ بأجمعهم ﴿كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ مضيِّعين على أنفسهم كرامةَ مرتبة الخلافة والنيابة الإلهية الموعودة في النشأة الإنسانية.

﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿لِكُلٍّ﴾ من المحقين والمبطلين ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ من الثواب والعقاب متفاوتةٌ شدةً وضعفًا، رفعةً ودناءةً، منتشئةٌ ﴿مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ مترتبةٌ عليه خيراً كان أو شراً، حسناتٍ أو سيئاتٍ ﴿وَ﴾ كلٌ منهم متعلقٌ بعمله، يشاكل عليه ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ ويوفي عليهم جزاءهم المترتب[1] عليها درجاتٌ أو دركاتٌ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ بالزيادة والنقصان على أجور ما كسبوا.

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يُعْرَضُ﴾ المسرفون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالحق وأعرضوا عنه وعن أهله ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾ المسعرة المعدة للكافرين المعرضين لهم حينئذٍ على سبيل التوبيخ والتشنيع أنتم ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ من

(١) في المخطوط (المترتبة).

فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ ....

اللذائذ وتلذذتم بها ﴿فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ فيها ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ بدلها ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ المخزي المضل ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على عباد الله ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ يعني بدل تعززكم وتعظمكم بها في دار الدنيا وكبركم وخيلائكم على ضعفاء العباد ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ وتخرجون عن مقتضى الحدود الإلهية ظلماً وزوراً.

﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ أي اذكر يا أكمل الرسل لمشركي مكة قصةَ قوم عادٍ مع أخيهم هود عليه السلام ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ إمحاضاً للنصح لهم وهم يسكنون ﴿بِٱلْأَحْقَافِ﴾ أي الرمال المعوجة الغير المستوية على شاطئ البحر ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ والرسل المنذرين ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي قبل هود عليه السلام ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ أي بعده، كلهم متفقون في المنذَر به، وهو ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ أي أن لا تعبدوا ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ الواحد الأحد الحقيق بالإطاعة والعبادة، ولا تشركوا معه شيئاً من مصنوعاته، ولا تتوجهوا ولا تسترجعوا في الخطوب إلا إليه وانصرفوا عن عبادة غيره ﴿إِنِّيٓ﴾ بسبب عبادتكم غير الله واتخاذكم آلهةً سواه ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ هائلٍ شديدٍ.

وبعد ما سمعوا منه ما سمعوا من التوحيد

قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ ....

﴿قَالُوٓاْ﴾ له متهكمين معه مشنِّعين عليه ﴿أَجِئۡتَنَا﴾ مدعياً ملتزماً ﴿لِتَأۡفِكَنَا﴾ وتصرفنا ﴿عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ أي عن عبادتهم وإطاعتهم، ونؤمن بك وبإلهك، وبالجملة لا نؤمن بك ولا نصدقك في قولك ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ وتخوِّفنا من العذاب على الشرك الآن ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ في دعواك أنه آت لا محالة.

وبعد ما استهزؤوا معه واستعجلوا بالعذاب الموعود

﴿قَالَ﴾ هودٌ: إني أعلم بمقتضى الوحي الإلهي أنه آت، ولا أعلم متى يأتي إذ لم يوحَ إليَّ وقت إتيانه بل ﴿إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ﴾ بوقت نزوله ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ المطلع على عموم الغيوب ﴿وَ﴾ إنما ﴿أُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ وأُمرت بتبليغه من عنده، إذ ما على الرسول إلا البلاغ ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ﴾ بسبب إعراضكم عن الحق وأهله وإصراركم على الشرك الباطل والضلال الزائل ﴿قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ عن كمال عظمة الله وعزته، ومن مقتضيات قوته وقدرته.

وبالجملة قال هود عليه السلام ما قال، وهم كانوا على شركهم وإصرارهم كما كانوا.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ﴾ يوماً من الأيام ﴿عَارِضٗا﴾ سحاباً ذا عرض على الأفق ﴿مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾ أي متوجهاً لأمكنتهم التي كانوا متوطنين فيها، وكانوا

قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا ....

حينئذٍ مجدبين، قد حُبس عليهم القَطر، فلما رأوها حينئذٍ ﴿قَالُواْ﴾ فرحين مستبشرين: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ﴾ مباركٌ توجه نحو بلادنا هو ﴿مُّمْطِرُنَا﴾ مطراً عظيماً، وهم استدلوا بسواده إلى كثرة مائه، وبعد ما استبشروا في ما بينهم، قال هود: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦۖ﴾ واستبشرتم باستقباله ﴿رِيحٌ﴾ عاصفةٌ لا راحةَ فيها، بل ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ لا عذاب أشدَّ منه.

إذ ﴿تُدَمِّرُ﴾ وتُهلك ﴿كُلَّ شَيْءٍۭ﴾ ذي حياةٍ ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ وبمقتضى مشيئته، وبعد ما وصلت الريح دمَّرتْهم تدميراً إلى حيث استأصلهم[1] ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ﴾ منهم ﴿إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْۚ﴾ أي سوى دورهم الخربة وأطلالهم المندرسة، وليس هذا مخصوصاً بهم بل ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي﴾ عموم ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ الخارجين عن ربقة عبوديتنا بارتكاب الجرائم والآثام.

ثم أشار سبحانه إلى توبيخ مشركي مكة ومجرميهم على وجه التأكيد والمبالغة فقال سبحانه مقسماً:

﴿وَ﴾ الله يا أهل مكة ﴿لَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ﴾ أي عاداً ﴿فِيمَآ﴾ أي في الأمور التي ﴿إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ أي ما مكناكم وأقدرناكم فيه من كثرة الأموال والأولاد والحصون والقلاع والقصور الرفيعة والمنازل الوسيعة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا﴾ ليسمعوا به آياتنا الدالة على وحدة ذاتنا ﴿وَأَبْصَٰرًا﴾ ليشهدوا بها آثار قدرتنا

(١) في المخطوط ج (استأصلتهم).

وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ

ومتانة حكمتنا الدالة على كمال علمنا ﴿وَأَفْـِٔدَةً﴾ ولينكشفوا بها على وحدة ذاتنا، ويتفطنوا بها باستقلالنا في تدبيراتنا وتصرفاتنا، ومع ذلك ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ﴾ ودفع ﴿عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ أي شيئاً من الإغناء، أي ما أفاد لهم هذه الآلات العجيبة الشأن شيئاً من الفائدة التي هي إنقاذهم عن الجهل بالله، وعن الضلال في طريق توحيده ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ﴾ وينكرون بمقتضى جهلهم المركب في جبلتهم أمثالكم أيها الجاحدون ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ودلائل توحيده ويستهزئون بها وبمن أُنزلت إليه من الرسل ﴿وَ﴾ لذلك ﴿حَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِم﴾ وبالُ ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ عاجلاً، وسيلحقهم وينزل عليهم وعليكم أيضاً أيها المسرفون آجلاً بأضعافه وآلافه.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ وخرّبنا ﴿مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ الهالكة كعاد وثمود لتعتبروا منها، وتتعظوا بما لحق بأهلها من أنواع البليات ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على كمال قدرتنا واختيارنا وكررناها مراراً ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ إلينا منخلعين عن مقتضى وجوداتهم الباطلة وهوياتهم العاطلة، ومع ذلك لم يرجعوا، ولم ينخلعوا.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ أي هلا نصرَهم ومنعَهم عن الهلاك والإهلاك شفعاؤهم

ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾..............

﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الفرد الصمد، وقرَّبوا لهم ﴿ قُرۡبَانًا ﴾ لأنهم اتخذوهم ﴿ ءَالِهَةَۢۖ ﴾ شركاء مع الله في الألوهية والربوبية، لذلك تقربوا إليهم، وتوجهوا نحوهم في عموم الملمات، مع أنه ما ينفعهم لدى الحاجة إليهم وإلى تصرفهم ﴿ بَلۡ ضَلُّواْ ﴾ وغابوا ﴿ عَنۡهُمۡۚ ﴾ فأنى ينصرهم ويدفع عنهم ما يضرهم ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الذي اعتقدوا في شأنهم ﴿ إِفۡكُهُمۡ ﴾ أي صرفُهم عن الحق وإعراضهم عنه وميلهم إلى الباطل وإصرارهم فيه ﴿ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ أي افتراؤهم على الله بإثبات الشريك له، والمشاركة معهم.

﴿وَ﴾ اذكر لمن عاندك وكذلك إلزاماً لهم وتبكيتاً وقت ﴿ إِذۡ صَرَفۡنَآ ﴾ وأَمَلْنَا ﴿إِلَيۡكَ﴾ يا أكمل الرسل تأييداً لك ولشأنك ﴿نَفَرٗا﴾ جماعةً ﴿ مِّنَ ٱلۡجِنِّ ﴾ حال كونهم ﴿ يَسۡتَمِعُونَ ﴾ منك ﴿ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ حين تلوتَه في صلاتك وتهجدك ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ ﴾ أي القرآن وسمعوه، تعجبوا من حسن نَظْمه واتساقه، وكمالِ بلاغته وفصاحته ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ أي بعضهم لبعض: ﴿ أَنصِتُواْۖ ﴾ ولا تخالطوا أصواتكم حتى نسمع على وجهه، إذ هو كلامٌ عجيبٌ في أعلى مرتبة البلاغة ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ وتم قراءته وفهموا معناه وفحواه ﴿وَلَّوۡاْ﴾ ورجعوا ﴿ إِلَىٰ قَوۡمِهِم ﴾ حال كونهم ﴿ مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ بما يفهمون منه من الإنذارات والوعيدات القوم الذين بلغوا حد التكليف من

قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ ....

إخوانهم ينذرونهم بها عن الضلال والانحراف عن طريق الحق، إذ:

﴿قَالُوا۟﴾: أي النفر المستمعون مبشرين لقومهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا﴾ عجيباً سماوياً، عربياً نظماً وأسلوباً ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي جميع الكتب السالفة السماوية شأنه أنه ﴿يَهْدِىٓ إِلَى﴾ توحيد ﴿ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ موصلٍ إليه بلا عوجٍ وانحرافٍ.

وهذا الكتاب العجيب الشأن، الجلي البرهان، منزلٌ إلى داعٍ من العرب اسمه محمد عليه السلام، يدعو قاطبة الأنام إلى دين الإسلام بوحي الله العليم العلام.

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ يعني محمداً ﷺ، واقبلوا منه دعوته إلى توحيد الحق ودين الإسلام ﴿وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ وبكتابه الذي أُنزل إليه لتبيين دينه وتأييد أمره ﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾ سبحانه ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي من جميعها إن تبتم ورجعتم إليه مخلصين ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ هو عذاب النار، إذ لا عذاب أشد منها وأفزع.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ ولا يؤمن به سبحانه، وبجميع ما جاء به داعيه من عنده، بل كذب الداعي وأنكر دعوته ولم يقبل منه ﴿فَلَيْسَ﴾ هو أي المنكر ﴿بِمُعْجِزٍ﴾ لله ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حتى يهرب عن انتقامه سبحانه،

وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ ....

ويفر من غضبه من مكان إلى مكان، أو يستر عنه سبحانه ويخفي نفسه في أقطار الأرض، بل له الإحاطة والاستيلاء بعموم الأمكنة والأنحاء ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ﴾ أي للمنكر المعاند ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ سبحانه ﴿أَوْلِيَآءُ﴾ يوالونه[1] وينقذونه من غضب الله وعذابه بعد ما نزَّل عليه، وبالجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنكرون المكابرون الذين لا يجيبون داعي الله، ولا يقبلون منه دعوته عناداً ومكابرةً ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ وغوايةٍ ظاهرةٍ، يجازيهم سبحانه بمقتضى ما صدر عنهم من الغيِّ والضلال.

ثم أشار سبحانه إلى توبيخ منكري الحشر والنشر وإعادة الموتى أحياءً وتقريعِهم فقال مستفهماً على سبيل التبكيت والإلزام:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ يعني أيشكون ويترددون أولئك الشاكون المترددون في قدرة الله على إعادة المعدوم ونشر الأموات أحياءً من قبورهم وحشرهم إلى المحشر للحساب والجزاء، ولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ العليمَ الحكيمَ القادرَ المقتدرَ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ أظهر وأوجد ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي العلويات والسفليات خلقاً إبداعياً من كتم العدم، ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي لم يفتر ولم يضعف بإظهارهن ابتداءً مع غاية عظمتهن وسعتهن ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ يعني أليس القادر المقتدر على الإبداع والإبداء بقادرٍ ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰۚ﴾ ويعيدهم أحياءً بعدما أماتهم ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ﴾ دخل في

(١) في المخطوط (يوالونهم).

قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ....

حيطة علمه وإرادته ﴿قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ بلا فتورٍ ولا قصورٍ.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمنكري الحشر ﴿يَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالبعث والجزاء ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾ المعدة لهم، فيقال لهم حينئذٍ تفضيحاً وتهويلاً وتوبيخاً وتقريعاً: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ العذاب الذي أنتم فيه الآن، وكذبتم به من قبل في نشأة الاختبار ﴿بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟﴾ متأسفين متحسرين: ﴿بَلَىٰ﴾ هو الحق ﴿وَ﴾ حق ﴿رَبِّنَا﴾ الذي ربانا على فطرة الإسلام، وأنذرنا عن إتيان هذا العذاب في هذه الأيام، فكفرنا به ظلماً وزوراً، وأنكرنا عليه عناداً واستكباراً، وبعد ما اعترفوا وندموا في وقتٍ لا ينفعهم الندم والاعتراف ﴿قَالَ﴾ قائل من قبل الحق: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ إذ لم يفدكم اعترافكم هذا، بعدما انقضى نشأة التدارك والتلافي.

وبعد ما سمعت يا أكمل الرسل مآل حال الكفرة المصرين على العتو والعناد

﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا أكمل الرسل على تحمل أعباء الرسالة ومتاعب التبليغ وأذيات أصحاب الزيغ والضلال ﴿كَمَا صَبَرَ﴾ عليها ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ العازمين عليها وعلى تبليغها بالعزيمة الخالصة والثبات التام؛ ليبيِّنوا للناس طريق التوحيد ويرشدوهم إلى سبيل الاستقامة والرشاد ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي للمعاندين من قريشٍ بحلول العذاب الموعود عليهم، فإنه سينزل عليهم

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

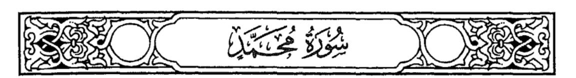
حتماً عند حلول وقته ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب من نهاية شدته وهوله، وغاية طوله، تذكروا أنهم ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً﴾ واحدةً ﴿مِّن نَّهَارٍ﴾ يعني استقصروا مدة لبثهم في الدنيا وقاسوا بالنسبة إلى طول يوم القيامة بساعةٍ بل أقصر منها.

هذا الذي ذكر من المواعظ والتذكيرات في هذه السورة ﴿بَلَـٰغٌ﴾ كافٍ لأهل الهداية والإرشاد إلى أن اتعظوا بها، ويتذكروا منها، وإن لم يتعظوا بها، هلكوا في تيه الجهل والغواية مثل سائر الهالكين ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ وما يُستأصل بالقهر الإلهي ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ الخارجون عن مقتضى الحدود الإلهية النازلة من عنده سبحانه على أنبيائه ورسله، المبعوثين إلى الهداية والتكميل.

جعلنا الله ممن تذكر بما في كتابه من المواعظ والتذكير، وامتثل بما فيه من الأوامر والنواهي.

خاتمة السورة

عليك أيها العازم على سلوك طريق التوحيد: أن تقصد نحوه بالعزيمة الخالصة الصافية عن كدر الرياء ورعونات الهوى، وتتصبر على مشاق التكاليف ومتاعب الطاعات والرياضات القالعة لمقتضيات القوى البشرية بجملتها ومشتهيات القوى البهيمية برمتها، فلك أن تقتدي في سلوكك هذا أثر أولي العزائم من الرسل الكرام والأنبياء العظام والكُمَّل من الأولياء الذين هم ورثة الأنبياء؛ لتفوز بالدرجة القصوى والمرتبة العليا.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة محمد ﷺ

لا يخفى على الفائزين بالدرجة العليا من التوحيد الذاتي، المتحققين بانكشاف كيفية سريان الهوية الذاتية الإلهية في أعيان المظاهر الكونية والكيانية: أن أكمل من تحقق بهذا الشهود، وأتم من اتصف بهذا الانكشاف هو الختمية المحمدية التي لا مرتبة أعلى وأجمع من مرتبته ﷺ، ولا درجة أرفع من درجته، لذلك ما ظهر نبيٌّ على إظهار التوحيد الذاتي وتبيينه، وما بعث إلى كافة الأمم وعامة البرايا أحدٌ سواه، ولهذا خُتم ببعثته ﷺ أمرُ الإرشاد والتكميل، فمن كفر به ﷺ وأنكر عليه، فقد كفر بعموم مراتب الوجود، وضلّ عن جميع الطرق الموصلة إلى كعبة الذات وقبلة المقصود، ومن آمن له ﷺ فقد اهتدى بما هو المقصد والمرمى، وليس وراءه[1] مرمى ومنتهى.

لذلك أخبر سبحانه عن ضلال الكافرين به ﷺ والمنكرين عليه وإحباط أعمالهم بعد ما تيمن باسمه الأعلى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي تجلى على المرتبة الختمية المحمدية بعموم أسمائه الحسنى وصفاته العليا ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لعموم عباده بإظهار مرتبته ﷺ، لتكون قبلة جميع مراتبهم ومشاربهم ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم إلى وحدة ذاته، لهدايته وإرشاده ﷺ.

---

(١) في المخطوط (وليس مرمى ومنتهى).

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ بالله وتوحيده وأنكروا على نبوة حبيبه ﷺ ورسالته عناداً ومكابرةً ﴿وَ﴾ مع كفرهم وانصرافهم بأنفسهم عن الهداية ﴿صَدُّواْ﴾ وصرفوا سائرَ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وطريق توحيده، الذي هُدي إليه ﷺ وبُعث لتبيينه، وإرشاد عموم عباد الله نحوه منه حسداً عليه ﷺ وعلى من تبعه ﴿ أَضَلَّ ﴾ أحبطَ وأضاعَ سبحانه ﴿ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ ﴾ أي صوالح أعمالهم التي أتوا بها طمعاً للكرامة والمثوبة من لدنه سبحانه بعد ما كفروا به سبحانه وبرسوله ﷺ، إذ لا تثمر الأعمال الصالحة إلا بالإيمان والتصديق بالله وبرسوله.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بالله وبرسوله ﴿وَ﴾مع ذلك ﴿عَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ المقرّبة لهم إلى الله ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ أي بجميع ما نُزل عليه ﴿وَ﴾صدّقوا أن جميع ما نَزل به ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ الصدق المطابق للواقع النازل ﴿ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ بلا شكٍ وترددٍ ﴿ كَفَّرَ ﴾ وأزال ﴿عَنْهُمْ ﴾ سبحانه ﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ أي وبالها وعذابها ﴿وَأَصْلَحَ ﴾ اللاحق المستتبع إياها بها ﴿ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ أي أحسن حالهم في الدين والدنيا بحسب النشأة الأولى والأخرى، ويجازيهم أحسن الجزاء.

﴿ذَٰلِكَ ﴾ أي إضلال الكفرة وإصلاح المؤمنين ﴿ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ ﴾ وتركوا الحق الحقيق بالاتباع ﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ ﴾ النازل ﴿ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ لإصلاح حالهم في النشأتين ويرشدهم إلى ما هو خيرٌ لهم

كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم ....

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الذي سمعت من الإضلال والإصلاح بالنسبة إلى كلا الفريقين ﴿ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾ ويبين لهم أحوالهم المتواردة عليهم في أولاهم وأخراهم.

وبعد ما سمعتم أيها المؤمنون وَخَامة عاقبة الكَفَرة وضياع أعمالهم وإحباطها.

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ على أي وجهٍ وأي حالٍ ﴿ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ أي فعليكم أن تضربوا رقابهم مهما أمكن، وأن تقتلوهم بلا مبالاةٍ بهم وبدمائهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ أي أغلظتم وبالغتم في قتلهم، فأسروا بقاياهم ﴿ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ ﴾ والنكال على أُسرائهم، واحفظوهم مقيدين موثقين ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ أي تمنُّون عليهم مناً، فتطلقونهم، أو تفدون منهم فداءً على إطلاقهم، وتخلّون سبيلهم، وبالجملة افعلوا أيها المؤمنون مع المشركين كذلك ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ﴾ أي تضع أهل الحرب من كلا الجانبين آلاتَ الحراب والقتال، وذلك لا يحصل إلا بالمؤاخاة والائتلاف التام وتدين الجميع بدين الإسلام ﴿ذَٰلِكَ ﴾ أي الأمر من الله ذلك فافعلوا معهم كذلك ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ ﴾ القادر المقتدر على أنواع الانتقام ﴿ لَٱنتَصَرَ ﴾ وانتقم ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أي من المشركين بلا اقتتالكم وحرابكم ﴿ وَلَٰكِن ﴾ إنما يأمركم سبحانه بالقتال ﴿ لِّيَبْلُوَا۟ ﴾ ويختبر ﴿ بَعْضَكُم ﴾

بِبَعْضٍۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا ....

أيها الناس المؤمنون ﴿ بِبَعْضٍۗ ﴾ أي بقتال بعضٍ منكم، وهو الكافرون؛ لينال المؤمنون بقتالهم وجهادهم الثواب الجزيل والأجر الجميل، ويستوجب الكافر بمعاداة المؤمن بالعقاب العظيم والعذاب الأليم، كلٌ بتقدير العليم الحكيم.

ثم قال سبحانه تبشيراً للمؤمنين الذين استشهدوا في سبيل الله:

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون أن ﴿ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ ﴾ منكم ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ باذلين مُهَجَهم في ترويج دينه ﴿ فَلَن يُضِلَّ ﴾ ويضيع ﴿ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾ التي أتوا بها طلباً لمرضاة الله، وتثبيتاً لقلوبهم على الإيمان بما نزل من عنده.

بل ﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ ربهم ويرشدهم سبحانه بعدما استشهدوا إلى زلال هدايتهم ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ ﴾ بإيصالهم إلى غاية ما جُبلوا لأجله.

﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ التي ﴿ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾ حين أمرهم بالجهاد، ألا وهي الحياة الأزلية الأبدية الإلهية الموعودة للشهداء من عنده سبحانه بقوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ﴾ [٣-آل عمران:١٦٩] الآية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ ﴾ يعني دينه ورسوله ﴿ يَنصُرْكُمْ ﴾ على أعدائكم ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ في جادة توحيده وصراط تحقيقه.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ بالله وأعرضوا عن نصرة دينه ورسوله ﴿ فَتَعْسًا ﴾ أي زلقاً

لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾

وعثوراً وانحطاطاً ﴿لَهُمْ﴾ عن رتبة الإنسانية وعن جادة العدالة الإلهية ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾﴾ وأضاعها بحيث لا تفيدهم شيئاً أصلاً.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العثور والانحطاط لهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟﴾ أي أنكروا واستكرهوا ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ المدبر المصلح لأحوال عباده في كتابه من الأوامر والنواهي المهذِّبة لظواهرهم وبواطنهم ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾ بسبب كفرهم وكراهتهم.

﴿۞ أَفَـ﴾ ينكرون قدرة الله على الإحباط والإضلال ﴿لَم يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي هي محل الاختبارات الإلهية وانتقاماته ﴿فَيَنظُرُوا۟﴾ بنظر العبرة والاستبصار ليبصروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ المجرمين ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ مع أنهم ذوو ثروةٍ كبيرةٍ، ورئاسةٍ عظيمةٍ، وَوِجاهةٍ كاملةٍ كيف ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ واستأصلهم بحيث لم يبق منهم على وجه الأرض أحدٌ ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ أي سيؤول ويعود عاقبة هؤلاء الكفرة المعاندين معك يا أكمل الرسل إليها وإلى أمثالها، بل أفظع وأشد منها البتة.

كل ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع على ضمائر عباده ﴿مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بوحدة الحق وتحققوا في مقر توحيده، لذلك يواليهم وينصرهم على أعاديهم، ويحفظهم عما لا يعنيهم ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ المصرين على الكفر والعناد ﴿لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ لينصرهم ويدفع عنهم ما يرديهم. وبالجملة

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ....

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ العليمَ الحكيمَ ﴿ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ ﴾ متنزهاتٍ من المعارف والحقائق ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ الجارية من العلوم اللدنية المنتشئة من منبع الوحدة الذاتية، تتلذذون بها تلذذاً معنوياً حقيقياً ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ بوحدة الحق وكمالاته المترتبة على شؤونه وتجلياته ﴿ يَتَمَتَّعُونَ ﴾ بالحطام الدنيوية، ويتلذذون باللذات البهيمية ﴿ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ وتتلذذ بلا شعورٍ لهم باللذة الأخروية، ﴿وَ﴾ بالآخرة ﴿ ٱلنَّارُ ﴾ المعدة المسعرة صارت ﴿ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾ ومحل قرارهم واستقرارهم.

﴿ وَكَأَيِّن ﴾ أي كثيراً ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ من القرى الهالكة ﴿ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً ﴾ أي أهلها، وأكثر أموالاً وأولاداً ﴿ مِّن ﴾ أهل ﴿ قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ ﴾ أي أهلها منها ﴿ أَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾ واستأصلناهم بسبب إخراجهم رسل الله من بينهم وتكذيبهم والاستكبار عليهم ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ﴾ يظاهرهم[1] ويدفع انتقامنا عنهم، فكذا ننتقم عن هؤلاء المشركين المستكبرين عليك يا أكمل الرسل، المخرِجين لك وقومك من بينهم ظلماً وعدواناً ـ يعني مشركي مكة خذلهم الله ونغلب المؤمنين عليهم ونظهر دينك على الأديان كلها.

وكيف لا ننصرك ونظهر دينك؟

---

(١) في المخطوط (بظاهرهم).

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ ....

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ حجةٍ واضحةٍ آتيةٍ له ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مبينةٍ له أمر دينه ﴿كَمَن زُيِّنَ﴾ أي حُبّب وحُسّن ﴿لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ بلا مستندٍ عقلي أو نقلي بل ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾ بمقتضى آرائهم الباطلة وأمانيهم الزائغة الزائلة؟

كلا وحاشا بل ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ وشأنها العجيبة ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ بها، المجتنبون عن محارم الله، المتحرزون عن مساخطه على الوجه الذي بيّنهم الكتب، وبلّغهم الرسل، الممتثلون بجميع ما أُمروا من عنده سبحانه إيماناً واحتساباً عند ربهم هكذا ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ﴾ هي العلوم اللدنية المجيبة لهم بالحياة الأزلية الأبدية ﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي خالصٍ صافٍ عن كدر التقليدات والتخمينات الحادث عن مقتضيات القوى البشرية المنغمسة بالعلائق الجسمانية ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ﴾ من المحبة الذوقية الإلهية المنتشئة من الفطرية الأصلية التي فُطروا عليها في بدء ظهورهم ﴿لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ وذوقُه بالميل إلى الهوى، ومن مزخرفات الدنيا ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ جذبةٍ إلهيةٍ وشوقٍ مفرطٍ مسكرٍ لهم، محيرٍ لعقولهم من غاية استغراقهم بمطالعة جمال الله وجلاله، بحيث لا يكتنه لهم وصفه بكونه من الأمور الذوقية ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ حسب تفاوت أذواقهم ومواجيدهم ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ﴾ هي اليقين الحقي الذي لا

مُّصَفًّىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴿١٥﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ....

شيء أحلى منه وألذ عند العارف المتحقق به ﴿ مُّصَفًّىۖ ﴾ من شوب الاثنينية اللازمة لمرتبتي اليقين العلمي والعيني ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ لَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ المستلزمة لأنواع اللذات الروحانية، وأكبر من الكل أن لهم فيها﴿ وَمَغۡفِرَةٞ ﴾ سترٌ ومحوٌ لأنانياتهم الباطلة ناشئةٌ ﴿ مِّن رَّبِّهِمۡۖ ﴾ الذي رباهم على الكرامة من عنده بعد ما جذبهم تحت قباب عزه، ومكنهم من كنف جواره، هؤلاء المكرمون بهذه الكرامة العظمى ﴿ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ﴾؟ أي كالكافر الطاغي الباغي الذي خرج عن ربقة العبودية بمتابعة الأهوية الأمارة وأمانيها، وظهر على الحق وأهله بأنواع الإنكار والاستكبار، وبسبب هذا صار مخلداً في نار القطيعة مؤبداً فيها لا نجاة له عنها ﴿وَ﴾ هم من شدة عطشهم وحرقة أكبادهم إذا استسقوا ﴿ سُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا﴾ حاراً في غاية الحرارة ﴿ فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴿١٥﴾﴾ بعدما شربوا منه، وذلك لعدم الفهم واعتيادهم بالعلم اللدني وبرد اليقين العلمي والعيني والحقي.

﴿ وَمِنۡهُم ﴾ أي من المستوجبين بخلود النار أبد الآباد ﴿ مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ ﴾ يا أكمل الرسل حين دعوتك وتذكرك وجلسوا في مجلسك صامتين محبوسين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ ﴾ وانصرفوا عن مجلسك ﴿قَالُواْ ﴾ من كمال غفلتهم وذهولهم عنك وعن كلامك وكمالاتك وعدم إدراكهم بما فيها وإصغائهم إليها ﴿ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ أي أصحابك المتذكرين عن كلامك، الموفقين

مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٧﴾ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ ....

على التصديق والإذعان بك وبكتابك: ﴿ مَاذَا قَالَ ﴾ أي: أيُّ شيءٍ قال صاحبكم ﴿ ءَانِفًاۚ ﴾ في هذا المجلس؟ مع أنهم معهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الأشقياء البعداء عن ساحة عز القبول هم ﴿ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾ وختم على سمعهم وأبصارهم ﴿ وَ ﴾ لهذا ﴿ ٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴿١٦﴾ ﴾ وتركوا إهداءه ﷺ، ولم يقتبسوا النور من مشكاة النبوة، ولم يلتفتوا إلى هداية القرآن، بل استهزؤوا معه ومع الرسول ﷺ.

﴿ وَ ﴾ المؤمنون ﴿ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ ﴾ بهدايته ﷺ ﴿ زَادَهُمۡ ﴾ استماع القرآن ﴿ هُدٗى ﴾ على هدى ﴿ وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٧﴾ ﴾ وبيّن لهم ما يعينهم على سلوك طريق التوحيد ويجنّبهم[1] عما يغويهم عن منهج الحق وصراط التحقيق. وبالجملة

﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ ﴾ وما ينتظرون في عموم أوقاتهم وحالاتهم ﴿ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ الموعودة ﴿ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ ﴾ فجأةً، وكيف لا تأتيهم الساعة ﴿ فَقَدۡ جَآءَ ﴾ وظهر ﴿ أَشۡرَاطُهَاۚ ﴾ أي بعض علاماتها وأماراتها التي من جملتها بعثة الرسول الحضرة الختمية المحمدية، إذ ظهوره متمماً لمكارم الأخلاق، ومكملاً لأمر التشريع والإرشاد من دلائل انقضاء نشأة الكثرة، وطلوع شمس الوحدة الذاتية من آفاق ذرائر الكائنات، وكيف ينتظرون الساعة ولا يهيؤون أسبابها قبل

---

(١) في المخطوط (تجنبهم).

فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

حلولها، وإن تأتهم بغتةً ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾ أي كيف يفيدهم التذكر والاتعاظ، وقت إذ جاءت الساعة فجأة، ومن أين يحصل لهم التدارك والتلافي حينئذٍ؟!.

وبعد ما سمعتم حال الساعة وحلول الساعة بغتة

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ أي فاثبت أنت يا أكمل الرسل على جادة التوحيد الذاتي، وتمكَّن على صراط الحق في عموم أوقاتك وحالاتك، واشهد ظهور شمس الذات على صفائح عموم الذرات، وشاهد انقهار جميع المظاهر والمجالي في وحدة ذاته واهدِ جميع من تبعك من المؤمنين إلى هذا المشهد العظيم ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ ﴾ في عموم أوقاتك ﴿ لِذَنۢبِكَ ﴾ الذي صدر عنك من الالتفات إلى ما سوى الحق والعكوس والأظلال ﴿وَ﴾ استغفر أيضاً ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ ﴾ إذا أنت كفيلهم وهاديهم إلى طريق التوحيد ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱللَّهُ﴾ المحيط بعموم أحوالكم ونشأتكم ﴿ يَعْلَمُ ﴾ بعلمه الحضوري ﴿ مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾ أي موضع تقلبكم وانقلاباتكم في دار الاختبار ونشأة التلون والاعتبار ﴿ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ أي موضع إقامتكم وتمكنكم في دار الإقامة والقرار، فعليكم أن تستعدوا لأخراكم في أولاكم وتُهيؤوا أسباب عقباكم في دنياكم.

﴿وَ﴾ من معظم زاد يوم المعاد: الجهادُ مع جنود أعداء الله في الأنفس والآفاق لذلك ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ من كمال حرصهم وشغفهم على القتال

لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ ....

وترويج كلمة التوحيد وإعلاء دين الإسلام: ﴿ لَوْلَا ﴾ وهلا ﴿ نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ مشتملةٌ على الأمر بالجهاد، حتى نجاهد في سبيل الله، ونبذل غاية وسعنا في ترويج دينه ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ ﴾ على مقتضى ما تمناها المخلصون ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ﴾ أي أُمر به فيها على البت، واستبشر المؤمنون المخلصون بنزولها، واستعدوا لامتثالها وقبول ما فيها ﴿ رَأَيْتَ ﴾ يا أكمل الرسل حينئذٍ المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ راسخٌ وضعفٌ مستقرٌ مستمرٌ ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ حين تلاوتك وتبليغك إياهم ما يوحى إليك من ربك ﴿ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ يعني صاروا حين سمعوا الأمر بالقتال من كمال نفاقهم وشقاقهم، كأنهم أشرفوا على الموت وظهرت عليهم أماراته، وشخصت أبصارهم من أهواله جبناً من القتال وبغضاً عليك ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾ أي قَرُب منهم، وحاق بهم ما يكرهون ويخافون منه أولئك الأشقياء المردودون. والأليق بحالهم في هذه الحالة:

﴿طَاعَةٌ﴾ أي انقيادٌ وإطاعةٌ ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ قبولٌ مستحسن عند ذوي المروءات والفُتوات لو صدر عنهم لكان خيراً لهم وأليق بحالهم لو كانوا مؤمنين وبالجملة ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أي جد ولزم أمر القتال ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ المطلع بما في ضمائرهم ونياتهم في ما أظهروا من الحرص والجرأة على

لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ....

القتال ﴿لَكَانَ﴾ الصدق والثبات والعزيمة ﴿خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ في أولاهم[1] وأخراهم.

وإن لم يصدقوا ولم يثبتوا على ما أَملوا من طلب القتال:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ ويتوقع منكم أيها المسرفون الكاذبون ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم عن امتثال المأمور ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ المعدة للصلاح والسداد ﴿وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ عن المؤمنين المجبولين على فطرة التوحيد والإسلام مع أنكم مجبولون أيضاً عليها. وبالجملة

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الأشقياء المعرضون عن الهداية والرشاد هم ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ العليم الحكيم، وطردهم عن ساحة عز حضوره ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ بهذا عن استماع دلائل توحيده ﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ عن مشاهدة آيات ألوهيته وربوبيته الظاهرة على الأنفس والآفاق.

﴿أَ﴾ يصرون ـ أولئك المسرفون ـ على الإعراض والانصراف عن الهدى ﴿فَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ ويتصفحون ﴿الْقُرْآنَ﴾ ولا يتأملون ما فيه من المواعظ والتذكيرات المفيدة لهم، الموصلة إلى الهداية والنجاة عن أهوال يوم القيامة، حتى ينزجروا عن ارتكاب المعاصي، وينصرفوا عن الميل إليها ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ﴾ أي بل مختومةٌ على قلوبهم ﴿أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ مطبوعةٌ عليها، لا تأثر

---

(١) في المخطوط (أولادهم).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ٢٦﴾ ....

لهم من القرآن ومواعيده، مع أنهم آمنوا له قبل نزوله على ما وجدوا في كتبهم نعته وعرفوا أحكامه، ومع ذلك أنكروا عليه وارتدوا عنه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم﴾ سيما ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ وظهر ﴿لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾ والرشاد وجزموا بحقيته، وحقية ما فيه من الأحكام والعبر والمواعظ، وبالجملة ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ المضل المغوي ﴿سَوَّلَ لَهُمۡ﴾ أي حسّن وزيّن لهم الارتداد عن الحق تغريراً وتلبيساً، بعد ما وضح لهم حقيته ﴿وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٥﴾ بتسويلاته خلاف ما ظهر عليهم من ألسنة كتبهم ورسلهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التسويل والتغرير وما يترتب عليه من الإعراض والانصراف عن الحق ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ أي بسبب أن اليهود والنصارى ﴿قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ﴾ أي للمنافقين الذي كرهوا ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ من السور المشتملة على أمر القتال حثّاً لهم على المخالفة والقعود: ﴿سَنُطِيعُكُمۡ﴾ ونعاون[1] عليكم ﴿فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِ﴾ لو أظهرتم المخالفة، يعني إن أخذوكم وقصدوا الانتقام عنكم نحن نعاونكم إنما قالوا ما قالوا في خلواتهم ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لعموم أحوالهم ﴿يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ٢٦﴾ كما يعلم

---

(١) أي ونعاونكم.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ ....

إعلانهم، هذا من جملة ما احتالوا ومكروا مع الله ورسوله

﴿فَكَيْفَ﴾ يحتالون ويمكرون ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ المأمورون لقبض أرواحهم ﴿يَضْرِبُونَ﴾ حينئذٍ ﴿وُجُوهَهُمْ﴾ جزاءَ ما توجهوا بها نحو الباطل ﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ جزاء ما انصرفوا بها عن الحق.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التوفي على وجه العبرة ﴿بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ من الإعراض عن طريق الحق ومتابعة أهله ﴿وَكَرِهُوا۟﴾ بمقتضى أهويتهم الفاسدة ﴿رِضْوَٰنَهُۥ﴾ أي ما رضي عنه سبحانه من الأوامر والنواهي المنزلة على ألسنة رسله وكتبه بعد ما خالفوا أمر الله وأمر رسوله ﴿فَأَحْبَطَ﴾ سبحانه بمقتضى قهره وجلاله ﴿أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ أي صوالح أعمالهم، ولم يترتب عليها الجزاء الموعود، كما يترتب على صالحات أعمال المطيعين.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ مستقرٌ وحسدٌ مؤبدٌ وشكيمةٌ شديدةٌ مع الله ورسوله والمؤمنين ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ﴾ ولن يُبرز أبداً ﴿أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ وأحقادهم التي أضمروها في نفوسهم.

﴿وَ﴾ لم يعلموا أنا ﴿لَوْ نَشَآءُ﴾ تفضيحهم ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ وأبصرنا عليك يا أكمل الرسل ما أضمروا في نفوسهم ﴿فَلَعَرَفْتَهُم﴾ حينئذٍ ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ بمجرد

وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ ....

إبصارك إياهم لظهور ما في صدورهم من الغلّ على وجوههم ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ﴾ البتة نفاقهم ﴿فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ الباطل الذي صدر عنهم مغشوشاً مزخرفاً ـ وبعد ما نزل هذا لا يتكلم منافق عند النبي ﷺ إلا عرفهم، ويستدل بكلامه على فساد ضميره ـ ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱللَّهُ﴾ المطلع بعموم أحوال عباده ﴿يَعۡلَمُ﴾ منكم ﴿أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٠﴾﴾ ونياتكم فيها ومقاصدكم عنها، فيجازيكم على مقتضى علمه.

ثم قال سبحانه مقسماً:

﴿وَ﴾ الله ﴿لَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾ ونختبرنكم أيها المجبولون على فطرة الإسلام بالتكاليف الشاقة والأوامر الشديدة ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ﴾ أي نفرِّق ونميز ﴿ٱلۡمُجَٰهِدِينَ﴾ المجتهدين ﴿مِنكُمۡ﴾ ببذل الوسع والطاقة على امتثال المأمور، والصابرين المرابطين قلوبهم بحبل الله وتوحيده، الموطِّنين نفوسهم بالرضا بجميع ما جرى عليهم من القضاء ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ﴾ أيضاً ﴿أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾﴾ التي صدرت عنكم وقت تكليفنا إياكم، إذ الأخبار منبئة عن الضمائر والأسرار.

وبالجملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله وأعرضوا عن مقتضيات تكاليفه الصادرة عن الحكمة البالغة ﴿وَ﴾ مع كفرهم وضلالهم في أنفسهم ﴿صَدُّواْ﴾ وصرفوا ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ضعفاء عباده، ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿شَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ المرسل من

مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـًٔا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾

عنده سبحانه المبعوث إليهم للإرشاد والتكميل، لا من شبهةٍ صدرت عنه تدل على كذبه وافترائه ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ ﴾ أي ثبت عندهم هدايته عقلاً ونقلاً، ومع ظهور صدقه وهدايته، كذّبوه عدواناً وظلماً، وبواسطة هذه الجرأة على الله ورسوله ﴿ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ ﴾ المنزَّه في ذاته عن أن يكون معروضاً للنفع والضر ﴿شَيۡـًٔا﴾ من الضرر والإضرار بل ﴿ وَسَيُحۡبِطُ ﴾ ويضيع سبحانه بأمثال هذه الجرائم والآثام ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾﴾ الصادرة عنهم لتثمر لهم الثواب، فانقلب الأمر عليهم، فيثمر لهم العذاب.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ مقتضى إيمانكم إطاعة الله وإطاعة رسوله ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ ﴾ المظهر لكم من كتم العدم، المنعم عليكم بأنواع النعم وأصناف الكرم ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ الهادي المرشد لكم إلى توحيد الحق وكمالات أسمائه وأوصافه ﴿ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾﴾ بالإعراض عن الله، والانصراف عن متابعة رسوله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ ﴾﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿ هُمۡ كُفَّارٞ﴾ مصرون معاندون على ما هم عليه طول عمرهم ﴿ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾﴾ أبداً لإشراكهم بالله، وخروجهم عن ربقة عبوديته بمتابعة أهويتهم الباطلة وآرائهم الفاسدة.

﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ ....

وبعد ما أطعتم الله ورسوله أيها المؤمنون وأخلصتم في إطاعتكم وانقيادكم ثقوا واعتصموا بحبل توفيقه ونصره.

﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ ولا تضعفوا عن الجهاد والمقاتلة ﴿وَ﴾ لا ﴿تَدْعُوٓا۟﴾ وتركنوا ﴿إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ والصلح، وبالجملة لا تجبنوا ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ الأغلبون أيها الموحدون المحمديون إذ الحق يعلو ولا يُعلى ﴿وَ﴾ كيف لا تتصفون بصفة العلو والغلبة إذ ﴿ٱللَّهُ﴾ المحيط بكم ﴿مَعَكُمْ﴾ لا على وجه المقارنة والاتحاد، ولا على سبيل الحلول والامتزاج، بل على وجه الظهور والبروز وامتداد الأظلال عليكم وانعكاسكم منها ﴿وَ﴾بعد ما صار الحق معكم على الوجه المذكور ﴿لَن يَتِرَكُمْ﴾ ولن يضيع عليكم ﴿أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ التي جئتم بها مخلصين، طلباً لمرضاة الله، وهرباً عن مساخطه، إذ الموحد المعتدل دائماً بين الخوف والرجاء، وكيف لا يكون كذلك، إذ هو مستوٍ على متن الصراط المستقيم الذي هو أدق وأرق من كل دقيق ورقيق.

وبعد ما سمعت صفة صراط ربك يا أكمل الرسل:

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي ما الحياة الدنيا إلا ﴿لَعِبٌ﴾ يلعب بها أبناء بقعة الإمكان وهم غافلون عن حقيقتها ﴿وَلَهْوٌ ۚ﴾ يلهي ويحير قلوبهم في تيه الغفلة والضلال، وهم تائهون فيها ساهون عن من ظهر عليها ﴿وَ﴾ بعد ما سمتعم نبذاً من أوصاف دنياكم ﴿إِن تُؤْمِنُوا۟﴾ بوحدة الحق وبكمالات أسمائه وصفاته

وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

الظاهرة آثارها على هياكل الهويات المستحدثة في الكائنات، وتوكلوا عليه مفوضين أموركم كلها إليه واتخذوه وكيلاً واتخذوه كفيلاً واعتصموا بحبل توفيقه ثقةً واعتماداً ﴿ وَتَتَّقُواْ ﴾ أي تحفظوا أنفسكم عن الميل إلى ما سوى الحق من الأماني العاطلة الإمكانية العائقة الدنية الدنيوية المثمرة لغضب الحق بمقتضى قدرته الجليلة ﴿ يُؤْتِكُمْ ﴾ بمقتضى إرادته الجليلة الجميلة ﴿ أُجُورَكُمْ ﴾ التي استوجبتم بصوالح أعمالكم، ويزيد عليكم تفضلاً وإحساناً مالا مزيدَ عليه من اللذات الروحانية ﴿ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ ﴾ ويطلب منكم بمقابلة ما أفاض عليكم من الكرامات ﴿ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾ أي جميعها، بل مقدار ما يزكي بها نفوسكم ويطيب بها قلوبكم من الشح المفرط والميل المتبالغ. فكيف

﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا ﴾ ويطلب منكم سبحانه جميعها ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ ويبالغ عليكم في طلب ما اقترفتم؟ ﴿ تَبْخَلُواْ ﴾ البتة على الله ورسوله، وتظهروا الحقد فلا تعطوا بل ﴿ وَيُخْرِجْ ﴾ أي يبرز ويظهر بخلكم وحقدكم هذا ﴿ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾ وشكائمكم التي تضمرونها في نفوسكم.

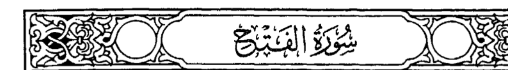
وبالجملة ﴿ هَٰٓأَنتُمْ ﴾ أيها الحمقى الغافلون عن مقتضى الألوهية والربوبية ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ البخلاء المغرورون بحطام الدنيا الدنية، المغمورون في لذاتها وشهواتها الفانية العائقة عن اللذات الأخروية إنما ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ ﴾ مما أنتم مستخلفون فيه ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فتفوزوا بالمثوبة العظمى والكرامة الكبرى

فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

عنده سبحانه، وبعد وصول الدعوة إليكم ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أي يمنع ولم يعط بل يظهر ما يضمر في نفسه من الضغن والحقد ﴿وَ﴾بالجملة ﴿وَمَن يَبْخَلْ﴾ من مالٍ بعد ما أُمر بإنفاقه ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ إذ نفع الإنفاق وضرر البخل كلاهما عائدٌ إليها ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ المستغني بذاته عن عموم صدقاتكم ومطلق طاعاتكم وعباداتكم ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ المقصورون على الفقر والاحتياج الذاتي إلى ما عنده سبحانه من أنواع الإنعام والإحسان ﴿وَ﴾ بعد ما بلَّغتَ لهم يا أكمل الرسل ما بلغتَ من مقتضيات الوحي والإلهام الإلهي ﴿إِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ وتنصرفوا عن الإيمان وامتثال عموم المأمورات ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي يهلككم ويقيم بدلكم قوماً يؤمنون ويقيمون بامتثال الأوامر والنواهي ﴿ثُمَّ﴾ لما علموا واعتبروا منكم، وشاهدوا مقتكم وهلاككم ﴿لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ كافرين بالله كفاراً لنعمه ولحقوق كرمه.

خاتمة السورة

عليك أيها القاصد نحو طريق التوحيد، العازمُ على سلوك سبيل الفناء المثمر للبقاء الذاتي، أوصلك الله إلى غاية مبتغاك ونهاية متمناك: أن تعتدل في عموم أوصافك وأخلاقك، سيما في أحوالك التي تتعلق بالإنفاق المأمور عليك بمقتضى الحكمة والعدالة الإلهية الناشئة من الله عن محض الإرادة والرضا، وإياك إياك البخل والتقتير !! فإنه الجالب لحلول غضب الله ونزول أنواع سخطه بمقتضى قهره وجلاله، فعليك الامتثال بالمأمور، والاتكال على الملك الرحيم الغفور.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الفتح

لا يخفى على أرباب السكينة والوقار من الفائزين بسرائر التوحيد، المنكشفين بأسرار الربوبية والألوهية من استقام على طريق الحق متوكلاً عليه، مفوضاً أموره كلها إليه، مخلصاً في جميع أعماله وأحواله، مستوياً على منهج العدالة المأمورة له من قبل ربه، فقد فتح عليه سبحانه أبواب الفتوحات الغيبية، وأفاض عليه أنواع الكرامات السنية القدسية(١)، وأوصله إلى الدرجات العلية اللاهوتية، وأنقذه من الدركات الدنية الناسوتية الإمكانية الجهنمية.

لذلك منَّ سبحانه على حبيبه ﷺ بالفتح والظفر على عموم ما يسَّر الله له ووفقه عليه من أنواع الخيرات والكرامات المنتظرة له وأصناف السعادات العاجلة والآجلة، فقال متيمناً باسمه الأعظم الأعلى:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ الذي فتح على خلّص عباده أبواب المعارف واليقين ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ عليهم بإفاضة العقل المتشعب من حضرة علمه ليهديهم إلى صراط مستقيم ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ عليهم يوصلهم إلى مقر التوحيد؛ ليتمكنوا في جنة الرضا وروضة التسليم.

(١) في المخطوط (القدوسية).

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ....

﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿فَتَحْنَا لَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ ظاهراً عظيماً بأن ألهمنا عليك، وأوضحنا لك طريق الخروج من مضيق الإمكان إلى فضاء الوجوب، ويسّرنا لك الترقي والعروج من حضيض الجهل وأودية الضلال إلى ذروة العلم وأوج الوصال، وإنما فتحنا لك ما فتحنا:

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ﴾ ويستر عليك ﴿ٱللَّهُ﴾ المحيط بعموم أحوالك وشؤونك ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ الذي عرض عليك بمقتضى بشريتك وإمكانك قبل انكشافك بوحدة الحق ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ بعده من تلويناتك في بعض الأحوال المسرة والمؤلمة حسب النشأة البشرية ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿يُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ﴾ الموعودة لك حسب استعدادك ﴿عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾ موصلاً إلى مقصد التوحيد الذاتي.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿يَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ الوكيل الكفيل لك في عروجك وترقيك عن بقعة الإمكان ﴿نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ منيعاً غالباً، حيث لم يغلب عليك بعد انكشافك بسرائر التوحيد جنود أمارتك وشياطين بشريتك مطلقاً.

وكيف لا ينصرك ربك؟

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ أي الطمأنينة والوقار ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مقتبسين من مشكاة نبوتك نور الولاية اللامعة المتشعشعة من شمس الذات

﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ ....

﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا ﴾ بهدايتك وإرشادك ﴿ مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ ﴾ بأنك على الحق المبين ﴿وَ﴾ كيف لا يزدادون إيماناً بك يا أكمل الرسل، مع أنك فزت بالفوز العظيم من الوحدة الذاتية وصرت مصوناً محفوظاً في كنف الحق وجواره، منصوراً على عموم أعدائه إذ ﴿ لِلَّهِ ﴾ وفي حيطة قدرته الغالبة ﴿جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أي مدبرات الأسماء والصفات ﴿وَ﴾ جنود ﴿ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي قوابل الأركان والطبائع التي هي حوامل آثار العلويات والمأثورات منها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ كَانَ ٱللَّهُ ﴾ المطلع لعموم ما في استعدادات عباده وقابلياتهم ﴿عَلِيمًا﴾ بحوائجهم لدى الحاجة ﴿حَكِيمٗا ﴿٤﴾﴾ في تدبيرات أمورهم على وفق الحكمة المتقنة والمصالحة المستحكمة. كل ذلك

﴿ لِّيُدْخِلَ﴾ سبحانه بمقتضى سعة رحمته وجوده ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ من أمة حبيبه وصفيه المستخلف منه سبحانه في بريته وعموم خليقته ﴿جَنَّٰتٖ﴾ منتزهات العلم والعين والحق ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي جداول المعارف والحقائق المترشحة من بحر الذات ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ بلا تلوين وتحويل ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْۚ ﴾ أي يمحوا عن عيون بصائرهم أشباح أنانياتهم، وأمواج هوياتهم المستحدثة على بحر الوجود ومن نكبات التعينات وحرص الإضافات ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ ﴾ الإدخال والإيصال والتكفير ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ المتعزز

فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ

برداء العظمة والكبرياء ﴿ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ ﴾ وأجراً جميلاً، لا فوز أعظم منه وأعلى.

﴿وَ﴾كما يدخل سبحانه المؤمنين والمؤمنات في روضات الجنات تفضلاً وإحساناً ﴿ يُعَذِّبَ ﴾ أيضاً ﴿ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ ﴾ وهم الذين أخرجوا أعناقهم عن عروة العبودية بمتابعة الأهوية الفاسدة والآراء الباطلة، وأظهروا الإيمان على طرف اللسان بلا إخلاص وإذعانٍ ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾ وهم الذين جحدوا في الله الواحد الأحد الصمد المنزه عن الشرك مطلقاً، وأثبتوا له شركاء ظلماً وزورا ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ﴾ المستقل بالألوهية والربوبية ﴿ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾ وهو أنه لا ينصر أولياءه، الباذلين مهجهم في طريق توحيدهم بل تدور ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ ويحيط بهم وَبَال ما تظنونه على أولياء الله، كيف ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ ﴾ المطلع على ما في ضمائرهم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بل ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ أي طردهم عن ساحة عزّ قبوله ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ الطرد والحرمان ﴿ وَسَآءَتْ ﴾ لهم جهنم ﴿ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ أي مقراً ومنقلباً ومرجعاً ومآباً.

﴿وَ﴾ كيف لا يلعنهم سبحانه ولا يغضب عليهم مع أنهم[1] يظنون بالله ظن السوء، ويعتقدونه عاجزاً عن نصر أوليائه مع أنه ﴿ لِلَّهِ ﴾ وفي حيطة قدرته وتحت تصرفه ﴿جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وله أن يأمرهم ما يشاء، ويغلبهم على من يريد إرادةً واختياراً ﴿وَ﴾ الحال أنه قد ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾ المتوحد بالعظمة والكبرياء

(١) في المخطوط (مع أنه).

عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾..........

﴿عَزِيزًا﴾ غالباً على عموم مراداته ومقدوراته بلا معاونة أحدٍ ومظاهرته ﴿حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾ في أفعاله المتقنة، يدبرها بالاستقلال وِفق[1] حكمته البالغة.

ثم قال سبحانه في مقام الامتنان لحبيبه ﷺ إظهاراً لكمال قدرته الشاملة وحكمته الكاملة:

﴿ إِنَّآ ﴾ من مقام عظيم جودنا[2] ﴿ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ شَٰهِدًا ﴾ على عموم عبادنا يشهد لهم عندنا عموم ما صدر عنهم من الصالحات الجالبة لأنواع المثوبات والكرامات ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ بهم يبشرهم برفع الدرجات والفوز بالسعادات ﴿ وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾ ينذرهم عن الدركات العائقة عن الوصول إلى جنة الذات التي دونها تجري بحر الحياة. كل ذلك ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ وتذعنوا بتوحيده ﴿ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أي تصدقوا برسوله الذي أرسل إليهم من عنده سبحانه ﴿وَ﴾ بعد اتصافهم بكمال الإيمان والإذعان ﴿ تُعَزِّرُوهُ﴾ سبحانه أي تعتقدوا أن الحول والقوة بالله جميعاً، لا حول ولا قوة لسواه مطلقاً ﴿وَ﴾ بعدما اعتقدتم كذلك ﴿ تُوَقِّرُوهُ﴾ وتعظموه[3] حق تعظيمه ﴿وَ﴾ بعد ما وقرتموه وعظمتموه كما ينبغي ويليق بشأنه ﴿ تُسَبِّحُوهُ﴾ وتنزهوه عما لا يليق بجنابه ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ أي في عموم أوقاتهم وحالاتهم، إذ لا يتأتى منهم بالنسبة إلى جنابه سبحانه إلا التفويض والتعظيم والتنزيه والتقديس، وإلا فما

(١) في المخطوط (وفوق).
(٢) في المخطوط (وجودنا).
(٣) في المخطوط (وتعظموا).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ ....

للعباد ورب الأرباب أن يتكلموا عن ذاته وصفاته، سوى أن يخوضوا في لجة بحر توحيده، ويتيهوا في بيداء ألوهيته، حتى يفنوا في فضاء صمديته، إذ لا إله إلا هو ولا شيء سواه، كل شيء هالك إلا وجهه.

ثم قال سبحانه بلسان الجمع على سبيل الإرشاد والتكميل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل ويختارون متابعتك، ويستهدون من هدايتك وإرشادك ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ الذي استخلفك عليهم، وجعلك نائباً عن ذاته في ما بينهم، فعليهم أن لا ينقضوا[1] العهد والبيعة التي عهدوا معك، بل وكيف يسع لهم النقض مع أن[2] ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾ وقبضة قدرته الغالبة ﴿فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ﴾ ونقض البيعة والعهد مع رسوله ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ﴾ أي ما يعود وبَالُ نقضه إلا عليه ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ﴾ وحفظ ﴿بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ وهو معاهدتهم مع رسول الله ﷺ بخلافته ﷺ عنه سبحانه ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ جزاءً للوفاء ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ هو الفوز بشرف اللقاء والتحقيق لدى المولى.

﴿سَيَقُولُ لَكَ﴾ يا أكمل الرسل على سبيل الاعتذار ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ أي المنافقون الناقضون للعهود، المتخلفون عن الجهاد ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ المجبولين على الكفر والنفاق: ﴿شَغَلَتْنَآ﴾ عن متابعتك ومشايعتك

---

(١) في المخطوط (تنقضوا).

(٢) في المخطوط (أنه).

أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ....

﴿ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ أي ليس لنا متعهد سوانا؛ لذلك حُرمنا عن صحبتك وعن أجر الجهاد ﴿ فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ ﴾ يا رسول الله عند الله حتى يغفر ما صدر عنا من التخلف، لا تبال يا أكمل الرسل بهم وباعتذارهم واستغفارهم هذا، فإنه من شدة شكيمتهم وغيظهم وضعف عقيدتهم ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ ﴾ تغريراً وتلبيساً ﴿قُلْ﴾ لهم على سبيل التفضيح والتبكيت: ﴿ فَمَن يَمْلِكُ ﴾ أي يدفع ويمنع ﴿ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ القادر المقتدر ﴿ شَيْـًٔا ﴾ من غضب الله ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ ﴾ شيئاً من لطفه ورحمته إن ﴿أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ ﴾ وبالجملة لا رادَّ لفضله، ولا معقِّب لحكمه ﴿ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ ﴾ يجازيكم على مقتضى خبرته.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ ﴾ أيها المتخلفون المثقلون ﴿ أَن لَّن يَنقَلِبَ ﴾ ويرجع ﴿ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ بل يستأصلهم العدو، فلن يرجع منهم أحدٌ من سفرهم هذا، بل ﴿ وَزُيِّنَ ﴾ أي حُبب وحُسِّن ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الاستئصال وعدم الرجوع وتمكن ﴿ فِى قُلُوبِكُمْ وَ﴾ قد ﴿ ظَنَنتُمْ ﴾ بزعمكم هذا ﴿ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾ بالله ورسوله والمؤمنين ﴿وَ﴾ بالجملة قد ﴿كُنتُمْ﴾ أزلاً ﴿ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ هالكين في تيه الجهل والعناد.

وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي لم يجمع بين الإيمان بالله وتصديق الرسول المستخلف منه سبحانه ﴿فَإِنَّآ﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيأنا ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ المصرِّين على الكفر والتكذيب ﴿سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾ ناراً مسعرةً ملتهبةً، تحيط بهم جزاء ما أوقدوا[1] في نفوسهم نار الفتن والطغيان لأولياء الله.

﴿وَ﴾ كيف لا ينتقم عنهم سبحانه مع أنه ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ وله التصرف فيهما بالاستقلال والاختيار ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ فضلاً وإنعاماً ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ عدلاً وانتقاماً ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ المتصف بكمال اللطف والمرحمة ﴿غَفُورًا﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ﴿رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾ يقبل توبة التائبين، ويعفو عن زلاتهم.

ثم لما سمع المخلَّفون من الأعراب يوم الحديبية أن الله قد وعد المؤمنين فتح خيبر، وخص لهم الغنائم، قصدوا الخروج نحوها طامعين الغنائم، لذلك أخبر الله سبحانه حبيبه بقصدهم هذا فقال:

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ المذكورون وقت ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ الموعودة لكم خاصة ﴿لِتَأْخُذُوهَا﴾ بفضل الله إياكم: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ﴾ بغزوتكم هذه، وننصركم، مع أنهم لا يقصدون الرفاقة والوفاق في نفوسهم

(١) في المخطوط (وقدوا).

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ ....

ونياتهم بل ﴿يُرِيدُونَ﴾ ويقصدون بقولهم هذا ﴿أَن يُبَدِّلُوا۟﴾ ويغيروا ﴿كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ الدال على تخصيص غنائم خيبر لمن حضر الحديبية بدل غنائم مكة، ﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل على وجه التأييد في النفي: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ أبداً ﴿كَذَٰلِكُمْ﴾ أي مثل ما سمعتم ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ المطلع على ما في نفوسهم من النفاق والشقاق ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي قبل تهيئاتكم أيها المؤمنون للخروج إلى خيبر ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ بعد ما سمعوا النهي على وجه التأبيد في نفوسهم، ما أمرهم الله هذا، ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ على أخذ الغنيمة أي ما حملهم على هذا النهي المؤكد المؤبد إلا الحسد والشح ﴿بَلْ﴾ هم قومٌ جاهلون ﴿كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ولا يفهمون مراد الله العليم الحكيم عن منعهم هذا ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ منهم، وهم المصدقون بالله ورسوله في سرائرهم ونجواهم.

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل ﴿لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ بعد ما أيسوا من الخروج إلى خيبر: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ﴾ غزوة ﴿قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ وشوكةٍ عظيمةٍ ﴿تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي مآل أمرهم إما القتل وعزته، وإما الإسلام لا غير ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟﴾ حينئذٍ ولم تتخلفوا كما تخلفتم يوم الحديبية ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ﴾ المطلع بنياتكم ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ وتنصرفوا

كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ

﴿ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ ﴾ يوم الحديبية ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾ لتضاعف جرمكم، وشدة شقاقكم ونفاقكم.

ثم أخذ سبحانه في تعداد ما يرخص لهم التخلف والقعود على سبيل الاضطرار فقال:

﴿ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ أي ليس لهؤلاء وزرٌ مؤاخذةٍ إن تخلفوا عن القتال بأمثال هذه الأعذار إن كانوا من أهل الطاعة والإيمان ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ على وجه الإخلاص والوفاق بلا بطانةٍ ونفاق ﴿ يُدْخِلْهُ ﴾ سبحانه بمقتضى فضله وسعة رحمته وجوده ﴿جَنَّاتٍ﴾ منتزهات الكشوف والشهود ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ من المعارف والحقائق المتجددة بتجددات التجليات[1] الإلهية، المنتشئة من النفسات الرحمانية ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي يعرض وينصرف عن مقتضى العدالة الإلهية بمتابعة الآراء الفاسدة والأهوية الباطلة ﴿ يُعَذِّبْهُ ﴾ بمقتضى قهره ﴿عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ في نيران الإمكان، لا عذاب أشد إيلاماً منه.

ثم قال سبحانه على وجه التحريض والترغيب للمؤمنين:

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ المخلصين في الإطاعة والانقياد

(١) في المخطوط (بحذف التجليات).

إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ....

﴿ إِذْ يُبَايِعُونَكَ ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ يوم الحديبية بيعة الرضوان، والشجرة هي السَّمُرَة أو السِّدْرَة ﴿ فَعَلِمَ ﴾ سبحانه بعلمه الحضوري ﴿مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ من الرغبة والإخلاص ﴿ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ ﴾ أي الطمأنينة والوقار ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ ﴾ بعد ما أيسوا عن فتح مكة، ورجعوا من الحديبية[1] ﴿فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ هو فتح خيبر بعد رجوعهم منها.

﴿وَ﴾ رزق لهم خاصةً ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ﴾ من خيبر بعد غنائم مكة ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ كَانَ ٱللَّهُ ﴾ المراقب لأحوال عباده ﴿عَزِيزًا﴾ غالباً على عموم مقدوراته ﴿حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ مراعياً مقتضى الحكمة البالغة، إنه:

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أيها المؤمنون المخلصون في إطاعة الله ورسوله ﴿ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ من أيدي الكفرة إلى قيام الساعة، إذ يُظهر دينكم على الأديان كلها ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ غنائم خيبر ﴿ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾ أي أهلِ خيبر وأوليائهم، وكفى مؤنة عموم من قصد السوء على أموالكم وذراريكم ﴿وَ﴾ إنما فعل بكم سبحانه ذلك ﴿ لِتَكُونَ ﴾ هذه الكفة والغنيمة ﴿ءَايَةً ﴾ علامةً وأَمَارةً ﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذين يأتون بعدكم، ويقتفون أثركم بأن المؤمن المخلص في جوار الله وكنف حفظه وحضانته

(١) في المخطوط (حديبيه).

وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ....

﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ ﴾ هو الثقة بالله وبكرامته ونصره لأوليائه.

﴿وَ﴾ كذا عجّل لكم عناية من الله إياكم مغانم ﴿ أُخْرَىٰ ﴾ مع أنكم ﴿ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا ﴾ لشوكة الأعداء وكثرة عددهم وعددهم، بل فررتم أنتم منهم مراراً ﴿ قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ ﴾ وأباحها عليكم بالنصر والغلبة عليهم مع أنكم خائفون وَجِلون منهم، وهي مغانم هوازن وفارس ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿كَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة علمه وإرادته ﴿ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ لا يعجز عنه ولا يفتر دونه، إذ القدرة من جملة الأوصاف الغالبة الذاتية الإلهية التي لا تفتر به ولا تضعف بحال.

﴿وَ﴾ من كمال قدرته ونصره لأوليائه أنَّه ﴿ لَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بعد ما فررتم منهم وجبنتم عنهم ﴿ لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ﴾ عنكم بنصر الله إياكم ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما ولَّوا ﴿ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا ﴾ يولي أمرهم ﴿ وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ ﴾ ينصرهم وينقذهم من أيديكم ولا تستبعد يا أكمل الرسل من قدرة الله أمثال هذا، لكونها ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ ﴾ أي مضت واستمرت ﴿ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ ﴾ أبداً ﴿ لِسُنَّةِ اللَّهِ ﴾ التي جرت منه سبحانه بمقتضى حكمته ﴿ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ ولا لحُكمه الصادر عنه بالإرادة والاختيار، تغييراً وتحويلاً.

وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ

﴿وَ﴾ كيف تُبدلُ سنة الله وتُغير حكمته مع أنه ﴿هُوَ﴾ القادر المقتدر ﴿ٱلَّذِى كَفَّ﴾ وضع ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ أي أيدي كفار مكة ﴿عَنكُمْ﴾ حين استيلائهم عليكم ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ حين غلبتم عليهم ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ﴾ وأظهركم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وذلك أن عكرمة بن أبي جهل خرج مع خمسمائة إلى الحديبية، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على جندٍ، فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة، ثم قال ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾ العليم الحكيم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خيرٍ وشرٍ ﴿بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ خبيراً، لا يعزب عنه شيء مما جرى عليكم، يجازيكم على مقتضى بصارته وخبرته.

وكيف لا يجازي الكفرة سبحانه بأسوء الجزاء؟ إذ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله ظلماً وعدواناً ﴿وَ﴾ لم يقتصروا على الكفر فقط بل ﴿صَدُّوكُمْ﴾ أي حصروكم وصرفوكم ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ عام الحديبية ﴿وَ﴾ الحال أنه قد صار ﴿ٱلْهَدْىَ﴾ أي الذبائح والقرابين التي ساقها رسول الله ﷺ ﴿مَعْكُوفًا﴾ محبوساً قريباً ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي مذبحه الذي عينه الله لذبح الضحايا، وهو المنى.

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ بينهم ﴿وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ في خلالهم لم يكفّ سبحانه أيديكم عنهم، بل نصركم عليهم واستأصلتموهم بالمرة، لكن لما كان بينهم من المؤمنين والمؤمنات، كفّ سبحانه أيديكم عنهم مخافة

لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ....

﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أي المؤمنين المخلوطين بهم، ولم يميزوهم من الكفار ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ تدوسوهم ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم﴾ أي من أجل المؤمنين المخلوطين بالكافرين وجهلهم ﴿مَّعَرَّةُۢ﴾ أي مضرةٌ ومكروهٌ من لزوم ديةٍ وكفارةٍ، وإثمٌ عظيمٌ، وتعييرٌ شديدٌ وغير ذلك من المنكرات، مع أنه إنما صدر عنكم الوطاءة والدوس لو صدر ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾ وخبرةٍ، وإنما كف أيديكم عنهم حين أظفركم عليهم ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ﴾ المطلع بما في استعدادات عباده من الإيمان والكفر ﴿فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ التي هي التوحيد والإسلام ﴿مَن يَشَآءُۚ﴾ منهم حتى ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ﴾ وتفرقوا أي المؤمنين من الكافرين ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ في غاية الإيلام من السبي والجلاء وأنواع المصيبة والبلاء.

اذكر يا أكمل الرسل:

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ الأنفة والغيرة لا على وجه الحق بل ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾، وذلك أنه ﷺ لما نزل الحديبية، فهمَّ بقتال أهل مكة، بعثوا سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص ليرجع من عامه، وتُخلى له مكة من العام القابل ثلاثة أيام.

فقال ﷺ لعلي رضي الله عنه: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما صالح رسول الله ﷺ أهل مكة»، فقالوا: ما نعرف هذا! اكتب بسمك اللهم، هذا ما صالح محمد بن عبد الله.

فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٢٦﴾ لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ

فقال ﷺ: «اكتب ما يريدون»! فكتب.. فهمَّ المؤمنون أن يبطشوا[1]، ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ ووقاره ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إذ هم أحقاء بالطمأنينة والوقار وكظم الغيظ وتوطين النفس بالمكاره[2] ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿أَلۡزَمَهُمۡ﴾ سبحانه ﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ واختار لهم صون النفس عن التهور والغِلظة ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرها ﴿وَأَهۡلَهَاۚ﴾ أي كانوا أهلاً لحفظها ورعايتها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾ المراقب لعموم أحوالهم ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ يليق بهم وينبغي لهم ﴿عَلِيمٗا ﴿٢٦﴾﴾ يوفقهم عليه ويسهل عليهم الاتصاف به.

ثم لما رأى ﷺ في منامه أنه وأصحابه دخلوا مكة آمنين، وقد حلَّقوا وقصَّروا، فقص ﷺ الرؤيا على أصحابه، فرحوا وظنوا أن ذلك في عامهم هذا، فلما تأخر بالصلح والمعاهدة، قال بعضهم: والله ما حلقنا وما قصرنا وما رأينا البيت، فنزلت:

﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا﴾ أي جعله سبحانه صادقاً في ما رأى ملتبساً ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ والله أيها المؤمنون ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ من العدو، إذ ما أريناه ما أريناه إلا بالحق ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ﴾ على

(١) صحيح البخاري [٢/ ٩٧٤ رقم / ٢٥٨١/ باب: الشروط في الجهاد والمصالحة] مسند أحمد [١/ ٨٦ رقم/ ٦٥٦/] صحيح ابن حبان [١١/ ٢١٤ رقم / ٤٨٧٠/] المستدرك على الصحيحين [٢/ ١٦٥ رقم/ ٢٦٥٧/ كتاب: قتال أهل البغي] وغيرهم.

(٢) في المخطوط (بالمكارة).

وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ......

الوجه المتعارف ﴿ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ كما هو عادة الحجاج يحلق بعضهم، ويقصر بعضهم، وبالجملة ﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾ بعد ذلك، إذ الله معكم ﴿ فَعَلِمَ ﴾ منكم ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴾ من أنفسكم، ولا تستعجلوا إلى الفتح إذ هو مرهونٌ بوقته ﴿ فَجَعَلَ ﴾ لكم ﴿ مِن دُونِ ذَٰلِكَ ﴾ أي فتح مكة ﴿ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ هو فتح خيبر؛ ليطمئن به قلوبكم، إلى أن يتيسر لكم الفتح الموعود الذي أخبر به نبيكم الصادق المصدوق(١).

وكيف لا يصدق سبحانه؟!

مع أنه ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾ ملتبساً ﴿ بِالْهُدَىٰ ﴾ والإرشاد إلى سبيل توحيده ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ الفارق بين الباطل والضلال، ووعد له ﴿ لِيُظْهِرَهُ ﴾ أي دينه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أي جنس الأديان النازلة من عنده بأن نسخ الجميع به ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ على صدقه ﷺ في رؤياه وفي دعوته ونبوته وإظهار أنواع المعجزة بيده، أنه قال سبحانه:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ﴾ حقٌ مرسلٌ من عنده مبعوثٌ إلى كافة البرايا ليهديهم إلى توحيده الذاتي ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ من المؤمنين له المصدقين لدعوته المتعطشين بزلال مشربه ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ الساترين بغيوم هوياتهم الباطلة هويةَ الحق

---

(١) في المخطوط (الصدوق).

رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ....

الظاهر في الآفاق والأنفس، يدفعون مؤنة كثراتهم الوهمية، بترويج الحق على الباطل، وإعلاء كلمة التوحيد، وتقويم الدين القويم، وإظهاره على سائر الأديان ﴿ رُحَمَآءُ ﴾ فيما ﴿ بَيْنَهُمْۖ ﴾ متواضعون مع أهل الحق وأرباب التوحيد لذلك ﴿ تَرَىٰهُمْ ﴾ في عموم أوقاتهم ﴿ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ أي راكعين ساجدين متذللين خاضعين خاشعين بلا رعونةٍ ولا رياءٍ ولا سمعةٍ ولا هوىً، بل ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ ويطلبون بتذللهم هذا ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ ﴾ منه سبحانه، وبالجملة ﴿ سِيمَاهُمْ ﴾ أي سمتهم وعلاماتهم الدالة على نجابة طينتهم وكرامة فطرتهم ظاهرةٌ ﴿ فِى وُجُوهِهِم ﴾ وجباههم ﴿ مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ﴾ وكثرة التذلل والخشوع نحو الحق ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من أوصافهم ﴿ مَثَلُهُمْ ﴾ وَصِفَتُهم العجيبة المذكورة ﴿ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ ﴾ هكذا أيضاً ﴿ فِى ٱلْإِنجِيلِ ﴾.

وبالجملة مَثَلُهم في بدء ظهورهم وخروجهم أولاً في غاية الضعف والنحافة واشتدادهم وغلظهم على الأعداء ووفور رأفتهم ورحمتهم على الأولياء ثانياً ﴿ كَزَرْعٍ ﴾ أي كمثل زرعٍ وقعَ على الأرض ضعيفاً وبرز منها نحيفاً، ثم ظهر عليها، ونبت قوياً يوماً فيوماً إلى حيث ﴿ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ ﴾ أي أفراخه وأغصانه دقيقاً دقيقاً ﴿ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾ قوّمه وقوّاه بالمعاونة ﴿ فَٱسْتَغْلَظَ ﴾ وعاد غليظاً بعد ما رباه وأحسن تربيته ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ واستقام بعد ذلك ﴿ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ أي قصبه وساقه

يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

على وجهٍ ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ عند رؤيته بكمال كثافته وغلظته ونضارته ولطافته.

وإنما ربَّاهم سبحانه وقوَّاهم على أبلغ وجهٍ وأحسنه ﴿ لِيَغِيظَ ﴾ ويتحسر ﴿ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ ﴾ المخالفون المخاصمون لهم من كمال تشددهم وترقبهم، وبالجملة ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ المطلعُ على ما في استعدادات عباده من الإخلاص والتفويض ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بكمال المحبة والتسليم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ المقربة لهم إلى الله ﴿ مِنْهُم ﴾ أي من جنسهم ﴿ مَّغْفِرَةً ﴾ ستراً ومحواً لأنانياتهم الباطلة ﴿ وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ هو الفوز بشرف اللقاء، والوصول إلى سدرة المنتهى، وليس وراء الله مرمى.

رزقنا الله الوصول إليه، والوقوف بين يديه.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتوجه نحو توحيد الذات، مكَّنك الله في مقعد الصدق، ووطّنك في مقر التوحيد: أن تعتدل في عموم أوصافك وأخلاقك وأعمالك، مجتنباً عن كِلا طرفي الإفراط والتفريط، معرضاً عن قشور مطلق التخمين والتقليد، مقتصداً في جميع أطوارك وشؤونك، مقتفياً في جميع أخلاقك وأطوارك أثرَ نبيك الهادي إلى سواء السبيل حتى ينفتح لك أبواب عموم الكرامات والسعادات، وينغلق دونك مداخل أنواع المكروهات والمنكرات، وإياك إياك أن تختلط مع أهل الغفلة وأصحاب الجهالات، المترددين في أودية الغي والضلالات، ليتيسر لك التحقق إلى فضاء الوصال.

جعلنا الله من زمرة أوليائه المقتصدين، الذين ثبتوا على الصراط المستقيم.

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ....

فاتحة سورة الحجرات

لا يخفى على أرباب المحبة والولاء المتحققين بمقام التسليم والتأديب مع الله في عموم أحوالهم وأفعالهم: أن كمال العبودية والإخلاص إنما يظهر بحسن الأدب والمحافظة على أداء حقوق الربوبية والوفاء على مقتضيات عهود الألوهية، وذلك إنما يحصل برعاية حقوق من اختاره الله لرسالته واصطفاه لخِلته وخلافته، إذ هو الوسيلة الموصلة لعباد الله إلى الله والهادي لهم إلى جناب قدسه.

لذلك أوصى سبحانه خلَّص عباده بمحافظة الأدب مع الله ورسوله، فقال بعد ما تيمن باسمه العظيم:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾المراقب لأحوال عباده ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ عليهم بتعليم الأدب إياهم ﴿ٱلرَّحِيمِ ﴾ لهم بتلقين الرضا والتسليم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ مقتضى إيمانكم مراعاة الأدب مع الله ورسوله فعليكم أن ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ ﴾ ولا تتقدموا في أمرٍ من الأمور وحُكمٍ من الأحكام ﴿بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أي لا تبادروا بإمضاء الأحكام ما لم تشاوروا بكتاب الله وسنة رسوله

وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ....

ولم تعرضوها[1] عليهما ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ الغيورَ المطلعَ على ما في ضمائركم ونياتكم، واحذروا عن المسابقة والمبادرة في الأقوال والأحكام بمقتضى آرائكم وأهوائكم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ المراقبَ عليكم في عموم أحوالكم ﴿ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالكم ﴿ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ بنياتكم فيها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ من خصائص إيمانكم بالله وبرسوله أن ﴿ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ ﴾ وقت التكلم مع النبي ﷺ ﴿ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ﴾ ولا تخلطوا أصواتكم مع صوته بل ﴿ وَ ﴾ عليكم أن ﴿ لَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ ﴾ ﷺ ﴿ بِٱلْقَوْلِ ﴾ مطلقاً ﴿ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ إذ الجهر بالقول معه مخلٌ لحرمته وتعظيمه، وإنما نهاكم سبحانه عنه كراهةَ ﴿ أَن تَحْبَطَ ﴾ وتضيع ﴿ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ أي الصالحات منها ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ إحباطها وضياعها. وبالجملة

﴿ إِنَّ ﴾ المؤمنين المحسنين ﴿ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ ﴾ ويحفظون ﴿ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ مراعاةً لتعظيمه، وحفظاً للأدب معه ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ السعداء المقبولون هم ﴿ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ ﴾ المجربُ لإخلاص عباده ﴿ قُلُوبَهُمْ ﴾ التي هي وعاء الإخلاص والإيمان ليجعلها مقراً ﴿ لِلتَّقْوَىٰ ۚ ﴾ المثمرة لأنواع اللذات الروحانية ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ سترٌ وعفوٌ عن مقتضيات بشريتهم

---

(١) في المخطوط (ولم يعرضوا).

وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ....

﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ هو تحققهم بمقام الرضا والتسليم.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة:

﴿ إِنَّ ﴾ المسرفين المسيئين ﴿ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾ حين كنت مستريحاً في خلوتك، فارغاً همَّك عن مقتضيات النبوة، متوجهاً إلى ربك حسب ولايتك ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ ولا يفهمون منزلتك عند ربك، ولا يتفطنون بخلوتك معه واستغراقك بمطالعة وجهه الكريم، إذ لو كان لهم عقلٌ يوقظهم من مقام الغفلة، ويرشدهم البتة إلى مراعاة الأدب معك يا أكمل الرسل.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ ﴾ حين احتياجهم إليك وإرادتهم صحبتك ﴿حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ﴾ لهدايتهم وإرشادهم بمقتضى شفقة النبوة ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ وأولى من مبادرتهم واستعجالهم إلى النداء ﴿ وَٱللَّهُ ﴾ المطلعُ بما في ضمائرهم من الإخلاص ﴿غَفُورٌ ﴾ يغفر زلتهم إن وقعت منهم أحياناً ﴿ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ يرحمهم إن كانوا من ذوي الإخلاص مع الله ورسوله.

ثم نادى سبحانه عموم المؤمنين المخلصين نداءَ إرشادٍ وتعليمٍ، تهذيباً لأخلاقهم عما لا يليق بشأن الموحدين فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ مقتضى إيمانكم بالله حسنُ الظن بإخوانكم المؤمنين

إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ ....

فعليكم ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ﴾ منحرفٌ عن عدالة الإيمان والتوحيد ﴿بِنَبَإٍ﴾ وخبرٍ على سبيل الافتراء والمراء ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أي تعرَّفوا وتفحَّصوا واستكشِفوا عنه ولا تبادروا[1] إلى تصديقه كراهة ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا﴾ أذيةً وسوءاً بمجرد الظن الكاذب، مع أنكم ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي جاهلين بحالهم ﴿فَتُصْبِحُواْ﴾ وتصيروا بعد ما تصيبوا القوم البريء ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ﴾ من أذياتهم ﴿نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ محزونين مغتمين، كلما تذكرتم تغممتم.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ فِيكُمْ﴾ وبين أظهركم ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ وسنتَه السنيةَ الموروثةَ له من ربه بعد مماته، فعليكم الإطاعة والمراجعة إليه حين حياته، وإلى سننه وشرعه في مطلق الأمور والعرض عليه وعليهما، والمشاورة معه، فعليكم أن لا تكلفوه إلى قبول ما حسَّنت لكم نفوسكم من الأمور، فإنه ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ ويقبل قولكم ﴿فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أتممتم وهلكتم في الإثم البتة، واستغرقتم فيه، إذ من مقتضى إيمانكم وانقيادكم له أن تفوضوا أموركم كلها إليه، وتستصوبوها منه، فإن صوَّب بعضها فبها، وإلا فلا تكلفوه، إذ منصب النبوة ومقتضى الحكمة يأبى عن ذلك ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ يعني لا تعتذروا في إصابة البريء بمجرد القول الباطل والظن الفاسد بمحبة الإيمان وكراهة الكفر، فإنه سبحانه وإن

(١) في المخطوط (ولم تبادروا).

وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ ....

حبَّب إليكم الإيمان ﴿ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ ﴾ المؤدي إليه ﴿ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾ المستلزمَ له، لكنه إنما حبّب الإيمان على مقتضى الصدق والعدالة، وكرَّه الكفر الناشئ عن قصدٍ واختيارٍ، لا أن ينسب إلى من ينسب عن بهتانٍ وزورٍ، فإنه سبحانه لا يرضى لعباده أمثاله، وبالجملة ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ﴾ المؤمنون المجتنبون عن الزور والتهمة ﴿ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ ﴾ المقصورون على الرشد والهداية إلى صراطٍ مستقيم، هو صراط التوحيد المشتمل المعتدل بين كلا طرفي الإفراط والتفريط.

وإنما صار رشادهم هذا

﴿ فَضْلًا ﴾ ناشئاً ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ المطلع لاستعدادات عباده وقابلياتهم ﴿وَنِعْمَةً ﴾ موهوبةً لهم من عنده ﴿وَٱللَّهُ﴾ المحيط بعموم أحوال عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ لحوائجهم المُصْلِحة ﴿حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ في إفاضتها حسب المصلحة.

﴿وَ﴾ من جملة أخلاقكم أيها المؤمنون المعتدلون في مقتضى الإيمان[1] ﴿ إِن ﴾ كان ﴿ طَآئِفَتَانِ ﴾ كلتاهما ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ عند ثوران القوة الغضبية وهيجان الحمية الجاهلية من كلا الجانبين بسبب الخصومة المستمرة ﴿ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ مهما أمكن الصلح على وُفق الحكمة والعدالة ﴿ فَإِنۢ بَغَتْ ﴾ أي غوت وغلبت ﴿ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ بحيث أدت بغيها إلى

---

(١) في المخطوط (في مقتضى ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ ﴾).

فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ

الإفراط والظلم الخارج عن مقتضى العدالة الإلهية ﴿فَقَٰتِلُواْ﴾ بأمر الله، مظاهرين مع الطائفة المغلوبة على الطائفة الغالبة ﴿ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ وتغوي ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ ﴾ وترجع ﴿إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ وحُكمه المترتب على القسط والعدالة ﴿فَإِن فَآءَتۡ ﴾ ورجعت عن بغيها وطغيانها ﴿ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ بعد ما وقع ما وقع ﴿ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ المنبئ عن الحكمة ورعاية الغبطة بين الجانبين ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿أَقۡسِطُوٓاْۖ﴾ واعتدلوا أيها المؤمنون في عموم أحوالكم وأحكامكم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ المستويَ على العدل القويم ﴿ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ من عباده.

وكيف لا تصلحون بينهما أيها المؤمنون المصلحون؟:

﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ الموقنون بوحدة الحق، المصدقون لرسوله، المبين لطريق توحيده ﴿ إِخۡوَةٞ﴾ في الدين القويم ﴿ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾ بالعدل والإنصاف ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ في صلاحكم هذا عن الميل والانحراف ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ لأجل عدالتكم وتقواكم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مقتضى إيمانكم ترك المراء والاستهزاء بحيث ﴿ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ﴾ منكم أيها الرجال القوامون المقيمون لحدود الله ﴿مِّن قَوۡمٍ﴾ أمثالكم في القيام والتقويم، أي أقوياؤكم ورؤساؤكم من أراذلكم

عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ....

وضعفائكم ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ﴾ أي المسخورون المرذولون ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي من الرؤساء الساخرين عند الله كذا ﴿وَلَا﴾ لا تسخر منكم ﴿نِسَآءٌ﴾ عالياتٌ متعززاتٌ ﴿مِّن نِّسَآءٍ﴾ سافلاتٍ مستضعفاتٍ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ﴾ أي المستضعفات ﴿خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أي من العاليات عند الله، وكنّ أقرب إلى رحمته سبحانه منهن ﴿وَ﴾ كذا ﴿لَا تَلْمِزُوٓاْ﴾ أيها المؤمنين ولا تعيبوا ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ أي بعضكم بعضاً، إذ المؤمنون كنفسٍ واحدة، فما لحق لهم وعليهم، إنما لحق بهم وعليهم جميعاً ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ أي لا يدعوا بعضكم بعضاً باللقب السوء الدال على الذم والقبح، فإن النبذ إنما يستعمل في اللقب السوء، وإنما نهيتم عما نهيتم؛ لأنه من جملة الفسوق والعصيان، المستلزم لأنواع الخيبة والحرمان، المسقط للمروءة والعدالة المترتبة على الحكمة الإلهية، وبالجملة ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ﴾ المنبئُ عن الخروج والانحراف عن صراط الحق سيما ﴿بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي بعد الاتصاف بالإيمان المنبئ عن كمال الاعتدال ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَن لَّمْ يَتُبْ﴾ ولم يرجع إلى الله، بعد ما صدر عنه أمثال هذه الجرائم المذكورة هفوةً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء المصرون على الغواية والطغيان ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ المقصورون على الخروج عن مقتضى الحدود الإلهية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾ ....

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مقتضى إيمانكم متابعة اليقين في عموم الأحوال والمقامات وترك الظنون والجهالات في جميع الحالات إلا ظن الخير بالله وبخلَّص عباده من الأنبياء والأولياء، المستبعدين بمراحل عن التهمة والتغرير ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ المورث لكم المراءَ والمجادلةَ مع الله ورسولِه وعمومِ المؤمنين، وبالجملة ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ﴾ هو الملقى إليكم من قبل الشيطان المزوِّر المغْوِي ﴿إِثۡمٞۖ﴾ خروجٌ وفسوقٌ عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ أي من جملة أخلاقكم المحمودة تركُ التجسس والتفحصِ عن خلائل بني نوعكم قطعاً، عليكم ألا تبحثوا عن عورات المسلمين وغيرهم، سيما بما يوجب هتك حرماتهن من المفتريات الباطلة الشنيعة ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾ أي من جملة أخلاقكم بل من معظمها أيها المؤمنون القاصدون لسلوك طريق التوحيد ترك الغيبة، وهي أن يذكر بعضكم بعضاً منكم في غيبته بشيءٍ لو كان حاضراً عندكم؛ لَيشق عليه ويكرهه.

وسئل عليه السلام عن الغيبة، فقال: «أَنْ تَذْكُرَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُهُ، فَإِنْ كَانَ فِيْهِ، فَقَد اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَقَدْ بَهَتَّهُ»[1] وكلاهما خارجان عن

(١) الحديث رواه مسلم في الصحيح [٤/ ٢٠٠١ رقم / ٢٥٨٩/ باب: تحريم الغيبة] عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته». ورواه ابن حبان في الصحيح [١٣/ ٧٢ رقم ٥٧٥٩/] والترمذي في السنن [٤/ ٣٢٩ رقم / ١٩٣٤/ باب: ما جاء في الغيبة].

أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ ......

اعتدال أهل الإيمان.

ثم أكد سبحانه هذا النهي على وجه المبالغة في التوبيخ فقال:

﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ ﴾ وترضى نفسه ﴿ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ ﴾ سيما حال كونه ﴿مَيْتًا﴾ لو فُرض عرض هذا عليكم ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ البتة، إذ لا يمكنكم إنكار كراهته، وغيبة الأخ المؤمن أكرهُ وأقبحُ من هذا ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ المنتقم الغيور عن ارتكاب الغيبة المحرمة، وتوبوا إليه عنها وعن أمثالها ﴿ إِنَّ اللَّهَ ﴾ المطلع على ما في ضمائركم من الندم والإخلاص ﴿ تَوَّابٌ ﴾ يقبل منكم توبتكم ﴿ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ يمحو عنكم زلّتكم، بعد ما تبتم ورجعتم نادمين عما فعلتم.

ثم أكد سبحانه أيضاً هذا الحكم على وجه التفصيل فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ الناسون للمنشأ الأصلي والفطرة الجبلية ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُم ﴾ أي أوجدناكم وأخرجناكم جميعاً ﴿مِّن ذَكَرٍ﴾ هو آدمُ المصور بصورتنا اللاهوتية، المجبولُ على خلافتنا ﴿ وَأُنثَىٰ ﴾ هي حواء المتشعبة من آدم باعتبار ناسوته ﴿وَ﴾ بعد ما صيرناهما زوجين ممتزجين مزدوجين من حصة اللاهوت والناسوت ﴿جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا﴾ متكثرةً من أصلٍ واحدٍ هو آدم ﴿ وَقَبَائِلَ ﴾ مختلفةً متجزئةً من تلك الشعوب.

الشعب: هي الجمع المتكثر المنشعب عن أصلٍ واحد.

والقبيلة: هي الفرق المختلفة الحاصلة من الشعب.

لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ

والعمارة: هي الطائفة المتفرعة على القبيلة.

والبطن: الجمع المتفرع على العمارة.

والفخذ: جمعٌ متفرعٌ على البطن.

والفصيل على الفخذ.

فخزيمة مثلاً شعْبٌ، وكنانة قبيلةٌ، وقريشٌ عمارةٌ، وقصيٌ بطنٌ، وهاشمٌ فخذٌ، وعباسُ فصيلٌ.

وإنما جعنلكم كذلك ﴿لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ أي يعرف بعضكم بعضاً وأدى تعارفكم إلى التلاحق في المنشأ لا للتفاخر والتغالب، إذ لا تفاخر بينكم إلا بالكرامة والنجابة المترتبة على حقية اللاهوت، وبالجملة ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ عن لوازم الناسوت وشواغل الهيولى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع على استعدادات[1] عباده ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾﴾ بما في ظواهرهم وبواطنهم، يوفقهم على مقتضى علمه وخبرته.

ومن عدم امتثالهم وانقيادهم بأمر التعارف والتلاحق الموصى إليهم من قبل الحق.

﴿۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ﴾ التي هي المَثَل في اللدد والعناد على سبيل التغالب والتفاخر حين قدموا المدينة في سنةٍ جدبةٍ، وأظهروا الشهادتين لا عن عزيمةٍ خالصةٍ وقصدٍ صادقٍ، بل على سبيل الخداع والنفاق، ولهذا كانوا يقولون

(١) في المخطوط (لاستعدادات).

ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ....

لرسول الله ﷺ على سبيل الامتنان: أتيناك بالأحمال والأثقال، ولم نقاتل معك كما قاتل بنو فلان ﴿ءَامَنَّاۖ﴾ بك بلا سبقِ خصومةٍ منا معك، وبالجملة يمنون عليك يا أكمل الرسل بإيمانهم الواهي وصدقاتهم الغير وافية ﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل بعد ما أظهروا ما أضمروا في ضمائرهم من المنة والغلول المنافي للإخلاص والإيمان: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ أيها الأعراب بمجرد قولكم آمنا، إذ الإيمان إنما هو من أفعال القلوب الصافية عن كدر المنّ والأذى مطلقاً ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ﴾ بدل قولكم: آمنا: ﴿أَسۡلَمۡنَا﴾ أي دخلنا في السِّلم وصالحنا على أن لا تخاصم بيننا وبينكم، ولا نزاع، وكيف تقولون: آمنا، ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿لَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ والإذعان ﴿فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ التي هي وعاؤه وهو من أفعالها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي حق إطاعتهما وانقيادهما مخلصين ﴿لَا يَلِتۡكُم﴾ ولا يُنقصكم ﴿مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ﴾ أي من أجورها وجزائها إن أخلصتم فيها وجئتم بها بلا مَنٍّ وأذىً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع بنيات عباده ﴿غَفُورٞ﴾ لمن تاب عن فرطاته ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ يرحم عليه، ويقبل توبته، وبالجملة:

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ المخلصون هم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وأخلصوا في إيمانهم وإذعانهم ليصلوا إلى مرتبة التوحيد المسقِط لعموم الإضافات

ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْۖ قُل ....

﴿ ثُمَّ ﴾ بعد ما آمنوا وأيقنوا ﴿ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾ ولم يشكوا قط في ما آمنوا ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ مع أعداء الله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ المقصورون على الصدق والإخلاص، الفائزون عند ربهم بأنواع الفوز والفلاح، المتمكنون في مقعد الصدق عند مليك مقتدر.

﴿ قُلْ ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعد ما أظهروا الإيمان الجعلي بألسنتهم، ولم تواطىء عليه قلوبهم: ﴿ أَتُعَلِّمُونَ ﴾ وتخبرون أيها الجاهلون ﴿ ٱللَّهَ ﴾ المطلعَ لعموم السرائر والخفايا ﴿ بِدِينِكُمْ ﴾ وإيمانكم هذا ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ بعلمه الحضوري جميع ﴿ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ من الغيوب والشهادات ﴿وَ﴾ جميعَ ﴿ مَا فِي ٱلْأَرْضِۚ ﴾ أيضاً كذلك ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ المحيطُ بالكل ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ دخل في حيطة الوجود ﴿ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ لا يعزب عن علمه شيءٌ مما لمع عليه برق الوجود.

ثم قال سبحانه تعليماً لحبيبه ﷺ وإرشاداً:

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ أَنْ أَسْلَمُواْۖ ﴾ إسلامهم ودخولهم في السلم، مع أنهم ليسوا مؤمنين مذعنين ﴿قُل﴾ في جوابهم يا أكمل الرسل

﴿لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

إلزاماً وتبكيتاً: ﴿لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُمۖ﴾ أي بإسلامكم هذا، ولا تعدّوا أنفسكم من جملة الموقنين بمجرد ما تفوهتم بالإيمان ﴿بَلِ ٱللَّهُ﴾ العالِم لعموم السرائر والخفايا ﴿يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ﴾ أي يهديكم وأرشدكم ﴿لِلۡإِيمَٰنِ﴾ المثمر للعرفان، المستلزم للتوحيد وعلى العيان ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ في إيمانكم، موافقين قلوبكم بألسنتكم، مطابقين لجامعِ أنكم لستم كذلك، وبالجملة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلعَ في ضمائر عباده من الثقة والإخلاص ﴿يَعۡلَمُ﴾ بحضرة علمه الحضوري ﴿غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَ﴾ بالجملة ﴿ٱللَّهُ﴾ المراقبُ بعموم أحوالكم وأطواركم ﴿بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ من الأعمال خيراً كان أو شراً، يجازيكم بمقتضى بصارته وعلمه.

جعلنا الله من زمرة المؤمنين الموقنين المخلصين، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

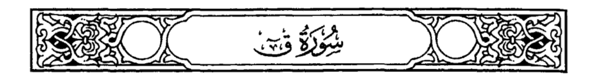
خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي المتمكن المتحقق في مقام التوحيد الذاتي، مكَّنك الله في مقر عزك وتمكينك: أن تترفع بنفسك عن مطلق الرذائل المتعلقة بالأهوية الفاسدة والأماني الكاسدة، سيما عن المن والأذى في الإنفاق ورعونات السمعة والرياء في مطلق الطاعات، وإياك إياك أن تتفوق على أحدٍ من بني نوعك وإخوانك في عموم حالاتك وأزمانك، فإنه من شِيَم أصحاب النخوة والكفران المورثِ لهم أنواع الخيبة والخسران وأصنافَ الخذلان والحرمان، ولك أن تلازم التواضع والانكسار مع عموم المظاهر والمجالي، والاعتزالَ[1] عن مطلق أصحاب الجاه والاعتبار، والقناعةَ مع الكفاف والعزلة.

جعلنا الله ممن تنبه على منهج الصدق والصواب، واجتنب عن ما ينافيه بتوفيق الحق وتيسيره.

---

(١) في المخطوط (الاعتذار).



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة قٓ

لا يخفى على من تنور قلبه بأنوار الوحدة الذاتية المتشعشعة عن مشكاتَي النبوة والولاية المترتبتين على صورة الإنسان المصور بصور الرحمان أن أكمل المظاهر وأولاها لقبول التجليات الإلهية وأليقها لرتبة الخلافة والنيابة عنه سبحانه وأحراها للتخلق بأخلاق الحق هو الإنسان الكامل القابل لانعكاس أشعة شمس الذات الأحدية المستهلكة دونها عموم الكثرات والإضافات.

فظهر ألا مظهر أجمع من الإنسان وأكمل منه، وأشرفُ هذا النوع وأكملُه وأتمُّه علماً وعيناً وكشفاً وشهوداً هو نبينا صلوات الله عليه وسلامه، فمن تعجب عن رسالته وخلافته عتواً، وأنكر إرشاده لبني نوعه عناداً، وإنزالَ الوحي استكباراً، فقد ضل وغوى، ولم يهتد إلى ما هو الرشد والهدى، لذلك أنزل سبحانه على حبيبه ما أنزل، وأقسم ما أقسم تأكيداً ومبالغةً لإثبات هدايته وإرشاده ﷺ وكمال لياقته لخلافة الحق ونيابته، فقال بعدما تيمن:

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾ المرسِل للرسل المنزل للكتب لتبيين طريق توحيده ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ بعموم عباده يدعوهم إلى دار السلام ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لخواصهم يوصلهم إلى أعلى المقام بأنواع الإنعام والإكرام.

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ﴾ ....

﴿قٓۚ﴾ أيها الإنسان الكامل القابل لخلعة الخلافة والنيابة الإلهية، القيِّمُ القائم لتبليغ الوحي والإلهام المنزل عليك من عنده سبحانه على عموم الأنام، القائدُ لهم إلى توحيد الملك العلام القدوس السلام ذي القدرة والقوة الكاملة الشاملة على أنواع الإنعام والانتقام ﴿وَ﴾ حقِّ ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ العظيم المنزَّل من المجيد العظيم أنك يا أكمل الرسل لمرسلٌ إلى كافة الخلق من الحق على الحق بالحق لتبيين طريق الحق وتوحيده، وبعد ما لم يجد المنكرون فيك يا أكمل الرسل شيئاً شيناً يدعوهم ويبعثهم إلى إنكارك وتكذيبك صريحاً، اضطروا إلى العناد والمكابرة.

﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ﴾ واستبعدوا أولئك الحمقى الجاهلون ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ أي بُعِثَ إليهم رسولٌ من جنسهم و بني نوعهم، ينذرهم عن أهوال يوم القيامة وأفزاعها، مع أنهم منكرون للحشر وإرسال البشر جميعاً ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ المستكبرون بعد ما سمعوا منك الدعوة والإنذار من شدة إنكارهم واستبعادهم: ﴿هَٰذَا﴾ أي إرسالُ البشر إلى البشر، والإنذارُ من الحشر المحال كلاهما ﴿شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ وأمر بديعٌ، ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين.

ثم فصلوا ما أجملوا على سبيل التعجب والإنكار، فقالوا مستفهمين مستفيدين في ما بينهم: مستعيذين [1]

﴿أَءِذَا مِتۡنَا﴾ أي أنرجع ونعودُ أحياءً كما كنا إذا متنا ﴿وَكُنَّا تُرَابٗاۖ﴾ وهباءً

(١) في المخطوط (مستفهماً في ما بينهم مستعيذاً).

ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴿٣﴾ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ﴿٤﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ

منبثاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ العودُ والرجوعُ ﴿رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴿٣﴾﴾ عن الوقوع وقبول العقول.

ثم قال سبحانه ردعاً لهم ورداً عليهم: وكيف تستبعدون وتنكرون عنا قدرتنا على بعث الموتى وإعادتهم أحياء كما كانوا؟! مع أنا ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا﴾ على التفصيل والتحقيق ﴿مَا تَنقُصُ﴾ تأكل وتضمحل ﴿ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ﴾ أي من أجزائهم وأوصالهم، وكيف لا نعلم ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ﴿٤﴾﴾ حاصرٌ لتفاصيل الأشياء، حافظٌ لها، ألا وهو حضرة علمنا الحضوري ولوح قضائنا.

﴿بَلۡ﴾ هو من غاية عمههم وسكرتهم وكمال غَيِّهم وغفلتهم ﴿كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ﴾ الصدقِ المطابقِ للواقع، المؤيَّدِ بالبرهان الساطع والدليل القاطع، وهو نبوة محمد ﷺ ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ وحين بُعث إليهم على الحق لتبيين الحق وتمييزه عن الباطل، لذلك أنكروا البعث الذي[1] جاء ﷺ لتبيينه وللإنذار بما فيه من أنواع العقبات والعقوبات، وبالجملة ﴿فَهُمۡ﴾ بمقتضى أحلامهم السخيفة مغمورون ﴿فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾ مضطربٍ مخلوطٍ يلتبس عليهم حقية ﷺ وحقية ما جاء به من عند ربه؛ لذلك يضطربون في شأنه، ويقولون تارة: إنه شاعرٌ، وتارة إنه ساحرٌ وكاهنٌ، وتارة إنه مجنونٌ مخبط مختلُ العقل، يتكلم بكلام المجانين إلى غير ذلك من المفتريات الباطلة.

﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ﴾ ولم يتفكروا حين أنكروا الحشر والبعث ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾

(١) في المخطوط (الذي ﷺ حيء لتبيينه).

فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ ....

المطبقة المعلقة ﴿فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ ورفعناها بلا أعمدةٍ وأساطينٍ ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بالكواكب المتفاوتة في الإضاءة والتنوير ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ نتوءٍ وفتوقٍ، بل خلقناها ملساء متوازية السطوح متلاصقة الطباق.

﴿وَ﴾ لم ينظروا أيضاً ﴿الْأَرْضَ﴾ ولم يدبروا فيها كيف ﴿مَدَدْنَاهَا﴾ أي مهّدناها وبسطناها بكمال قدرتنا وحكمتنا ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا﴾ وعليها ﴿رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابتَ شامخاتٍ ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنفٍ من النبات ﴿بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾ حسنٍ كريمٍ تبهج بها عيون الناظرين وتسر قلوبهم.

وإنما خلقنا ما خلقنا من العجائب والغرائب ليكون:

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ أي عظةً وعبرةً دالةً على كمال قدرتنا ومتانة حِكمتنا وحُكمنا ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ راجعٍ إلينا، متوجهٍ نحونا بكمال التبتل والتفويض؛ ليتبصروا ويتذكروا بها كمال اقتدارنا واختيارنا في خلق عموم المرادات والمقدورات، ومن جملتها حشر الأموات، وبعثهم من قبورهم أحياءً.

﴿وَ﴾ كيف يسع لأولئك الحمقى إنكار قدرتنا على الإعادة مع أنا ﴿نَزَّلْنَا مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ كثيرَ الخير والبركة ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ﴾ بعد تنزيله على الأرض اليابسة الميتة ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي حدائقَ ذات بهجةٍ وبهاءٍ ونزاهةٍ

وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴿١٠﴾ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾

وصفاءٍ ﴿وَ﴾ لا سيما ﴿حَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾﴾ من البُرِّ والشعير وسائر الحبوب المحصودة للتقوت والتعيش.

﴿وَ﴾ أنبتنا به خصوصاً ﴿النَّخْلَ﴾ وجعلناها ﴿بَاسِقَٰتٖ﴾ طوالٍ متحملاتٍ ﴿لَّهَا طَلۡعٞ﴾ ثمرٌ ذو عنقود ﴿نَّضِيدٞ ﴿١٠﴾﴾ منضودٍ منضدٍ بعضه فوق بعض من كمال كثرته، وإنما أنبتا ما أنبتنا ليكون

﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ﴾ يرتزقون بها ويشكرون منعمها ومبدعها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿أَحۡيَيۡنَا بِهِۦ﴾ أي بالماء المنزل من السماء ﴿بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾ يابسةً جدبةً لا كلأ فيها ولا نماء ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ أي خروجهم من قبورهم أحياء بقدرتنا مثل ذلك، فمن أين[1] ينكرون ويستبعدون أولئك الحمقى الجاهلون بقدرة العليم الحكيم؟!.

وليس هذا التكذيب والإنكار ببدع من هؤلاء المكذبين المنكرين يا أكمل الرسل. بل قد ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ﴾ مثل تكذيبهم وإنكارهم ﴿قَوۡمُ نُوحٖ﴾ أخاك نوحاً عليه السلام حين بُعث إليهم وأنذرهم ونهاهم عما هم عليه من الكفر والجحود والخروج عن مقتضى الحدود ﴿وَ﴾ كذا كذب ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ وهو بئرٌ كانوا يسكنون حوله أخاك حنظلة بن صفوان عليه السلام ﴿وَ﴾ كذَّب ﴿ثَمُودُ ﴿١٢﴾﴾ أخاك صالحاً عليه السلام، فعقروا الناقة المقترحة.

---

(١) في المخطوط (أن).

وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ ....

﴿وَعَادٌ﴾ أخاك هوداً عليه السلام ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ وملؤه أخاك موسى الكليم ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾﴾ ـ سماهم إخوانه؛ لأنهم أصهاره ـ أخاك لوطاً عليه السلام.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ أخاك شعيباً عليه السلام ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وهو تبع الحميري، واسمه أسعد أبو كريب، كذبوا علماءهم وأئمتهم المصلحين لمفاسدهم وبالجملة ﴿كُلٌّ﴾ منهم ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ المبعوثين إليهم لإهدائهم وإرشادهم أمثال هؤلاء المسرفين المكذبين لك يا أكمل الرسل ﴿فَحَقَّ﴾ أي حلّ ولحق عليهم ﴿وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ الموعود لهم بتكذيبهم وإصرارهم، فهلكوا واستؤصلوا، فكذا هؤلاء المكذبون المسرفون سيُهلكون ويستأصلون عن قريب، فاصبر يا أكمل الرسل على أذاهم ولا تستعجل لهم فسيرون ما يوعدون.

ثم قال سبحانه على سبيل الإنكار والاستبعاد على المنكرين المستبعدين بالحشر والبعث:

﴿أَفَعَيِينَا﴾ أي ينكرون قدرتنا على الإعادة، وتظنون أن صرنا عاجزين ﴿بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أي الإبداء الإبداعي عن الخلق الثاني الإعادي، ويزعمون أن قدرتنا تفتر وتضعف عند الخلق الأول، بل ينتهي دونه، ولم يعلموا أن قدرتنا لا تتصف بالانتهاء والفتور، ولا بالانقضاء والقصور؛ ليفهموا أن تعلق قدرتنا لكل مقدورٍ من المقدورات في كل آنٍ من الآناء على شأنٍ من الشؤون الكمالية،

﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ ....

بحيث لم يمضِ مثله، ولا يأتي شبهه ﴿ بَلْ ﴾ يتفطن بمقتضى الفطرة الأصلية أن ﴿ هُمْ ﴾ في أنفسهم دائماً ﴿ فِي لَبْسٍ ﴾ وخلع ﴿ مِّنْ ﴾ توارد ﴿ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ منا، وإيجادٍ متجدد من قِبلنا في كل آنٍ وزمانٍ حسب قدرتنا واختيارنا.

﴿ وَ ﴾ بالجملة ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾ وأظهرناه من كتم العدم ﴿ وَ ﴾ نحن ﴿ نَعْلَمُ ﴾ منه حينئذٍ ﴿ مَا تُوَسْوِسُ ﴾ وتحدِّثُ ﴿ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ وتخطر بباله الآن من أمثال هذه الأوهام والخيالات الباطلة المترتبة على حصة ناسوته، المقيدة بسلاسل الرسوم، وأغلال العادات الموروثة له من العقل الفضول الممتزج بالوهم الجهول ﴿ وَ ﴾ كيف لا نعلم منه هواجس نفسه إذ ﴿ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ أي وريده.

وهو مَثَلٌ في القرب المفرط، كما قال: الموت أدنى لي من الوريد، وإضافة الحَبْل إليه للبيان، وبالجملة: نحن أقرب إليه منه.

الوريدان هما العرقان المنبثان من مقدم الرأس، المتنازلان من طرفي العنق، المتلاصقان عند القفا، المنتهيان إلى آخر البدن، وهما قوام البدن ومداره عليهما، إذ هما أقوى عالم هيكل الإنسان.

وبالجملة نحن حسب روحنا المنفوخ فيه من عالم اللاهوت أقربُ إليه من ناسوته، لا على توهم المسافة، ولا على طريق التركب والاتحاد والحلول والامتزاج، بل على وجه الظلية والانعكاس، ومع غاية قرب الحق إليه وكمال

إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴿١٧﴾ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ....

إحاطته إياه، وكَّلَ عليه الحفظة من الملائكة ليراقبوا أحواله، إلزاماً للحجة عليه لدى الحاجة يوم القيامة.

اذكر يا أكمل الرسل:

﴿إِذۡ يَتَلَقَّى﴾ ويتحفظ ﴿ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾ الموكلان عليه ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴿١٧﴾﴾ أي قاعدٌ كل من الموكلين عن يمينه وشماله، مترقبين على أحواله وأعماله وأقواله. بحيث

﴿مَّا يَلۡفِظُ﴾ ويتلفظ ﴿مِن قَوۡلٍ﴾ يرميه من فِيه ﴿إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ﴾ حفيظٌ عليه ﴿عَتِيدٞ ﴿١٨﴾﴾ مهيأٌ معدٌّ حاضرٌ عنده غيرُ مغيبٍ على وجه لا يفوِّت عنه شيئاً من ملتقطاته.

﴿وَ﴾ هما يحفظانه ويرقبان عليه وقت إذ ﴿جَآءَتۡ﴾ وحضرت ﴿سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ شدته وغمراته ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ والحقيقة، وظهرت علاماته وانكشفت عليه أهواله وأماراته، قيل له حينئذٍ من قبل الحق: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الموت الذي ينزل عليك الآن ﴿مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ أي الموتُ الذي أنت تميل، وتفر عنه في ما مضى.

﴿وَ﴾ بعد ما ذاق مرارة العذاب وقت سكرات الموت ﴿نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ للبعث والحشر فإذا هو حينئذٍ قائمٌ هائمٌ يَنْظُر، قيل له من قبل الحق على سبيل

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ۝٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ۝٢٢﴾ ....

التهويل: ألست[1] تنظر وتتحير يا مسكين:؟ ﴿ذَٰلِكَ﴾ اليوم الذي أنت فيه الآن ﴿يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ۝٢٠﴾ الموعود لك في دار الدنيا، وأنت حينئذٍ لم تؤمِن به ولم تخف من أهواله حتى وقعتَ فيه، وذقتَ من عذابه.

﴿وَ﴾ بعد ما بُعث الأموات من أجداثهم للحشر والجزاء ﴿جَآءَتۡ﴾ وحضرت ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾ من النفوس الطيبة والخبيثة ﴿مَّعَهَا سَآئِقٞ﴾ موكَّلٌ يسوقها[2] إلى المحشر للعرض والجزاء ﴿وَشَهِيدٞ ۝٢١﴾ من حفظةِ أعمالها وأحوالها، يشهد لها وعليها.

وبعد ما حضر كلٌ منهم بين يدي الله، قيل لكلٍ منهم من قِبل الحق على سبيل الخطاب والعتاب:

﴿لَّقَدۡ كُنتَ﴾ أيها المغرور ﴿فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ اليوم، وإنكسارٍ عظيمٍ من وقوعه، لذلك كذَّبتَ بالرسل والكتب، واستهزأتَ بالهُداة الثقات، واستكبرت عليهم ﴿فَكَشَفۡنَا﴾ اليوم﴿عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الذي هو سبب غفلتك وإنكارك وتعاميك عن الآيات والنذر، وهو ألفُك بالمحسوسات العادية وإنكارُك على الأمور الغيبية الخارجة عن حيازة حواسك وقواك ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ۝٢٢﴾ أي صار بصرك بعد انكشافك بهذا اليوم حاداً حديداً نافذاً، إلا أنه لا ينفعك حينئذٍ حدة بصرك وانكشافك بعد انقراض نشأة الاختبار والاعتبار.

(١) في المخطوط (يهش).

(٢) في المخطوط (يسوقه).

وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ...

﴿وَقَالَ﴾ له حينئذٍ ﴿قَرِينُهُۥ﴾ من الحَفَظة المراقب عليه في النشأة الأولى: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي هذا الذي سمعتَ الآن من الخطاب والعتاب، هو الذي حفظتُه لك عندي، وكتبتُه في صحيفة عملك قبل وقوعك فيه.

وبعد ما جرى بين كلٍ من العصاة وبين قرينهم[1] ما جرى، أمر من قبل الحق للسائق والشهيد أمراً وجوبياً حتماً:

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ واطرحا فيها ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ مبالغٍ في الكفر والإنكار ﴿عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾ مبالغٍ متناهٍ في العناد والاستكبار.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ متبالغٍ في المنع عن الإنفاق المأمور ﴿مُعْتَدٍ﴾ متجاوزٍ عن الحق مائلٍ نحو الباطل ﴿مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾ موقعٍ لعباد الله في الشك والشبهة في دينه القويم والصراط المستقيم الذي أنزله على رسوله المتصف بالخلق العظيم.

وهو ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ وأثبت ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المنزَّه عن الشرك مطلقاً ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ واعتقده موجِداً مثله شريكاً في أفعاله وآثاره، وبالجملة ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ بدل ما تجاوز عن التوحيد الإلهي، وأصرَّ على التشريك والتعديد.

وبعد ما أراد الموكلان أن يبطشا به، ويجراه نحو النار، أخذ يصرخ وينسب شركه وضلاله إلى الشيطان المضل المغوي، وهو حاضر عنده، وبعد ما سمع الشيطان منه ما سمع:

(١) في المخطوط (ربهم).

۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ (٢٧) قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ (٢٩) يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ ....

﴿۞ قَالَ﴾ له حينئذٍ ﴿قَرِينُهُۥ﴾ أي الشيطان متضرعاً إلى الله مناجياً معه: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾ وأضللته ﴿وَلَٰكِن كَانَ﴾ في نفسه ﴿فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ (٢٧)﴾ بمراحلَ عن الهداية بمقتضى أهويته وأمانيه الفاسدة.

وبعد ما اختصم الكافر وقرينه عند الله:

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه: ﴿لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾ ولا تتنازعوا عندي، إذ لا نفع لكم الآن في الخصومة والنزاع ﴿وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم﴾ في كتبي وعلى ألسنة رسلي ﴿بِٱلۡوَعِيدِ (٢٨)﴾ الهائل والعذاب الشديد على أهل الشرك والطغيان والكفر والكفران، فالحكم على ما جرى بلا تبديلٍ وتغييرٍ. إذ

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ والحكم ﴿لَدَيَّ﴾ بل المقدَّرُ في علمي كائنٌ على ما ثبت وكان، على مقتضى العدالة والقسط الحقيقي ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ (٢٩)﴾ أي ليس من شأني الظلم والتعدي على عبيدي، بل هم يظلمون أنفسهم، فيستحقون العقوبة على قدر عصيانهم.

اذكر يا أكمل الرسل للعصاة والكفرة المشركين المصرين على العناد والإنكار:

﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ المعدة لجزائهم سؤال تخييل وتصوير حين طُرحتْ عليها أفواج الكفرة والعصاة: ﴿هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ﴾ جهنمُ من شدة تلهبها[1]

(١) في المخطوط (تلهبه وتسعره).

هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ

وتسعرها بإنطاق الله إياها: ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ من المطروحين حتى يطرح ما بقي من أهلها إلى أن تمتلىء إنجازاً لما وعد لها الحق نقول لجهنم: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [١١-هود:١١٩ و ٣٢-السجدة:١٣].

﴿وَ﴾ اذكر أيضاً للمؤمنين المطيعين يوم ﴿ أُزْلِفَتْ﴾ وقربت ﴿ الْجَنَّةُ﴾ الموعودة ﴿ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ بل بحيث يرون منازلهم فيها قبل دخولهم من غاية قربها، ويتمنون[1] الوصول إليها، فيقال لهم حينئذٍ:

﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رجّاع تواب إلى الله عن عموم زلاته ومطلق فرطاته في نشأة الاختبار ﴿حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾ لتوبته على وجه الندم والإخلاص، بلا توهم عودٍ ورجوع عليها أصلاً. وبالجملة

﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ واجتنب عن محارمه ومنهياته خائفاً من سخطه، راجياً من سعة رحمته في نشأة الاعتبار والاختيار قبل انكشاف السرائر والأستار وحلول النشأة الأخرى، ورضيَ بالتكاليف الإلهية[2]، ووطّن نفسه بامتثال عموم الأوامر والنواهي ومطلق الأحكام الجارية على ألسنة الرسل والكتب ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ إلى الله، مخلصاً في إطاعة الله وإطاعة رسوله.

قيل لهم حينئذٍ من قبل الحق على وجه التبشير:

﴿ ادْخُلُوهَا﴾ أي الجنة المعدة لأرباب التقوى ﴿بِسَلَامٍ﴾ حالَ كونكم سالمين

---

(١) في المخطوط (وتتمنون).

(٢) في المخطوط (بالتكاليف الإلهي).

ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ....

آمنين من العذاب، لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴿ذَٰلِكَ﴾ اليوم الذي أنتم فيه الآن ﴿يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ في الجنة الموعودة لأرباب العناية والشهود.

جعلنا الله من زمرتهم بمنِّه وجوده.

وبالجملة ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ من اللذات الحسية والعقلية المحاطَة بمداركهم وآلاتهم بل ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ على ما يسألون حسب استعداداتهم، مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ثم قال سبحانه تهديداً على من أعرض عن دينه ونبيه:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ أي قبل قومك يا أكمل الرسل ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ أي أهله مع أنه ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ قوةً وقدرةً، وأكثرُ أموالاً وأولاداً، كعادٍ وثمودَ وفرعونَ وغيرهِم ﴿فَنَقَّبُوا۟﴾ أي انصرفوا وانقلبوا وساروا ﴿فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ متمنين ﴿هَلْ﴾ يجدون ﴿مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾ مهربٍ ومخلصٍ من بطش الله وحلول عذابه عليهم، فلم يجدوا بعدما استحقوا التعذيب والإهلاك، وبالآخرة هلكوا واستؤصلوا حتماً، فكذا هؤلاء المسرفون المعاندون، سيهلكون كما هلكوا، وبالجملة

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ القرآن العظيم الذي نزل عليك يا أكمل الرسل ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ عظةً وتذكيراً وعبرةً وتنبيهاً ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ يتفطن من تقلبات الأحوال وتطوراتها إلى شؤون الحق وتجلياته الجمالية والجلالية حسب اقتضاء الذات

أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ....

بالإرادة والاختيار، وكمالات الأسماء والصفات ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي يكون من أرباب الإرادة الصادقة الخالصة عن شوب السمعة ورعونات الرياء، ألقى سمعه إلى استماع كلمة الحق من أهله ﴿وَهُوَ﴾ حينئذٍ ﴿شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ حاضرُ القلب، فارغُ الهم حديدُ الفطنة، صحيحُ الإرادة، خالصُ العزيمة.

ثم لما قال اليهود: إن الله خلق العالم في ستة أيام من الأسبوع، وبعد ما عيّ من الخلق والإيجاد، استلقى على العرش في يوم السبت للاستراحة، رد الله عليهم فقال:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا﴾ وأظهرنا ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الكائنات الممتزجة منهما ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ﴾ مع ذلك ﴿مَا مَسَّنَا﴾ ولحقنا ﴿مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ وَصَبٍ وَتَعَبٍ وإعياءٍ وفتورٍ، إذ ذاتُنا منزهةٌ عن طريان أمثال هذه النقائص الإمكانية.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ وينسبون إلى الله الصمد القدوس من أمثال هذه المفتريات الباطلة الناشئة من جهلهم المفرط بالله وبمقتضى ألوهيته وربوبيته ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ بمقتضى توحيدك وتمجيدك إياه، ونزِّه ذاته عما يقول الظالمون الجاحدون الجاهلون بقدره

قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ ....

وعلو شأنه، وتوجَّهْ نحوه سبحانه في عموم أوقاتك وحالاتك سيما ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ يعني كِلا طرفي النهار، إذ هما أوان الفراغ من مطلق الأشغال.

﴿وَمِنَ﴾ آناء ﴿ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ في خلال تهجداتك ﴿وَ﴾بالجملة سبحه ﴿ أَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ أي في عقب كل صلاة ذاتِ ركوعٍ وسجودٍ.

ثم قال سبحانه آمرا لحبيبه ﷺ:

﴿وَٱسْتَمِعْ ﴾ يا أكمل الرسل النداءَ الهائلَ ﴿ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ ﴾ من قبل الحق لقيام الساعة والبعث ﴿ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ بكل أحدٍ، بحيث يسمعه بلا كلفةٍ وشبهةٍ، فيقول: أيتها العظام البالية واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة، إن الله يأمركن أن تجتمعن للحساب والجزاء.

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ ﴾ النفخة الثانية ملبَّسةً ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ تحققوا حينئذٍ أن ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾ من القبور والبعث والنشور، وبالجملة:

﴿ إِنَّا ﴾ من كمال قدرتنا وحكمتنا ﴿ نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ ﴾ في النشأة الأولى بالإرادة ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ أي مصير الكل ومرجعهم إلينا في النشأة الأخرى.

اذكر يا أكمل الرسل لمن أنكر الحشر والميعاد:

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ أي تنشق وتتخرق ﴿ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ ويخرجون منها ﴿سِرَاعًا ۚ﴾ مسرعين ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي إخراجُهم وخروجُهم كذلك ﴿حَشْرٌ﴾ وبعثٌ وجمعٌ ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ سهلٌ.

لا تستبعدوا ولا تستعسروا عن قدرتنا الكاملة أمثال هذا، إذ:

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ﴾ وأحفظ ﴿بِمَا يَقُولُونَ ۖ﴾ أي المنكرون المشركون في سرائرهم ونجواهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِجَبَّارٍ ۖ﴾ تردعهم وتزجرهم عما هم عليه من الإنكار والإصرار، بل ما أنت إلا مذكِّرٌ.

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ أي بوعيداته وإنذاراته ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ إذ لا ينفع تذكيرك إلا للخائف منهم، ومن لم يخفْ ليس لك عليهم سلطان ليزعجهم إلى الإيمان، ويلجئَهم إلى قبول الإسلام، إذ ما عليك إلا البلاغ والتذكير، والتوفيقُ من الله العليم الخبير.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المترقب لتوفيق الحق في عموم أحوالك وفَّقك الله على سلوك طريق توحيده: أن تفرغ همك عما سوى الحق، وتصفي سرك عن مطلق الشواغل المنافية لصرافة الوحدة الذاتية، وكن في نفسك خائفاً من غضب ربك راجياً من عفوه وغفرانه في عموم أعمالك التي جئت بها تقرباً إليه، مفوضاً أمورك كلها إلى مشيئته.

وبالجملة عليك أن تتذكر بوعيدات القرآن ومواعيده، المستلزمةِ لصلاح الدارين وفلاح النشأتين.

وإياك إياك الإعراض عن الحق وأهله، والانصراف عن معالم الدين المنزل من عنده سبحانه؛ لتبيين مسالك توحيده.

جعلنا الله من زمرة الراسخين المتمكنين في معالم الدين القويم بمنِّه وجوده.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ﴿١﴾ ....

فاتحة سورة الذاريات

لا يخفى على الموحدين المنكشفين بظهور الحق في مطلق المظاهر بوحدته الذاتية المتصفة بجميع الأوصاف الكاملة والأسماء الشاملة المحيطة كلٌ منها بعموم ما ظهر وبطن: أن كل مظهر من مظاهر الحق باعتبار ظهور الحق فيه بذاته قابلٌ لأن يقسم به يتيمن منه، كما أقسم سبحانه في هذه السورة بما أقسم تنبيهاً وتعليماً لعباده بظهوره في عموم مظاهره، فقال بعدما تيمن باسمه الأعلى:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ المتجلي في الرياح المروِّحة لنفوس أرباب الطلب والإرادة شوقاً إلى لقائه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لهم يوقظهم من سِنة الغفلة ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم إلى فضاء الوحدة.

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ يعني وحق النسمات الروحانية المهبة من النفسات الرحمانية على وفق العناية الأزلية، بحيث تذرو[1] النفوس الخيرة الموفقة المجبولة على نشأة التوحيد ﴿ذَرۡوٗا ﴿١﴾﴾ نوعاً من الذرو والبعث على سبيل الشوق والتحنن نحو المبدأ الحقيقي والمنشأ الأصلي.

---

(١) في المخطوط (تذري).

﴿ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ۝٦ ﴾ ....

﴿ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ ﴾ من القوى والآلات الحاملة كل واحد منها ﴿ وِقۡرٗا ۝٢ ﴾ حملاً ثقيلاً خطيراً من أعباء الوحي والإلهامات الإلهية من العلوم اللدنية والإدراكات الكشفية المنشعبة من حضرة العلم ولوح القضاء، المتعلقة بالمعارف والحقائق الإلهية.

﴿ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ ﴾ أي سفن النفوس المشتملة على أنواع المدارك والمشاعر الجارية في بحر الوجود ﴿ يُسۡرٗا ۝٣ ﴾ سهلاً بلا تثاقلٍ وتكاسلٍ.

﴿ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ ﴾ من الأسماء والصفات الإلهية، الموسومات بالملائكة، المقسّمة لقوابل المظاهر ﴿ أَمۡرًا ۝٤ ﴾ أي أمورَ أرزاقهم ومطلقَ حظوظهم وأبصارهم من الفيوضات والفتوحات الصورية والمعنوية الموهوبة لهم من قِبل الحق حسب استعداداتهم الفطرية وقابلياتهم الجبلية.

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴾ أنتم[1] أيها المكلفون المجبولون على فطرة التوحيد والعرفان من البعث والحشر والحساب والجزاء، وغير ذلك من المعتقدات الأخروية المترتبة على العالم المحيط الإلهي وقدرته الغالبة وإرادته الشاملة ﴿ لَصَادِقٞ ۝٥ ﴾ ثابتٌ محققٌ وقوعه بلا شكٍ وشبهةٍ.

﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ ﴾ والجزاء الموعود لكم في النشأة الأخرى المتفرع على أعمالكم وأفعالكم في النشأة الأولى ﴿ لَوَٰقِعٞ ۝٦ ﴾ محققٌ وقوعه، كائنٌ إتيانه البتة، بلا ترددٍ وارتيابٍ.

(١) في المخطوط (لكم).

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ....

ثم لما أقسم سبحانه بما يتعلق بعالم الأمر أراد أن يقسم بما يتعلق بعالم الخلق تتميماً للتأكيد والمبالغة بالقسم باعتبار كلا العالمين فقال:

﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ أي وحقِّ السماء الرفيعة البديعة النظم، العجيبة التركيب ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾ أي الحُسن والزينة وكمال الصفاء والبهجة والبهاء؛ لاشتمالها عن الكواكب المشيرة إلى الطرق الموصلة إلى قدرة الصانع القديم، ومتانة حكمة الحكيم العليم: أن اليوم الموعود لبعثكم وجزائكم لآتٍ البتة.

﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها الشاكون في شأنه وشأن من أَخبر به بمقتضى الوحي والإلهام الإلهي، وشأنِ ما أنزل لبيانه من الكتاب المبين لإعداد الزاد له وطريق النجاة عن أهواله وأفزاعه ﴿لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾ تنكرون له وتكذبون المخبرَ الصادقَ، وتنسبون له وإلى الكتاب المبينِ المعجز من المفتريات الباطلة حيث تقولون[1] تارةً: إنه سحرٌ أو من أساطير الأولين، أو كهانةٌ اختلقها هذا الساحر الشاعر، أو كلام المجانين يتكلم به هذا المجنون، وبالجملة:

﴿يُؤْفَكُ﴾ ويُصرف ﴿عَنْهُ﴾ ﷺ وعن دينه وكتابه ﴿مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾ وصُرف عن الحق وقبوله، ومال إلى الباطل، وسعى نحوه؛ وبسبب إفكهم وذبِّهم عن طريق الحق والامتثال به

﴿قُتِلَ﴾ أي طُرد ولُعن على ألسنة عموم أهل الحق ﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾ المنكرون الكاذبون المكذبون من أصحاب القول المختلق، وهم:

(١) في المخطوط (يقولون).

ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ ....

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ﴾ من شدة انصرافهم عن الحق وأهله ﴿فِي غَمۡرَةٖ﴾ وغفلةٍ عظيمةٍ وجهلٍ متناهٍ ﴿سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾ غافلون عن الله وقدر ألوهيته وحقوق ربوبيته.

ومن كمال غفلتهم وشدة عمههم في سكرتهم

﴿يَسۡـَٔلُونَ﴾ على سبيل التهكم والاستهزاء: ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾﴾ أي يقولون: متى يوم الجزاء والقيامة يا محمد ! وفي أي آنٍ يأتينا عذاب الساعة وأهوالها؟!

قال تعالى في جوابهم:

﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي يوم يقع عليه الجزاء والعقاب والعذاب، وهم يُحرقون فيه في النار، ويُطرحون عليها صاغرين مهانين، ويقول لهم الموكلون حين طرحِهم فيها توبيخاً وتقريعاً:

﴿ذُوقُواْ﴾ أيها المجرمون المسرفون ﴿فِتۡنَتَكُمۡ﴾ التي أنتم تستعجلون بها في دار الدنيا على سبيل الاستهزاء والمراء، وبالجملة ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي﴾ وقعتم فيه وحُبستم عليه الآن من العذاب ﴿كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ في سالف الزمان على سبيل الإنكار والاستكبار.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنّته المستمرة:

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ الممتثلين لأوامر الله، المجتنبين عن نواهيه الموردة في كتبه الجارية على ألسنة رسله، الحافظين لنفوسهم عن الإفراط في الرُّخص

فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ

والمباحات، فكيف عن تفريط المحظورات والمحرمات، متلذذون باللذات الروحانية ﴿ فِي جَنَّٰتٖ﴾ أي متنزهات العلم والعين والحق ﴿ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾ جارياتٍ من الحِكم والمعارف اللدنية المستخرَجة من ينابيع قلوبهم المترشحة إليها من بحر الوجود، على مقتضى الحفظ الإلهي حسب استعداداتهم واستفاضتهم بمقتضاها.

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ﴾ وأعطاهم ﴿رَبُّهُمۡۚ﴾ تفضلاً عليهم، وتكريماً على وجه الرضاء بجميع ما جرى عليهم من مقتضيات قضائه ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ ﴾ الفضل واللطف في النشأة الأولى ﴿مُحۡسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ الأدبَ مع الله ورسله، وخلّص عباده العاكفين ببابه، ومن جملة إحسانهم أنهم:

﴿ كَانُواْ﴾ في دار الابتلاء ﴿ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي يرقدون قليلاً من ساعات الليل، وذلك أيضاً بسبب ألا يعرضهم الكلال العائق من المواظبة على الطاعات.

﴿وَ﴾ هم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم وخشوعهم ﴿ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴾ المعدة للتوجه والاستغفار ﴿ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ دائماً، كأنهم يرون أنفسهم قاصرةً عن رعاية حقوق العبودية على ما ينبغي، لذلك يبالغون في الإنابة والاستغفار.

﴿وَ﴾ كان ﴿ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ وأرزاقهم المسوقة إليهم من قبل الحق ﴿

لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ ....

حَقٌّ﴾ حظٌ ونصيبٌ مفروضٌ[1] مقدرٌ، يستوجبونه على أنفسهم ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ السائر في سبيل الله، المتعرض للسؤال مقدارَ ما يحتاج إليه ﴿وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ المتعففِ عن ذلِّ السؤال، المتمكن في زاوية التوكل والتفويض.

ثم أشار سبحانه إلى حيطة وحدته الذاتية وشمولها على عموم ما ظهر وبطن في الآفاق والأنفس بالاستقلال والانفراد، وسرِّ سريان هويته الذاتية على ذرائر الكائنات، تنبيهاً للمريد المستبصر، وإيقاظاً لهم عن سِنة الغفلة ونعاسِ النسيان فقال:

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي عالم المسببات والاستعدادات المعبرة بالآفاق المعدة لظهور آثار القدرة الكاملة الإلهية من العجائب والغرائب، المتفرعة على كمال العلم ووفور الحكمة المتقنة ﴿ءَايَٰتٌ﴾ دلائل واضحات وشواهد لائحات دالةٌ على قدرة الصانع الحكيم ووحدة ذاته واختياره في مطلق تصرفاته، واستقلاله في حكمه ومصالحه ﴿لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ المنكشفين باليقين العلمي والعيني والحقي. بل ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أيضاً أيها المستبصرون المستكشفون عن سرائر الألوهية وأسرار الربوبية شواهدُ ظاهرةٌ تشهد على حَقِّية الحق وتوحده في ظهوره ووجوده ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ أيها المجبولون على فطرة الكشف والشهود.

﴿وَ﴾ كذا ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي عالم الأسماء والأسباب المعبرة عنها

(١) في المخطوط (مفروز).

رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

بالأعيان الثابتة ﴿ رِزْقُكُمْ ﴾ أي أرزاقكم الصورية والمعنوية، المبقية لأشباحكم وأرواحكم ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ من الآجال المقدرة والجزاء المترتب على الأعمال والأفعال الصادرة عن هوياتكم الباطلة في نشأتكم الأولى وحالاتكم الواقعة فيها.

ثم أقسم سبحانه تأكيداً لما أومأ فقال:

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي وحق موجدهما ومربيهما على هذا النمط البديع والنظم الغريب ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ أي ما يُستدل بإيجادهما وإظهارهما على وجوده سبحانه وكمال علمه وقدرته، ووفور حكمته، ومتانة حكمه ﴿ لَحَقٌّ ﴾ ثابتٌ محققٌ حقيقٌ بالحقية، وحيدٌ بالقيومية، فريدٌ بالديمومية، لا يعرضها زمان، ولا يعتريها كلالٌ، وهو في حقيته وتحققه ﴿ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ أي كما لا شبهة لكم في تنطقكم وتلفظكم بالكمالات المنطوقة، كذلك لا شبهة في حقية الحق وظهوره، بل هو أظهر من كل شيء ظاهرٍ، وأجلى من كل جليٍ، بل الكل إنما يظهر به وبظهوره، إلا أنكم بغيوم تعيناتكم الباطلة وظلام هوياتكم العاطلة، تسترون شمس الحق الظاهر في الآفاق بكمال الكرامة والاستحقاق.

ثم ذكر سبحانه قصة إبراهيم الخليل المتحقق بمقام الكشف والشهود، النازلة من عنده سبحانه من كمال المحبة والإخلاص والخلة والاختصاص مع ضيفه من الملائكة المكرمين، فقال مستفهماً لحبيبه ﷺ على سبيل العبرة

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ....

والتذكير:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ ووصل إليك يا أكمل الرسل ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وقصة إلمام الملائكة ونزولهم عنده على صورة الأضياف ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ لكرامتهم وحسن صورتهم وسيرتهم.

ومن كمال كرامتهم ونجابتهم ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ وحضروا عنده بلا استئذان ﴿فَقَالُوا۟﴾ ترحيباً وتكريماً: ﴿سَلَٰمًا﴾ أي نسلم سلاماً عليك ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام في جوابهم ظاهراً وإن أنكر عليهم خفيةً بدخولهم بلا استئذان: ﴿سَلَٰمٌ﴾ عليكم، عَدَلَ إلى الرفع لقصد الدوام والثبات ليكون رده أكمل من تسليمهم، وهو عليه السلام، وإن بادر إلى رد تسليمهم، إلا أنه أضمر في نفسه الإنكار عليهم، فقال في سره: هؤلاء ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ لا أعرف نفسهم ولا أمرهم.

﴿فَرَاغَ﴾ أي عدلَ ومالَ عنهم فجاَةً خفيةً منهم ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾ إذ كان أغلب مواشيه البقر، فذبحه وطبخه ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ نزلاً، فأبوا عن أكله، فعرض عليهم وحثهم على الأكل كما هو عادة أرباب الضيافة حيث ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ منه، فلم يأكلوا بعد العرض والإذن أيضاً.

ثم لما رأى منهم ما رأى من الامتناع عن طعامه

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ ....

﴿فَأَوْجَسَ﴾ وأضمر الخليل في نفسه ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ﴾ خوفاً ورعباً منه، ظناً منه أنه إنما امتنعوا من طعامه ليقصدوا له سوءاً، ثم لما تحسسوا منه ما تحسسوا من الرعب المفرط ﴿قَالُوا﴾ له إزالةً لرعبه: ﴿لَا تَخَفْ ۖ﴾ منا ولا تحزن عن امتناعنا من الأكل، إنا لسنا ببشرٍ، بل نحن ملائكةٌ منزهون عن الأكل، مرسلون من عند ربك لأمرٍ عظيمٍ، قيل: مسح جبريل العجل المشوي، فحييَ فقام يدرج ويدب حتى لحق بأمه، وبعد ما رأى منهم إبراهيم ما رأى، وسمع ما سمع، أَمِن منهم ﴿وَ﴾ بعدما أمَّنوه وأزالوا رعبه ﴿بَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ﴾ إذ لم يكن له ابنٌ يخلف عنه، وكانت امرأته عجوز عقيمة ﴿عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ في كمال الرشد والفطنة، وهو إسحاق عليه السلام.

وبعد ما سمع إبراهيم منهم البشرى أخبر به امرأته، ثم لما سمعت ما سمعت استحالت واستبعدت.

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ﴾ سارة إليهم ﴿فِي صَرَّةٍ﴾ صريرٍ وضجةٍ ﴿فَصَكَّتْ﴾ ولطمت ﴿وَجْهَهَا﴾ بأطراف أصابعها ﴿وَقَالَتْ﴾ مشتكيةً: أنا ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ عاقرٌ، كيف أَلِدُ ابناً سيما بعد انقضاء أوانه وانصرام زمانه؟!!

ثم لما شاهدوا منها ما شاهدوا ﴿قَالُوا﴾ لها: ﴿كَذَٰلِكِ﴾ أي مثل ذلك الذي نخبرك ونبشرك ﴿قَالَ رَبُّكِ ۖ﴾ وما علينا إلا البلاغ.

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ ....

والأمر بيد الله ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في عموم أفعاله وآثاره ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾ بمطلق تدابيره وتقاديره.

وبعد ما جرى منهم ما جرى أخذ إبراهيم عليه السلام يسأل عن سبب نزولهم وإرسالهم.

﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ وشأنكم الذي جئتم لأجله ﴿ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ أقبحَ الجرائم وأفحشَ المنكرات يعنون قوم لوطٍ [عليه السلام] المبالغين في الفعلة الشنيعة والديدنة القبيحة المتناهية في القبح والفحش. وإنما أُرسلنا ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً ﴾ متحجرةً ﴿ مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ يريد به السجيل المركب من الحجر المسحوق مع الطين.

﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ معلمةً كلٌ منها باسم من رُمي بها ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ لتكون جزاءً ﴿ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ الذين أسرفوا في الخروج عن مقتضى الحدود الإلهية، وعن الطريقة المعتادة لحكمة الإيلاد والاستيلاد.

ثم لما أردنا رجمهم وإهلاكهم:

﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ بإذن ربنا ﴿ مَن كَانَ فِيهَا ﴾ أي في تلك القرية ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ المصدِّقين بنبوة لوط عليه السلام ودينه، الممتثلين بالأوامر والنواهي الجارية

﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾ ....

على لسانه ﴿فَمَا وَجَدْنَا﴾ وصادفنا ﴿فِيهَا﴾ أي في تلك القرى بعد ما فتشناها وكشفنا عن أهلها ﴿غَيْرَ بَيْتٍ﴾ أي سوى أهلِ بيتٍ فقط ﴿مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ المتصفين المجتمعين بين الإيمان والتسليم، وهو أهل بيت لوط عليه السلام، وبالجملة أهلكنا الكل.

﴿وَتَرَكْنَا﴾ آثار هلاكهم واستئصالهم ﴿فِيهَا﴾ أي في الأرض التي تلك القرى فيها ﴿آيَةً﴾ علامةً وأمَارةً مستمرةً إلى يوم القيامة ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ النازلَ على أهل الجرائم والآثام، فيمتنعون عنها ويعتبرون بها.

﴿وَ﴾ تركنا أيضاً ﴿فِي﴾ إهلاك مكذبي ﴿مُوسَىٰ﴾ الكليم آيةً للمتذكرين المعتبرين، اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ﴾ أصالةً وأخاه معه تبعاً ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ الطاغي الباغي، المبالغ في العتو والعناد، وأيدناه ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ وحجةٍ واضحةٍ ودليلٍ لائحٍ.

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ وأعرض عن دعوته إلى الإيمان مستظهراً ﴿بِرُكْنِهِ﴾ أي ملئه وجنوده الذين يَتقوى بهم، ويركن إليهم في الخطوب والملمات ﴿وَقَالَ﴾ في جوابه من كمال بطره وعناده: هو ﴿سَاحِرٌ﴾ فيما أتى من الخوارق ﴿أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾ يعمل له الجن جميع ما يظهر منه الإرهاصات، وبالجملة كذَّبه وأنكرَ عليه ونسبَ معجزاته إلى السحر وأعمال الجن

فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾

﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾ غيرةً منا وتقويةً لرسولنا ﴿وَجُنُودَهُۥ﴾ المظاهرين له ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ وأغرقناهم ﴿فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ﴾ حينئذٍ ﴿مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ نفسه بما يلام عليه من الكفر والعناد وأنواع العتو والفساد، نادمٌ عن جميع ما صدر عنه وما ينفعه من الندم.

﴿وَ﴾ تركنا أيضاً آيةً عظيمةً للمعتبرين ﴿فِى﴾ إهلاك قوم ﴿عَادٍ﴾ اذكر ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ وسلَّطنا ﴿عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ لا يثمر نفعاً سوى العقم والهلاك على وجه الاستئصال، مع أنهم أملوا نفعاً عظيما فيها.

إذ ﴿مَا تَذَرُ﴾ وتترك ﴿مِن شَىْءٍ أَتَتْ﴾ وهبَّت ﴿عَلَيْهِ﴾ من الأنفس والمواشي ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ﴾ وصيَّرته ﴿كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ أي اليابس البالي من النبات وأوراق الأشجار، وبالجملة صيَّرتْهم هباءً منثوراً تذروه الرياح حيث شاءت.

﴿وَ﴾ كذا ﴿فِى ثَمُودَ﴾ وإهلاكهم آيةٌ عظيمةٌ لأجل العبرة اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ على لسان نبيهم حين أردنا أخذهم وإهلاكهم: ﴿تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾ أي تمتعوا وترفهوا ثلاثة أيام، فكذَّبوا المخبر، وأنكروا عليه[1] خبره.

﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ وما تندموا وتضرعوا، مع أن المناسب لهم هذا حينئذٍ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ الهائلة المهولة صبيحة اليوم الرابع ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ إتيانها عياناً، ولا يقدرون على دفعها.

---

(١) في المخطوط (على).

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ ....﴾

بل ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ وما قدروا ﴿مِن قِيَامٍ﴾ نهوضٍ وحركةٍ عن أمكنتهم التي كانوا فيها عند ظهورها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ ممتنعين من عذابنا منتقمين منا.

﴿وَ﴾ مثل ما أهلكنا المذكورين، أهلكنا ﴿قَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي قبل إهلاك هؤلاء، ﴿إِنَّهُمْ﴾ أيضاً أمثال هؤلاء الطغاة البغاة الهالكين في تيه العتو والعناد ﴿كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ خارجين عن مقتضى الحدود الإلهية بأنواع الكفر والفسوق والعصيان، لذلك أهلكناهم بالطوفان، وما كانوا منتصرين.

ثم قال سبحانه إظهاراً لكمال قدرته على الإنعام والانتقام:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أي كيف يسع لهم الإباء والامتناع عن مقتضيات قدرتنا، والخروج عن ربقة إطاعتنا وعبوديتنا، مع أنا بنينا السماء المرفوعة المحفوظة ﴿بِأَيْدٍ﴾ غالبةٍ وقدرةٍ كاملةٍ ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ قادرون غالبون بالاستقلال والاختيار، لا يعارض فعلنا، ولا ينازع أمرنا وحكمنا.

﴿وَالْأَرْضَ﴾ أيضاً ﴿فَرَشْنَاهَا﴾ ومهدناها بالاستقلال والاستيلاء التام ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ الباسطون نحن بلا مشاركة.

﴿وَ﴾ مثل ما خلقنا العلويات فواعلَ مؤثراتٍ، والسفليات قوابلَ متأثراتٍ ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء الكائنة في بقعة الإمكان وعرصة الزمان والمكان

خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ ....

﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ صنفين مزدوجين ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ أيها المجبولون على فطرة المعرفة والتوحيد، المؤيدون بالعقل المفاض المتشعب من العقل الكل ﴿تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ فتعلمون أن الكل منه بدأ وإليه يعود، ولا شيء سواه موجود.

وبعد ما ثبت أن ظهور الكل منه ورجوعه إليه سبحانه:

﴿فَفِرُّوٓاْ﴾ أيها العارفون الموحدون ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ المسقط لعموم الإضافات من مقتضيات عالم الناسوت، وانخلِعوا عن لوازم هوياتكم الباطلة وأنانياتكم العاطلة ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾ بمقتضى وحيه وإلهامه ﴿نَذِيرٌ﴾ أنذركم عما يعوقكم من سلوك طريق توحيده ﴿مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ مظهرٌ لكم آداب الطريقة الموصلة إلى مقصد الحقيقة التي هي الوحدة الذاتية الإلهية.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَا تَجْعَلُواْ﴾ ولا تتخذوا ولا تعتقدوا ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد المنزه عن التعدد مطلقاً ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ مستحقاً للإطاعة والرجوع، مستقلاً في الوجود وما يترتب عليه من الآثار ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ أنذركم عن الوعيدات الهائلة العاجلة والآجلة، اللاحقة عليكم بالشرك والإشراك وأنواع الفسوق والعصيان.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي الأمر والحكم مثل ذلك أنذرْهم وبلِّغهم بلا مبالاةٍ بإعراضهم واستهزائهم إذ ﴿مَآ أَتَى﴾ الضالين المسرفين ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾

إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ ....

من الرسل الكرام ﴿إِلَّا قَالُوا﴾ حين دعوتهم إلى الإيمان والتوحيد: ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ مثل ما يقول هؤلاء الحمقى في شأنك يا أكمل الرسل.

ثم قال على سبيل التعجب والإنكار:

﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً، أي أسلافهم لأخلافهم بهذا القول والتكذيب، فتواطؤوا عليه جميعاً، مع أنه لا يمكنهم هذه التوصية في الأزمنة الطويلة ﴿بَلْ هُمْ﴾ أي هؤلاء الأخلاف ﴿قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ مشاركون في الغَيّ والضلال والعدوان مع أسلافهم في أهل فطرتهم وجِبلّتهم؛ لذلك اتصفوا بما اتصفوا لاشتراك[1] السبب بينهم.

وبعدما أصروا على ما هم عليه من العناد ولم تنفعهم الآيات والنذر:

﴿فَتَوَلَّ﴾ وأعرِض ﴿عَنْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل بعد ما بذلتَ وسعك في إرشادهم وإهدائهم ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾ على إعراضك عنهم وانصرافك عن إرشادهم ودعوتهم بعد المبالغة.

﴿وَذَكِّرْ﴾ للقوابل المستحقين ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ والعظة ﴿تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ الموفَّقين من لدنّا على الإيمان، المجبولين على فطرة اليقين والعرفان.

﴿وَ﴾ اعلم أني ﴿مَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾ وما أظهرتُ أشباحهم وأظلالهم

(١) في المخطوط (لاشرك).

﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ ....

على هذه الهياكل والهويات، وما صورتُهم على هذه الصور البديعة، وما أودعتُ فيهم ما أودعتُ من جوهر العقل المفاض ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ ويعرفوني، ويتحققوا بوحدتي واستقلالي في وجودي وفي عموم تصرفاتي، وباستحقاقي للإطاعة والعبودية مطلقاً بلا شوب شركةٍ ومظاهرةٍ من أحدٍ، وإلا ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم﴾ وبخلقهم وإظهارهم ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾ أي تحصيلَ رزقٍ صوري أو معنوي أرزُق به عبادي، إذ خزائن أرزاقي مملوءةٌ وذخائرُ رحمتي متسعةٌ ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿مَآ أُرِيدُ﴾ منهم ﴿أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ أي على الفقراء الذين هم عيالي، طلباً لمرضاتي.

كما جاء في الحديث صلوات الله على قائله: «يَقُوْلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي»[1] أي لم تطعم عبدي الجائع.

وكيف أريد منهم أمثال هذا؟

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتوحد بالألوهية والربوبية ﴿هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ المنحصر المخصوص في ترزيق عموم العباد، لا رازقَ لهم سواه ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ والطَول العظيم المقتدر الحاكم، الغالب على عموم مراداته ومقدوراته على وجه الإحكام من الإنعام والانتقام.

---

(١) الحديث رواه مسلم في صحيحه [٤/ ١٩٩٠رقم/ ٢٥٦٩/ باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض] وصحيح ابن حبان [١/ ٥٠٣ رقم/ ٢٦٩/] ومسند إسحاق [١/ ١١٥ رقم/ ٢٨/].

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾

وبالجملة ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ على رسول الله ﷺ بأنواع التكذيب والإنكار والاستهزاء والاستحقار ﴿ذَنُوبًا﴾ حظاً وافراً ونصيباً كاملاً من العذاب الآجل والعاجل ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ﴾ أي مثل نصيب أسلافهم من الكفرة المكذبين للرسل الماضين، وسيلحقهم مثل ما لحقهم، بل بأضعافه وآلافه ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩﴾ لحوقه وحلوله.

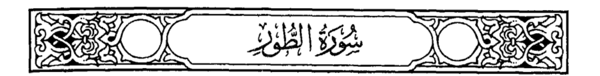
وبالجملة ﴿فَوَيْلٌ﴾ عظيمٌ وعذابٌ شديدٌ هائلٌ نازلٌ ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ستروا الحق وأعرضوا عنه، وأظهروا الباطل وأصروا عليه ﴿مِن يَوْمِهِمُ﴾ الفظيع الفجيع ﴿ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾ في النشأة الأخرى، وهو يوم القيامة المعدة لتعذيب العصاة والغواة وتفضيحهم فيه.

جعلنا الله من الآمنين فيه، الناجين من عذابه بفضله ولطفه.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المجبول على فطرة المعرفة واليقين: أن تتفكر في حِكمة ظهورك ومصلحة بروزك من كتم العدم في معرفة نفسك في عموم أحوالك؛ لينكشف لك من التأمل فيها الإطلاعُ على موجِدها ومظهِرها واتصافِه بالأوصاف الكاملة والأسماء الشاملة.

ثم منها إلى توحيده واستقلاله في الوجود وعموم الآثار المترتبة عليها، حتى تفوز إلى غاية قصواك ومبتغاك من اليقين والإيمان، ونهاية ما يترتب على ظهورك من التوحيد والعرفان، والله المستعان وعليه التكلان.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ ....

فاتحة سورة الطور

لا يخفى على من تحقق بمقام القلب وتمكن في مقعد صدق المعرفة والتوحيد أن ذاتَ الحق وحيطةَ حضرة علمه وسعةَ لوح قضائه وشمولَ قلم تقديره وتدبيره مما لا يُكتنه ذاته ولا أوصافه، بل لا نهاية لحيطتها ولا غاية لحصرها.

لذلك أقسم بذاته العظيم وعلمه العميم وأوصافه القديم، تعليماً لعباده، وتنبيهاً لهم نحو مبدأهم ومعادهم، فقال بعد ما تيمن باسمه الأعلى:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي تجلى في ما تجلى حسب أسمائه الحسنى وأوصافه العليا ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم بالرزق الأوفى ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم إلى سدرة المنتهى.

﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾﴾ أي وحق الذات المقدس عن الظهور والبطون، المنزه عن البروز والكمون.

﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾﴾ هو حضرة العلم الإلهي الذي سطر بالقلم.

﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾﴾ هو لوح القضاء المحفوظ من التباهي والانقضاء،

﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝٩﴾ ....

المحروس عن مطلق التغيير ومطلق الانمحاء.

﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤﴾ الإلهي الذي هو قلب العارف المحقق المتحقق بمقام الفناء عن الفناء، وبالبقاء ببقاء العظمة والكبرياء، المعبر بها عن عالم العمى اللاهوتي الذي هو سواد أعظم الفقر، وبيت المعمور الأكبر [في نسخة: وبيت الله الأعظم الأكبر].

﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥﴾ الذي هو سماء الأسماء والصفات عن مطلق التعدد والأصفياء.

﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦﴾ الذي هو مطلق الوجود المحيط بالكل بمقتضى الجود.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل لِعصاة عباده ﴿لَوَٰقِعٞ ۝٧﴾ نازلٌ لهم في يوم الجزاء.

﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨﴾ لأن من قدر على أمثال هذه المقدورات واتصف بهذه الأسماء والصفات بالأصالة والاستحقاق، لا يعارَض حكمه ولا يُدفع قضاؤه.

اذكر يا أكمل الرسل للمكذبين المنكرين للحشر والنشر كيف حالهم ﴿يَوۡمَ تَمُورُ﴾ تتحرك وتضطرب ﴿ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝٩﴾ اضطراباً غريباً وتحركاً لا على وجه المعتاد إلى حيث طُويت كطي السجل للكتب.

وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ....

﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ ﴾ الرواسي الرواسخ ﴿ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾ فتصير الأرض قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً.

﴿ فَوَيْلٌ ﴾ عظيمٌ وعذابٌ أليمٌ ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ واقعٌ ﴿ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ المسرفين المصرين.

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ ﴾ في الأباطيل الزائغة ﴿ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ بآيات الله الدالة على وحدة ذاته وكمال أسمائه وصفاته، وكذا يلحقهم أيضاً ويلٌ عظيمٌ.

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ ﴾ يُطرحون ويُدفعون ﴿ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾ طرحاً على وجه العنف، مشدودين بالسلاسل والأغلال، فيقال لهم حينئذٍ تفضيحاً وتوبيخاً:

﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ وتنكرون الآيات والنذر الواردة في شأنها، وتنسبونها إلى السحر والكهانة وغير ذلك من الخرافات والجزافات.

وأنتم أيها المنهمكون في الطغيان وأنواع الكفران في سالف الزمان، كنتم نسبتم الوحي والإلهام إلى السحر والأوهام تأملوا الآن:

﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ ﴾ الذي أنتم تطرَحون فيها وتعذَّبون بها كما زعمتم في ما مضى ﴿ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ولا تشعرون بها، كما كنتم لا تشعرون

ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا ....

بالآيات الواردة في شأنها حينئذٍ.

وبالجملة ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾ وادخلوا فيها، وبعد دخولكم ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾ وعلى أي وجهٍ تصيروا وتكونوا، لا مخلص لكم عنها، ولا مخرج لكم منها، بل ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ الصبرُ وعدمُه في عدم النفع والدفع ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي ما تجزون إلا بما كسبتم لأنفسكم، وأعددتم لأجلها، فيلحقكم الآن وبال ما اقترفتم في ما مضى حتماً على مقتضى العدل الإلهي، فلا ينفعكم الصبر والاضطراب.

ثم قال سبحانه على مقتضى سُنَّته المستمرة من تعقيب الوعيد بالوعد:

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ المتحفظين نفوسهم عن محارم الله، المتحرزين عن إنكار آيات الله الواردة في الوعد والوعيد متلذذون ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ﴿١٧﴾﴾ أية جناتٍ وأي نعيمٍ: رياضُ الرضا ونعيم التسليم.

﴿فَٰكِهِينَ﴾ متنعمين مسرورين فيها، مطمئنين راضين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ بمقتضى فضله وسعة جوده ولطفه ﴿وَ﴾ بما ﴿وَقَاهُمْ﴾ وحفظهم ﴿رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾ أي أهوالها وأفزاعها، فيقال لهم فيها على سبيل التبشير والتفريح:

﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ من الرزق الصوري والمعنوي ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾ بلا تنقيصٍ

بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ....

وتكليفٍ ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ أي بسبب صالحات أعمالكم وحسنات أفعالكم.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ معدةٍ لهم ﴿ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ منضودةٍ مرتبةٍ وفق أعمالهم وأحوالهم ومقاماتهم.

﴿وَ﴾ بعد ما تمكنوا على السرر مسرورين ﴿ زَوَّجْنَاهُم ﴾ وقَرَنَّاهم استئناساً منا إياهم ﴿ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ مصورةٍ من المعارف والحقائق المنكشفة لهم، المشهودة بعيون بصائرهم.

﴿وَ﴾ قرنّاهم أيضاً مع إخوانهم ورفقائهم من الموحدين ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بالله وانكشفوا بتوحيده ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ﴾ ولحقتهم معهم ﴿ذُرِّيَّتُهُم﴾ أي جميع ما انشعب وتفرع منهم من أولادهم وأعمالهم الصادرة عنهم حال كونهم متصفين ﴿بِإِيمَـٰنٍ﴾ يقينٍ علميٍ وتصديقٍ قلبيٍ قبل وصولهم إلى اليقين العيني والحقي، بل ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ﴾ أيضاً ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [التفسير جرى على قراءة نافع وأبو جعفر: ﴿ذُرِّيَاتِهِمْ﴾] أي مشاهداتهم ومكاشفاتهم الواردة عليهم حسب مقاماتهم وحالاتهم بعد اتصافهم باليقين العيني والحقي ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ مَآ أَلَتْنَـٰهُم ﴾ ونقصنا عليهم ﴿ مِّنْ عَمَلِهِم ﴾ الناشئ منهم في طريق الهداية والرشاد ﴿ مِّن شَىْءٍ ﴾ نزرٍ يسيرٍ، بل وفّينا ووفرنا عليهم جزاء

كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٢٤﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ ....

الكل مع مزيدٍ عليها تفضلاً منا وإحساناً، إذ ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ﴾ ذي هويةٍ شخصيةٍ مجبولةٍ لحكمة المعرفة ومصلحة التوحيد ﴿بِمَا كَسَبَ﴾ من الأسباب ﴿رَهِينٞ ﴿٢١﴾﴾ مرهونٌ مقرونٌ لا ينفصل عنها.

بل ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم﴾ تفضلاً وامتناناً منا إياهم وتكريماً لهم ﴿بِفَٰكِهَةٖ﴾ من المعارف والحقائق الواردة المتجددة آناً فآناً، حسب الشؤون الإلهية وتجلياته الجمالية والجلالية ﴿وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي يُتقوت ويقوى به أشباحهم وأرواحهم.

﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ ويتجاذبون ﴿فِيهَا كَأۡسٗا﴾ من رحيق التحقيق، مع أنه ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا﴾ من فضول الكلام ﴿وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾ من قبح الأفعال المستلزمة للآثام كما هو عادة الشاربين في الدنيا.

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾ بكؤوس التحقيق ورحيق اليقين ﴿غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ﴾ مصورةٌ من قواهم المدركة المملوكة لهم، المسخرة لنفوسهم المطمئنة، الراضية بمقتضيات القضاء الإلهي ﴿كَأَنَّهُمۡ﴾ من غاية الصفاء عن كدر الهواء ورعونات الرياء ﴿لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٢٤﴾﴾ مصونٌ محفوظٌ في أصداف أشباحهم عن التلطخ بقاذورات الدنيا الدنية.

﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ بطريق المسرة والانبساط ﴿يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ عن

قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ....

أعمالهم وأحوالهم ومواجيدهم ومقاماتهم.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي بعضهم في جواب بعض على وجه المذاكرة والمواساة: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ﴾ أي قبل انكشافنا بسرائر التوحيد ﴿فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ خائفين من غضب الله، محترزين عن عصيانه وطغيانه، مشتغلين بطاعته، وجِلين خائفين عن بطشه وسخطه وسطوة سلطنة قهره وجلاله، راجين من سعة رحمته وموائد جوده وكرمه.

﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ وهدانا إلى طريق التوحيد ووفقّنا للعروج إلى معارج العناية والتحقيق ﴿وَوَقَىٰنَا﴾ بلطفه ﴿عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ أي من عذاب النار المحرِق النافذ في عموم المساقاة مثل السموم.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ﴾ في دار الدنيا قبل حلول الساعة وقيام القيامة ﴿نَدۡعُوهُۖ﴾ سبحانه ونسأل منه الحفظ والوقاية من عذابه ونكاله في هذا اليوم الموعود وكيف لا نسأل منه، ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿هُوَ ٱلۡبَرُّ﴾ المحسن المخصوص المنحصر على الإحسان والإنعام ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ كثير الرحمة والامتنان على السائلين المؤمنين المستحقين، فاستجاب سبحانه بلطفه سؤالنا، وأنجح آمالنا بمقتضى سعة جوده ورحمته.

وبعد ما سمعت يا أكمل الرسل ما سمعت من فضل الله ولطفه وسعة رحمته وجوده مع أوليائه .

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ....

﴿فَذَكِّرْ﴾ واثبت على العظة والتذكير لعموم عباد الله، ولا تبال بقولهم الباطل في حقك ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ التي هي الآيات المنزلة إليك، الملهمة من ربك ﴿بِكَاهِنٍ﴾ مبتدعٍ مفترٍ مجترىءٍ على الإخبار عن المغيبات بلا وحيٍ من قبل الحق وإلهامٍ من جانبه ﴿وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ مختلِ العقل، مخبطِ الرأي كما يزعم في شأنك المسرفون المفترون.

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ فصيحٌ بليغٌ بلغ إلى حدٍ من البلاغة، عجز عن معارضته أقرانُه من البلغاء، فنحن ﴿نَّتَرَبَّصُ﴾ وننتظر ﴿بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ أي من الأيام وكرِّ الأعوام إلى أن يموت، فنخلص من فتنته وشرته.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿تَرَبَّصُوا۟﴾ وانتظروا لمقتي وموتي ﴿فَإِنِّى﴾ أيضاً ﴿مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ المنتظرين لمقتكم وهلاككم، والأمر بيد الله والحكم مفوَّضٌ إلى مشيئته، موكولٌ إلى إرادته، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

أهم يكابرون في هذه الأحكام المتناقضة مجادلةً ومراءً، وينسبونك مرةً إلى الكهانة المتضمنة لكمال الفطانة، ومرةً إلى الجنون المنبئ عن نهاية البلادة، وتارةً إلى الشِّعر المستلزم للوزن والقافية، مع أن ما جئت به من الكلام عارٍ عن الوزن، خالٍ عن القافية مطلقاً.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ السخيفة المستمدة من أوهامهم الضعيفة ﴿بِهَٰذَآ﴾

أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾

القول الباطل الزاهق الزائل ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾ باغون متناهون في العتو والعناد، صدر عنهم أمثال هذا، بلا تأملٍ وتدبرٍ على مقتضى عتوهم وثروتهم وكبرهم وخيلائهم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ واختلقه من تلقاء نفسه ونَسَبه إلى الوحي والإلهام تغريراً وترويجاً ﴿بَل﴾ معظم أمرهم وقصارى رأيهم أنهم ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ به وبك، فيتفوهون بأمثال هذه المطاعن والقوادح من شدة شكيمتهم، وغلظ غيظهم وضغينتهم معك يا أكمل الرسل.

وبعد ما بالغوا في القدح والطعن وبلغوا غاية الإنكار والإصرار، قل لهم يا أكمل الرسل على سبيل التعجيز والتبكيت:

﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ أولئك المسرفون المفرطون ﴿إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ في زعمهم ومفترياتهم مع أنهم لم يأتوا بمثله، ولا يتأتى منهم الإتيان أيضاً، وإن يتظاهروا ويتعاونوا بجميع ما في الأرض، إذ هو خارجٌ عن طور البشر ومشاعره.

أيصرون على إنكار الخالق مع أنهم مخلوقون ﴿أَمْ﴾ اعتقدوا أنهم ﴿خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ وبلا فاعلٍ موجدٍ ﴿أَمْ﴾ اعتقدوا نفوسهم أنهم ﴿هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ المستقلون على إيجاد هياكلهم بلا مؤثرٍ خارجيٍّ هو الله[1].

أيحصرون حينئذٍ خالقيتهم لأنفسهم فقط ؟!!.

---

(١) في المخطوط (بلا مؤثر خارجي الله).

أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ....

﴿ أَمْ ﴾ اعتقدوا أنهم ﴿خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ﴾ أي العلويات والسفليات والممتزجات؟!!. وبالجملة لا ينكرون حدوث الأشياء واستنادها إلى المحدث المؤثر ﴿ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ولا يتصفون باليقين في إثبات الموجد القديم وتوحيده.

أهم يثبتون مرتبة النبوة من تلقاء أنفسهم، ويختارون لها من يريدون؟!.

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ الغالبون المقتدرون على عموم مقاصدهم ومطالبهم، فيفعلون جميع ما يأملون ويشاؤون، بالإرادة والاختيار؟.

﴿ أَمْ ﴾ ادعوا علم الغيب بالاستماع من الملأ الأعلى؟. إذ ﴿لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ مِرقاةٌ يصعدون بها إلى مكانٍ من السماء ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ﴾ من الملائكة ما يظهرون من تكذيب الرسول وقدح القرآن ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ أي بحجةٍ واضحةٍ ومعجزةٍ ساطعةٍ، كما أتى بها الرسول ﷺ.

أأنتم العقلاء المتصفون بكمال الرشد والرزانة أيها المسرفون المفرطون؟!

﴿ أَمْ ﴾ سفهاءُ منحطون عن زمرة العقلاء مع أن دعواكم بأن ﴿لَهُ﴾ سبحانه ﴿ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ تدل على سفاهتكم وانحطاطكم عن مقتضى العقل؟ إذ إثبات الولد مطلقاً للواحد الأحد الصمد، المنزَّه عن الأهل والولد

أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ ....

بعيدٌ بمراحلَ عن مقتضى العقل فكيف إثبات أخس الأولاد له سبحانه، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

فثبت أن أولئك الحمقى سفهاء ساقطون عن رتبة العقلاء وأهل العبرة، فلا يسمع منهم مطلق الدعوى، سيما الأمور المتعلقة بالمعارف الإلهية.

فكيف إنكارهم بك يا أكمل الرسل هذا أَينكرون رسالتك يا أكمل الرسل، ويظنون لحوق الضرر إياهم منك؟.

﴿ أَمْ ﴾ أيظنون أنك بسبب تبليغك إياهم ﴿ تَسْئَلُهُمْ أَجْرًا ﴾ جُعلاً عظيماً ﴿فَهُم﴾ حينئذٍ ﴿ مِّن مَّغْرَمٍ ﴾ والتزامِ غرامةٍ عظيمةٍ ﴿ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ متحملون الثقل، لذلك شق عليهم الأمر إلى حيث أنكروا لك، وانصرفوا عن تصديقك.

وبالجملة أينكرون رسالتك بمقتضى قرائحهم ومن تلقاء أنفسهم ﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ ﴾ أي لوح القضاء المثبت فيها جميع الأشياء ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ المغيبات منها؟!.

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ ﴾ ويقصدون ﴿كَيْدًا ۖ﴾ لرسول الله ﷺ في دار الندوة ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ مكروا عليه ﴿ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ المقصورون على كيدهم، لا يتعدى عنهم وباله.

أينكرون توحيد الحق مكابرةً ؟.

﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ ﴾ يعبدونه كعبادته، ويطيعونه على نحو إطاعته،

سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ....

ويستعينون منه في الخطوب والملمات، وبالجملة ﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ﴾ وتعالى ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ لهم من أدون مخلوقاته.

﴿وَ﴾ بعد ما ألحقوا واقترحوا بقولهم: فأسقط علينا كسفاً من السماء، ﴿إِن يَرَوْا۟ كِسْفًا﴾ قطعاً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ عليهم وبمقتضى اقتراحهم ﴿يَقُولُوا۟﴾ من شدة عنادهم وفرط إنكارهم هذا: ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ تراكم بعضه على بعض فيسقط، وبالجملة

﴿فَذَرْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل واتركهم على ما هم عليه من العدوان والطغيان ﴿حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟﴾ ويصلوا ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾ يموتون، ويُهلكون بالمرة، وهو عند النفخة الأولى، ثم يحشرون ويعذبون.

﴿يَوْمَ﴾ أي يومئذ ﴿لَا يُغْنِى﴾ ولا يدفع ﴿عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ﴾ الذي أتوا به في دار الندوة والابتلاء ﴿شَيْـًٔا﴾ من الدفع والإغناء في رد عذاب الله ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ ويُمنَعون حينئذٍ من بطشه وعذابه.

وهم مع ذلك لا يُمهَلون إلى العذاب الآجل، بل يُعذَّبون في العاجل والبرزخ أيضاً، كما قال سبحانه:

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ العذاب الأخروي الموعود لهم، وهو

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

وقوعهم في نيران الإمكان بأنواع الخيبة والخسران، وتقيدهم بسلاسل الآمال وأغلال الأماني ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ولا يفهمون ألمها، مع أنها من أشد العذاب إيلاماً، وأصعب الوبال والنكال انتقاماً.

أعاذنا الله وعموم عباده منها.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ ٱصْبِرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم إلى قيام الساعة وإبقائك في ما بينهم بأنواع التعب والعناء، ولا تستعجل لمقتهم وهلاكهم، ولا تخفْ من مكرهم معك وغدرهم عليك ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ﴾ وكنف حفظنا وحوزة حراستنا وحضانتنا، نكفيك ونكفّ عنك مؤنة شرورهم، ولا تلتفت إليهم، ولا تبال بمكرهم وكيدهم، ولا تشتغل[1] عنا بهم وبمخاصمتهم ﴿ وَسَبِّحْ ﴾ أي نزه ربك عن أن يعجز عن أخذهم وانتقامهم أو عن إنجاز ما وعد لك من عذابهم ملتبساً ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في جميع حالاتك وأوقاتك سيما ﴿حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ من منامك.

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ حين تستريح فيه للنوم ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ لتكون على ذكرٍ من ربك حين رقودك وغفلتك عن حواسك، ليكون ذكرك حينئذٍ توصيةً منك بمتخيلتك وإرشاداً لها وتعليماً إياها ﴿وَ﴾ سبِّحه أيضاً ﴿ إِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ وقت دبور النجم، وظهور ضياء الشمس، فإن كِلا الوقتين وقت فراغ البال عن مطلق التشتت والأشغال العائقة عن التوجه.

جعلنا الله ممن خفف أثقاله وقلل آماله بمنِّه وجوده.

(١) في المخطوط (ولا تشغل).

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتوجه نحو المقام المحمود الذي هو مرتبة الكشف والشهود هداك الله إلى سواء السبيل، ووقاك عن مطلق التغيير والتبديل: أن تخلي خلدك عن الركون إلى ما سوى الحق، والالتفاتِ إلى عموم ما يشغلك عن التوجه إليه، والتحنن نحوه.

ولك الاشتغال بالتسبيح والتقديس في جميع أوقاتك، وحالاتك سيما في أثناء صلواتك في خلال خلواتك، وإياك إياك الميل إلى مزخرفات الدنيا ولذاتها وشهواتها، والاختلاط مع أبنائها المنغمسين بقاذوراتها، فإن التلطخ بمزخرفات الدنيا يكلّ الأبصار ويعمي القلوب التي في الصدور.

خفف عنا بلطفك ثقل الأوزار، وارزقنا بفضلك عيشة الأبرار، واصرف عنا بكرمك شر الأشرار.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة النجم

لا يخفى على المحققين المتحققين بمقام الكشف والشهود، المنجذبين نحو الحق بسرائرهم بلا تلعثم وتلوينٍ: أن من تمكن في مرتبة المعرفة، وتقرَّر في مقر التوحيد وصفا سره عن مكدرات التخمين والتقليد، صار فانياً في الله، باقياً ببقائه، متكلماً بكلامه، متخلقاً بأخلاقه، متصفاً بأوصافه سبحانه، حسب ما يسر الله له ويفيض عليه ويظهرها منه.

ومَن كان شأنه هذا وأمره هكذا، كان صادقاً صدوقاً، هادياً مهدياً، مترصداً في طريق الحق، مترقباً للوحي والإلهام الإلهي دائماً، ومستنشقاً من نسمات نفسات الرحمن، متعرضاً لنفحات الروح والريحان من رياض الجنان، متشوقاً إلى لقاء الحنَّان المنَّان، منسلخاً عن لوازم الناسوت، منجذباً نحو فضاء اللاهوت، فجرى عليه عموم ما جرى على وفق التسليم والرضا.

لذلك أخبر سبحانه عن استغراق حبيبه ﷺ، وانجذابه بالمرة إلى مبدئه، واتصاله بعالم اللاهوت بعد كمال انخلاعه عن كسوة الناسوت، وأقسم سبحانه بما أقسم تأييداً لأمره وتعظيماً لشأنه، فقال بعد ما تيمن باسمه العلي الأعلى:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ المتجلي بأسمائه الحسنى وصفاته العليا على حبيبه ﷺ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لعموم عباده بإظهار مرتبته ﷺ فيما بينهم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، المهتدين بهدايته وإرشاده، يوصلهم إلى مرتبة حق اليقين.

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ....

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ أي وحق النجوم الثواقل الهاوية النازلة بقلوب أرباب الإرادة من عالم اللاهوت؛ ليهتدوا بها في ظلمات التعينات إلى فضاء التوحيد وشمس الوحدة الذاتية الحقيقية.

﴿مَا ضَلَّ﴾ أي ما انحرف وعدل ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ الرسول المؤيد من عند الله المستوي على صراط العدالة الإلهية عن طريق التوحيد والتحقيق ﴿وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ أي ما ضل وانصرف في سلوك سبيل الحق نحو الباطل الزاهق الزائغ.

﴿وَمَا يَنطِقُ﴾ ويتكلم بالقرآن المعجز ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ الناشئة من ظلمات الطبيعة والهيولى.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما القرآن الذي ينزل إليه ﷺ ويتكلم هو به ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ إليه من عند ربه، بلا تصنع له فيه، وتكلفٍ من جانبه. بل ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ عنايةً عليه وتكريماً وتأييداً بشأنه وتعظيماً ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ الذي لا حول ولا قوة في الوجود إلا منه وبه وله، إذ لا موجود سواه، هو سبحانه

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ قوةٍ وقدرةٍ ذاتيةٍ محيطةٍ لعموم ما ظهر وبطن من المظاهر، وبعد تعليم الحق إياه ﷺ وتقويته وتأييده ﴿فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾﴾ تمكن واعتدل ﷺ على صراط العدالة، وتمكّن على مرتبة الخلافة والنيابة.

﴿وَهُوَ﴾[1] حينئذٍ من كمال التربية والتأييد تمكن ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾﴾ الذي هو أفق عالم اللاهوت ومطلع شمس الذات من مشرق عالم العمى، الذي هو نورٌ على نور.

(١) في التفاسير الأخرى: الضمير لجبريل عليه السلام.

ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ ....

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ وتقرب إلى ربه ﴿فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ وتعلق به سبحانه نوعَ تعلقٍ ولحوقٍ إلى حيث.

﴿فَكَانَ﴾[1] قربَ ما بينهما ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي مقدار قوسي الوجوب والإمكان، الحافظين لمرتبتي الألوهية والعبودية ﴿أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ وأقرب منهما لفناء حصة الناسوت مطلقاً في حصة اللاهوت.

وبعد ما صار ﷺ ما صار وقرب إلى حيث قرب

﴿فَأَوْحَىٰ﴾ وألهم سبحانه ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ الذي هو سبحانه أقرب إليه من نفسه ﴿مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ من المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات الفائضة عليه من لدنه سبحانه، الخارجة عن طور ناسوته وبشريته، فرأى ﷺ ما رأى، وانكشف بما انكشف، وبالجملة

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ أي فؤاده ﷺ الذي هو من منهيات عالم اللاهوت، المتمكن في قلوب ذوي العناية وأولي الألباب على سبيل الوديعة من قبل الحق ﴿مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ وشهد حين وصوله ولحوقه بالأفق الأعلى.

﴿أَ﴾ تنكرون انكشافه وشهوده ﷺ أيها المحجوبون المحرومون ﴿فَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ وتجادلون معه على سبيل المراء والمكابرة ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ من الذوقيات والوجدانيات التي تأبى عنها عقولكم، وتعمى أبصاركم، ولا يمكن إلقاؤها وكشفها لكم.

وكيف تستبعدون وتنكرون له ﷺ أمثال هذا

﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ رَءَاهُ﴾ ما رآه من الشهودات التي تَدهش منها عقول العقلاء

(١) فكان جبريل عليه السلام (في التفاسير الأخرى).

نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ......

وتحير أوهامهم وخيالاتهم ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ مرةً أخرى قبل عروجه ووصوله إلى الأفق الأعلى، والمقام الأدنى الذي هو اليقين الحقي، وذلك

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ التي ينتهي إليها ودونها اليقين العلمي والعيني، إذ

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ التي يأوي إليها أرباب العناية شوقاً إلى لقاء الله، وهو موعد الرؤيا والعيان، ومقام التوحيد والعرفان.

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ﴾ المعهودة أي يغطي[1] الموعد الموعود، ويحيط بها ﴿مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ من التجليات الإلهية المتشعشعة حسب الشؤون المتجددة، المحيرة لعيون النواظر من أرباب الولاء، الوالهين بمطالعة وجه الله الكريم. وبالجملة ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي ما مال وانحرف بصر رسول الله ﷺ عند تعاقب التجليات الإلهية، وترادف شؤونه الغيبية، وتطوراته الجمالية والجلالية حسب أسمائه وصفاته العلية، عن وحدة ذاته، وما يشغله شيء منه عنه سبحانه ﴿وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ خرج نفسه ﷺ عند رؤية ما رأى من العجائب والغرائب عن ربقة الرِّقية ﷺ، وعروة العبودية، بل التزم حينئذٍ بقيام ما لزم من آداب العبودية ولوازم الإطاعة والانقياد أكثر مما التزمها قبل انكشافه.

والله ﴿لَقَدْ رَأَىٰ﴾ ﷺ في ليلة الإسراء ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ أي الآيات الكبرى التي هي آيات ربه الذي رباه على رؤية آياته الكبرى، ما لا يراه

(١) في المخطوط (يعطي).

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ ....

أحدٌ من المكاشفين، لا ملكٌ مقربٌ، ولا نبيٌ مرسلٌ من بني نوعه .

﴿أَ﴾ تنكرون أيها الجاحدون وحدة الحق عز شأنه وجلَّ برهانه، وانكشاف حبيبه ﷺ بوحدته وبلوازم ألوهيته وربوبيته ورسالته من عنده سبحانه إلى عموم بريته وكافة خليقته؛ ليرشدهم إلى الإيمان به، ويهديهم إلى توحيده ﴿فَرَأَيْتُمُ﴾ أثبتّم وأخذتم الأصنام شركاء له، مشاركين معه في ألوهيته وربوبيته، يعني الأولى ﴿ٱللَّٰتَ وَ﴾ الثانية ﴿الْعُزَّى ﴿١٩﴾﴾ ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ مع أنها جماداتٌ لا شعورَ لها ولا يصدر شيءٌ منها.

وأعظم من ذلك أنكم أثبتم له سبحانه الأولاد بل أخسها وأدونها:

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ﴾ الأشرف الأكرم أيها الحمقى ﴿وَلَهُ﴾ سبحانه مع كمال تنزهه عن نقيصه، اتخاذ الولد المترتب[1] على القوة الشهوية ﴿ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ المرذولة المستهجنة.

واللهِ ﴿تِلْكَ﴾ القسمة التي جئتم بها مع استحالتها[2] في حقه سبحانه ﴿إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ أي لو فُرض في شأنه سبحانه هذه، لكانت قسمتكم قسمةً عوجاءَ جائرةً مائلةً عن العدالة، إذ أنتم أيها الحمقى تستنكفون عن الأنثى، وتثبتونها لله المنزه عن الأهل والولد، المقدسِ عن مطلق أَمارات الحدوث،

(١) في المخطوط (المترتبة).

(٢) في المخطوط (استمالته).

إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ....

وعلامات النقصان. وبالجملة ﴿ إِنْ هِيَ ﴾ أي ما آلهتكم التي أنتم أثبتموها[1] واعتقدتم شركتها مع الله ﴿ إِلَّآ أَسْمَآءٌ ﴾ لا مسميات لها أصلاً، بل ﴿ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ ﴾ تبعاً ﴿ وَءَابَآؤُكُم ﴾ أصالةً من تلقاء أنفسكم إذ ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ برهانٍ واضحٍ، وحجةٍ قاطعةٍ بل ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ أي ما يتبع أسلافكم الحمقى ﴿ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ والخيالَ الناشئَ من أوهامهم وأحلامهم السخيفة أمثالكم أيها الجاهلون ﴿ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ أي ما تهويه وتشتهيه نفوسهم ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم ﴾ ونزَلَ عليهم حينئذٍ أيضاً على ألسنة رسلهم ﴿ مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾ الموصل إلى مرتبة التوحيد، فتركوها ظلماً وعدوانا، ولم يتبعوها أمثالكم أيها الحمقى.

أتطمعون الشفاعة من تلك الآلهة الهلكى، وتأملون معاونتهم ومظاهرتهم إياكم أيها الحمقى ؟!

﴿ أَمْ ﴾ تعتقدون أن يحصل ﴿ لِلْإِنسَٰنِ ﴾ جميع ﴿ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ وتأملَ من اللذات والشهوات.

بل ﴿ فَلِلَّهِ ﴾ وفي قبضة قدرته وتحت تصرفه ﴿ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ﴾ أي ما جرى في النشأة الأولى والأخرى من الكرامات، يمن بها على من يشاء، ويصرفها عن من يشاء إرادةً واختياراً، لا يُحكم عليه ولا يُنازع في سلطانه،

(١) في المخطوط (اثبتوها).

﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ .... ﴾

يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

ثم قال سبحانه تسجيلاً على غاية غباوتهم، ونهاية بلادتهم وحماقتهم في اتخاذهم الأصنام آلهةً واعتقادهم شفعاء:

﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أي كثيرٌ من الملائكة المقبولين[1] عند الله، المُهيمين بمطالعة وجهه الكريم، ومع ذلك القرب والشرف ﴿ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ من الإغناء ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ ﴾ لهم ليشفعوا عنده سبحانه ﴿ لِمَن يَشَآءُ ﴾ سبحانه خلاصهم من عباده ﴿ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ بشفاعة الشفعاء عندهم لاستخلاصهم بإذنٍ منه سبحانه.

وهؤلاء الحمقى يدعون الشفاعة لأولئك الهلكى، ويعتقدونها آلهةً متشاركين مع الله في الألوهية والربوبية ظلماً وعدواناً، بلا حجةٍ وبرهانٍ.

ومن غاية عدوانهم وطغيانهم، يُهينون الملائكة المكرمين المقربين، ويستحقرونهم حيث ينسبونهم إلى الأنوثة المستلزمة لغاية النقصان، وبالجملة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ كل واحدٍ منهم ظلماً وزوراً ﴿ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ ﴾ أي يسمونهم بنات الله، ظلماً على الله، بإثبات الولد له وعليهم نقص الأنوثة إياهم.

(١) في المخطوط (المقبول).

وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ

﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا لَهُم بِهِۦ﴾ أي بقولهم هذا ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ لا يقينٍ ولا ظنٍ ولا سندٍ من عقلٍ ونقلٍ، بل ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي ما يتبعون في قولهم هذا ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ والتخمين الناشئ من تقليد آبائهم، المنتسبين إلى الجهل والعناد ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ﴾ المستند إلى الجهل والتقليد ﴿لَا يُغْنِى﴾ ويفيد ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الحقيق بالاتباع ﴿شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ من الإغناء والإفادة.

وبعد ما سمعت حالهم وقولهم:

﴿فَأَعْرِضْ﴾ يا أكمل الرسل وانصرف ﴿عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ الصارف له عن أمثال هذه الهذيانات الباطلة، ولا تبال بشأنه، ولا تبالغ في دعوته من غاية إعراضه وانصرافه ﴿وَلَمْ يُرِدْ﴾ من السعادات المنتظرة والكرامات الموعودة للإنسان ﴿إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ ولذاتها وشهواتها، ولم يهتم إلا بشأنها، واقتصر على مزخرفاتها مع كمال غفلةٍ، وذهولٍ تامٍ عن الكرامات الروحانية، واللذات الأخروية.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي سمعت يا أكمل الرسل من ميلهم إلى الدنيا ﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ اللدني الفائض لهم من حضرة العلم الإلهي، فعليك يا أكمل الرسل أن تعرض عنهم وعن دعوتهم وإرشادهم، بعد ما أمرت به حسب العقل الفطري الموهوب لهم من المبدأ الفياض، وبالغتَ في تبليغ المأمور.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ....

وبالجملة ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي رباك بكمال كرامته واصطفاك لرسالته ونيابته ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ وانحرفَ ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ من عباده، ومال عن جادة توحيده ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ أيضاً ﴿بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ منهم بهدايتك وإرشادك.

﴿وَ﴾ كيف لا يعلم سبحانه المضلين والمهتدين من عباده، إذ ﴿لِلَّهِ﴾ ملكاً وتصرفاً، وإحاطةً وشمولاً مظاهرُ ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وما بينهما من الكوائن والفواسد ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟﴾ بأعمالهم وأقوالهم ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي بمقتضى عملهم على مقتضى عدله سبحانه، بلا زيادةٍ ولا نقصانٍ ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ أيضاً كذلك ﴿بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ أي أزيدَ مما استحقوا بصوالح أعمالهم وحسنات أخلاقهم، تفضلاً عليهم وامتناناً. والمحسنون هم:

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي يحترزون عن الآثام الكبيرة المستجلبة لغضب الله، المستتبعة لعذابه ونكاله في النشأة الأخرى، المستلزمة للحدود والكفارات بحسب الشرع الشريف ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ أي يحفظون نفوسهم أيضاً عن الفواحش المسقطة للمروءات، الجالبة لأنواع النكبات والوعيدات الهائلة الإلهية، المقتضية للخلود في دركات النيران ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ الطارئَ عليهم من صغائر الذنوب، هفوةً، فجبروه بالتوبة دفعةً، فإنه معفوٌ عن مجتنبي الكبائر والفواحش، قبل التوبة أيضاً.

إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ ....

وكيف لا يغفر سبحانه لأصحاب[1] اللمم لممهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ سريعُ العفو، شاملُ الرحمة ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ منكم وبعموم أحوالكم وأطواركم أيها المجبولون على فطرة التكليف، وكيف لا يعلم سبحانه أحوالكم، ﴿إِذْ أَنشَأَكُم﴾ وأظهركم ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ بمقتضى سعة علمه وجوده ﴿وَإِذْ أَنتُمْ﴾ حينئذٍ ﴿أَجِنَّةٌ﴾ لا شعورَ لكم محبوسون ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ يعلم سبحانه منكم جميع أحوالكم وأطواركم وعموم حوائجكم الماضية والآتية، وبالجملة ﴿فَلَا تُزَكُّوا﴾ ولا تنزهوا و تطهروا ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ إذ لا علمَ لكم بتفاصيل أحوالكم وأعمالكم مطلقاً بل ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾ وحفظ نفسه[2] عن مساخطه سبحانه واحترز عن منهياته.

ثم قال سبحانه عبرةً على المستبصرين وتوبيخاً على المستكبرين:

﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ أيها المعتبر الرائي الطاغي الباغي ﴿الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ وأعرض عن اتباع الحق، وأصر على الباطل عناداً ومكابرةً، بعد ما وعد الحقَ التصدق من ماله كفارةً لذنوبه.

﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾ من سمعةٍ ورياءٍ ﴿وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ وقطع عطاء الباقي بعد

(١) في المخطوط (المقبول).

(٢) في المخطوط (تحفظ وبالجملة نفسه).

أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ....

ذلك، فما وفّى ووفر جميع ما وعد، ثم ارتد ـ العياذ بالله ـ وندم عما تصدق قبلُ، فأصر على ما كان من الكفر والجحود، ومع ذلك يزعم أنه قد برئ من الذنوب بتصدقه.

نزلت في الوليد بن المغيرة كان يتبع رسول الله ﷺ فعيَّره بعض المشركين، وقال: تركت دين الأشياخ، وضللتهم، فقال: أخشى عذاب الله، فضمن أن يتحمل عنه العذاب، إن أعطى بعض ماله من المشروط، ولم يتم، ومع ذلك يزعم البراءة عن الذنوب لذلك، ثم بخل بالباقي، وبعد ما أعطى بعض المشروط، ارتدَّ ـ العياذ بالله ـ عن الدين ومتابعة الرسول الأمين، عيره سبحانه بقوله:

﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ بأن التصدق وتحمل الغير وتضمنه يدفع عنه العذاب.

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾ ولم يخبر ﴿بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ وهي ألواح التوراة المنصوصة فيها بخلاف ذلك.

﴿وَ﴾لم ينبأ أيضاً بما في صحف ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ الذي يدعي متابعته والتدين بدينه مع أن إبراهيم ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ ووفر وأتم بجميع ما التزمه وأمر به وبالغ في وفاء ما عاهد والتزم، طلباً لمرضاة ربه، وهو يدعي متابعته، ولم يوفِّ بما التزم من العهود.

وكيف يحمل الغير عنه وِزره أو يسقطه الصدقة، مع أن مضمون ما في

أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ....

عموم كلتا الصحفين هو هذا:

﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ أي أنه لا تحمل ﴿وَازِرَةٌ﴾ أي نفسٌ آثمةٌ ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ أي ذنبها، ولا يؤخذ هي عليها، بل كلُّ نفس من النفوس الخيرة والشريرة، رهينةٌ بما كسبت، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ.

﴿وَ﴾ كذا منصوصٌ في الصحفين: ﴿أَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ﴾ المجبول على فطرة العرفان أي لكل واحدٍ من أشخاصه ﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ واقترف لنفسه وأعد لمعاشه ومعاده.

﴿وَ﴾ كذا ثبت فيهما ﴿أَنَّ سَعْيَهُۥ﴾ أي سعي كل واحد من أفراد الإنسان خيراً كان أو شراً ﴿سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ في النشأة الأخرى، مصورةً بالصور الحسنة والقبيحة من الدرجات العلية الجنانية، أو الدركات الهوية النيرانية.

﴿ثُمَّ﴾ بعد ما حوسب عليه عموم مساعيه أعماله ﴿يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ أي يوفر عليه من الجزاء على مقتضى سعيه في أعمالها، خيراً كان أو شراً.

﴿وَ﴾ أيضاً مثبتاً فيهما ﴿أَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ أي منتهى الكل إلى الله، كما أن مبدأه منه، إذ ليس وراءه مرمىً ومنتهىً.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ﴾ من أضحك ﴿وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ من أبكى.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ إذ لا قادرٌ على الإماتة والإحياء غيره سبحانه.

وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ ....

﴿وَأَنَّهُۥ﴾ من كمال قدرته ووفور حكمته ﴿خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ من صنفٍ ونوعٍ وجنسٍ. وقدّر وجود الزوجين :

﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ مهينةٍ حاصلةٍ منهما ﴿إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ أي تُصب وتُراق في الرحم على وجه الدفق، أو تُقدر وتُخلق منها.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ أي عليه سبحانه إعادة الأموات أحياءً في النشأة الأخرى كما أن عليه الإبداء في النشأة الأولى ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿هُوَ﴾ بذاته لا بالوسائل والوسائط، إذ الكل راجعٌ إليه ﴿أَغْنَىٰ﴾ مَن أغنى بإعطاء الأموال له ﴿وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ من أقنى بإلهامِ القنية والادخار.

وإنما فعل معهم ما فعل من الإغناء والإقناء، ليشكروا له، ولم يعبدوا غيره، ومع ذلك أشركوا له، فعبدوا الشِّعرى.

﴿وَ﴾ لا شك ﴿أَنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ وهي كواكبُ قد عبدها بعض الصابئين، منهم أبو كبشة، أحد أجداد الرسول ﷺ، لذلك يكنى بكنيته.

﴿وَأَنَّهُۥٓ﴾ سبحانه ﴿أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ لشركهم بالله، وَصَفَهُم بالأولى لأنهم أولُ قوم أهلكهم الله بعد نوح.

﴿وَ﴾ أنه سبحانه أهلك ﴿ثَمُوداْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾ أحداً من كلا الفريقين.

وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا ....

﴿وَ﴾ أهلك أيضاً بمقتضى قدرته الكاملة ﴿قَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي قبل إهلاك عادٍ وثمودَ ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي قوم نوحٍ ﴿كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ أي أظلم الناس على أهل الله، وأطغاهم عن طريق الهداية والرشاد.

﴿وَ﴾ إنه سبحانه أهلك ﴿الْمُؤْتَفِكَةَ﴾ أي أهل القرى المنقلبة، وهي قوم لوط عليه السلام إلى حيث ﴿أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ أي أسقط عليهم دورهم وأماكنهم، بعد ما رفعها نحو السماء، وقلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها.

﴿فَغَشَّاهَا﴾ حينئذٍ ﴿مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ من أمطار الحجارة، وأنواع المصيبات والعاهات، والنكبات. وبالجملة

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ﴾ وأصناف نعمائه المتوالية المترادفة من انتقام الأعداء وإنعام الأولياء ﴿تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ وتتدافع على وجه الجدال والمراء، أيها المحجوب الجاحد لوحدة الحق واستقلاله في عموم تصرفاته الجارية في ملكه وملكوته، بكمال الإرادة والاختيار.

وبالجملة اعلموا أيها المجبولون على فطرة التكليف المثمر للمعرفة والتوحيد أن:

﴿هَٰذَا﴾ أي رسولكم الذي أرسل إليكم من لدنا، ليرشدكم إلى توحيد الذات، مؤيداً بالكتاب المبين لمقدمات التوحيد، مشتملاً على الأوامر المؤدية إليه والنواهي العائلة عنه، والعبر والتذكيرات المصفية لنفوسكم عن

﴿نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾ ....

الركون إلى ما ينافيه من المزخرفات الدنية الجالبة لأنواع اللذات والشهوات الجسمانية الموروثة لكم من شياطين نفوسكم وقواكم البهيمية الظلمانية المتفرعة على الطبيعة والهيولي التي هي من نتائج التعينات العدمية الناسوتية المانعة من الوصول لصفاء عالم اللاهوت ﴿نَذِيرٌ﴾ لكم أكمل ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾ إذ هم منذرون عن الشواغل المنافية لتوحيد الصفات والأفعال، ونذيركم هذا ﷺ ينذركم عن موانع توحيد الذات.

واعلموا أنه بعد بعثته ﷺ:

﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ۝٥٧﴾ أي دنت القيامة واقتربت الساعة.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾ أي نفسٌ قادرةٌ على كشفها وتعيينها ووقت وقوعها وقيامها، إذ هي من جملة المغيبات التي استأثر الله بها، ولم يُطلع أحداً عليها.

ثم وبخ سبحانه على المنكرين ليوم القيامة المستكبرين عن قبولها فقال:

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ الصحيح والحق الصريح الذي هو القرآن المعجز ﴿تَعْجَبُونَ ۝٥٩﴾ تعنتاً وإنكاراً.

﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ منه استهزاءً ومراءً ﴿وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠﴾ بما فيه من الوعيدات الهائلة، تلهفاً وتأسفاً على ما فرطتم لأنفسكم وأفرطتم عليها.

﴿وَأَنتُمْ﴾ أيها الحمقى الجاهلون ﴿سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾ لاهون ساهون

﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾

مستكبرون على ما فيه من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد، مكابرون عليها عتواً وعناداً.

وإن أردتم التلافي والتدارك:

﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ وتذللوا له حق تذلله، وعظِّموه حق تعظيمه وتكريمه ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ له حق عبادته كي تَصِلوا، إلى زلال معرفته وتوحيده.

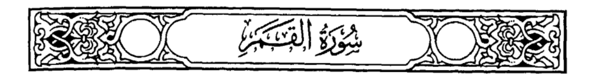
جعلنا الله من زمرة عباده العابدين المتذللين الخاضعين الخاشعين بمنِّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المريد القاصد لسلوك طريق التوحيد، عصمك الله عن آفات التخمين والتقليد، وأعانك على التوكل والتجريد: أن تلازم على المجاهدة والانكسار والتذلل والافتقار بدوام العزلة والفرار عن أصحاب النخوة والاستكبار، صارفاً عنان عزمك لإسقاط عموم الإضافات والاعتبار، طالباً الانخلاع عن ملابس الحياة المستعار، ملازماً لسبيل الفناء المثمر للبقاء الأبدي والحياة الأزلية السرمدية[1]، حتى تتخلص من أودية الضلال وتصل إلى فضاء الوصال.

---

(١) في المخطوط (الحياة الأزلي السرمدي).



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة القمر

لا يخفى على من ترقى من حضيض الإمكان، ووصل إلى ذروة وجوب الوجود، وتمكن بمقام الكشف والشهود، مجرداً عن جميع القيود المنافية لصرافة الوحدة الذاتية: أن ظهور عموم الخوارق من المعجزات والكرامات، وأنواع الإرهاصات الصادرة من النفوس القدسية الواصلة إلى المبدأ الحقيقي، الفانية فيه، المضمحلة دونه، إنما هو بمقتضى الشؤون الإلهية المترتبة على الأسماء والصفات الذاتية الإلهية.

ولا شك أن أفضل أرباب الوصول وأكملهم إنما هو نبينا المتحقق بمرتبة الخلة والخلافة صلوات الله عليه وسلامه، ولهذا صدّر بشارته ﷺ ما صدّر من المعجزات، سيما انشقاق القمر ليلة البدر بعد اقتراح المنكرين عليه بالآيات، وصار انشقاقه هذا أمارةٌ من اقتراب الساعة الموعودة، كما أخبر سبحانه عنه بعد ما تيمن باسمه العظيم فقال:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ المتجلي بالقدرة الكاملة على عموم مقدوراته ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ بجميع مخلوقاته في النشأة الأولى، بإفاضة الوجود عليهم بمقتضى الجود ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لنوع الإنسان ينقذهم من منام الغفلة، ويوصلهم إلى مقام الوحدة، ويطلعهم على قيام الساعة والطامة الكبرى التي انقهرت دونها نفوس الأغيار والسوى مطلقاً.

ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ﴿٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ ....

﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾ ودنت القيامة الموعودة قيامها، ومن علاماتها انشقاق القمر ﴿وَ﴾ قد ﴿ٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾﴾ بإشارة الحضرة الختمية المحمدية ﷺ. هذا وتواتر وقوعه.

﴿وَ﴾ المنكرون المصرون على الإنكار والتكذيب، المقيدون بعقال العقل الفضولي، المغلولون بأغلال الأحلام المشوبة بالخيالات والأوهام ﴿ إِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ ﴾ معاينةً دالةً على كمال قدرة الصانع الحكيم والقادر العليم ﴿يُعۡرِضُواْ﴾ عنها لعدم مطابقتها بعاداتهم ومقتضيات أوهامهم وخيالاتهم ﴿ وَيَقُولُواْ ﴾ من شدة إنكارهم وعنادهم هذا الذي صدر منه على خلاف العادة: ﴿ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ﴿٢﴾﴾ في الزمان وقوعه لا مختلقٌ منه فقط.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿كَذَّبُواْ﴾ الآية الخارقة للعادة ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ المعتادة الفاسدة وآراءهم الباطلة الكاسدة ﴿وَ﴾ هكذا ﴿كُلُّ أَمۡرٖ﴾ رَسَخ تمكن في نفوسهم سواءً كان خيراً أو شراً، طاعةً أو معصيةً، ولايةً أو عداوةً ﴿ مُّسۡتَقِرّٞ ﴿٣﴾﴾ ثابتٌ في مكانه، بعد ما تقرر وتمرن لا يتعداه أصلاً.

﴿وَ﴾من نهاية تمكنهم ورسوخهم في الكفر والعناد وتمرنهم على الغي والفساد ﴿ لَقَدۡ جَآءَهُم ﴾ في القرآن المرشد لهم إلى الهداية والعرفان ﴿ مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ والأخبار الجارية على القرون الماضية، المصرة على العتو والعناد

مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ....

أمثالهم ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾﴾ أي وعيداتٌ هائلةٌ موجبةٌ للانزجار الكامل والارتداع المتبالغ لأصحاب الغيرة والاستبصار. إذ هي ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ نهايتها في الإحكام والإتقان، ومع ذلك ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ وما تفيدهم إنذاراتهم أصلاً، إذ هم مجبولون على الغواية المتناهية، أمثال هؤلاء الغاوين المصرين على العتو والعناد معك، وبالجملة

﴿فَتَوَلَّ﴾ يا أكمل الرسل وأعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ وعن دعوتهم وإرشادهم، وانتظر ﴿يَوْمَ يَدْعُ﴾ وينادي ﴿ٱلدَّاعِ﴾ المنادي هو إسرافيل، ودعاؤه كناية عن نفخه في الصُّور للبعث أو الحشر ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾﴾ فظيعٍ فجيعٍ، تنكره النفوس، إذ لم يعهد مثله، وهو هول يوم القيامة المعدة للحساب والجزاء.

وبعد ما سمعوا النداء الهائل والصداء المهول ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي شاخصةً ذليلةً كالتائه الهائب الهائل ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي قبورهم التي هم مدفونون فيها في عالم البرزخ، ويتحركون على الأرض ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾ في الكثرة والانتشار إلى الأماكن، فيتوجهون

﴿مُّهْطِعِينَ﴾ مسرعين ﴿إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ المنادي مادّين أعناقهم نحوه ومن شدة خوفهم وهولهم، ليعلموا لما يدعوهم، ومن شدة تلك الساعة ونهاية أهوالها

يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ....

وفظاعتها ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ في نجواهم وهواجس نفوسهم: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ صعبٌ في غاية الصعوبة والفظاعة.

ثم قال سبحانه تسليةً لحبيبه ﷺ حين كذّبه قومه، حاكياً إياه ﷺ عن أحوال الماضين تسليةً وإزالةً لحزنه:

﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل قومك ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي لا تحزن يا أكمل الرسل من تكذيب هؤلاء المكذبين بك، ولا تغتم من أذياتهم، إذ ما هي[1] ببدعٍ منهم بالنسبة إليك، بل تذكّر تكذيب قوم نوح ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ أي كيف كذبوا أخاك نوحاً ﴿وَقَالُوا۟﴾ له حين دعوتهم إلى الإيمان: هو ﴿مَجْنُونٌ﴾ مخبطٌ مختلُ العقل والرأي ﴿وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ وزُجر، لأجل دعوته وتبليغه إياهم إلى حيث لطمه كل من يصل إليه، ورماه بالحجارة كل من يمر عليه، فصبر على أذاهم، وبالغ في دعوته إياهم.

وبعد ما بلغت الأذية غايتها ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ دعاء مؤملٍ ضريعٍ فجيعٍ: ﴿أَنِّى﴾ أي بأني على قراءة الفتح أو قال: إني بالكسر ﴿مَغْلُوبٌ﴾ غلبني قومي، ولم يقبلوا مني دعوتي وهدايتي ﴿فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ علي[2] يا ربي، وانتقم لي منهم، وما دعا عليهم إلا بعد يأسه عن إيمانهم.

---

(١) في المخطوط (هو).

(٢) أي: لي.

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ ....

روي أنه يدعو كل واحدٍ منهم جمعاً وفرادى، فيضربونه ويخنقونه حتى خر مغشياً عليه، ثم لما أفاق قال: اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون.

وبعد ما قنط وبلغ الزجر غايته تضرع نحونا مشتكياً من قومه:

﴿فَفَتَحْنَآ﴾ لانتقامهم وهلاكهم ﴿أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ منصبٍ كأنه يجري من جانب السماء ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي فجرنا عيون الأرض وصيرناها كأنها عيوناً كلها ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ الحاصل من كلا الجانبين وبلغا ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ﴾ حالٍ واحدٍ ﴿قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ أي قدَّره الله في حضرة علمه وقضائه لإهلاك أولئك الطغاة البغاة.

﴿وَ﴾ بعد ما طغى الماء وطاف حول الأرض ﴿حَمَلْنَاهُ﴾ أي نوحاً ومن تبعه ﴿عَلَىٰ﴾ سفينةٍ ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾ أخشابٍ عراضٍ ﴿وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ مسامير طوال ﴿تَجْرِي﴾ السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ وكنف حفظنا وحضانتنا، وإنما فعلنا مع نوح وقومه ما فعلنا ليكون ﴿جَزَآءً﴾ حسناً له ولمن آمن به، وسيئاً ﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ بنعمة هدايته وإرشاده، ولم يؤمن بدينه، ولم يصدقه في تبليغه.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾ أي السفينة والفعلة التي فعلناها مع المكذبين لرسلنا المجترئين علينا بالإنكار والكفران ﴿ءَايَةً﴾ دالةً على قدرتنا على أنواع الإنعام والانتقام ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ يتذكر بها ويعتبر منها. وبالجملة

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي ﴾ للمنكرين المصرين على الإنكار والتكذيب ﴿ وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾ أي إنذاري وتخويفي على من يعتبر منهم، ومما جرى عليهم من العقوبات ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ وسهَّلناه ﴿ لِلذِّكْرِ ﴾ أي لأنواع التذكيرات والمواعظ والعبر والأمثال ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ يتعظ به، ويتذكر مما فيه، ويعتبر.

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ كذلك هوداً عليه السلام ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي ﴾ إياهم ﴿ وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ ﴾ وإنذاري لمن بعدهم بما جرى عليهم

﴿ إِنَّآ ﴾ بمقتضى عظيم قهرنا وجلالنا ﴿ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ حين أردنا انتقامهم وإهلاكهم ﴿ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ بارداً شديد الجري والصوت ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ شؤمٍ منحوس ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾ شؤمه ونحوسه عليهم، إلى أن يُستأصلوا بالمرة. ومن شدة جريها وحركتها.

﴿ تَنزِعُ ﴾ وتقلع ﴿ ٱلنَّاسَ ﴾ عن أماكنهم مع أنهم دخلوا في الحفر وتشبثوا بالأثقال ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ ﴾ أي أصول نخلٍ ﴿ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ منقلبٍ عن مغارسه ساقطٍ على الأرض موتى بلا روحٍ.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي ﴾ إياهم ﴿ وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ ﴾ أي لمن بعدهم.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ....

﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ يَسَّرْنَا﴾ أي سهّلنا وأنزلنا ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ المعجز ﴿لِلذِّكْرِ﴾ والاتعاظ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ متذكرٍ يتعظ به.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ أي الإنذارات الصادرة من لسان صالح عليه السلام بمقتضى الوحي والإلهام الإلهي ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ في تعليل تكذيبهم على الرسول: ﴿أَبَشَرًا﴾ ناشئاً ﴿مِّنَّا﴾ أي من جنسنا ﴿وَٰحِدًا﴾ منفرداً، لا تبع له ولا رهط ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ نؤمن به ونُقاد له، مع أنه لا مزية له علينا، لا بالحسب ولا بالنسب، واللهِ ﴿إِنَّآ﴾ إن فعلنا هكذا ﴿إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾ عظيمٍ وغوايةٍ بعيدةٍ عن مقتضى العقل والدراية ﴿وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾ أي كنا في جنونٍ عظيمٍ بمتابعة هذا المرذول المفضول.

ثم استفهموا على شدة سبيل الإنكار والاستهزاء والاستبعاد والمراء: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ﴾ الوحي والكتاب من السماء ﴿عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ من كمال رذالته ورداءته، والحال أن فينا من هو أحق به وأولى منه، وبالجملة ما هو بمقتضى حلمه إلا مجنونٌ مخبطٌ، مختلُ العقل والرأي ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ﴾ متبالغٌ في الكذب والافتراء غايته ﴿أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾ بطِرٌ متناهٍ في الشرارة، يريد بافترائه واختلافه هذا أن يتكبر علينا، ويتفوق بنا، مع كمال تناهيه في الرثاثة والرذالة. وبالجملة ما هو إلا من كمال بطره وشرارته. وهم يقولون في حقه ما يقولون

سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ ....

من أمثال هذه الهذيانات والمفتريات الباطلة إلا أنهم ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ حين نزول العذاب العاجل والآجل ﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ البطِر المباهي ببطره، حيث أعرض عن الحق وأصر على الباطل اغتراراً؟ أصالح هو أم من كذّبه وأنكر عليه قوله؟!

ثم قال سبحانه لنبيه صالح عليه السلام ، بعد ما بالغوا في العتو والعناد، واقترحوا منه بإخراج الناقة من الصخرة تهكماً وتعجيزاً:

﴿إِنَّا﴾ بمقتضى كمال قدرتنا وقوتنا ﴿مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ ومخرجوها من الصخرة وباعثوها ﴿فِتْنَةً﴾ عظيمةً واختباراً ﴿لَّهُمْ﴾ وأوصاهم في شأنها ما أوصاهم ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ يا صالح، وانتظر ماذا يفعلون بها ﴿وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾ على أذياتهم.

﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ أخبِرهم وأعلمْهم بوحيٍ منا ﴿أَنَّ ٱلْمَآءَ﴾ الذي به معاشهم ومعاش مواشيهم ﴿قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ أي مقسومةٌ بين الناقة، وبينهم ومواشيهم، لها يومٌ، ولهم يوم ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ أي كل صاحبِ شربٍ، يحضر الماء في يومه، ولا يحضره غيره فيه.

ثم لما صاروا على هذه القسمة زماناً، اضطروا وتضجروا

﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾ قدار بن سالف، فتشاوروا معه في أمر الناقة واضطرارهم ومواشيهم في هذه القسمة ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ وأخذ سيفه قدار مغاضباً، وكان مِن

فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ

أجرئهم على الخطوب وأشجعهم على الوقائع ﴿ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾ أي قدار الناقة، ولم يبال بالقسمة الإلهية ﴿ فَكَيْفَ كَانَ ﴾ يعني: انظر كيف وقع ﴿ عَذَابِى ﴾ عليهم ﴿ وَ ﴾ لحق ﴿ نُذُرِ ﴿٣٠﴾ ﴾ إياهم، بعد ما عقروا الناقة. وبالجملة:

﴿ إِنَّآ ﴾ بمقتضى قهرنا وغضبنا ﴿ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ هائلةً مهولةً ﴿فَكَانُوا۟ ﴾ إثر سماع تلك الصيحة الهائلة ﴿ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ ﴾ أي مثل الأشجار اليابسة البالية في حظائر الأموات، تتناثر أجسامهم كالتراب .

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ لَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ المشتمل على أنواع الرشد والهداية ﴿ لِلذِّكْرِ ﴾ والعظة ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ يتذكر ويهتدي بهدايته وتذكيره.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ ﴾ أيضاً أمثال أولئك المذكورين ﴿ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ ﴾ أي الإنذارت الواردة عليهم بلسان نبيهم لوط عليه السلام، وبعد إصرارهم على تكذيبه وإنكاره .

﴿ إِنَّآ ﴾ من شدة قهرنا وغضبنا ﴿ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ من جانب السماء ﴿حَاصِبًا ﴾ ريحاً شديداً صرصراً عظيمةً، ترميهم بالحصباء، أي الأحجار الصغار إلى أن هلكوا بالمرة ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ﴾ هو لوط عليه السلام وبنتاه ﴿ نَّجَّيْنَٰهُم ﴾ من هذه الواقعة الهائلة والكرب العظيم ﴿ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ وقت الصبح. وإنما نجيناهم ﴿ نِّعْمَةً ﴾ واصلةً ﴿ مِّنْ عِندِنَا ﴾ إياهم ورحمةً شاملةً من لدنا عليهم، بسبب

كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ ....

إيمانهم وعرفانهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما فعلنا مع آل لوط ﴿نَجْزِي﴾ بمقتضى جودنا عموم ﴿مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾ لنعمنا، ولم يكفر بموائد كرمنا.

﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ لوطٌ عليه السلام بوحي منا إياه ﴿بَطْشَتَنَا﴾ وأخذَنا إياهم بسبب فعلتهم القبيحة وديدنتهم الشنيعة ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾ أي كذبوه على إنذاراته ووعيداته مراءً ومجادلةً، واستهزاءً معه وبعموم ما أوحينا إليه من الوعيدات والإنذارات.

﴿وَ﴾ من شدة مرائهم معه واجترائهم ﴿لَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾ وترددوا حول بيته، وقصدوا فجور أضيافه، ويمموا على تفضيحهم ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ ومسخناها، وصيرناها مستويةً مع وجوههم، فصاروا ممسوحي العيون.

روي أنهم لما دخلوا عنوةً في داره، صفقهم جبريل صفقةً، فأعماهم دفعةً ﴿فَذُوقُوا﴾ أي فقلنا لهم حينئذٍ: ذوقوا ﴿عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾ المنذر به على لسان نبينا لوط عليه السلام.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم﴾ ولحق بهم ﴿بُكْرَةً﴾ قريبةً من الصبح ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾ مستمرٌ[1] عليهم إلى أن يستأصلهم ويسلمهم إلى النار.

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي﴾ أي قلنا لهم حينئذٍ: ذوقوا عذابي أيها المفسدون المسرفون ﴿وَ﴾ ذوقوا ﴿نُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾ أي أيها المنكرون المكذبون.

---

(١) في المخطوط (مستمرة).

وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ ....

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ لَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ المبين لأنواع الوعيدات الهائلة الجارية على أصحاب السرف والعناد ﴿لِلذِّكۡرِ﴾ أي للعبرة والعظة ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٤٠﴾﴾ معتبرٍ متعظٍ متيقظٍ، يعتبر من وعيدات القرآن وإنذاراته، وما ذُكر فيه من الحكايات.

ثم قال سبحانه:

﴿ وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾ أي الإنذارت الواردة منا، على كليمنا موسى، المؤيَّد من لدنَّا بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة، وبالجملة ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ المنزلة من عندنا كلها بعد اقتراحهم بها وإلحاحهم عليها، ونسبوها إلى السحر والشعبذة وأنواع الخرافات الباطلة البعيدة عن شأنها ﴿كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ﴾ وانتقمنا عنهم بعد ما بالغوا في العتوّ والعناد ﴿ أَخۡذَ عَزِيزٖ ﴾ غالبٍ لا يُغالَب مطلقاً ﴿مُّقۡتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ كاملٍ في القدرة، بحيث لا يعجز عن مقدورٍ قط، واستأصلناهم إلى حيث لم يبق منهم أحدٌ على وجه الأرض.

ثم خاطب سبحانه كفار مكة على سبيل التوبيخ والتهديد فقال:

﴿ أَكُفَّارُكُمۡ﴾ يا معشر العرب ﴿خَيۡرٞ﴾ وأفضل مطلقاً ﴿ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ ﴾ الكفار المعدودين المذكورين وجاهةً وثروةً، مالاً ومظاهرةً، مكنةً ومكانةً، ثم إنكم لستم أمثالهم وهم من شدة قوتهم وشوكتهم، ما نجوا من عذاب الله، أتنجون

أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ

أنتم؟ ﴿أَمْ﴾ نزل ﴿لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ السماوية والكتب الإلهية، إن من كفر منكم، وخرج عن مقتضى الحدود الإلهية، فهو ناجٍ من عذاب الله، بريءٌ عن انتقامه؟!.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ من كمال حماقتهم وركاكة رأيهم ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾ أي نحن جماعة مجتمعون متفقون، أمرنا واحدٌ، رأينا متفقٌ، ننصر وننتصر بعضنا ببعض، بحيث لا نُغالَب ولا نُرام أصلاً.

ومن كمال بطرهم وغرورهم يقولون هذا، ولم يعلموا أنه:

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ أي يفرق جنس الجموع على وجه الهزيمة ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ أي ينصرف كلٌّ منهم عن عدوه مستدبراً إياه في الدنيا.

﴿بَلِ السَّاعَةُ﴾ الموعودة ﴿مَوْعِدُهُمْ﴾ العظيم[1]؛ لتعذيبهم وتفضيحهم الحقيقي الأصلي المعنوي والصوري، وما عُرض عليهم في الدنيا، فمن مقدمات ما سيلحقهم من العقبى ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿السَّاعَةُ﴾ والعذاب الموعود فيها ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ﴾ أشدّ وأفظع، ودواهيها لا دواء لها، ولا نجاة منها ﴿وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ مذاقاً من عذاب الدنيا، بل بأضعافه وآلافه. وبالجملة:

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ المتصفين بالجرائم المستلزمة للخروج عن الحدود الإلهية وعن مقتضى الأوامر والنواهي المنزلة من عنده ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ عن الحق

---

(١) في المخطوط (العظمى).

وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ ....

وأهله في العاجل ﴿وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ نيرانٍ مسعرةٍ معدةٍ لهم في الآجل، اذكر لهم يا أكمل الرسل:

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ ويجرون ﴿فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ صاغرين مهانين، فيقال لهم حينئذٍ: ﴿ذُوقُوا۟﴾ أيها المسرفون المفسدون ﴿مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ أي مساس جهنم وشدة حرها وحرقها، بدل ما يتنعمون في دار الدنيا بلذاتها الشهية وشهواتها البهية البهيمية، وكيف لا ندخل المجرمين في دار القطيعة، ولا نسحبهم نحوها مهانين، فإنهم قد خرجوا عن مقتضى تدابيرنا وأوضاعنا الناشئة منا على مقتضى الحكمة المتقنة البالغة المعتدلة.

﴿إِنَّا﴾ بمقتضى كمال علمنا وشمول قدرتنا وإرادتنا المقتضية للحكم والمصالح خلقنا وأظهرنا ﴿كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ﴾ وأظهرناه من كتم العدم مقروناً ﴿بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ أي بمقدارٍ نقدره في حضرة علمنا ولوح قضائنا، ونرتب على المقدار المقدَّرِ وجودَ المقدور المخلوق، فنظهره على وفقه.

﴿وَ﴾ لا تستبعدوا من حيطة حضرة علمنا وقدرتنا الكاملة تفاصيل عموم المظاهر والمخلوقات، وترتب وجوداتها على مقاديرها المقدرة لها في لوح قضائنا، إذ ﴿مَآ أَمْرُنَآ﴾ وحكمُنا الصادر المبرم منّا في السرعة والمَضاء بالنسبة إلى عموم الكوائن والفواسد الواقعة في عموم الأزمنة والآناء، بل بالنسبة إلى جميع الخواطر والخواطف الواردة على القلوب، وإلى جميع الاختلافات

إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ ......

الواقعة في حركات العروق الضوارب في هياكل الهويات، بل بالنسبة إلى ما في الاستعدادات والقابليات ﴿إِلَّا﴾ فعلةٌ ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ بلا ترتبٍ وتراخٍ، وتوقفٍ ومهلةٍ ﴿كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ أي كنظرةٍ سريعةٍ بالطَّرف، هيهات هيهات، والله ما هذا التمثيل لسرعة نفوذ القضاء الإلهي إلا بحسب أحلام الأنام وبمقتضى أفهامهم وأوهامهم السخيفة، وإلا فلا يكتنه سرعة قضائه أصلاً، حتى يُمثَّل ويُشبَّه.

ثم قال سبحانه على سبيل الوعيد والتهديد: وكيف لا تخافون أيها المسرفون المفرطون عن شدة بطشنا وانتقامنا؟!

﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ﴾ واستأصلنا ﴿أَشۡيَاعَكُمۡ﴾ أشباهكم وأمثالكم في الكفر والعناد وأنواع الفسوق والفساد بأصناف العقوبات والبليات الهائلة ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٥١﴾﴾ متذكرٍ يتعظ بإهلاكهم وهلاكهم، وبما جرى عليهم من الشدائد.

﴿وَ﴾ كما عذبناهم بجرائمهم وآثامهم في النشأة الأولى، كذلك بل بأضعافها وآلافها نعذبهم في النشأة الأخرى أيضاً بها إذ ﴿كُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ﴾ في ما مضى وصدر عنهم في النشأة الأولى محفوظٌ مثبتٌ ﴿فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ أي في مكاتب الحَفظة المراقبين عليهم في عموم أحوالهم وأطوارهم.

﴿وَ﴾ كيف لا يُحفظ إذ ﴿كُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ﴾ وقليلٍ وكثيرٍ على التفصيل ﴿مُّسۡتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ مسطورٍ على التفصيل في اللوح المحفوظ أولاً، وفي

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾

صحائف أعمالهم ثانياً، وبالجملة لا يعزب عن حيطة علمه شيءٌ من أعمالهم وأقوالهم وأطوارهم وأحوالهم مطلقاً.

ثم عقب سبحانه وعيد المجرمين بوعد المؤمنين فقال:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ المتحفظين نفوسهم عن المحرمات والمنهيات، متنعمون ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ متنزهات العلم والعين والحق ﴿وَنَهَرٍ ۝٥٤﴾ جداول جارياتٍ منتشئاتٍ من بحر الحياة اللدنية المتجددة حسب تجددات دار التجليات الإلهية متمكنون ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ هو مقام التسليم والرضا بمقتضيات القضاء ﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾ يملكهم ويتكفل بأمورهم[1] وجميع حوائجهم ﴿مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾ على تدابيرها بمقتضى الحكمة المتقنة.

جعلنا الله من زمرة المتقين المتمكنين في مقعد الصدق عند المليك المقتدر العليم الحكيم.

(١) في المخطوط (لأمورهم).

خاتمة السورة

عليك أيها المريد القاصد للتمكن في مقعد الصدق، والمتحقق في مرتبة اليقين الحقي، وفقَّك الله الوصول إلى غاية مقصدك ومرامك: أن تنقّي نفسك عن مطلق المحظورات والمنهيات المنافية لسلوك طريق الحق والتوحيد، من الرياء والرعونات المنتشئة من ظلمات الطبيعة والهيولى المتفرعة على التعينات العدمية المستلزمة للكثرة الوهمية المنافية لصرافة الوحدة الذاتية الإلهية، وتلازمَ العزلة والفرار عن الدنيا الدنية وأمانيها مطلقاً، وتقنع منها بضرورياتها المقومة لهيكل هويتك الظاهرة لمصلحة المعرفة والتوحيد، حتى يتيسر لك الوقوف بين يدي ملِكٍ مقتدرٍ متوحدٍ في الوجود والقيومية.

ثبتنا بلطفك على نهج اليقين والتمكين، وجنبنا بجودك عن أمارات التخمين والتلوين، يا ذا القوة المتين.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ ....

فاتحة سورة الرحمن

لا يخفى على من تحقق بفسحة قلب الإنسان المصوَّر على وسعة عرش الرحمن: أن حكمة خلق الإنسان على فطرة المعرفة والإيمان وتعلم القرآن عليه إنما هو للتبيان والبرهان على ثبوت خلافته ونيابته للحق، وتنبيهه برفعة درجة علو شأنه ومكانته بين عموم الأكوان الكائنات.

لذلك قال سبحانه في مقام الإنعام والامتنان عليه تنبيهاً له وتعليماً، بعد ما تيمن باسمه الأعز الأعلى:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي ظهر على قلب الإنسان لينكشف له ذاته سبحانه وكمال أسمائه وصفاته ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عليه بترجمان اللسان والبيان المعرِب عما في قلبه ليرشد غيره بما هو عنده ويسترشد منه ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ المنزل عليه القرآن المبين له طريق توحيد الحق وعرفانه.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾﴾ أي الذات المحيطة[1] بعموم الأعيان بالرحمة العامة الواسعة، وبمقتضى سعة رحمته ووفور لطفه ورأفته.

﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾ لنوع الإنسان ونزّل على خاصة خلقه، ليكون مبيناً

(١) في المخطوط (الذات المحيط).

خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ ....

لهم سبيل الكشف والعيان ونهج التوحيد والعرفان، مع أنه لمّا ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾﴾ سبحانه لأجل هذا الشأن البديع البرهان، ولهذه الحكمة والمصلحة أيضاً بعينه.

﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ أي التنطق والتكلم بلغاتٍ شتى وعباراتٍ لا تُحصى؛ ليستفيد من منطوقات الألفاظ ما هو معناها، ويتفطن منها إلى ما هو مغزاها ومرماها وغاية قصواها، ألا وهي المعارف والحقائق والحِكَم والأسرار الإلهية المودَعة المكنونة في مطاوي حروف المصاحف والكلمات الحاصلة من مقاطع الأصوات المتكونة من لوازم الحياة الحقيقية المترتبة على النفسات الرحمانية والنفثات اللاهوتية الثابتة للوجود المطلق حسب تجليات الذات الإلهية وعلى مقتضى الأسماء والصفات الذاتية الكامنة فيها، المتجلية عليها بمقتضى الشؤن والكمالات الغير المتكررة إلى ما لا يتناهى أزلاً وأبداً، ليظهر للإنسان سر الظهور والبطون، والغيب والشهادة الواردة على الوحدة الذاتية الإلهية، ولهذه المصلحة أيضاً ظهر في العلويات:

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾ أي يجريان ويدوران بحسابٍ مقدرٍ من عنده سبحانه معلومٍ في حضرة علمه، ليكونا دليلين شاهدين على ظهور مرتبتي النبوة والولاية المقتبسة من مشكاة النبوة المتفرعة على العدالة الذاتية الإلهية ﴿وَ﴾ أيضاً أظهر في السفليات لتلك المصلحة العلية ﴿ٱلنَّجْمُ﴾ أي النبات الذي لا ساق له ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ وهو الذي له ساق ﴿يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾ يخضعان

وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾

ويتذللان له سبحانه دائماً من كمال الإطاعة والانقياد.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ أي عالم الأسباب والأقدار ﴿رَفَعَهَا ﴿٧﴾﴾ في أعلى المكان والمكانة ﴿وَوَضَعَ﴾ فيها ﴿ٱلْمِيزَانَ﴾ المعتدل المنبئ عن القسطاس المستقيم الإلهي الواقع بين الأسماء والصفات الذاتية، وعيَّن المقادير والآجال المقدرة لجريها، ورتَّبها على دورها وانقلاباتها الواقعة فيها على وفق الحكمة المترتبة على العدالة الإلهية.

وإنما رتبها على مقتضى الحكمة والعدالة ﴿أَلَّا تَطْغَوْاْ﴾ أي لئلا تعتدوا وتتجاوزوا أيها المجبولون لمصلحة التكليف والعرفان على مقتضى الوحي الإلهي المترتب على الحكمة البالغة المتقنة في الأرض ﴿فِي ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾ الموضوع بمقتضاها، ألا وهي الشرع الشريف.

﴿وَ﴾ بعد ما سمعتم حال العلويات والسفليات وما فيهما من الموازين المعتدلة الموضوعة بالوضع الإلهي ﴿أَقِيمُواْ﴾ أيها المكلفون فيما بينكم ﴿ٱلْوَزْنَ﴾ واعتدلوه ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ والإنصاف ﴿وَلَا تُخْسِرُواْ﴾ ولا تُنقصوا ﴿ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ إذ هو موضوع على العدل السوي.

﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ إنما ﴿وَضَعَهَا﴾ ومهّدها سبحانه ﴿لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾ ليعتدلوا عليها، ويستقيموا عموم أخلاقهم وأطوارهم فيها، حتى يستعدوا لأن يفيض عليهم طلائع سلطان الكشف والشهود، فيفوزوا

فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ....

بمقر التوحيد، ويتمكنوا في مقعد الصدق والتفريد.

لذلك أعد لهم سبحانه تفضلاً عليهم وتكريماً:

﴿ فِيهَا فَٰكِهَةٌ ﴾ كثيرةٌ يتفكهون بها من أنواع الفواكه تقويماً لأمزجتهم وتقويةً لها ﴿وَ﴾ لا سيما ﴿ ٱلنَّخْلُ ﴾ التي هي ﴿ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ ﴾ والأوعيةِ المشتملةِ على التفكه والتقوُّتِ لسائر الأغراض الحاصلة منها.

﴿ وَٱلْحَبُّ ﴾ [التفسير جرى على قراءة ابن عامر: ﴿وَالحَبَّ ذَا ٱلْعَصْفِ﴾ ﴿وَالحَبَّ﴾ أي وكذا أعدَّ لهم فيها جنس الحبوب التي يتقوت بها نوع الإنسان منها ﴿ ذُو ٱلْعَصْفِ ﴾ ﴿ذَا ٱلْعَصْفِ﴾أي التبن والقشور، إذ هو محفوظٌ فيها، مربى معها إلى أن يستوي وينضج، فيتقوت بحبه الإنسان وبعصفه المواشي، ﴿وَ﴾كذا ظهر لهم فيها بمقتضى جوده ﴿ ٱلرَّيْحَانُ﴿١٢﴾ ﴾ أي جنس الرياحين المشمومة المقوية لدماغ الإنسان، المصفية له عن الروائح الخبيثة والنفحات الكريهة.

ثم لما عد سبحانه نُبذاً من نعمه الشاملة على عموم الأنام، خاطب المكلَّفين منهم على سبيل الامتنان، وهم الثقلان المجبولان(١) على فطرة التوحيد واستعداد الإيمان والعرفان فقال:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا ﴾ ونعماء موجدكما ومربيكما ﴿تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ أيها

(١) في المخطوط (المجبولون).

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾

المغموران[1] في نعمه، المستغرقان في بحار جوده وكرمه، وكيف يسع لكما الكفران لنعم الله والطغيان عليه سبحانه؟! مع أنه:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ المصوَّر بصورة الرحمن، وقد خلقه ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ أي طينٍ يابسٍ له صلصلةٌ وصوتٌ ﴿كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ أي الخزف المتخذ من التراب الموقد بالنار، ومع دناءة منشئه ومادته، رفعه إلى حيث جعله خليفةً للحق، نائباً عنه، ومرآةً مجلوةً قابلةً لفيضان كمالات أسمائه وصفاته.

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ أي الجن وقدر وجودهم ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ من دخانٍ صافٍ حاصلٍ ﴿مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ موقدةٍ ملتهبةٍ مشتعلةٍ على وجه الحركة والاضطراب، ومع رداءة مادتها وكثافتها، جعله شبيهاً بالملأ الأعلى، متصفاً بها في كمال اللطافة والصفاء، إلى حيث لا يُرى أشباحهم كالملائكة.

وإذا كان شأن الحق معكما هكذا ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾ وتنكران أيها الثقلان.

وكيف يليق بشأنه سبحانه الإنكار والتكذيب؟ مع أنه سبحانه ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي مشرقي الظهور والبروز من عالم العماء واللاهوت إلى فضاء الأوصاف والأسماء المسمى بالغيب والأعيان الثابتة، ثم منها إلى عالم الشهادة في السير الهابط ﴿وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ أي مغربي الخفاء والبطون عن عالم الناسوت إلى برزخ الأعيان الثابتة، ثم عنها إلى عالم اللاهوت في السير

(١) في المخطوط (المغمورون).

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ....

الصاعد، إذ يتوالد دائماً على شمس الحقيقة الحقية الذاتية باعتبار تجلياتها حسب أسمائها وصفاتها شروقٌ وأفولٌ، وطروقٌ طلوعٌ وغروبٌ، وبالجملة.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾ أيها المظهران الكاملان المجبولان على فطرة الشعور والعرفان.

ومن أنى يتأتى التكذيب في شأنه سبحانه إذ هو بمقتضى قدرته:

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ أي أرسل وأطلق بحر الوجود والعدم إلى حيث ﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ ﴾ أي يتمازجان ويختلطان، بحيث لا يتمايزان عند المحجوب الفاقد عن الكشف والشهود.

ويبقى ﴿ بَيْنَهُمَا ﴾ عنايةً منه سبحانه ﴿ بَرْزَخٌ ﴾ هو الإنسان الكامل المنكشف بكيفية انبساط بحر الوجود العذب على بحر العدم المالح، وامتداده عليه وانطباق سطوحهما بحيث لا يتمايزان عند المحجوب الفاقد عين العبرة وبصر البصيرة، وجعل سبحانه برزخ الإنسان الكامل على مقتضى الحكمة المعتدلة بحيث ﴿ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي لا يبغي ويغلب كل من يجري الوجود والعدم على صاحبه في مرتبته ونشأته، حتى يبطل حكمة الظهور والبطون، والجلاء والخفاء، والألوهية والعبودية، وسائر المتقابلات المترتبة على الشؤون الإلهية المتفرعة على الأسماء الذاتية.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ ﴾ أيها المكلفان المعتبران.

وكيف لا تعتبران ولا تشكران نعمه ؟!.

مع أنه ﴿ يَخْرُجُ ﴾ حسب عنايته الأزلية ﴿ مِنْهُمَا ﴾ أي من البحرين المذكورين

ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ

﴿ ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾ أي يخرج لكما أيها الثقلان المجبولان على فطرة الإيمان من امتزاج البحرين المذكورين لآلىء المعارف والحقائق، ومرجان الشهود والإيقان.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ ﴾ أيها الممنونان المغموران المستغرقان في موائد كرمه.

﴿وَلَهُ ﴾ سبحانه تفضلاً على عباده وامتناناً لهم ﴿ٱلْجَوَارِ ﴾ أي سفن الملل والأديان المنزَّلة من عنده سبحانه على عموم الرسل والأنبياء؛ ليُرشدوا بها أممهم إلى طريق التوحيد والعرفان ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ ﴾ المصنوعاتُ المستحدثاتُ ﴿فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ أي بحر الوجود ﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ أي كالرواسي العظام التي يُعلم ويُشار بها للتائهين في بيداء الوجود، الضالين في صحراء الجحود، إلى جادة اليقين والعيان [في نسخة: والعرفان].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾ أيها المكلفان.

وبالجملة ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا ﴾ أي على أرض القوابل والهيولى من التعينات المستتبعة لأنواع الإضافات، الحاصلة من تموجات بحر الوجود وتجلياته بمقتضى الكرم والجود، إنما هو ﴿ فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ لا وجودَ ولا تحقق لها في ذواتها أصلاً، سوى أنها انبسط عليها أظلال الأسماء والصفات الإلهية.

﴿وَ ﴾ بعد فناء نقوش الأمواج والأظلال بأسرها ﴿يَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ يا أكمل

ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ ....

الرسل بمقتضى صرافة وحدته، مستغنياً في ذاته عن عموم مظاهره ومخلوقاته، إذ هو سبحانه ﴿ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ لا يشارَك في وجوده ولا يُنازع في سلطانه، فمآل الكل إليه، كما أن مبدأه منه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

وإذا كان شأنه سبحانه هذا

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾ أيها الأظلال الهلكى؟.

وبالجملة ﴿ يَسۡـَٔلُهُۥ﴾ ويستمد منه في كل زمان وآنٍ، ويستظل تحت ظل جود وجوده كلٌّ ﴿ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ من فواعل المظاهر وقوابلها، إذ ﴿ كُلَّ يَوۡمٍ﴾ وآنٍ ﴿ هُوَ﴾ سبحانه ﴿ فِي شَأۡنٖ ﴿٢٩﴾﴾ لا يسبقه شأنٌ، ولا يلحقه شأنٌ مثلُه، فكلٌّ من المظاهر الإلهية في كل آنٍ وطرفةٍ في خلع صورةٍ ولبس أخرى حسب شؤون الحق وسرعة نفوذ قضائه.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾ أيها المجبولان على فطرة الدراية والشعور.

ثم لما عد سبحانه على عموم المكلفين نبذاً من نعمه العظام على سبيل التنبيه والامتنان، أراد أن يشير إليه ويبينه عليهم بالقيام على أداء حقوقها ومواظبة شكرها؛ لئلا يغفلوا[1] من الله، ولا يستحيوا عند الحساب في يوم الحشر والجزاء، فقال:

﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ﴾ نتجرد ونخلو لحسابكم وتنقيد أعمالكم وجزائكم على

(١) في المخطوط (ينفعلوا).

أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾

مقتضاها ﴿ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ ﴾ المثقلان بشكر نعمنا، وأداء حقوق كرمنا، ومتى سألناكما عن أعمالكما:

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ ﴾ وتنكران؟ مع أنا ما خفي علينا شيءٌ من أعمالكم مطلقاً، لا من كفرانكم وعصيانكم، ولا من شكركم وإيمانكم.

ثم قال سبحانه منادياً لهم على وجه التوعيد والتوبيخ والتهديد:

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ المجبولين على فطرة التكليف بمقتضى الحكمة البالغة عليكم أن تنقادوا وتطيعوا بعموم ما كلفتم به المثمر لحكمة المعرفة واليقين إلا ﴿ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ وقدرتم ﴿ أَن تَنفُذُوا۟ ﴾ وتخرجوا فارين عن مقتضيات قهرنا وغضبنا ﴿ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي من جهة العلويات والسفليات ﴿ فَٱنفُذُوا۟ ﴾ واخرجوا مع أنكم ﴿ لَا تَنفُذُونَ ﴾ ولا تقدرون على الخروج ﴿ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ أي بقدرةٍ واقتدارٍ موهوبةٍ لكم من قِبل ربكم، إذ لا يصدر منكم مطلق الأفعال والحركات إلا بإقداره وتمكينه سبحانه.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ ﴾؟!.

وكيف تنفذون وتفرون من حيطة قدرته وجلاله؟

إذ ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا ﴾ في النشأة الأخرى جزاءً لأعمالكما ﴿ شُوَاظٌ ﴾ لهبٌ مشتعلٌ ﴿ مِّن نَّارٍ ﴾ موقدةٍ مسعرةٍ ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ أي دخانٌ مظلمٌ حاصلٌ منها، وبالجملة ﴿ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ ﴾ ولا تمتنعان عنهما، ولا تدفعانهما بحولكما،

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ ....

إلا بعنايةٍ ناشئةٍ من الله وفضلٍ يدرككم من لدنه.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾؟!.

وعليكم أن تشكروا آلاء الله وتواظبوا على أداء حقوق نعمائه قبل حلول يوم الجزاء وبعده يوم الحشر.

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ واندكت الأرض من خشية الله ورهبته ﴿فَكَانَتْ﴾ السماء من كمال غضب الله ﴿وَرْدَةً﴾ حمراءَ مذابةً ﴿كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ أي تذوب كالدُّهن المذاب من شدة الخشية الإلهية، فلا يمكنكم حينئذٍ التدارك والتلافي.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾؟!.

حيث يخبركم بالتهيئة والتدارك قبل حلول الساعة، بل ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي حين انشقاق السماء ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ أي لا يُسئل حينئذٍ لا عن ذنبِ الإنس ولا على عن ذنب الجان، ولا يُلتفت إلى أعمالهما وأفعالهما، بل يُبعثون من قبورهم، ويُساقون نحو المحشر حيارى تائهين للحساب والجزاء، فاعتنى سبحانه بشأنكم ونبهكم على إعداد الزاد قبل يوم المعاد.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾؟!.

يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ....

وكيف لا تعتادون ولا تتزودون ليومكم هذا، إذ

﴿ يُعْرَفُ ﴾ ويُعلم يومئذ ﴿ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ المهمِلون لأمر الزاد، المتصفون بالجرائم المستلزمة للانتقام ﴿ بِسِيمَٰهُمْ ﴾ إذ يظهر حينئذٍ آثار الكآبة والحزن على وجوههم ﴿ فَيُؤْخَذُ ﴾ بعد الخطاب والحساب ﴿ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾ أي يشد أعناقهم مع أرجلهم بالسلاسل، ثم يطرحون[1] في النار بأنواع الهوان والصغار، فيخبركم ربكم بالخلاص عنها قبل حلول أوانها.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؟!

فيقال لهم حين إلقائهم إليها مشدودين مهانين، زجراً لهم وتوبيخاً:

﴿ هَٰذِهِۦ ﴾ النار التي تصْلَون فيها ﴿ جَهَنَّمُ ﴾ الموعودةُ المعدةُ ﴿ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ وقت إخبار الله إياهم على ألسنة رسله وكتبه، فالآن:

﴿ يَطُوفُونَ ﴾ ويترددون ﴿ بَيْنَهَا ﴾ أي بين النار ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ ﴾ ماءٍ حارٍ ﴿ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ متناه في الحرارة، إلى حيث يغلب إحراقه وحرارته على النار المسعرة، فأراد سبحانه إنقاذكم منها بإرسال الرسل وإنزالِ الكتب.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾ أيها المجبولان على الكفران والنسيان:

ثم قال سبحانه على مقتضى سُنَّته المستمرة في كتابه من تعقيب الوعيد بالوعد:

---

(١) في المخطوط (يطرح).

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ ....

﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾ من كلا الفريقين، أي من مكلفي الجن والإنس في النشأة الأولى ﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي خاف عن قيامه بين يدي ربه في النشأة الأخرى للعرض والجزاء، واشتغل في هذه النشأة لإعداد ذلك اليوم، وتهيئة أسبابه من اكتساب الحسنات وترك السيئات من الأخلاق والاعتقادات وصوالح العبادات والطاعات المقبولة يومئذ عند الله على مقتضى ما أمرهم الحق ونهاهم عنه بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ معدتان لكل خائفٍ عند ربه جنةً جسمانيةً، يتلذذ فيها بدل ما ترك من اللذات الدنيوية وشهواتها الفانية اتقاءً عن الله، وجنةً روحانية عنايةً من الله وفضلاً من «مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ»[1] الحديث.

وبالجملة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ أيها المكلفان؟! والجنتان المذكورتان

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾ أنواعٍ وأصنافٍ من الأشجار المثمرة بالأثمار البهية والفواكه الشهية، وأنواعٍ من المعارف والحقائق المثمرة للحالات العلية والمقامات السنية.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾ ؟!.

---

(١) متفق عليه ولفظ البخاري : (عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول اللهِ ﷺ: قال الله تعالى : أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ ما لَا عَيْنٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ، فاقرؤوا إن شِئْتُمْ ﴿فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لهم من قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ صحيح البخاري [٣/ ١١٨٥رقم / ٣٠٧٢ / باب:ما جاء في صفة الجنة] وصحيح مسلم [٤/ ٢١٧٤ رقم / ٢٨٢٤ / كتاب: الجنة ونعيمها وأهلها].

فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ ....

﴿ فِيهِمَا ﴾ أي في تلك الجنتين.

﴿ عَيْنَانِ ﴾ منتشئتان من بحر الحياة الإلهي، المتفرعتان على أسمائه وأوصافه الجمالية والجلالية ﴿ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ ﴾ بين يدي الخائف الملتجئ إلى الله على مقتضى التجليات الحبية.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا ﴾ أي في تلك الجنتين.

﴿ مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ ﴾ صنفان من المعارف والحقائق على مقتضى تربية العينان المذكورتان.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ ﴾ أيها المسخَّران تحت لطفه وقهره وجلاله وجماله.

ثم إنهم يتنعمون بما ذُكر من النعم العظام حال كونهم ﴿ مُتَّكِـِٔينَ ﴾ متمكنين راسخين على ﴿ عَلَىٰ فُرُشٍۭ ﴾ من الاعتقادات الراسخة ﴿ بَطَآئِنُهَا ﴾ أي وجوهها التي تلي قلوبهم وأرواحهم ﴿ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ ﴾ وهو الغليظ الصلب من الديباج، بحيث لا تخلل فيه ولا فرج، ألا وهو المثال لليقين الحقي الذي لا يطرأ عليه التردد والتذبذب مطلقاً، ﴿ وَ ﴾ بالجملة ﴿ جَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ ﴾ أي التلذذ والتنعم بثمارهما ﴿ دَانٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ قريبٍ، إذ لا ترقُّبَ ولا انتظارَ في اليقين الحقي، بل أقرب إلى العارف منه بعد ما وصل إليه.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؟!.

فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ....

﴿فِيهِنَّ﴾ أي في الجنان المعدة لأرباب العناية والامتنان مخدرات المعارف والحقائق الواردة على قلوبهم حسب استعداداتهم المتفاوتة ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي كل منهن منحصرةُ الطَّرف، مقصورةُ النظر على كل من هي ترد عليه، بحيث لا تتعدى إلى غيره؛ لاختلاف قابلياتهم حسب الفطرة الأصلية بمقتضى اختلاف تجليات الحق وشؤونه بحيث ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ ولم يتلذذ معهن ﴿إِنسٌ قَبْلَهُمْ﴾ ولا بعدهم ﴿وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾ كذلك، إذ مراتب الشهود على مقتضى تجليات الوجود وتطوراته، فكما لا تكرر ولا اتحاد بين اثنين في التجليات الإلهية، كذلك في مراتب أرباب الشهود القابلة لها، المستعدة إياها.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾؟!

﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ من كمال الصفاء الشفاء والجلاء ﴿ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ المسرتان لأرباب النظر والعيان.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾﴾. وبالجملة :

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ في الأعمال والأخلاق وعموم الشيم والأحوال ﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ من الله والرضوانُ منه سبحانه على سبيل التفضل والامتنان.

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾ ؟!

وهاتان الجنتان المذكورتان مع ما فيهما من المقامات العلية والدرجات السنية للخائفين من الله ومن سطوة قهره وجلاله في عموم أحوالهم وأطوارهم، المفوضين المتوكلين عليه سبحانه عموم أمورهم في مطلق شؤونهم وتقليداتهم، الراجين منه رضاه عنهم بمقتضى لطفه وجماله.

﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ أي من دون الجنتين المذكورتين وأدون منهما، وأنزل رتبة ﴿جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ أخريان أيضاً للأبرار المحسنين بالأخلاق والأعمال، المتشبثين بأذيال الأماني والآمال حسب الحوائج والأغراض.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾﴾ ؟!

فهاتان الجنتان وإن لم تكونا كتلك الجنتين المذكورتين في الأثمار والأشجار والمعارف والأسرار إلا أنهما.

﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ خضراوان نضارتان بمياه الأعمال الصالحة والأخلاق الحميدة الصادرة من الأبرار الأخيار، المتمسكين بشعائر الشرع ومعالم الدين المستبين.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾ ؟!

﴿فِيهِمَا﴾ أي في جنتي الأبرار ﴿عَيْنَانِ﴾ منتشئتان من الاعتقاد الصادق[1] والإيمان الكامل ﴿نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾ فوارتان، منتهيتان إلى بحر الحكمة

(١) في المخطوط (الصدق).

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ ....

المتقنة الإلهية.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾﴾ ؟!

﴿فِيهِمَا﴾ أيضاً ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ يتفكه بها أهلها ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ عطفهما على الفاكهة عطف الخاص على العام للاعتناء والاهتمام.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾ ؟!

﴿فِيهِنَّ﴾ أي في جنان هؤلاء الأبرار أيضاً ﴿خَيْرَٰتٌ﴾ أزواجٌ مصورة من مثوبات الأعمال والطاعات ﴿حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ لا قبحَ معهن بوجه من الوجوه.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾﴾ ؟!

ومثوبات أعمال الأبرار وأخلاقهم وما يترتب عليها، وإن لم تكن في الصفاء واللطافة كمخدرات الخائفين إلا أنهن

﴿حُورٌ﴾ حسنة الوجوه ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ أي مقصورٌ كلٌّ منهن على من أتى بالأعمال الصالحة والأخلاق المرضية، لا يتعدى إلى الغير، إذ كل نفس رهينةٌ ما كسبت، خيراً كان أو شراً .

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾﴾ أيها المكلفان الممنونان، وهؤلاء أيضاً ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾﴾ إذ كلٌّ منهن، إنما هي مقصورة على

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

أعمال كلٍ منهم بلا شركةٍ.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ ﴾ أيها المعتبران المستبصران؟!.

ثم إنهم أيضاً يتنعمون بما ذُكر لهم من النعم

﴿ مُتَّكِـِٔينَ ﴾ متقررين ﴿ عَلَىٰ رَفْرَفٍ ﴾ وسائد وبسطٍ ﴿ خُضْرٍ ﴾ مخضرةٍ بماء إيمانهم الخالص واعتقادهم الحق ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ ﴾ عجيبٍ معجبٍ، يتعجبون من ترتبها على أعمالهم وحسناتهم ﴿ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ لا يتبعها قبحٌ وخذلان.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ ﴾؟!.

فعليك يا أكمل الرسل ألا تستبعد عن الله القادر المقتدر على وجوه الإنعام والانتقام أمثال هذه الكرامات العلية على أرباب العناية والغفران، وتلك الدركات الهوية على أصحاب الغفلة والكفران.

إذ ﴿ تَبَٰرَكَ ﴾ أي جل وتعاظم وتعالى ﴿ ٱسْمُ رَبِّكَ ﴾ أي عموم أسماء مربيك الذي رباك يا أكمل الرسل محيطاً لعموم المراتب والمقامات عن أن ينتهي أو يتصف بالانتهاء والانقضاء، أو يغتر ويضعف دون مقدورٍ، بل لا نهاية لأسمائه الفعالة ومقتضياتها ﴿ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ أي ذي العظمة والكبرياء، الغالبِ على عموم الانتقام، وذي الجمال القادر المقتدر على وجوه الإكرام والإنعام.

خاتمة السورة

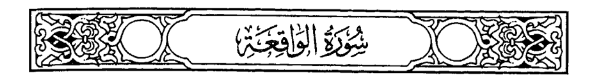
عليك أيها العارف المتحقق بعظمة الحق وجلاله، المتعطشُ بزلال وصاله: ألا تعزم في مطلق أحوالك إلى الكذب والإنكار بالنسبة إلى الله، ولا تنسب الحوادث الجارية في عموم الأقطار والأطوار إلا إلى الملك الجبار العزيز الغفار، ذي العظمة وكمال الاقتدار لأصناف الإنعام والإفضال، وأنواع العذاب والنكال.

فلك أن تلازم على شكر نعمه وأداء حقوق كرمه في عموم الأحوال.

وإياك إياك الغفلة عن الله، والاشتغال إلى ما سواه.

وكن في عموم أوقاتك وحالاتك بين يدي الله بين الخوف والرجاء، ولا تيأس من روح الله، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الخاسرون.

جعلنا الله من زمرة الخائفين من بطشه، الراجين من عفوه بمنِّه وجوده.



بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الواقعة

لا يخفى على أرباب التحقق والوصول إلى المبدأ الحقيقي من المنكشفين بوحدة الحق الحقيق بالحقية والتحقيق: أن مراتب عموم العباد في الرجوع نحو المبدأ والمعاد على أنحاءٍ مختلفةٍ وطرقٍ شتى لا تخلو[1] عن ثلاثةٍ:

بعضهم محجوبون بالحُجب الظلمانية الإمكانية المعبرة عنها، وإن كانت بالدنيا مغمورون مستغرقون بلذاتها وشهواتها، محرومون عن لذة الوصول والحضور مطلقاً، وهم أصحاب الشمال والشآمة الأزلية الأبدية.

وبعضهم محجوبون بالحجب النورانية المسماة بالآخرة، وما فيها من أنواع النعم وأصناف الكرم من اللذات الروحانية والجسمانية الموعودة لهم فيها تفضلاً وتكريماً، وهم أصحاب اليمين ذو اليُمن والبركة والكرامة السرمدية والسعادة الأزلية الأبدية.

وبعضهم منجذبون عن الحق بالكلية، منخلعون عن جلباب هوياتهم الناسوتية مطلقاً، فانون في الهوية الحقية اللاهوتية، باقون ببقائه، مستغرقون بمطالعة لقائه، وهم الشطّار السابقون إلى الله، السائرون نحوه، المنخلعون عن جلباب ناسوتهم بالمرة بلا التفاتٍ منهم أصلاً لا باللذات الدنيوية ولا بالأخروية.

---

(١) في المخطوط (لا غلو).

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ ....

وإلى هذه الفرق الثلاث أشار سبحانه في هذه السورة، وأخبر بها حبيبه ﷺ؛ ليكون على ذكرٍ منهم، ويبلغها على من تبعه من أهل المعرفة والإيمان إرشاداً لهم وتنبيهاً.

ثم لما كان امتياز هذه الفرق إنما هو في يوم القيامة والطامة الكبرى، أشار سبحانه أولاً إلى تحقق وقوعها بعد ما تيمن باسمه الكريم:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ القادر المقتدر على إبداء عموم ما بدأ في النشأة الأولى ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بإظهاره من كتم العدم فيها برشِّ أنواره، ومد أظلاله ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ بإعادته في النشأة الأخرى بقبض أظلال أسمائه وصفاته نحو ذاته.

اذكر يا أكمل الرسل للمعتبرين من المكلفين وقت:

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾﴾ العظمى الموعودة وحديث الطامة الكبرى المعهودة من لدنه سبحانه. مع أنه ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا ﴾ حين وقوعها نفسٌ ﴿ كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾﴾ تكذبها، كما تكذب بها الآن. وليس أيضاً لوقوعها حين وقوعها نفسٌ ﴿ خَافِضَةٌ ﴾ تخفضها بالتردد فيها ولا نفسٌ ﴿ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾ ترفعهم بالجزم بها، بل وقعت حين وقعت حتماً بلا ريبٍ وترددٍ، وبلا خفضِ أحدٍ ورفعِ آخر.

اذكر يا أكمل الرسل لمن أنكر وقوعها، وتردد فيها نبذاً من أمَاراتها وأشراطها وقت :

إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ....

﴿ إِذَا رُجَّتِ ﴾ وحُرِّكَت ﴿ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ ﴾ تحريكاً شديداً عنيفاً بحيث انهدمت ما عليها من الأبنية المحكمة والبقاع المشيدة.

﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ ﴾ أي تشتت وتفتت أجزاؤها ﴿ بَسًّا ﴿٥﴾ ﴾ تفتتاً تاماً وتشتتاً كاملاً بحيث اضمحلت أجزاؤها، وتلاشت وصارت كالسويق الملتوت. وبالجملة ﴿فَكَانَتْ ﴾ الجبال التي عليها ﴿هَبَآءً ﴾ هشيماً غباراً ﴿ مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ ﴾ منتشراً منتشراً متفرقاً، بحيث تلاشت هويات ما عليها مطلقاً.

﴿ وَكُنتُمْ ﴾ حينئذٍ أيها المكلفون المعتبرون ﴿ أَزْوَٰجًا ﴾ وأصنافاً ﴿ ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ ﴾ حسب معاشكم في النشأة الأولى:

﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ أي اليُمن والكرامة من الأخيار الأبرار المحسنين بصوالح الأعمال والأحوال ومحامد الأخلاق والأطوار ﴿ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ ﴾ أي ما أعظم شأنهم وإكرامهم وأحسن حالهم بيُمْنهم وسعادتهم الشاملة لهم حسب اتصافهم بصالحات الأعمال، وبالاعتقادات الصحيحة والأخلاق المرضية.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ والشمال أي ملازموا الشآمة والملامة وأنواع الندامة والخذلان، من المفسدين المسرفين، المصرين على أنواع الكفر والفسوق وأصناف العصيان والآثام من مفاسد العقائد ومقابح الشيم والأخلاق

مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾ ....

﴿ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾ أي ما أقبح حالهم وأشد عذابهم ونكالهم وشآمتهم وشقاوتهم المستمرة عليهم بشؤم مكاسبهم ومفاسدهم.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ المبادرون نحو الحق من طريق الفناء، الباذلون مُهَجهم في سبيله إلى الدرجات الإرادية شوقاً إلى لقائه، هم ﴿ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ المقصورون على السبق والحضور مع الله بلا توجهٍ منهم إلى لوازم هوياتهم الباطلة وهياكلهم العاطلة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ السعداء المقبولون هم ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ عند الله، المتنعمون ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ أي منتزهات الوحدة الذاتية التي هي اليقين العلمي والعيني والحقي.

وهؤلاء المقربون الواصلون إلى مقر الوحدة، متفاوتون في القلة والكثرة، والدرجات العلية والمقدمات السنية بالنسبة إلى مسالكهم ومعارجهم، لذلك

﴿ ثُلَّةٞ﴾ أي جماعةٌ عظيمةٌ ﴿مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي من الأمم السالفة، وهم الأبرار الذين تقربوا نحو الحق بتوحيد الصفات والأفعال.

﴿ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ أي جمعٌ قليل بالنسبة إلى الأولين من أمة محمد ﷺ، وهم الذين وصلوا بل اتصلوا إلى الله سبحانه من طريق توحيد الذات، المسقط لعموم الإضافات والكثرات، وهؤلاء أعز وأقل وجوداً بالنسبة إلى الأمم السالفة، لذلك وُصفوا بالقلة، وبالجملة كلهم على تفاوت طبقاتهم في

عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ ....

منتزهات الوحدة متنعمون متمكنون:

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾ منسوجةٍ مشبكةٍ حسب درجاتهم العلية ومقاماتهم السنية.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا﴾ أي على تلك السرر ﴿مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ مع عموم كمالاتهم ومقاماتهم وحالاتهم بلا ترقبٍ منهم وانتظارٍ لهم، ومع ذلك

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ للمؤانسة ﴿وِلْدَٰنٌ﴾ صِباحٌ مِلاحٌ مصوَّرون من حسنات أعمالهم وأخلاقهم ﴿مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾ دائمون مستمرون على تلك الصور الصبيحة المليحة، لا يتغيرون ولا يتحولون منها أصلاً كتغير مِلاح الدنيا.

﴿بِأَكْوَابٍ﴾ يعني يطوفون عليهم بكؤوسٍ وهي التي لا عُرى لها ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ وهي التي لها عرى مملوءةٍ من الماء القراح، المثمر للعلوم اللدنية لشاربيها ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ أي من رحيق التحقيق واليقين الذي

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ ولا يشوشون في تحصليها كالعلوم المكتسبة ﴿وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ ولا يسكرون منها، إلى حيث ينقطع تلذذهم بها من غاية سكرهم.

﴿وَفَـٰكِهَةٍ﴾ كثيرةٍ ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي يختارون وينتخبون لأنفسهم من أنواع المعارف والحقائق والأحوال والمقامات التي تتلذذ بها أرواحهم

وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٞ ﴿٢٢﴾ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴿٢٦﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴿٢٨﴾ ....

من آثار الأسماء والصفات الإلهية.

﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ﴾ يتقوت به أشباحهم ﴿مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ ﴿وَ﴾ لهم أيضاً للخدمة والمؤانسة ﴿حُورٌ عِينٞ ﴿٢٢﴾﴾ مصورةٌ من اعتقاداتهم الصحيحة الراسخة.

﴿كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ المصون في أصداف أشباحهم .

وإنما يُعطون فيها ما يُعطون ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ من الأعمال الصالحة والأخلاق المرضية.

ومن كمال تنعمهم فيها وأمنهم وترفههم ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا﴾ باطلاً من الكلام بلا طائلٍ ﴿وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ على سبيل الإلزام والإفحام.

﴿إِلَّا قِيلٗا﴾ وقولاً من كل جانب ﴿سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴿٢٦﴾﴾ على وجه الترحيب والإكرام، هذا للمقربين السابقين.

﴿وَ﴾ أما ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾ أي أصحاب اليُمن والكرامة وأنواع التعظيم والتكريم. فهم أيضاً متنعمون ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴿٢٨﴾﴾ أي نبقٍ لا شوك له؛ لخلوص أعمالهم وحسناتهم عن شوك المن والأذى، والسمعة والرياء.

وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ ....

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾ أي شجر موزٍ منضدٍ موفور الثمر، مرتبٍ من أسفله إلى أعلاه؛ لإيفائهم وتوفيرهم في كسب الحسنات وفعل الخيرات.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ إلهيٍ لا يتقلص ولا يتفاوت؛ لدوامهم على مواظبة الطاعات، وملازمة العبادات.

﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾ مصبوبٍ لهم أين شاؤوا، وكيف شاؤوا، بلا تعبٍ وترقبٍ؛ لأنهم صاروا في إتيان الأعمال كذلك؛ طلباً لمرضاته.

﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾﴾ مما يتفكه بها أرواحهم وأشباحهم ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ ﴾ منتهيةٍ كفواكه الدنيا.

﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ لتساوي نسبتها إلى الكل بلا تفاوتٍ وتمانعٍ؛ لإتيانهم بصوالح الأعمال والأخلاق على الدوام، بلا قطعٍ ومنعٍ.

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ ممهدةٍ منضدةٍ بعضها فوق بعضٍ؛ لرسوخهم وتمكنهم على الأحكام الإلهية[1] المرتفعة بحسب الحِكم والأسرار المودعة فيها.

ثم قال سبحانه على سبيل الامتنان:

﴿ إِنَّآ ﴾ من مقام عِظَم جودنا إياهم ﴿ أَنشَأْنَٰهُنَّ ﴾ أي أنشأنا لهم أزواجهم اللاتي كن في خجورهم في النشأة الأولى من صالحات النسوان والأعمال والأخلاق ﴿إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾ بديعاً عجيباً.

(١) في المخطوط (وتمكنهم على الإلهية).

فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ

﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ﴾ فيها ﴿أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾ بحيث لم يمسسهن بشرٌ، ولم يتصف بهن أحدٌ.

﴿عُرُبًا﴾ متحنناتٍ لأزواجهن ﴿أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ مستويات السن مع أزواجهن في كمال سن الشباب. كل ذلك ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ من الأبرار المحسنين بالأعمال والأخلاق، المخلصين فيها، ومن هؤلاء في الجنات:

﴿ثُلَّةٌ﴾ جماعةٌ عظيمةٌ ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾﴾ أي الأمم الماضين ﴿وَثُلَّةٌ﴾ عظيمةٌ أيضاً

﴿مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي من أمة سيد المرسلين، إذ طرق الأعمال والأخلاق مشتركةٌ بين الأولين والآخرين، بخلاف طرق الأحوال والمواجيد والمشارب والأذواق.

﴿وَ﴾ أما ﴿أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ والشآمة المتصفون بالشقاوة الأزلية، المنهمكون بالقاذورات الإمكانية ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾ وما حالهم القبيحة الفضيحة هم مخلدون ﴿فِى سَمُومٍ﴾ نارٍ حارَّةٍ مسعرةٍ في غاية الحرقة والحرارة، بحيث تنفذ في مسامات أشباحهم كالريح السموم؛ لنفوذ لوازم الإمكان النافذة من مسامات أصحاب الغفلة والضلال، المنهمكين في اللذات والشهوات

وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ....

البهيمية الموهمة الموقعة لأنواع الفتن والطغيان ﴿وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾﴾ أي ماءٍ متناهٍ في الحرارة بحيث يقطع أمعاءهم لو شربوا منه شربةً بدل ما تلذذوا في النشأة الأولى بمقتضيات الأماني النفسانية والآمال الهيولانية الحاصلة من الجهل المفرط بسرائر التوحيد واليقين في النشأة الأولى.

﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾﴾ حاصلٍ من دخانٍ أسودٍ صاعدٍ من نار الجحيم.

﴿لَّا بَارِدٖ﴾ كسائر الأظلال ﴿وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ نافعٍ أمثالها.

وبالجملة ﴿إِنَّهُمۡ﴾ من شدة سكرتهم وغفلتهم ﴿كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ﴾ في النشأة الأولى ﴿مُتۡرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾ منهمكين في الضلال والشهوات.

﴿وَكَانُواْ﴾ حينئذ ﴿يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ والذنب الكبير الذي هو الشرك بالله والإنكار لتوحيده.

﴿وَ﴾ من شدة إنكارهم بمقتضيات الوحي الإلهي المتعلق بقيام الساعة ووقوع الطامة الكبرى ﴿كَانُواْ يَقُولُونَ﴾ فيما بينهم على وجه الاستبعاد والاستنكار: ﴿أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا﴾ باليةً ﴿أَءِنَّا﴾ بعد ذلك ﴿لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾ مُخرجون من قبورنا أحياءً كما كنا؟!

﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ الأقدمون يُخرجون من قبورهم، مع أن بعثهم وإخراجهم أشد استحالةً وامتناعاً من بعثنا؟!

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾﴾ ....

كلا وحاشا إذ لم يعهد فيما مضى من الأزمنة أمثال هذا، بل ما هي إلا زيغٌ زائلٌ، وزورٌ باطلٌ.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعد ما بالغوا في الإنكار والعناد: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي الأسلاف والأخلاف ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ مجتمعون بكمال قدرة الله وحكمته ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ أي إلى وقتٍ معينٍ، ويومٍ موعودٍ معهودٍ، عيَّنه الله سبحانه في حضرة علمه ولوح قضائه، لابد وأن يقع في ذلك الوقت البتة، بلا خلف.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ بعد اجتماعكم وحشركم ﴿أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾ المصرون على التكذيب والإنكار

﴿لَآكِلُونَ﴾ من شدة جوعكم في جهنم البعد والخذلان بعد خلودكم فيها ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾ أي شجرٍ مسمىً بهذا الاسم، فيكون لفظة «من» الثانية للبيان، والأولى للابتداء.

﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا﴾ أي من تلك الشجرة ﴿ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي بطونكم، مع أنه لا يدفع الجوع بل يزيده، وبعد أكلكم منها ملء بطونكم .

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ أي على الزقوم ﴿مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾﴾ لشدة الحرقة وغلبة العطش، وبالجملة :

فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ

﴿فَشَٰرِبُونَ﴾ من الحميم ﴿شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ مثل شرب الإبل، الذي له داء الهيام، وهو مرض في الإبل شبيه باستسقاء الإنسان.

﴿هَٰذَا﴾ الذي سمعت أيها الفطن المعتبر ﴿نُزُلُهُمۡ﴾ المعدة لهم حين نزولهم في جهنم ﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ والجزاء.

وإذا كان نُزُلهم فيها هذا، فما ظنك بعذابهم فيها، وزجرهم بعد حساب أعمالهم.

ثم خاطبهم سبحانه إظهاراً للاستيلاء التام والبسطة الغالبة الكاملة توبيخاً لهم وتقريعاً فقال:

﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ وأظهرناكم من كتم العدم بمقتضى حولنا وقوتنا ﴿فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ بقدرتنا على الإعادة والبعث أيها الجاهلون المكابرون.

﴿أَفَرَءَيۡتُم﴾ أخبروني أيها المنكرون للبعث والجزاء أنَّ ﴿مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ وتصبُّون في الأرحام من النطف؟!

﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾ وتجعلونه بشراً سوياً صالحاً لأنواع العلوم والإدراكات الكلية والجزئية ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ المقصورون على الخلق والتسوية؟!

ومع شهود هذه المقدورات العجيبة البديعة، كيف تنكرون قدرتنا على البعث والحشر. مع أنا ﴿نَحۡنُ﴾ بمقتضى علمنا وقدرتنا ﴿قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾

وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ....

والأجل بأن عيَّنَّا لموت كل أحدٍ منكم وقتاً معيناً، وأجلاً معهوداً، بحيث لا يسع لكم وقت حلوله لا التقديم منه ولا التأخير ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿ مَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ مغلوبين مِن أحدٍ منكم أصلاً، بأن يغلب علينا أحدٌ بتقديم الأجل المعين المقدر من عندنا أو تأخيره، وإذا قدرنا على تقدير الأجل للموت على الوجه المذكور. قدرنا أيضاً ﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ ﴾ ونحيي ﴿ أَمْثَٰلَكُمْ ﴾ أي أسلافكم الذين ماتوا وانقرضوا أحياءً أمثالكم من العدم، يعني كما قدرنا على إنشاءكم من العدم إنشاءً إبداعياً قدرنا أيضاً على إحياء أسلافكم من القبور بعد ما ماتوا على سبيل الإعادة، بل الإعادة أهون من الإبداع ﴿وَ﴾ بالجملة قدرنا على أن ﴿ نُنشِئَكُمْ ﴾ بعد موتكم ﴿ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي في نشأةٍ وعالمٍ، لا يحيطون به علماً، ولا تفهمونه لخروجه عن طور عقولكم ومقتضاه .

﴿وَ﴾ كيف يتأتى لكم إنكار الإعادة مع أنكم ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُمُ ﴾ جزمتم وأيقنتم ﴿ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ أي قدرنا على الخلق والإيجاد فيها ﴿ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ منها قدرتنا على الإعادة في النشأة الأخرى، مع أن من قَدِر على الإبداء قَدِر على الإعادة بالطريق الأَولى.

﴿ أَفَرَءَيْتُم ﴾ أخبروني أيها المسرفون المفرطون أنَّ ﴿ مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي تبذرون وتطرحون حبة في التراب .

ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾

﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ وتُنبتونه ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ المقصورون على الإنبات بالاستقلال والاختيار بلا مشاركةٍ ومظاهرةٍ. مع أنا ﴿لَوْ نَشَآءُ﴾ ونختار عدم إنباتها ونمائها ﴿لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ أي الزرع الثابت حطاماً يابساً، هباءً هشيماً ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي صرتم حينئذٍ تتعجبون وتتأسفون من يُبسها وضياعها، وليس لكم سوى الحسرة والأسف شيءٌ، بل تقولون حينئذٍ من شدة التضجر والتحزن:

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ مُلزَمون بتضييع البذور وإهلاك النفقة.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ حُرمنا عن بذورنا وأعمالنا وريعنا بالكلية.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ﴾ العذب القراح الفرات السائغ ﴿ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾ وتستروحون نفوسكم به، وتبردون أكبادكم منه؟

﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ أي السحاب الهامر الهاطل ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ بكمال قوتنا وقدرتنا. مع أنا ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ﴾ أي صيَّرناه وبدَّلناه ﴿أُجَاجًا﴾ مرّاً مالحاً ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ وهلا تواظبون على أداء حقوق أمثال هذه النعم العظام أيها المجبولون على الكفران والنسيان.

أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾ تقدحون ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ أي الشجرة التي يتخذ منها الزناد ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾ المستقلون بإنشائها؟

﴿نَحْنُ﴾ اليوم ﴿جَعَلْنَٰهَا﴾ أي النارَ ﴿تَذْكِرَةً﴾ وتبصرةً لأمر البعث والنشر وأنموذجاً من نار القطيعة الجهنمية وعِظةً للمتقين منها؛ ليتزودوا بالتقوى، ويتخلصوا من نيران الهوى ودركات اللظى ﴿وَ﴾ جعلناها أيضاً ﴿مَتَٰعًا﴾ منفعةً عظيمةً ﴿لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ المنزلين في القفراء والبيداء جائعين، خالية بطونهم عن الطعام، فيطبخون بها، ويشبعون فيها.

بالجملة ﴿فَسَبِّحْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ الذي هو أعز وأجل من أن يطرأ عليه شيءٌ من النقائص، أو يحوم حول حماء قدسه شائبةُ العجز والقصور، وإذا كان شأن الحق هذا ﴿۞ فَلَآ﴾ حاجة إلى القَسَم لإثبات عظمته سبحانه وجلالة قدره وقدرته، بل ﴿أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ أي بموارد وقوع نجوم القرآن، ونزولها في قلوب الكُمَّل من أرباب العزائم والعرفان.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القَسَمُ بالقرآن وموارده ﴿لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ وتعرفون قدره ﴿عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ شأنه عالٍ خطرهُ[1] رفيعٌ قدرهُ.

(١) في المخطوط (خطرة).

إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ....

وكيف لا يكون القرآن عظيمَ الشأن رفيعَ القدر والمكان؟!.

و ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ﴾ موضحٌ مبينٌ لطريق[1] الإيمان والعرفان ﴿كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ كثيرُ الخير والنفع لحامليه، وممتثلي ما فيه من الأوامر والنواهي، مَصُونٌ مثبتٌ ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ محفوظٍ مستورٍ عن نظر المحجوبين، ألا وهو حضرة العلم المحيط الإلهي، ولوح قضائه. لذلك ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ ولا يتصف بمقتضاه ﴿إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ عن أوساخ التقليدات والتخمينات، وأكدار الأوهام والخيالات العائقة عن الوصول إلى صفاء مشرب التوحيد، المسقط لعموم الإضافات.

وكيف يمسه غير أهل الكشف والطهارة الحقيقية؟ مع أنه ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ الذي هو في ذاته مقدسٌ عن شوائب النقص وسِماته مطلقاً

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ العظيم الشأن، المنبئ عن محض الحكمة والإيقان ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾ متهاونون متساهلون أيها المسرفون المفرطون؟

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ حظَّكم ونصيبَكم من هدايته وإرشاده ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ جهلاً وعناداً، أتسرفون وتفرطون في الاجتراء على الله وتكذيب كلامه ورسوله المرسل من عنده أيها المفسدون المفرطون؟!.

---

(١) في المخطوط (الطريق).

فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ....

﴿فَلَوۡلَآ﴾ تتذكرون، وهلا تتعظون به، أما تخافون وقت ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ النفس ﴿ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ أي لكلٍ منكم بأمر الله .

﴿وَ﴾الحال أنه ﴿أَنتُمۡ﴾ أيها الحاضرون حول المحتضر ﴿حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ له، ولا تعلمون لحاله، ولا تفهمون ما جرى عليه من سكرات الموت وأفزاعه وأهواله.

﴿وَنَحۡنُ﴾ حينئذٍ ﴿أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ﴾ أي إلى المحتضِر ﴿مِنكُمۡ﴾ وأعلم بحاله وشغله، لا قرب الحلول فيه، ولا الاتحادِ معه، بل قربَ ذي الظل إلى الظل، وذي الصورة إلى الصورة المنعكسة والمرآة[1] ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ وتدركون قريباً لا إليه ولا إليكم، أيها المحجوبون المحرومون، ولا تدركون أيضاً ما يجري عليه من الأهوال .

﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي مضطرين مملوكين مجبورين ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾ أي فهلا ترجعون النفس المخرجة البالغة إلى الحلقوم إلى محلها ولا تمنعونها عن الخروج ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ في دعوى الاستيلاء والاستقلال وعدم المبالاة بالصانع القديم الحكيم العليم، فهلا تدفعون الأرواح إلى الأبدان بعد بلوغها الحلقوم؟!

(١) في المخطوط (المراء).

فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ ....

﴿ فَأَمَّآ ﴾ بعد خروج الروح من البدن ﴿ إِن كَانَ ﴾ المتوفى ﴿ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ السابقين من الفرق المشار إليها في أول السورة.

﴿ فَرَوْحٌ ﴾ أي موته له راحةٌ ورحمةٌ، وإيصالٌ له إلى عالم اللاهوت، وإزاحة زحمةٍ عنه، عارضةٍ عليه، متعلقةٍ إياه من كسوة الناسوت ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ يشمه من فوائح الرحمن ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ دائمِ التنعم والترفه في المقام المحمود والحوض المورود في جوار الخلَّاق الودود.

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ ﴾ المتوفى ﴿ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ ﴾ أي من الأبرار الموصوفين باليُمن والكرامة الموروثة له من الأعمال الصالحة والأخلاق المرضية.

﴿ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ ﴾ يا ذا اليمن والكرامة ﴿ مِنْ ﴾ قِبَل ﴿ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ ﴾ أمثالك، ترحيباً لك وتكريماً.

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ ﴾ المتوفى من أصحاب الشمال والشآمة الأزلية والشقاق الجِبلِّية ﴿ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بيوم الدين ﴿ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ المنحرفين عن منهج الاستقامة، الموصلة إلى دار المقامة والكرامة.

﴿ فَنُزُلٌ ﴾ فله نزلٌ ﴿ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ ﴾ بدل ما لا يتعطش في النشأة الأولى إلى زُلال برد اليقين، ولا يشرب رشحةً وجرعةً من رحيق المعرفة والتوحيد.

﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ ﴾ أي إدخالُ نارٍ عظيمةٍ، بدل ما يتلذذ بالشهوات.

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

وبالميل إلى المحرمات والمكروهات، وبالجملة

﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ الذي ذُكر في حق هؤلاء الفرق الثلاث ﴿ لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾ بالنسبة إلى أرباب الكشف والشهود، المطلعين بمراتب الوجود باليقين العلمي والعيني والحقي

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ أي نزه يا أكمل أرباب الشهود والحضور ذاتَ ربك عن شوب الريب والتخمين، بذكر اسمه العظيم، المستجمع لعموم أسمائه الحسنى وصفاته العليا، فإنك على الحق اليقين في مطلق أسمائه وصفاته.

جعلنا الله ممن اتصف بحق اليقين، وخلص! عن أمارات الريب والتخمين، بمنِّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك القاصد لانكشاف مراتب الوجود بطريق الكشف والشهود والاطلاع على ما فيها من الكفر والجحود والانحراف عن الطريق المعهود الذي نزل بتبيينه الكتب والرسل: أن تتأمل في عموم أوقاتك وحالاتك في هذه السورة العظيمة الشأن، وتعرض على نفسك دائماً أحوالَ الفرق الثلاث المذكورة فيها، وتذكرها عليها، حتى يظهر[1] لك أنك مع مَن أنت من هؤلاء الفرق؟

إما من السابقين المقربين المقبولين؟

أم من أصحاب اليمين الموفقين المحسنين؟

أم من المكذبين الضالين المعذبين؟

وبالجملة: واعبد ربك حتى يأتيك اليقين؟

---

(١) في المخطوط (ظهر).

فهرس الجزء الخامس

